معهد البحوث والدراسات العربية

الرصافي

آراؤه اللغوية والنقدية

الدكتور أحمد مطلوب

[قسم البحوث والدراسات الأدبية واللغوية]

١٩٧٠

الإهـــداء

الى الشاعر الخالد

معروف الرصافى

فى ذكراه الخامسة والعشرين

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

١

شغل معروف الرصافي الدارسين طويلا ، وكتبت عنه بحوث ودراسات كثيرة صورت جوانب حياته وأدبه تصويراً يغبط عليه هذا الشاعر الكبير الذي ملأ دنيا العرب شعراً استنهض الهمم ودعا إلى الثورة والأخذ بأسباب الحياة الجديدة . ولا تكاد المكتبات تخلو من دراسات جديدة كل عام ، ولا تكاد الصحف تتوقف عن نشر المقالات الضافية والتعليقات الطريفة عنه، لأنه كان مثار حركة فكرية واسعة المدى منذ أن ذاع صيته وعرفته المحافل الأدبية والسياسية . وفي بطون الصحف قديمها وحديثها مئات المقالات التي ألقت ضوءاً ساطعاً على حياته وأدبه، وأثارت مساجلات أدبية ظلت تتوهج حتى اليوم .

كان الرصافي — رحمه الله — شاعراً جريئاً ومفكراً لا يرهب الخصوم ولا يخشى الحكام ولا تأخذه في الحق لومة لائم ، وكانت قصائده التي ينشدها في المحافل ، وآراؤه التي يذيعها ، تثير الكثيرين وتدفعهم إلى التأييد المطلق أو الرفض الذي يؤلب عليه الأقلام . وكان — حتى في سنيه الأخيرة — بطلا يقارع الأعداء والخصوم ويرد الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان . ولم يكن في كل ما كتب فظاً غليظ القلب يسعى إلى التشهير الذي اتسم به أعداؤه ، بل كان رحيما يرى أن قومه أسرفوا فيما قالوه وتحاملوا عليه فيما كتبوه ، وأن مقالاتهم تنبع من روح لا تعرف التسامح . وماذا يضيره هذا وهو

المؤمن برسالة السماء كما نزلت على النبي العظيم محمد (ص) لا كما صورها من لبس المسوح وانطلق يعيث في الأرض فسادا ، ويسيء إلى الدين ؟

لقد رموه بالإلحاد وطلبوا من الحكومات نفيه وإلحاقه ببلاد الكفر ، ولكنه لم يلتفت إليهم ولم تثنِ عزمه أقوالهم ، واندفع يكمل رسالته خير أداء ، لأنه مؤمن بالله وملائكته ورسله وكتبه ، ولأنه يعرف نفسه حق المعرفة ، ومن ذا الذي شق قلبه ليعرف مايضمر ويدّخر ؟ يقول :

أيا بغدادُ لا جازتك سحبٌ ولا حلت بساحتك الجدوب
تطاول ساكنوك عليّ ظلماً فضاق عليَّ مغناك الرحيبُ
وكم نطقوا بألسنة حداد يسيل بها من الأشداق حُوب
رماني القوم بالإلحاد جهلاً وقالوا : عنده شك مريب
ألا ياقوم سوف يجد جدّي وسوف يخيب منكم مَنْ يخيب
فمن ذا منكمُ قد شقّ قلبي وهل كشفت لكم فيّ الغيوب
فعند الله لي معكم وقوف إذا بلغت حناجرها القلوب
يقيني شرّ فريتكم يقيني بأنّ الله مطلع رقيب
ولم تخفر لكم عندي ذمام ولكن عادةُ الريح الهبوب

ويجأر بالشكوى بعد أن ضيّق عليه أبناء جلدته ، ويخاطب أمين الريحاني مصوراً موقف قومه منه :

فديتك هل تصيخ فإن عندي شكاة لاتصيخ لها الخطوبُ
إلى كم أستغيث ولا مغيث وأدعو من أراه فلا يجيب
أقمت ببلدة ملئت حقوداً عليّ فكل ما فيها مريب
أمر فتنظر الأبصار شزراً إليّ كأنما قد مرَّ ذيب
وكم من أوجه تبدي ابتساماً وفي طيِّ ابتسامتها قطوب
سكنت الخان في بلدي كأني أخو سفرٍ تقاذفه الدروب

وعشت معيشة الغرباء فيــه ... لأنى اليــوم فى وطنى غريب
وما هــذا وإن آذى بدائى ... ولا هو أمره أمــرٌ عصيبُ
ولكنى أرى أبنــاء قومى ... يدبّر أمرهم مَنْ لايصيب
يُقــدّم فيهم الشريرُ دفعاً ... لشرته ، ويُحتقر الأديب
فهــذا الداء منتشبٌ بقلبى ... وفى قلب العلى منه وجيب
فكيف شفاؤه ومتى يُرجّى ؟ ... وأين دواؤه ؟ ومَن الطبيبُ ؟
وإنْ أكُ قد شكوت فما شكاتى ... إلى ذى خــلةٍ شىء معيب
سأنصب للهواجر حرَّ وجهٍ ... يعود إلى الشروق به الغروب
وأضرب فى البلاد بغير مكثٍ ... أجوب من المهامه ما أجوب
إلى أنْ أستظل بظل قومٍ ... حياةُ الحر عنــدهم تطيب
وإلا فالحيــاة أمَرُّ شىءٍ ... وخيرٌ من مرارتها شَعوبُ

ولكن هل أنكر الرصافى قومه الذين رموه بالإلحاد وأقاموا الدنيا عليه وأقعدوها ؟ وهل خان وطنه الذى لم ير فيه السعادة والحياة الهانئة الوادعة؟ كلا ، لقد أخلص لدينه وعقيدته ، وأحبَّ قومه ووطنه وهو فى أشد العسر والفاقة والضيق ، ومضى يتحدث عن حبه لوطنه فيقول :

إنْ جفتنا بلادُنا فهى حِبٌّ ... ومن الحبّ يُستلذ الجفاءُ
لم نَحُلْ عن عهودنا مذ جفتنا ... بل لهــا الود عندنا والوفاءُ
قد بكينا شجواً عليها ومنها ... وعنــانا سقامهــا والشفاء
كم أردْنا سُخطاً عليها ولكن ... غلب السخطَ فى القلوب الرضاءُ
إنما هــذه المواطن أمٌّ ... مستحق لهــا علينا الولاءُ
إنْ خــدمنا فلا نريد جزاءً ... ومن الأمِّ هل يُراد جزاءُ ؟

ويعبر عن هذا الحب بقوله :

أشربتُ حبَّ بلادٍ مانشأت بهــا
إلا لأدفع عنهــا كل عــداون

أخلصتُ حبي لهــا حتى نسيت به
نفسى وأهلى وأحبابى وخلانى
يا موطناً لستُ منه فى مــوادعة
عش بعد موتىَ عيشَ الوداع الهانى
فكل من فيكَ تعنينى سعادتهم
وكل أبنائك الأعداء إخـــوانى
إنْ سَرَّك الدهر يوماً سرَّنى وإذا
آذاك بالمزعجات الدهـــر آذانى
ما ضرَّنى أنَّ كل الناس تحقرنى
إنْ كنتَ أنتَ جليلَ القدر والشان
وليس ينفعنى عزٌّ ولا شرفٌ
إنْ لم تكن أنتَ ذا عزٍ وسلطان
لو ملكونيك عن قهرٍ بلا ثقةٍ
ما كنتُ غيرَ ظاومٍ فيك خوّان
آليت منذ بلغت الحــلم فى وطنى
أنْ لا أقابل نعماه بكفران
وأن أكون له عــوناً أؤازره
بالنصر أول أنصار وأعوان

ويقول مخاطباً أعداءه اللاهجين بشتمه :

يالاهجين بشتمى فى مجالسهم
ناموا على الأمْنِ فى أحضان غفرانى
لولا ترفّعُ نفسى عن سفاهتكم
أحرقتــكم من لظى هجوى بنيران

جادلتمونى فما أحسنتمُ جـــدلى
حتى بذيتم بذاءَ الماجن الخانى
وخضتم الباطل المبـــدى بنعرته
شـــتى الأقاويل من زورٍ وبهتان
ومن عناء الليالى أنْ يجادلنى
مَنْ ليس يقرع بالبرهان برهانى
بل يترك القـول من عجز ومن خورٍ
إلى التقوّل عن زهـــوٍ وطغيان
تأبى المروءةُ إلا أنْ أخالفـــكم
فالغش ديدانـــكم والنصح ديدانى
وإنّ لى فى إبائى كلَّ شـــائنةٍ
عزماً يؤيده باللهِ إيمانى
ولا أريد قِصاصاً من شتائمـــكم
بل أتبـع العفو عنها بعض إحسانى
وإنّ ذكـرى مساويكم إذا اتقدت
أهرقت منى عليها ســـجْلَ نسيان

وقطع ـ رحمه الله ـ دابر كل تهمة حينما قال فى وصيته : « أنا ولله الحمد مسلم مؤمن بالله ورســـوله محمد بن عبد الله ايماناً صادقاً لا أُرائى فيه ولا أُداجى » . وبذلك اتضحت حقيقته وأصبح الخوض فى عقيدته ووطنيته ضرباً من التكهن الذى تأبى الأقلام الحرة أن تخطه وتأنف الألسنة النزيهة أن تلوكه .

ومن هنا كان لا بدّ أن ينصرف الباحثون إلى جوانب أخرى من حياته الفكرية ما تزال غير مجلوة كأحسن ما يكون الجلاء ، ومعروضة كأحسن ما يكون العرض . وتم للدارسين ما أرادوا وأفاضوا فى الحديث عن شعره

وآرائه السياسية والاجتماعية ، وكتبوا البحوث ودبجوا المقالات ، ولكن آراءه اللغوية والنقدية ظلت بعيدة عن أيديهم ، مبعثرة في الكتب وبطون الصحف التي كادت تذهب بتقادم العهد وكرّ الجديدين .

٢

وحينما كانت محاضرات «النقد الأدبي الحديث في العراق» تأخذ طريقها، اتضحت للرصافي آراء لغوية ونقدية لها قيمتها ، وتجلت خطوطها العامة في « الرصافي - آراؤه في اللغة والنقد » و « الرصافي اللغوي » و « الرصافي الناقد »[1]. وقد كانت هذه البحوث مدعاة للوقوف عند هذه الجوانب من حياته الفكرية والتقاط آرائه المبثوثة في تضاعيف الكتب والصحف ، وعرضها في منهج يوضحها ؛ ويعطيها أهمية ويكسبها حياة جديدة بعد أن كادت تضيع .

لقد عرف الناسُ الرصافيَّ شاعراً عظيماً ولم يعرفوه عالماً لغوياً وأديباً لوذعياً ،لأن معظم الدراسات التي صدرت والمقالات التي كتبت عنيت عناية كبيرة بشعره وآرائه السياسية والاجتماعية . ومن هنا كان لا بدَّ من إظهار هذا الجانب المشرق وعرضه ليدخل الرصافي في الدراسات اللغوية والنقدية الحديثة .

ومن أفضال الأستاذ الكبير الدكتور محمد خلف الله أحمد عميد معهد البحوث والدراسات العربية في القاهرة دعم هذه الدراسات والأخذ بيدها إلى ما فيه الخير والنفع وإنارة السبيل.وكانت دعوته الكريمة مثار هذه الدراسة التي تقدّم نفسها على استحياء لعلها تكون خطوة مثمرة في طريق البحوث اللغوية والنقدية .

---

(١) هذه دراسات وبحوث للمؤلف .

إنّ هـذه الدراسة ليست نتائج بحث مجردة ، وليست فتحاً عظيما ، بل محاضرات تأخذ جدتها وطرافتها من أنها أول ما يكتب فى هذا الموضوع بالتفصيل .

وكان لابدّ من الرجوع إلى حياة الرصافى وآثاره ودراستها ليكون البحث ملماً بجوانب تلقى ضوءاً على آرائه ، وبذلك استوى فى خمسة أبواب يشد بعضها أزر بعض ، وهى :

الباب الأول : حياته ، وفيه كان الحديث عن كفاحه ، وعزلته ، وعقيدته ، وآرائه السياسية .

الباب الثانى : آثاره ، وفيه كان عرض لمؤلفاته وتقسيمها على ستة فصول هى : الشعر ، واللغة ، والأدب ، والتأريخ والاجتماع والسياسة ، والتعليقات ، والمقالات .

الباب الثالث : آراؤه اللغوية ، وفيه كان الكلام على النزعة اللغوية ، والفصحى والعامية ، والاشتقاق والتعريب ، واللغويات .

الباب الرابع : آراؤه النقدية ، وفيه كان الكلام على النزعة الأدبية ، والشعر ، والقوافى والأوزان ، والأسلوب ، وغيرها من الآراء .

الباب الخامس : مقالاته اللغوية والأدبية ، وفيه كان الجمع لأهم ما كتب الرصافى فى اللغة والأدب والنقد، وهى : جمودنا فى اللغة ، واللكنة العامية ، والوصل فى لغة عوام العراق ، والأمثال العامية ، وحديث مع الرصافى ، ونظرة انتقادية فى الأدب ، والشعر ، والشعر والشعراء ، وطبقات الشعراء .

والهدف من ذكر هذه المقالات تقديمها إلى الباحثين العرب فى كل مكان ، واستكمال صورة البحث الذى استمد أصوله منها ، وحفظها فى كتاب واحد بعد أن تفرقت فى الصحف وأصبحت بعيدة عن أيدى الدارسين .

٣

وكان منهج هذه المحاضرات يقوم على كلام الرصافى نفسه قبل كل شيء ولاسيما ترجمة حياته التى كان الحرص فيها عظيما على أن تكون بأسلوبه وعباراته لتبتعد هذه الدراسة عما ذكره الكثيرون ، وتتجنب المزالق التى سقط فيها السابقون . ومن أدرى بالرصافى من الرصافى نفسه ؟

وقد تتجاوز الدراسة هذا المبدأ قليلا وتستعين بما كتبه الثقات من أصحاب الرصافى حينما لا تجد ما يوضح الغموض ويشد الحوادث ويتم الحلقات . وكان الاعتماد فى الحديث عن حياته على :

١ — ما تحدث به الرصافى نفسه فى جلساته وندواته وكتبه وقصائده .

٢ — ما تحدث به إلى الأستاذ كامل الجادرجى فى صيف ١٩٤٤ .

٣ — ما كتبه الأستاذ رفائيل بطى عنه فى كتابه « الأدب العصرى فى العراق العربى » ، وفى الصحف .

٤ — ما كتبه الأستاذ عبد المسيح وزير فى جريدة الاستقلال فى عامى ١٩٣٢ و ١٩٣٣ .

٥ — ما كتبه الأستاذ مصطفى على فى « أدب الرصافى » و « الرصافى- صلتى به - وصيته - آثاره » و « محاضرات عن معروف الرصافى » وما نشره فى الصحف .

٦ — ما كتبه الدكتور بدوى طبانة فى كتابه « معروف الرصافى » .

وكان الاعتماد فى الحديث عن آثاره على مؤلفاته نفسها ، وما أثارت من مساجلات فى الصحف . ولعل أهم ما فيها الاستقصاء والتبويب الذى يقوم على جمع الأشباه والنظائر .

وأما الكلام على آرائه اللغوية والنقدية ، فقد كان الرصافى نفسه يتحدث

عنها وليس للبحث فيها إلا العرض والتوجيه والموازنة. لأن الهدف من هذه المحاضرات إحياء آرائه اللغوية والنقدية وعرضها عرضاً يقوم على منهج واضح وأسلوب جديد . وبذلك كان الرصافي ـ رحمه الله ـ يطل في كل فصل ويتحدث من وراء الغيب حديث الواثق المطمئن الذي تعنيه خدمة أمته ووطنه ، وتقديم ما فيه النفع العميم ، فقد كتب وألف ليخدم المجتمع ، لا لينتفع ويكسب، يقول في وصيته : « كل ما كتبته من نظم ونثر لم أجعل هدفي منه منفعتي الشخصية ، وإنما قصدت به منفعة المجتمع الذي عشت فيه والقوم الذين أنا منهم، ونشأت بينهم فلذا لم أوفق إلى شيء في حياتي يسمى بالرفاهية والسعادة في الحياة » .

ولعل في هذه المحاضرات تجديداً لآرائه في ذكراه الخامسة والعشرين ، ولعل فيها نفعاً للدارسين ، ومن الله العون والتوفيق ؟

الجمعة : ٧ ذو الحجة ١٣٨٩ هـ
الموافق : ١٣ شباط ١٩٧٠ م

الدكتور أحمد مطلوب
كلية الآداب — بغداد

الباب الأول

حياته

الفصل الأول

الكفاح

الأسرة :

كان العراق فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين تحت الحكم العثمانى ، وكان الولاة يتعاقبون على حكمه وربطه بالدولة العثمانية محاولين استرضاء الباب العالى، وكسب ثقة الشعب لتطول مدة حكمهم ولينعموا بخيرات البلاد .

ولم تكن الحياة السياسية والفكرية والاجتماعية تفتح الطريق إلا أمام قلة من أبناء البلد ممن عرفوا بالثراء والجاه والنفوذ ، ولم يكن من السهل اليسير أن يحكم أبناء العراق وطنهم مع ما كانت عليه الدولة العثمانية من ضعف وخور ، ومع ما كان من نقمة عامة على الأوضاع التى كانت تسوء يوماً بعد يوم . ولم تستطع الانتفاضات الكثيرة والحركات التحررية أن تفصم عرى الصلة بين الباب العالى والعراق لتسير بالبلاد نحو التقدم والازدهار . ولذلك كانت الحياة الثقافية فى وضع لا تحسد عليه،وكانت الأمراض والجهل والفقر تفتك بالناس . والسعيد من استطاع أن ينجو منها ويدخل الكتاب والمدارس الحكومية ليسافر الى الاستانة عاصمة الدولة المترامية الأطراف، ويعود حاملا معه فرمان الوظيفة أو المنصب الذى تتوق إليه النفوس .

فى هذه الحياة الخاملة والفقر المدقع والجهل المطبق علت فى أحد بيوت محلة القرغول ببغداد صرخة وليد شاء الله أن يكون من رجال العراق الأحرار

ومن علمائه وشعرائه الكبار . وكان ذلك الوليدُ الشاعر العربى الكبير معروف الرصافى الذى رفع لواء الشعر عاليا ودعا إلى التحرر والانعتاق من نير العبودية الذى كان يطوق الأعناق .

يقول الرصافى متحدثاً عن مولده : « ولدت فى بغداد فى بيت يقع فى محلة القراغول يدعى بيت جاسم القراغولى الذى هو والد والدتى . أما أبى فكان — حسب ما أذكر — عريفا فى الدرك الذى كان يسمى الجندرمة ، ولما كان أبى دائماً فى الوظيفة كان اتصالى به قليلا جداً ، فوالدتى هى التى تعهدت نشأتى » .

ويقول عن سنة ولادته : « حسب تذكرة النفوس التى كانت تدعى بالعثمانية إنى ولدت فى سنة ١٢٩١ هجرى[١] ، وذلك ما كان يدعى بالتاريخ الرومى . ولكنى أعتقد أن هذا التأريخ مغلوط ؛ لأنى سمعت من والدتى تقول أن عمرى كان تسعة أشهر لما أعلن الجهاد ، وتقصد بالجهاد حرب الدولة العثمانية مع الروسيا ، وهذه الحرب التى ذكرتها والدتى وقعت فى سنة ١٢٩٣ — كما تعلمون — فيكون تولدى الصحيح إما فى هذه السنة أو فى سنة ١٢٩٢ . وأعتقد أن الرقم الأخير هو الأصح »[٢] .

وكان ثانى أخوين ولدتهما أمه لم يعش منهما إلا هو ؛ لأن أخاه البكر توفى وهو فى مهد الطفولة ، ولم تلد أمه ولداً آخر بعده[٣] .

ووالده عبد الغنى محمود ، كان عريفاً فى الدرك — الجندرمة — وهو من عشيرة كردية تقطن نواحى كركوك تسمى « الجبارة »

---

(١) حوالى ١٨٧٥م .

(٢) مجلة الثقافة الجديدة العدد ١ ص ٨ (نيسان ١٩٥٤) وشعراء العراق فى القرن العشرين ج ١ س ٥٨ ، وينظر لب الألباب ج ٢ ص٣٢٦ ومعروف الرصافى لطبانه ص٣٥ ومحاضرات عن معروف الرصافى ص ١ والادب العصرى ج ١ ص ٦٩ .

(٣) أدب الرصافى ص ٦٤ .

وتدّعي هذه العشيرة أنها علوية النسب ويسلم لها أهالي المنطقة الشمالية في العراق بذلك . وان صح ادعاؤها فهي عربية الأصل . يقول الرصافي : « أما والدي فكردي الأصل من عشيرة الجبارية التي تسكن ما بين كركوك والسليمانية » (١) .

وكانت صلته بأبيه ضئيلة ، لأنه كان دائما في الوظيفة ، ولذلك يقول — كما مر — « ولما كان أبي دائما في الوظيفة ، كان اتصالي به قليلا جداً فوالدتي هي التي تعهدت نشأتي » . ولكنه — مع ذلك — يبره ويسعى لترقيته، وقد تم له ذلك على يد صديقه رؤوف بن مخلص بك الضابط في الجندرمة فرقاه من رتبة « أونباشي » - نائب عريف - إلى عريف (٢) .

وكان والده متديناً ، حديد المزاج وإذا غضب أخاف ، وإذا ضرب أوجع (٣) ، يقول محمود الفارس الجرباوي - مختار محلة خضر الياس سابقاً - وهو ابن خالة الرصافي : « إن جدي مازوّج أبا الرصافي خالتي إلا لما عرف به من التقوى والصلاح » (٤) وتوفي قبل الحرب العالمية الأولى بقليل .

وأمه فاطمة بنت جاسم ، وهي التي وجهته في الحياة وفتحت أمامه السبل وكانت تقيم - بعد زواجها بعبد الغني - في دار والدها جاسم ، وهي امرأة لها في قلوب أهل محلتها محبة عميقة واحترام عظيم. وكانوا - كما يذكر الرصافي- يتخذونها حكما في أمورهم ، ويعرضون عليها مشاكلهم .

وكان يحبها حبا جما . يقـــول : « كانت مرجعي في كل شيء حتى بعد مجاوزتي العقد الأول من حياتي ، لأني كنت لا أرى أبي إلا قليلا . فهي

---

(١) مجلة الثقافة الجديدة ص ١٢ ، وشعراء العراق ص ٦٣

(٢) الثقافة الجديدة ص ١٨ ، وشعراء العراق ص ٧٠

(٣) جريدة الاستقلال العدد ١٧٩٨ (٢٠ كانون الثاني ١٩٢٣)

(٤) أدب الرصافي ص ٦٦

التي كانت ترسلني الى الكتاب وأنا صغير ، وهي التي كانت تجهز لي كل مايلزم لذلك . أما اليوم فكلما ذكرتها جاشت نفسي بالأحزان ؛ لأني أشعر أنني لم يساعدني الحظ على القيام بالواجب الذي لها عليّ . ولم أستطع أن أقوم ببعض الواجب لها إلا بعد سفري إلى الاستانة فكنت أرسل اليها الدراهم من هناك حتى جاءت الحرب وسقطت بغداد فانقطعت عني أخبارها وتوفيت بعد سقوط بغداد ، ولم يبلغني خبر وفاتها حتى جئت إلى بغداد سنة ١٩٢١ ؛ ولذا أصبح اليوم وأمسي وأنا منها في ذكرى محزنة ومؤلمة جدا »(١)

ويقول المرحوم طه الراوي : « زرته ذات مرة في بيته فلمحت على وجهه امارات الانفعال وآثار الدموع فلم أكتم عنه ما لمحت فقال لي : سمعت قينة إلى جوار منزلي هذا تغني غناءاً شجيا أذكرني البيت الذي كنت أعيش فيه وعلى الأخص أمي التي كانت تحنو عليّ حنواً ما عليه من مزيد ، وقد كانت تتعهدني بالعناية جسما وروحا ، فتعني بنظافة ثيابي وجسمي وتسألني عما كنت أقرأ في الكتّاب والمدرسة ، وكانت — رحمها الله — لا يقر لها قرار حتى تراني إلى جوارها .

ولا أزال أذكر لها اهتمامها بمطعمي وملبسي وكل ما يدور حول تهذيبي وتعليمي . ومهما تطاولت بي الأيام فإني لا أزال أذكر عيشتي تلك معها وأحن إليها . ولما رجعت إلى بغداد بعد طول الغيبة — وقد انتقلت إلى جوار ربها — لم أقوَ على رؤية البيت الذي كنا نعيش فيه ، بل لم أستطع سلوك الطريق الذي يتصل به »(٢)

(١) جريدة الاستقلال العدد ١٧٩٨ (٢٠ كانون الثاني ١٩٣٣ م ، ٢٣ رمضان ١٣٥١ هـ) ، وينظر أدب الرصافي ص ٦٥

(٢) مجلة عالم الغد العدد ٩ ص ٧ (١ نيسان ١٩٤٥) وذكرى الرصافي للرشودي ص ٥

وقد عبّر الرصافى عن هذا الحب العميق والشوق العظيم فى شعره ، فقال فى قصيدة « ليلة فى دمشق » (١) بعد أن تحدث عن أرقه بالسرور وطربه من الصوت الرخيم الذى يجىء إليه من غرف القصور :

أصغيتُ منقطعاً إليه عن المواطنِ والعشيرِ
فحسبت نفسى فى الجنان بغير ولدانٍ وحورِ
وطفقتُ أدّكرُ العراق فعاد صفوى ذا كدورِ
فرجعت عن ذَاكَ السماع وغبت عن ذاك الشعورِ
وذكرت مَنْ تبكى هناك علىّ بالدمع الغزيرِ
تستوقف العجلانَ ثَمَّةَ بالرنين عن المسيرِ
وتقول مِنْ مَضض الفراق مقال ذى قلب كسيرِ
أبنىّ سرْ سيرَ الأمان من الطوارق فى خفيرِ
يا أمّ لا تخشىْ فإنّ الله يا أمى مجيرى
ودعى البكاء فإنّ قلبى من بكائك فى سعيرِ
أعلمت أنى فى دمشق أجرّ أذيال السرور
بين الغطارفة الذين تخافهم غِيَرُ الدهورِ
من كلّ وضاح الجبين أغرّ كالبدر المنير
حرّ الشمائل والفعائل والظواهر والضمير

وقال فى قصيدة « ضلال التأريخ » (٢) التى نظمها بعد أن فارق أمه زمناً طويلا وكان قد غادر الآستانة بعد هدنة الحرب العالمية الأولى متجها نحو العراق ، فعسر عليه الوصول إليه فأقام فى الشام . وأودع قصيدته هذه حنينه إلى بغداد وشوقه إلى أهلها وذكراه لأمه (٣) :

---

(١) ديوان الرصافى ٢٦٢ وتنظر جريدة الاستقلال العدد ١٨٠٤ (٢٧ كانون الثانى سنة ١٩٣٣ م ، ٣٠ رمضان سنة ١٣٥١ هـ) .

(٢) الديوان ص ٣٥٦ .

(٣) ينظر محاضرات عن معروف الرصافى ص ٣ ، وجريدة الاستقلال العدد ١٨٠٤ ،

لعمرُك أقصانى الزمانُ المفرقُ
فهل أنا من بعدِ التشاؤمِ مُعْرِقُ
خليلىَّ هل مَنْ بالرصافة عالمٌ
بأنى إلى مَنْ بالرصافة شيّقُ
بلاد إذا ما هبت الريحُ نحوها
تمنيّتُ لو أنى بهـا أتعلقُ
أبيتُ على شَوْقٍ وقلبىَ موثقٌ
بهمّى ، ودمعى فوق خدىَّ مُطْلَقُ
إذا ماتذكرتُ العجوزَ بكيتُها
بدمعٍ من الأهدابِ تطفو وتغرقُ
وما شَرَقى بالدمع يا أمِّ وحدَه
ولكنْ بروحى عند ذكراكِ أشْرقُ
ويهفو بقلبى الشوقُ حتى كأنما
تخطّفه من بين جنبىَّ سَوْذَقُ(١)
فيا أمِّ صَبْراً إنَّ لابنك همةً
إلى المجد ترمى أو إلى المجد تسبقُ
تضايق عنها الدهرُ مستعظماً لها
وأهلوه عنها يا أميمة أضيقُ
أكلّف منها الدهرَ مالا يُطيقه
فليس بعارٍ أنى فيك مخفق
لقد صَغُرت بغدادُ عن أن تضمها
وما وسعتها بعد بغداد جلقُ

---

(١) السوذق : الصقر أو الشاهين .

هذه حقيقة أسرته كما صورها في أقواله وأشعاره ، وكانت قد أثيرت زوبعة استمدت كلماتها مما أشار اليه العلامة طـه الراوي بعد وفاة الرصافي ، قال — رحمه الله — : «كان الرصافي — رحمـه الله — قليل التحدث عن نفسه وأسرته ، وإذا أراد محدثه أن ينزع منه شيئاً من هذا القبيل كان عليه أن يستعمل اللباقة والمداورة للحصول على بعض مايريد ... ... أما أصله وأهله فلا يتحدث عنهما إلا إذا جذبه الحديث إليهما جذبا فيضطر إلى الإيماء والإلماع دون التبسط والإسهاب ... ... ومن قال لك إنّ أباه من أصل كذا وأمه من أصل كذا فقد أبعد ، فإني على وثيق صلتي به لم أسمع منه حرفا واحداً يشير الى هذه الجهة »(١) .

وأثارت هذه الكلمات بعضهم ، فكتب الراوي موضحاً : «جاء في كلمتي التي كتبتها في مجلة عالم الغد الغراء تحت عنوان «صديق الرصافي» عبارة : « ومَن قال لك إنّ أباه من أصل كذا وأمه من أصل كذا فقد أبعد». فذهبت الظنون في تفسير هذه العبارة كل مذهب ، وعلى هذا جئت أوضح المقصود منها .

صحبت الرصافي — عليه الرحمة — زمناً طويلا لم أسمع منه كلمة واحدة تدور حول هذا الموضوع ، وكل ما كنا نفهمه منه في أثناء المحاورة والمطارحة أنه عربي المحتد . يؤيد ذلك ماجاء منتشراً في شعره من التصريح بما يقضى بعروبته مثل قوله :

عهدُتكَ شاعر العربِ المجيدا   فما لك لا تطارِحنا النشيدا

وقوله :

ماضرّنى غير أني اليومَ من عَربٍ
لا يغضبون لأمرٍ ليس يُرضيني

---

(١) مجله عالم الغد العدد ٩ ص ٧ وما بعدها (١ نيسان ١٩٤٥) وذكرى الرصافي

تالله ماضاع حق هكذا أبداً
لو كنت من عجم صهب العثانين

على أني سمعت بعد نشر هذه الكلمة ممن لا أشك في صدقه أنه سمع من الرصافي نفسه في أواخر أيامه يذكر أن أباه من عشيرة الجبارة الساكنة بين كركوك وجمجمال، قال الرصافي: «وهذه العشيرة ينتسب أبناؤها إلى الهاشميين فإذا كان الجباريون سادة فأنا سيد» .

هذا نص ماورواه لي الصديق الصادق ، ومن هنا نفهم أنَّ مَن أراد أن يعد الرصافي — عليه الرحمة — في العرب قال : إن الجبارية قوم من الهاشميين، يعترف لهم جيرانهم من الأكراد بذلك ، والناس مأمونون على أنسابهم»[1].

وكان هذا القول دافعاً إلى أن يقول الدكتور بدوى طبانة في الطبعة الأولى من كتابه «معروف الرصافي»[2] : «فليس لدينا خبر مأثور عن ماهية البيت الذي ينتمي إليه شاعرنا ومن يوثق بروايته من الرواة ومن كسب هذه الثقة من معاشرة الرصافي وصحبته أمداً غير قليل لا يجزمون بمعرفة أكيدة عن حقيقة الأسرة التي ينتمي إليها الرصافي . فهذا عالم جليل صحب الرصافي أكثر من ربع قرن صحبة الأخ بله الصديق يقول ...» . ثم ينقل كلام المرحوم الراوي السابق ، ويقول معقباً عليه : «ونستطيع أن نستخلص من هذه العبارات أن معروفاً نشأ في أسرة غير مذكورة ، فهذا الذي صحبه أكثر من ربع قرن لم يعرف عن شاعرنا شيئاً عن أبيه ، ولا شيئاً عن أمه . ويخلص من ذلك كله إلى الجزم بأن من قال : «إن أباه من أصل كذا وأمه من أصل كذا فقد أبعد»[3].

---

(١) مجلة عالم الغد العدد ١٠ ص ٢٣ (١٦ نيسان ١٩٤٥ م)
(٢) ص ٢٧ .
(٣) ص ٢٨ (الطبعة الأولى) وص ٣٦ (الطبعة الثانية) .

ورد الأستاذ مصطفى على هذا الحكم وقال: «أما أنا فعندي الخبر المأثور، وأستطيع أن أجزم بمعرفة أكيدة عن حقيقة الأسرة التي ينتمي إليها الرصافي وماهيتها، وأنا ممن صحبه أمداً غير قليل»[1] . وذكر الأخبار المتصلة بنسب الرصافي وأمه وأبيه، وقد استفاد منها الدكتور بدوي في طبعة كتابه الثانية[2].

ولكن أخباره وحياته كشفت بوضوح يوم نشرت مجلة الثقافة الجديدة[3] والدكتور يوسف عز الدين[4] ماتحدث به الرصافي للأستاذ كامل الجادرجي في صيف ١٩٤٤ م، ولم يبق أمام الباحثين ما يختلفون فيه.

الخلق :

تحدث الذين عاصروه وعاشوا معه عن خلقه، فقال الأستاذ رفائيل بطي : «درجت على تصور الرصافي رجلاً غض الشباب ، نحيف القوام ، رقيق الملامح ، أنيق الملبس، يتكلف الحركة والكلام في إيقاع خاص وحركة موزونة . ولعلي كونت هذه الصورة في ذهني عن الأديب الموهوب من ملامح شعره المتسمة بالصقل والذوق السليم والرأي المتئد وما وقع في يدي منه أكثر مما ضمنته كتب الأدب المدرسية . فإذا بي أمام رجل جبار في هيكله ، أسمر اللون ، أسود الشعر ، عريض المنكبين ممتلىء الجسم ، بادىء الخشونة ، ليس في ثيابه ما يدل على عناية واهتمام .

ويحسن أن أروي بهذا الصدد أن الفريق الدكتور أمين المعلوف باشا العالم

---

(١) أدب الرصافي ص ٥٥ .

(٢) ص ٣٦ وما بعدها .

(٣) العدد الأول ص ٦ــ٢٣ (نيسان ١٩٥٤ م) .

(٤) شعراء العراق في القرن العشرين ج ١ ص ٥٦ــ٧٩ .

والمؤلف الشهير حدثني قائلا : لما رأيت الأستاذ الرصافي يمشي في الشارع في أرض الشام حسبت نفسي أنظر إلى حافظ إبراهيم شاعر النيل . ولما أتيح لي أن أتعرف عليه وأجالسه واسمعه ينشد وجدته مشابها بحافظ في شكله وأطواره وفي كثير من منازعه[1] » .

وقال عنه ـ أيضا ـ : « عرفته بشعره قبل أن أعرفه بشخصه فكنت أتخيله فتى نحيفاً خفيف الحركة كثير الكلام ، حتى أسعدتني الأيام بلقياه ومجالسته فإذا به رجل كبير الجثة ، متين العضل ، طويل القامة ، يزينه الوقار وتعلوه المهابة[2] » .

وقال الأستاذ عبد المسيح وزير : « يكاد الرصافي يحسب جباراً في جسمه الضارب لون أديمه إلى السمرة ، فهو واسع الصدر ، بطيء النفس ، عريض المنكبين ، ممتليء الجسم ، مفتول العضل ، متين البنية . ولولا متانة بنائه لانهار هيكله المرسوم منذ أمد بعيد ، نظراً إلى إفراطه لا سيما في سابق حياته في كثير من الأمور التي تقتضي الاعتدال في المعيشة للمحافظة على عافية البدن . وفي أعلى جسمه حدب طفيف لا يكاد يرى .

ورأس الرصافي متناسب مع جسمه ، وهو مائل إلى شكل المخروط ؛ لأن الهامة فوق عينيه أضيق من قسمها الأسفل ، وجبهته ضيقة ، وشعر رأسه أسود حالك سبط غير أجعد ، ولم يخطه الشيب حتى الآن[3] ، وكث مقصوص لم يتساقط منه شيء تساقطاً طبيعياً مع أنه في أواخر العقد السادس من عمره . وهو خفيف الحاجبين ، حليق الذقن والعارضين ، ومقصوص الشاربين اللذين تسرب إليهما الشيب ، ولكن شعر بدنه ناعم قليل ، أنفه

---

(١) ذكرى الرصافي ص ٨٣ — ٨٤

(٢) سحر الشعر ص ٨٤

(٣) كان ذلك عام ١٩٣٢ م .

دقيق صغير بالنسبة إلى جسمه وقاعدته نازلة عند مفرق حاجبيه ، فيكاد الأنف يؤلف مع حدّ الحاجبين الأسفل زاوية حادة[1]. وعيناه سوداوان غير صافيتين تشوب بياضهما حمرة خفيفة، ولكن نظره قوى فهو لا يستعمل النظارات وهو فى هذا العمر — وربما لن يستعملها فى باقى عمره الطويل — وإذا أرسل رائد الطرف فى جلوسه وسيره أرسله فوق رؤوس الناس والأشياء بعيداً فلم يعلم مدى بصره أحد غير نفسه العميقة . وفمه معتدل السعة وله زاويتان ظاهرتان الظهور كله وشفتان متوسطتا الرقة تتحركان أحياناً حركة جد خفيفة وليس فى ذقنه كل المتانة الدالة على الصلابة وشدة المراس . ويداه كبيرتان ناعمتان ممتلئتان وقدماه كذلك كبيرتان فتحملان حملهما الباهظ بسهولة[2] » .

الثقافة :

تحدث الرصافى عن دراسته الأولى واهتمام أمه بها ، فقال : « كانت والدتى دائماً تحب أن ترانى أذهب إلى المدرسة ، ولا أعلم السبب لهذا الدافع مع أن البيئة التى كنا نعيش فيها لم تكن توحى ذلك ؛ لأنها كانت بيئة فقراء وأصحاب صنائع . فأولاد خالى الذين كانوا يعيشون معنا فى البيت كانوا صناعاً فى سوق الأحذية — اليمنيات — فأرسلتنى والدتى إلى أول مدرسة قريبة من دارنا ، وكانت القائمة بالتدريس فى هذه المدرسة امرأة لا أتذكر اسمها حتى ولا صورتها ؛ لأننى أرسلت مبكراً جداً إلى هذا المكتب ، والظن الغالب أنى كنت فى الثالثة من عمرى . ولا أتذكر أنى تعلمت شيئاً فى هذا

---

(١) قال الأستاذ مصطفى على معلقاً على هذه العبارة : « أجل ، ان فى هذه الناحية انخفاضاً ، وأن فى أرنبة أنفه شمماً وارتفاعاً ، ولكن هذا الانخفاض لم يبلغ أن يكون قريباً من زاوية حادة قط » . (الرصافى — صلتى به ص ٢٦) .

(٢) جريدة الاستقلال العدد ١٧٥٦ (٢ كانون الأول ١٩٣٢ م ، ٣ شعبان سنة ١٣٥١ هـ) .

الكتّاب . وبعد ذلك انتقلت إلى مدرسة فى الحيدرخانة كانت تدعى مدرسة الملا بايز ، وهى بالحقيقة عبارة عن ساحة مسقوفة ، فى جانب منها يجلس الملا بايز وهو شيخ كبير فى رأسه عمامة ونحن التلاميذ مبثوثون فى تلك الساحة ونجلس على الحصير وفى يد كل واحد منا كتاب فى حجره . وبما أن الملا المذكور كان عاجزاً عن القيام فقد وضع بجنبه قصبة طويلة مثل الرمح وكلما كان يريد تأديب أحدنا مدّ إليه القصبة . وقد تعلمت الحروف الهجائية فى تلك المدرسة بكتاب يدعى «جزء يا فتاح» فأكملت هذا الجزء الذى لم يكن يحتوى على غير الحروف الهجائية ، ثم انتقلت إلى مدرسة فى محلة الميدان تدعى مدرسة « منيف أفندى » . ومنيف أفندى هذا كان موظفاً لدى الحكومة بوظيفة كتابية ، وكان يأتى كل يوم إلى المدرسة فيكتب إلى التلاميذ الذين يكتبون سطراً نموذجياً يدعى بالمشق ، وهذا السطر ينقسم إلى قسمين : قسم بالقلم الثلثى وهو يشتمل على كتابة الحروف الهجائية ، والقلم النسخى يشتمل على سطر نموذجى باللغة التركية يمشق عليه التلميذ حتى يملأ تلك الصحيفة . هذه هى وظيفة منيف أفندى فى المدرسة .

وهناك شخص آخر فى المدرسة يدعى السيد أحمد وكان أعرج ، وهو المدرس الدائم فى هذه المدرسة ، وكان هذا يدرسنا القرآن ، وقد أتممت القرآن أى ختمته فى هذه المدرسة . ولما أنهيتها كان عمرى حوالى التسع أو العشر سنين أو أقل من ذلك . فعلى كل حال كان عمرى حينما انتهيت من هذه المدرسة دون العاشرة » .

وتحدث عن هذين المدرسين فقال : « لم يكن لى اتصال بهذين المدرسين اتصالا مباشراً ؛ لأن الذى كان يدرسنى هو أحد التلاميذ وهو متقدم علىّ فى الدروس . ولا أذكر أننى قرأت شيئاً على يد السيد أحمد مباشرة إلا يوماً واحداً وهو يوم ختمى للقرآن فجلست أمامه والقرآن على الرحلة أمامى وقرأت آية من سورة البقرة وهى الآية التى فيها : «وختم الله على قلوبهم ...»

فلما وصلت إلى تعبير : « ختم الله على قلوبهم » انهالت أيدى التلاميذ على رأسى وأخذوا منه الطاقية وذهبوا بها ركضاً إلى والدتى إشارة إلى أنى ختمت القرآن » .

وقال بعد ذلك : « ثم ذهبت إلى مدرسة الحاج حسن الأفغانى الكائنة فى مسجد نجم الدين[1] الواقع اليوم تجاه النادى العسكرى الحاضر ، فهذه المدرسة كان فيها شيء من الانتظام ، وهى تحتوى على ساحة كبيرة مظللة بالحصران كالسقيفة . وفى هذه المدرسة أن التلاميذ لم يكونوا يجلسون على الأرض كالمدارس الأخرى ، بل كانوا يجلسون على تخوت شبيهة بالرحلات التى تستعمل فى المدارس الآن . فكنا جميعاً نجلس على هذه التخوت ، وكل واحد منا قد وضع القرآن أمامه مفتوحا والحاج حسن يقف أمام الصفوف وبيده القرآن أيضا ويقرأ بصوت عالٍ ونحن نتبعه بأصوات عالية أيضا ، فالمار بالطريق كان يسمع ضجيج التلاميذ فى القراءة، إلا أن التلاميذ كانوا كلهم يقرأون على لهجة واحدة وبصوت واحد .

أما الدرس الثانى فى هذه المدرسة فكان الكتابة ، إذ كان مع الحاج حسن رجل آخر يدعى الخلفة ، وهذا يقوم بتعليمنا الكتابة ، يكتب لنا سطوراً فيعطى لكل تلميذ سطراً المشق للكتابة عليه ، وكان أحيانا يملى علينا بعض الحكميات والأمثال ونحن نكتبها ، وبعد الكتابة كان يصحح فرداً فرداً ما كتبناه .

وهذه المدرسة كانت مخرجا للمدرسة الرشدية العسكرية . وعلى هذا الأساس تخرجت فى هذه المدرسة مع (٢٠) تلميذاً تقريباً وذهبنا إلى المدرسة الرشدية العسكرية فامتحنونا بالقراءة والكتابة فقط وأكثرنا نجح ، وكنت

(١) هو نجيب الدين السهروردى ، كما ذكر الأستاذ محمد بهجة الأثرى .

أنا من بين الناجحين فدخلت المدرسة الرشدية ، وكان عمري حوالي الإحدى عشرة سنة تقريباً » .

ويصف هذه المدرسة فيقول : « ودخولنا في هذه المدرسة كان بالنسبة إلينا حياة جديدة ، فالملبس كان يختلف فيها عن المدرسة الأهلية كمدرسة الحاج حسن ، حيث هناك الأزياء كانت مختلفة وأهلية أما في هذه المدرسة فكانت الأزياء موحدة ، وهي عبارة عن البدلة الأفرنجية مع الطربوش .

أما الإحساس الذي غمرنا نحن ووالدتي فكان عظيما إذ أن والدتي فرحت فرحاً عظيما لدخولي مدرسة حكومية ، ولأن زيي أصبح زي « الأفندية » وأنا — أيضا — شعرت بسرور عظيم لهذا التغيير في مجرى حياتي . وهذه المدرسة كانت تحتوي على أربعة صفوف فنحن دخلنا في الصف الأول بطبيعة الحال . وكان التدريس فيه بسيطا فهو عبارة عن قراءة وإملاء وكتاب ديني يدعى « علم الحال » وشيء بسيط من الحساب لايتجاوز الأعمال الأربعة كالجمع والطرح والضرب والتقسيم ، وكتاب آخر يقوم مقام القراءة يدعى « أسماء تركية » .

وفي هذه المدرسة كان التدريس باللغة التركية ، وأغرب شيء مرّ عليّ في هذه المدرسة هو ماشعرت به بعد خروجي من المدرسة من التعجب لنجاحي في صفوف المدرسة الأربعة واجتيازي الامتحانات سنة بعد سنة مع إني كنت أجهل اللغة التركية إلا شيئاً قليلا منها ، فكنت أتعجب من نجاحي ولكنني كنت أزيل هذا التعجب لأني كنت أحفظ الدروس وأجتاز بها الامتحان حفظا فكان النجاح يستند إلى الحفظ لا إلى الفهم .

وكنت أمقت هـذه المدرسة مقتاً شديداً ، لأنها كانت تابعة إلى نظام شديد كل الشدة ، فالتلميذ لا يتمكن من أن يشغل نفسه بشيء خارج عن الدرس مطلقاً ، وهذا النظام لم نألفه في المدارس الأهلية السابقة . والحقيقة

كان أحد المعلمين وهو يدعى سعيد العزاوى شديداً جداً فكان يضربنى ضربا مبرحا، فلهذه الأسباب كنا نحن التلاميذ نفرح فرحا لامثيل له عند خروجنا يوم الخميس من المدرسة ، لأننا لانعود إليها فى الغد ، كما أننا كنا نشعر بغم وحزن مساء الجمعة لأننا كنا مقبلين على السبت الذى فيه نذهب إلى المدرسة.

وقد سقطت فى الصف الثالث من هذه المدرسة ، وقد رسبت فى درس الحساب ، ذلك العلم الذى لم أتعلمه حتى الآن ، ولهذا السبب خرجت من المدرسة المذكورة فالتحقت بإحدى المدارس العلمية وكانت وقتئذ فى الجوامع وهى مدرسة الحيدرخانة التى كان يقوم بتدريسها شكرى أفندى الآلوسى . أما كيف التحقت بهذه المدرسة ومن الذى أرشدنى إليها فلا أتذكر ذلك مطلقا . وعندما دخلت فى هذه المدرسة كان عمرى حوالى الـ (١٢) سنة ، ولم أكن أعرف من اللغة العربية شيئا عدا قراءة القرآن الذى تعلمته فى الكتاتيب . وقد تركت الزى القديم أى زى الأفندية ، ولبست العمامة والعباءة »[١] .

وبعد هذه الفترة تبدأ مرحلة جديدة من حياته الفكرية وهى الاتصال بالأستاذ محمود شكرى الآلوسى الذى كان علامة عصره . وقد درس عليه كتاب الأجرومية وقطر الندى وألفية ابن مالك، وكان يهتم به كثيراً ويشجعه. يقول : « كان يعطينى كل فرصة لأجل الاستفادة منه ، فلم يكن يضجر من سؤالاتى واستفهاماتى المتكررة . والحق كان شكرى أفندى من المتضلعين فى العلوم العربية من صرف ونحو وبلاغة وبيان وعروض وغير ذلك من علوم العربية »[٢] .

---

(١) مجلة الثقافة الجديدة العدد ١ ص ٨ وما بعدها ، وشعراء العراق فى القرن العشرين ج ١ ص ٥٨ وما بعدها .

(٢) مجلة الثقافة الجديدة ص ١٤ ، وشعراء العراق ٦٥

وكان الرصافى فى هذه السنوات يسكن فى غرفة من غرف جامع الخاتون، وقد وقع فى هذه الغرفة حريق سبب له الانتقال إلى جامع الحيدرخانة ، وبذلك أصبح قريباً من أستاذه يلازمه ليل نهار ولا يكتفى بالاتصال به فى الجامع بل كان يذهب إلى داره ويجلس مع الجالسين فى مجلسه ، ويصغى إلى ما يدور فيه . والمرحوم الألوسى هو الذى حبَّب إليه دراسة علوم العربية ونظم الشعر الذى بدأ به حينما كان يقرأ ألفية ابن مالك . وكان يعرض أشعاره عليه فيجد عنده تشجيعاً ورعاية واهتماماً عظيما .

ووفى لأستاذه الألوسى ورثاه بقصيدته « واشيخاه »[1] التى يقول فيها :

أزمعتَ عنا الى مولاك ترحالا
لما رأيتَ مُناخ القوم أوحالا
رأيتنا فى ظلامٍ ليس يعقبه
صبح فشمرْت للترحال أذيالا

ويقول :

محمود شكرى فقدنا منك حَبْر هدى
للمشكلات بحسن الرأى حلالا
قد كنتَ للعلم فى أوطاننا جبلاً
إذا تقسَّم فيها كان أجبالا

ثم يقول :

---

(١) الديوان ص ٣٠٤ - ٣٠٥

لأشكرنّك يا شكرى مدى عُمُرى
وأبكينّك أبكاراً وآصالا
فأنت أنت الذى لقنتنى حكماً
بها اكتسيت من الآداب سربالا

وبقصيدته « فى موقف الأسى »[1] التى يقول فيها :

لمن تركتَ فنون العلم والأدب
أما خشيت عليها من يد العطبِ
تلك المدارس قد أوحشتها فغدت
خلواً من الدرس والطلاب والكتب

هذا موقفه من أستاذه ، ولا ندرى كيف اتهم بالعقوق ، جاء فى افتتاحية « الناشئة الجديدة »[2] : « وعقّ أستاذه العلامة الألوسى الذى التقطه من الطرقات ثم رباه فى جامع الحيدرخانة بمال المتصدقين وعلمه ما يعيش به فكان أول عمل عمله بعد آن اشتد ساعده أن هجاه هجاءاً مقذعاً فدل بذلك على أنه ناضب ماء الوجه ، كوّن فى طبعه اللؤم وجبلت طينته من الصغارة ، وجرى على لسانه قبيح البذاءة » .

ودرس كتاب « مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب » على الشيخ عباس القصاب فى جامع الشيخ صندل بجانب الكرخ ، فى الوقت الذى كان يواصل الدرس عند المرحوم الألوسى ، ويدرس الفقه على الشيخ عبد الوهاب أفندى النائب فى جامع الخاتون الكبير الواقع فى محلة عباس أفندى أو قنبر على.

واتصل بالشيخ قاسم القيسى ودرس عليه بعض فروع العلوم الدينية ،

---

(١) الديوان ص ٣٠٦ ـ ٣٠٨ .
(٢) العدد ١٤ (٣٠ تشرين الثانى ١٩٢٣ م) .

وقد أنكر ذلك بعضهم ورد ماذكره الأستاذ طه الراوي[1] ، ولكن الراوي - رحمه الله - أوضح ما كتبه فقال : « لاجدال في أن الأستاذ الرصافي - عليه الرحمة - قرأ على الشيخ قاسم القيسي - حفظه الله - بعض فروع العلوم الدينية وما يتصل بها ، من ذلك كتاب الهداية في الفقه الحنفي وكتاب الولدية في آداب البحث . ذكر لي ذلك الشيخ قاسم نفسه . وقد أرسل الأستاذ الرصافي قبل بضع سنوات بقصيدة[2] إلى الشيخ القيسي يذكر فيها هذه التلمذة ويتذكر عهدها جاء فيها :

إذا قاسم القيسيّ مـرّ بخاطري
تذكرت عهداً في الصبا مرّ كالحلمِ
تذكرته إذ كنت للعلم طالباً
بفكري وسعيي مجهد النفس والجسم
فقد كنت أحياناً أزور فناءه
وانتابه للرشف من منهل العلم
وكم زرته في جامع الفضل راجياً
شفاءاً لما في مدنف الفهم من سقم
إذا جئته يوماً نثلت كنانتي
فثقف منها كل ما اعوجّ من سهمِ
وعُدت صحيح الفهم منه قد انجلت
بلقياه عني غمة الغرم بالغنمِ[3]

هؤلاء ، أشهر الأساتذة الذين تتلمذ عليهم وقد تركوا في نفسه أثراً

---

(١) مجلة عالم الغد العدد ٩ ص ٨ (١ نيسان ١٩٤٥) وذكرى الرصافي ص ٦

(٢) ينظر ديوان الرصافي ص ٥٦٠

(٣) مجلة عالم الغد العدد العاشر ص ٢٣ (١٦ نيسان ١٩٤٥ م)

كبيراً وفى فكره علما غزيرا . أما العلوم التى درسها فهى كما يقول : «درست العلوم الآتية : الصرف والنحو والبلاغة والبيان والعروض وكتب العقائد والكلام وأصول الفقه والحساب أيضاً فى المدارس الدينية»[1] . وكان لهذه العلوم أثر عظيم فى تكوينه اللغوى والأدبى ، وظل — رحمه الله — يعتمد على ما قرأ ودرس فى صباه اعتماداً كبيرا .

فى التعليم :

بعد أن أنهى دراسته فى المدارس الدينية وبلغ الخامسة والعشرين من عمره بدأ يصبو إلى الوظيفة التى يسدّ بها رمقه ويحفظ ماء وجهه وكرامته وعزته التى كانت أغلى ما يملك . وقد تحدث عن توظفه فقال : « وبعد أن أكملت دروسى فى المدارس الدينية وتجاوز عمرى الـ (٢٥) عاماً عينت معلماً لأول مرة فى مدرسة الراشدية[2] ، وهى قرية تقع شمالى بغداد على بعد عشرة كيلو مترات من بغداد ، فبقيت هناك سنة واحدة تقريبا ، ثم عينت معلماً ثانياً فى مدرسة ابتدائية تدعى مدرسة جامع على أفندى .

وبعد أن بقيت فى هذه المدرسة أقل من سنة شغرت معلمية فى مندلى فقدمت امتحاناً فنجحت ، ولكن كان من جملة الطالبين بها رجل من سكان مندلى فعيّن نتيجة التوسط ، ولكن الوالى لم يشأ أن يحرمنى من وظيفة مماثلة لها ، فأمر مدير المعارف أن يجد لى محلا فاقترح تعيينى معلماً للغة العربية فى مدرسة الإعدادى الملكى فعينت بتلك الوظيفة وكان ذلك حوالى ثلاث سنوات قبل الانقلاب العثمانى . وتعيينى فى هذه المدرسة يعتبر حياةً جديدة

---

(١) مجلة الثقافة الجديدة ص ١٥ ، وشعراء العراق ص ٦٧ .

(٢) قال السهروردى فى لب الألباب ج ٢ ص ٢٣٦ : عينه العلامة عبد الوهاب أفندى النائب معلما فى مدرسته التى أنشأها فى الراشدية وخصص له مرتبا لتعليم أبناء العشائر العلوم وبقى معلماً فى المدرسة المذكورة مدة من الزمن إلا أنه لأمور نجهلها استعفى ورجع إلى بغداد» .

بالنسبة لى ؛ لأنى صرت أختلط مع الناس بينما كنت منعزلا فى الجامع»[١]

وكان قبل ذلك متديناً كثير الخشوع فى صلاته ، يقول : «كنت متديناً جداً وكثيراً ما كنت أترك غرفتى وأنزل إلى المصلى ليلا وأبقى أصلى فى بعض الأحيان طوال الليل . وكانت تعترينى حالات غريبة فأبكى بكاءاً متواصلا بعد الصلاة»[٢] .

ولكنه بعد أن عرف طعم الوظيفة بدأ يتمتع بالحيـــاة ويخرج مع أصدقائه ويجلس معهم فى مجالس شربهم ولهوهم [٣] .

وكان مدرساً ناجحاً بعلمه وشخصه ، مهيـــبا من طلابه ، محببا اليهم ، يقول الأستاذ كامل الجادرجى مخاطبا الرصافى : «لاأظنكم تذكرون يا أستاذ إن عهدى بمعرفتكم يرجع إلى حوالى الـ (٣٥) سنة حينما كنتم تدرسون قواعد اللغة العربية فى مدرسة الإعدادى الملكى ، فأنا أذكر أنكم كنتم أكثر المدرسين هيبة بالنسبة الينا — نحن التلاميذ — فكنتم تتخطون فى صالة الدرس وكأنكم غارقون فى بحر من التفكير . وكان يبدو لى على ما أذكر أنكم كنتم فى غير وادينا [٤]» .

ويقول الدكتور ابراهيم عاكف الألوسى : «إنى أذكر الرصافى الذى كان أول مدرس تلقيت عنه اللغة العربية فى الاعدادية الملكية قبل التحاقى بمعهد الطب فى الآستانة ، أذكر فيه اتزانه ووقاره ، ووالله لقد كان التلميذ منا يفرق لطاعته وهيبته ، ويشعر بالاحترام والطاعة ، ويستجمع شتات أفكاره ليصغى ويسمع . وقد ظلت حلاوة ألفاظ الرصافى بعد هذا العهد الطويل

---

(١) مجلة الثقافة الجديدة ص ١٥ ، وشعراء العراق ص ٦٧ — ٦٨ .
(٢) مجلة الثقافة الجديدة ص ١٧ ، وشعراء العراق ص ٧٠ .
(٣) المصدران السابقان ص ١٥ — ١٦ ، وص ٦٨ .
(٤) المصدران السابقان ص ٦ وص ٥٦ .

تتمثل لى فى مختلف أدوار حياتى ، وأنها تتجدد الآن فكأنها قيات اليوم»[1].

فى الاستانة :

وبقى فى مدرسة الاعدادى الملكى حتى إعلان الدستور العثمانى فذهب إلى الآستانة بدعوة من صاحب جريدة « إقدام » . ويحدثنا الرصافى نفسه عن حياته الجديدة فيقول : « وقد بقيت فى التدريس فى مدرسة إعدادى ملكى حتى إعلان المشروطية وبعد أن أعلنت المشروطية فى سنة ١٩٠٨ م ذهبت إلى الآستانة بدعوة من صاحب جريدة « إقدام » أحمد جودة بك لغاية إصدار جريدته باللغة العربية . وقد ذهبت مع النواب الذين سافروا إلى الآستانة ، فذهبت معهم ، وبما أنه لم يحصل الاتفاق بينى وبين أحمد جودة على إصدار الجريدة بقيت فى الآستانة بدون عمل . وقد اتصلت هناك بالأستاذ جميل الزهاوى الذى كان يسكن الآستانة وقتئذ ، وقد سكنت معه فى دار واحدة حتى ظهور الحركة الرجعية فى ٣١ مارت وأكثر من ذلك . وقد نفدت دراهمى فى تلك المدة فاتصلت ببيت المطران وهما ندرة مطران ونخلة مطران من أهل بعلبك ، وقد قاموا بمساعدتى لتسديد مصاريفى الشهرية . ولهؤلاء اشتغال فى القضية العربية .

وعندما كنت فى الآستانة حصلت لى فكرة الاتصال بحكمة سليمان بك وخالد بك سليمان اللذين كانا فى سلانيك مع أخيهما محمود شوكة باشا قائد الجيش فى سلانيك والذى شجعنى على ذلك ذهاب أحد الاتحاديين — عمر فخر الدين بك — فذهبنا سويا إلى سلانيك وفى أثناء الطريق صادف أن حصلت الحركة الارتجاعية فى استانبول فتحرك الجيش من سلانيك بقيادة محمود شوكة باشا ، ولهذا السبب صادفت بعض الصعوبات عند وصولنا إلى سلانيك فأوقفت ليلة واحدة ظنا منهم بأنى أحد المشتركين بحركة العصيان ، لأن الحركة المذكورة قام بها المتدينون فى الآستانة فاشتبهوا بى للعمامة التى كنت أرتديها .

---

(١) معروف الرصافى للدكتور طبانه ص ٤٨ .

فبقيت لبضعة أيام فى سلانيك ، ثم عدت إلى الآستانة فوجدت الحالة هناك مضطربة حيث أن جيش الانقاذ استولى على الآستانة وخلع عبــد الحميد ونادى بالسلطان محمد رشاد خليفة . وفى تلك الآونة أبدلت الطربوش بالعمامة [١] حيث — كما قلت — إن الذين قاموا بالعصيان هم أصحاب الدين، وكان كل شخص صاحب عمامة يشتبه به . ففى تلك الأثناء نزعت العمامة وأبدلت الملابس الدينية بالملابس الأفرنجية . فأردت أن أعود إلى بغداد ولكن المطران ندرة الذى اتصلت به بواســطة زكى مغامز الحلبى — مترجم كتاب تأريخ التمدن الاسلامى لجرجى زيدان من اللغة العربية إلى التركية — أبقانى هناك وقد تعهــد أن يدفع نفقاتى فى الآستانة فبقى ستة أشهر يدفع لى مقدار عشر ليرات شهريا ، فبقيت حتى أتى مراد بك بن سليمان بك إلى الاستانة فعــدت إلى بغداد بمساعدة المطران ندرة »[٢] .

وبقى فى بغداد شهراً ، ثم شد رحاله عائداً إلى استانبول ، يقول : « لم يمض على بقائى فى بغداد أكثر من شهر واحد حتى عدت إلى الآستانة بناء على طلب عبيد الله أفندى من أهالى آيدين وكان نائبا على أزمير حينئذ . وهذا الشخص كان قد اعتزم على إصدار مجلة شهرية عربية باسم « سبيل الرشاد » فاتفقت معه على إصدار المجلة المذكورة فأصدرناها ولكن باسم آخر وهو « العرب » . وبهذه المناسبة توسط لتعيينى مدرسا فى الملكية

---

(١) قال أمين الريحانى فى كتابه قلب العراق ص ٢٥١ : ثم سافر إلى الآستانة ولبس هناك الجبة والعمامة ، وانضم إلى الاتراك فى نهضتهم المدمرة يحمل اللواء والمصحف ليلاونهاراً ثم وثب وثبة واحدة من المسجد إلى الحانة . خلع معروف العمامة والجبة وكل ما ترمز اليه وجعل المقاهى محط رحاله ، فنظم من الشعر ما يفصح عن الحقيقة الجديدة فى حياته ، هى حقيقة التحرر وظلالها »

(٢) مجلة الثقافة الجديدة العدد الأول ص ١٨ ، وشعراء العراق ج ١ ص ٧١ — ٧٢ ، وينظر الأدب العصرى ج ١ ص ٧١

الشاهانة فبقيت أصدر المجلة المذكورة وفى الوقت نفسه أدرّس اللغة العربية فى مدرسة الملكية إلى أن ألغيت هذه المدرسة ثم توقفت المجلة عن الصدور ثم عينت فى مدرسة تعود الى وزارة الأوقاف فى الآستانة يقال لها «مدرسة الواعظين» مدرسا لدرس الخطابة العربية وقد بقيت بهذه المهمة إلى المدة التى أكمل فيها مجلس النواب دورته وهى أربع سنوات حتى انتخبت نائبا»(١).

وانتخب سنة ١٣٢٩ رومية (١٩١٢ م) مبعوثا عن المنتفك فى المجلس النيابى العثمانى إلى أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها(٢). يقول متحدثاً عن انتخابه فى هذا المجلس الذى كان الاتحاديون لا يرشحون فيه إلا الذين يعتمدون عليهم: «كنت أسكن فى دار واحدة مع عبيد الله افندى الذى كنت أصدر معه مجلة «العرب» وكان طلعة بك وزير الداخلية جارنا ففاتحنى ذات يوم عبيد الله افندى قال: إن طلعة بك يود أن يدرس اللغة العربية، فهل تتمكنون من تدريسه؟

فقبلت ذلك بكل ترحاب وبدأت أذهب إلى داره، ولكن لم نبدأ بالدرس غير أنه كان يتحدث معى فى شؤون شتى وبصفة خاصة عن شؤون البلاد العربية فكنت أبين له رأيى بصراحة. وقد دامت هذه المقابلات حوالى الأسبوعين ثم انقطعت عنه غير أنه بقيت صلة بينى وبينه. ولما انتهت دورة المجلس يظهر أن طلعة بك رشحنى شخصياً إلى النيابة فاتصل بى أحد الاتحاديين وهو جمال الغزى فقال: إن مجلس جمعية الاتحاد العام رشحك إلى النيابة(٣)، وسألنى عن المحل الذى أريد أن أكون نائباً عنه، فرجحت المنتفك فانتخبت عن المنتفك وأنا فى الآستانة»(٤)

(١) المصدران السابقان ص ١٩ و ص ٧٣

(٢) جريدة الاستقلال العدد ١٨٧٧ (٣ نيسان ١٩٣٣ م ٥ محرم ١٣٥٢ هـ).

(٣) لم يدخل فى جمعية الاتحاد والترقى بعد أن صار نائباً.

(٤) الثقافة الجديدة ص ١٩، وشعراء العراق فى القرن العشرين ج ١ ص ٧٣

وكان انتخابه لهذا المجلس بعد إعلان الدستور العثمانى سنة ١٩٠٨ م ، ويذكر أنه عام ١٩١٢ . وقضى هذا المجلس سنتين من الحرب غير أنه بسبب ظروفها لم ينتخب مجلس آخر ، ولما انتهت مدته فى سنة ١٩١٦ م لم يجر انتخاب مجدد وإنما مدّد ، وظل الرصافى فى الآستانة إلى سنة ١٩١٩ ،غادرها بعد ذلك إلى الشام والقدس والعراق .

الزواج :

وتزوج فى أثناء إقامته بالآستانة ، يقول الأستاذ عبد المسيح وزير : « وقبيل حرب البلقان سعت شقيقة صديقه الحميم عبيد الله أفندى لزواجه فأذعن لها ، لأنها هى وأخاها كانا يبغيان الخير والسعادة للرصافى فتزوج السيدة بلقيس وكان والدها موظفاً فى الكمارك فى عاصمة آل عثمان »[١]. ولم تنجب هذه السيدة ، فظل الرصافى بلا عقب[٢] ، ولم يتزوج غيرها وإنما اكتفى بالحياة وحيداً بعد أن طلقها . يقول الأستاذ مصطفى على : « إن الرصافى عندما غادر الآستانة فى أوائل سنة ١٩٢٣ م وسافر إلى سورية ومنها إلى العراق ترك زوجه بالآستانة دون أن يطلقها . وأعلم يقيناً أنه كان يمدها بالمال وهو بالعراق وكانت بينهما مراسلة ، غير أن زمان البعاد قد طال بينهما وأمد الفراق قد امتد ، ومرت على الرصافى أيام عابسة ومارس ليالى كالحة ، وصادفته أوقات باسرة ،فلم تسعفه ذات يده بما يقيم أوده ولا بما يمدّ به

---

(١) جريدة الاستقلال العدد ١٨٧٧ (٣٠ نيسان ١٩٢٣ م ، ٥ محرم ١٣٥٢ هـ) ، وينظر أدب الرصافى ص ٧٢ .

(٢) يقول الأستاذ عبدالمسيح وزير: « حملت منه ولداً سقط جنيناً ، ولم تلد له غيره فظل الرصافى بلا عقب . ويقول الرصافى إنه وجد الهناء فى حياته الزوجية إذ استقامت أموره وانتظمت معيشته بفضل زوجه الفاضلة » . تنظر جريدة الاستقلال العدد ١٨٧٧ (٣٠ نيسان ١٩٢٣ م ، ٥ محرم ١٣٥٢ هـ) .

زوجه وقد رأت هي أن لا أمل في عودة حياتهما ولا رجاء في استئناف الصلة فاستفادت — على ما علمت — من القانون المدني التركي وطلبت الفراق فحكمت به المحكمة التركية »[١].

وكان الرصافي يحب زوجه حباً جماً، يقول في قصيدة « آل الجميل »[٢]:

قد عاقني الإملاقُ عن سَفَري الى ... مَنْ طال معتلجا إليه حنيني
وأنا المشوق ولستُ عن شاقهم ... بقر العُذيب ولامها يبرين
لكنّ قلبي لا يزالُ يشوقه ... ظبيٌ أقام بدارِ قسطنطين

ويقول في قصيدة « في رحلة »[٣]:

تقول ابنةُ الأقوام وهي تلومني ... وأدمُعها رقراقةٌ في المحاجرِ
إلى كم تجد البينَ عني مسافراً ... أما تستلذُّ العيش غير مسافرِ ؟
وأسكنها عني نشيجٌ فلم تزل ... تردده منها بأقصى الحناجرِ
إلى أنْ تفانى الصبرُ فافترَّ مدمعي ... كمدمعها عن لؤلؤ متناثرِ
ولا غرو أنْ أبكى أسىً من بكائها ... فأعظم ما يشجي بكاءُ الحرائر
وقلت لها : إني امرؤ ذو لبانة ... منوط مداها بالنجومِ الزواهرِ
تعوّدتُ أنْ لا أستنيم إلى المنى ... وأنْ لا أرى إلا بهيئةِ ثائرِ
وأن أمضيَ الهم الذي هو مقلقي ... بطي الفيافي أو بخوض الدياجرِ
أما ترينّ الوجه منيَ شاحباً ... لكثرة ما عرّضته للهواجرِ
ولست أبالي أنني عادم الغنى ... إذا كانَ جدي في العلى غير عاثرِ

---

(١) أدب الرصافي ص ٧٦ .

(٢) الديوان ص ٢٤٤ .

(٣) الديوان ص ٧٨ — ٧٩ .

العودة :

فى عام ١٩١٩ م توجه الرصافى إلى بغداد ، ولكنه ظل فى الشام ؛ لأن الطريق كان محفوفاً بالمخاطر ، وكان بقاؤه هنالك سبعة أشهر تقريباً ، رأى فيها الحكومة العربية برياسة فيصل الأول ، ولم تسند منصباً يليق بمقامه العلمى والأدبى لما عرف به من الإباء والترفع عن التذلل لمن بأيديهم الحل والعقد[1]. وقد عانى فى دمشق ألم الحاجة، فى الوقت الذى توزع فيه الأموال على الأعوان من غير حساب . واستدعى من القدس فلبى الدعوة ، يقول : « وبعد أن بقيت مدة بضعة أشهر فى الشام طلب إلىّ التدريس فى دار المعلمين فى مدينة القدس ، وذلك بوساطة محمد كرد على فذهبت إلى القدس ووافقت على شروطهم ، وهى أن أدرس آداب اللغة العربية فى تلك المدرسة براتب شهرى قدره (٢٥) جنيهاً مصرياً مع الأكل والمبيت . فسافرت إلى القدس فى سنة ١٩١٩ أو أوائل سنة ١٩٢٠ على ما أذكر . أما حياتى فى القدس فكان التدريس يشغلها ، وكنت أجتمع مع بعض الأصدقاء كاسعاف النشاشيبى وخليل السكاكينى وغيرهم من الأدباء »[2].

وعاش فى منصبه الجديد عيشة راضية، ونال التقدير والتكريم فى القدس، واحتفى به الأدباء ، والتقى به العلماء والوجهاء .

ولم تطل إقامته فى الوطن الجديد لأنه استدعى إلى العراق ، ووصل إلى بغداد فى التاسع من نيسان سنة ١٩٢١ م ونزل ضيفاً على صديقه حكمة سليمان[3] .

---

(١) الأدب العصرى ج ١ ص ٧٢ .

(٢) مجلة الثقافة الجديدة ص ٢١ ، وشعراء العراق فى القرن العشرين ج ١ ص ٧٥ ، وينظر الرصافى صلتى به ص ٢٧٣ .

(٣) الرصافى صلتى به ص ٢٤ ، وتنظر جريدة العراق العدد ٢٦٣ (٩ نيسان ١٩٢١ م) والعدد ٢٦٤ (١١ نيسان ١٩٢١ م) .

ووصف عودته فقال : « فبقيت فى القدس مقدار سنة ونصف ، وكيفية انفصالى من القدس كانت عجيبة غريبة . إذ كان قد تألفت حكومة وطنية برياسة النقيب [1] ، وكان طالب باشا النقيب أحد أعضائها ، وكان كل واحد من هذين يطمع أن يكون ملكاً للعراق ، ثم اتفقا على أن يكون النقيب الملك على أن لا ينتقل الملك منه إلى أولاده ، وقررا إصدار جريدة للدعاية فى سبيل « إن العراق للعراقيين » فاتفقوا على أنى أنا الذى سأتولى إصدار هذه الجريدة وإدارتها ، — جرى كل ذلك وأنا لا أعلم عنه شيئاً — وبما أنى من المخالفين لطالب النقيب ومن الذين يبغضونه لم يصدر دعوة إلىّ بهذا الشأن بنفسه بل بواسطة حكمة بك سليمان فجاءنى تلغراف باسم حكمة بك يدعونى إلى العراق مستعجلاً لمسائل وطنية مهمة ، فكتبت إليه برقية أسأله بأى صفة تدعونى أنت ، ثم على حساب من آتى إلى العراق ؟ فلم يجبنى حكمة بك ، ولكن كتبت الحكومة العراقية : والظاهر أن طالب باشا هو الذى تولى هذا الأمر إلى المندوب السامى فى فلسطين أن يسفرنى إلى العراق على حساب الحكومة العراقية وكان أوانذاك السر هربرت صموئيل فاستدعانى المومى اليه بوساطة أحد موظفى المندوبية وفاتحنى بالأمر فوافقت على السفر إلى العراق . فأعطونى كتاباً بأن أذهب إلى السويس وانتظر باخرة تأتى وأركب تلك الباخرة وأسافر إلى العراق عن طريق الهند . وقد سافرت من السويس إلى القاهرة لقضاء بضعة أيام ثم العودة إلى السويس لأخذ الباخرة إلى الهند ، فصادفت فى القاهرة الأستاذ فهمى المدرس وجعفر العسكرى وكانا قد أتيا إلى القاهرة لمواجهة بعض الشخصيات ، وكان السير برسى كوكس حاضراً ، كما أن ساسون أفندى كان موجوداً فى القاهرة . وهؤلاء جميعاً حضروا مع المس « بل » لمواجهة المستر « شرشل » لتقرير الملوكية فى العراق . فلما علم السر برسى كوكس

---

(١) هو عبد الرحمن النقيب .

أنى ذاهب إلى العراق عن طريق الهند اقترح علىّ أن أسافر معهم إلى العراق رأسا بدون الذهاب إلى الهند فقبلت الفكرة وسافرت معهم ، وكان فى الباخرة فهمى المدرس وجعفر العسكرى ومس بل وساسون أفندى والسر برسى كوكس .

ولما وصلت إلى بغداد وواجهت النقيب عبد الرحمن أفندى علمت من ذلك أنهم يريدون معارضة فيصل باعتبار « العراق للعراقيين » ثم اجتمعنا عند النقيب مع السيد طالب وأنا كنت من جملة المؤيدين لهذه الفكرة وقد اقترحت عليهم — بعد أن تداولنا فى الموضوع مليا — أن هذا العمل — وأقصد عمل الدعاية — لا يمكن أن يقوم إلاّ على المال ، فقلت لهم : إنّ ذلك لا يمكن أن يكون بأقل من مائه ألف ليرة عثمانية . فاستعظم النقيب هذا المبلغ ، ثم قال طالب باشا إنه مستعد لوضع ضعف المبلغ الذى يضعه النقيب . ولم يسفر الاجتماع عن اتفاق فى الرأى وانقضى على أن نجتمع مرة أخرى فاتصلت بتوفيق الخالدى - الذى كان حاضراً فى الاجتماع - وقال لى أنه سوف نذهب سوية بباخرة صغيرة أنا وأنت وطالب باشا وهناك نتذاكر فى الموضوع . ولكن قبل أن يحصل هذا الاجتماع نفى الانكليز السيد طالب باشا . ولما نفى طالب باشا النقيب علمت أنه لم يبق لى شأن فى هذا الموضوع .

كل ذلك جرى قبل مجىء فيصل إلى العراق ، وقبل مجىء فيصل كنت قد اتصلت بالمس فشرحت لها وضعى وقلت إنّ الحكومة العراقية هى التى استدعتنى إلى العراق بينما كنت موظفاً فى القدس ، وأنا لا يمكننى أن أبقى عاطلاً ، فكتبت لى كتابا إلى ناظر المعارف يومئذ فواجهته ففاتحنى بوظيفة وهى « نائب رئيس لجنة التأليف والترجمة » براتب قدره (٦٠٠ ربية) شهريا ، ولما لم تكن اللجنة موجودة ولا رئيسها استثقلت هذا الوضع بعد

بضعة أشهر فاتصلت بالمستر سميث الذى كان مستشاراً المعارف وشرحت له الحال فاقترح علىّ أن ألقى المحاضرات على المعلمين ففعلت ذلك »[1].

ونشرت الصحف فى حينه خبر تعيينه فقالت جريدة العراق[2] : « تعين حضرة الأستاذ الرصافى وكيلاً لرئيس لجنة ترقية العلوم فى وزارة المعارف، وبما أن اللجنة المذكورة لم تبرز إلى حيز الوجود بعد فقد عيّن مفتشا للغة العربية فى معارف العراق » .

ولما تألفت الحكومة العراقية — بعد مجىء فيصل — عيّن مفتشاً للغة العربية ، ولكن بعد أن تولى المرحوم الأستاذ ساطع الحصرى المسئولية فى وزارة المعارف رأى أن عمله قد انتهى ولم يبق له مكان ، فقرر أن يهجر العراق عام ١٩٢٢ م ، وخرج مغاضبا على أن لايعود .

الهجرة :

تحدث الرصافى عنها فقال : « ولما تألفت الحكومة الوطنية بعد مجىء فيصل عينت مفتشا للغة العربية ، ولكن بعد أن أخذ الأستاذ ساطع الحصرى الشغل فى المعارف علمت أنه لم يبق لى شأن فى المعارف ، فقررت أن أهجر العراق وأذهب إلى تركية فذهبت فعلاً إلى استانبول كى أتجنس بالجنسية التركية وأذهب إلى أنقرة ، ولكنى لم أجد هناك من معارفى غير سليمان نظيف ، ولكن سليمان نظيف لم يتمكن من التوسط إلى ذهابى إلى أنقرة فبقيت هناك فى استانبول حوالى ثلاثة أشهر فى بدء تأليف الحكومة الكمالية فى أنقرة ، ثم عدت إلى بيروت ، وهناك سعى بعض الأصدقاء

---

(١) مجلة الثقافة الجديدة ص ٢١ — ٢٢ ، وشعراء العراق فى القرن العشرين ج ١ ص ٧٥ — ٧٧ ، وينظر الرصافى ـ صلتى به ـ ص ١١٥

(٢) العدد ٣٣٤ (السنة الثانية ٤ تموز ١٩٢١ م ، ٢٨ شوال ١٣٣٩ هـ) .

لأن أتجنس بالجنسية اللبنانية »[١] : ووصل إلى لبنان فى أواخر عام ١٩٢٢م واحتفى به كبار الأدباء احتفاءً يليق بمنزلته فى عالم الأدب والشعر[٢] . وألقى عدة قصائد منها « هى النفس »[٣] التى أنشدها فى حفلة أقيمت لأمين الريحانى بعد رجوعه من سياحته فى بلاد العرب ، وفيها يقول مخاطبا الريحانى :

ودَعْ عنك أخبارَ العراق فإننى ... لأعلمُ منها ما يفوق العجائبا
فويحاً لأهل الرافدين إذا انطووا ... على اليأس من نور يشق الغياهبا
ألا عدِّ عمّا فى العراق فإننى ... أراه بأخلاق الزمان معايبا
معايب لو أنى هتكت ستارها ... لأرسلتُ منها المعاندَ حاصبا
فلا تحسبَنْه أنه ذو حكومة ... ولو ضربوا ظلماً عليه الضرائبا
لئن ألّفوا بالكذب فيه وزارة ... فإنّ بها للكاذبين مآربا

ونظم قصيدته المشهورة « بعد النزوح »[٤] ، وهى :

هى المواطن أُدنيها وتقصينى ... مثل الحوادث أبلوها وتبلينى
قد طال شكواى من دهرٍ أُكابده ... أما أُصادفُ حراً فيه يُشكينى
كأننى فى بلادى إنْ نزلتُ بها ... نزلتُ منها ببيتٍ غيرِ مسكونِ
حتى متى أنا فى البلدانِ مغترب ... نوائب الدهر بالأنيابَ تدمينى
فتارةً فى المواصى فوقَ موقرة ... وتارة فى الطوامى فوق مشحون[٥]

---

(١) مجلة الثقافة ص ٢٢ ، وشعراء العراق ج ١ ص ٧٧

(٢) جريدة العراق العدد ٧٩١ (السنة الثالثة ٢٢ كانون الأول ١٩٢٢م ، ٢ جمادى الأولى ١٣٤١ هـ)

(٣) الديوان ص ٤٤٠ ، وينظر مجلة الثقافة ص ٢٢ ، وشعراء العراق ج ١ ص ٧٧

(٤) الديوان ٤٢٦ — ٤٢٨

(٥) المواصى : جمع موصاة ، وهى الصحارى المقفرة . الموقرة : الناقة التى حملت عليها الأوقار ، وهى الأحمال الثقيلة . الطوامى : جمع طامى ، وهو البحر . المشحون : صفة لمحذوف ، أى : الفلك المشحون .

كم اغرقتنى الليالى فى مصائبها
فعُمْتُ فيهنّ من صبرى بدُلفين (١)

أنا ابن دجلةَ معروفاً بها أدبى ... وإنْ يكُ الماءُ منها ليس يروينى
قد كنت بلبلها الغريدَ أنشدها ... أشجى الأناشيد فى أشجى التلاحين
حيث الغصونُ اقلّتنى مكللة ... بالورد ما بين أزهار البساتين
فبينما كنتُ فيها صادحاً طربا ... أستنشقُ الطيب من نفح الرياحين
إذ حلّ فيها غرابٌ كان يوحشنى ... وكان تنعابُه بالبين يؤذينى
حتى غدوتُ طريداً للغراب بها ... وما غدوتُ طريداً للشواهين
خطرتُ غير مبالٍ عند ذاك بما ... تركتُ من نرجسٍ فيها ونسرينِ
ويلٌ لبغدادَ مما سوف تذكره ... عنى وعنها الليالى فى الدواوينَ
لقد سقيتُ بفيض الدمع أربعُها ... على جوانب وادٍ ليس يسقينى
ما كنت أحسب أنى مذ بكيت بها ... قومى بكيتَ على مَنْ سوف يبكينى
أفى المروءة أنْ يعتز جاهلها ... وأنَ أكون بها فى قبضة الهون
وأنْ يعيشَ بها الطرطور ذا شمم ... وأنْ أسامَ بعيش جَدْع عرنينى (٢)
تالله ما كان هذا قطُّ من شيمى ... ولا الحياة على النكراء من دينى
ولست أبذل عرضى كى أعيش به ... ولو تأدمت زقوماً بغسلين
أغنت خشونة عيشى فى ذرى شرفى ... عمّا أرى بخسيس العيش من لين
عاهدتُ نفسىَ والأيامُ شاهدةٌ ... أنْ لا أقرّ على جَوْرِ السلاطينَ
ولا أصادقَ كذّاباً ولو ملكاً ... ولا أخالط إخوان الشياطينَ
أمّا الحياةُ فشيءٌ لا قرارَ له ... يحيا بها المرءُ موقوتاً إلى حينَ
سيان عندى أجاء الموت مخترما ... من قبل عشرين أم من بعد تسعين
ما بالسنين يُقاس العمرعندىَ بلْ ... بمالَه فى المعالى من تحاسينَ

---

(١) الدلفين : حيوان بحرى .
(٢) الجدع : القطع . العرنين : مقدم الأنف .

لو عشت ستين عاماً لاستعضتُ بها ستينَ مكرمةً بل دون ستين
فانما أطول الأعمار أجمعها للمكرمات من الأبكار والعونَ
إنّ اللئيمَ دفينٌ قبل ميتته وما الكريمُ وإنْ أودى بمدفون
ماكنت أحسبُ بغداداً تحلئني عن ماء دجلتها يوماً وتظميني
حتى تقلد فيها الأمرَ زعنفةٌ من الاناس بأخلاق السراحين
ماضرّني غير أني اليوم من عرب لا يغضبون لأمرٍ ليس يرضيني
تالله ماضاع حق هكذا أبداً لو كنتُ من عَجَمٍ صهب العثانين
علامَ أمكثُ في بغدادَ مصطبراً على الضراعة في بحبوحةِ الهُونِ
لأجعلنَّ إلى بيروتَ منتسبي لعلّ بيروتَ بعد اليوم تؤويني
خابت ببغدادَ آمالٌ أؤملها فهل تخيبُ إذا استذرت بصنين
فليتَ سوريّةَ الوطفاء مزّنتها عن العراق وعن واديه تغنيني
قد كان في الشام للأيام مذ زمنٍ ذَنْبٌ محته الليالي في فلسطين
إذْ كان فيها النشاشيبيُّ يسعفني وكنت فيها خليلاً للسكاكيني
وكان فيها ابنُ جبرٍ لايقصّرفي جبر انكسارِ غريبِ الدار محزون
إنْ كان في القدس لي صحبٌ غطارفةٌ
فكم ببيروتَ مِنْ غرٍّ ميامين

لقد عبّر في هذه القصيدة عن آلامه أحسن تعبير ، وصبّ جام غضبه على الذين يجرون وراء المنافع ويقدرون الكذابين والمنافقين . وتعطينا هذه القصيدة فكرة واضحة عما كان عليه من ضيق في بغداد ، فقد سافر إلى البصرة واتصل بالمرحوم عبد اللطيف المنديل ورجاه أن يمهد له السبيل عند الشيخ خزعل ، ولكن الأخير خيبّ آماله . ورسائله المرسلة إلى المنديل في ٣ و ٥ و ٢١ حزيران ١٩٢٢ ، تكشف عما كان يكابده من آلام في هذه الفترة . ولم يكن أمامه قبل أن يهجر العراق إلا أن يقول في رسالته بتاريخ ٢١ حزيران ١٩٢٢ عن الشيخ خزعل : « ويظهر أن صاحبنا الشيخ لا يعرف

المجد كيف يبتنى ولا العز من أين يقتنى . ولا أظنكم ترون فى الدنيا أتعس حالا وأنكد حظاً ممن تجنب طول حياته سؤال الناس بشعره ثم ألجأته الضرورة إلى ذلك مرة واحدة فاختار لمدحه أغنى رجل فى العراق فقال فيه الشعر الخالد وضمنه المديح الجيد[1] ، واستنجده على أيامه فلم يعد منه بطائل بل رجع منه رجوع أولئك الشعراء الذين لاشغل لهم فى الحياة إلا استجداء الناس بأشعارهم ، ولعمرى إن هذا الأعرابى[2] قد جعل منزلتى فى هذا الأمر دون منزلة ... ... وصاحبه الشاعر البصرى اللذين يترددان عليه للاستجداء فى كل عام مرتين أو ثلاث . وما أدرى كيف يكون لو وقفت بالشعر تجاه الشيخ موقفا سياسياً ؟ أليس لى من حق على الرجل لولا أنه بخس الأدب حقه وعاملنى معاملة السائل وأنتم تعلمون ، وقد علم الله أننى لست من سألة الشعر بل هذه أول مرة ـ وأرجو أن تكون آخرها أيضا ـ فى حياتى ألجأتنى فيها الضرورة إلى إراقة ماء المحيا ، وقد قيل :

ألا قاتل اللهُ الضرورةَ إنها تعلّم خيرَ الخلق شَرَّ الخلائق

ولولا أنّ فى رد ماجاد به هذا الجواد شناعة أكثر من القبول لرددته . ومهما كان فهذه حادثة سيذكرها التاريخ المستقبل فى حياتى الأدبية فى هذه البلاد ، وهى أكبر عبرة لى أعتبر بها فى مستقبل الأيام »[3] .

---

(١) من ذلك قصيدته « الدهر والخمرة » التى يقول فيها :

أمير تقسمه فى المكارم خزعل بلا سابق فيها عليه ولا حق

(ينظر الديوان ص ٤٧ ـ ٤٩) .

(٢) يقول الرصافى فى هذا الأعرابى وهو الشيخ خزعل :

أبا الأمراء الصيد جئتك شاكيا إليك جنايات الزمان المماذق
أجرنى رعاك الله منها فإنها رمت كل عظم فىّ منها بعارق
أترضى وإنى صقر بغداد أننى تقدمنى فيها فراخ العقاعق
لئن أنكروا حقى فسوف تحقه شواهد أقلام بكفى نوافق
أصوغ بها حر الكلام لخزعل مديحا كعقد اللؤلؤ المتناسق

(ينظر الديوان ص ٤٩) .

(٣) تنظر هذه الرسالة فى كتاب الرصافى فى أعوامه الأخيرة ص ٩٣ .

ولولا هذه الحالة التى كان عليها ، ولولا هذه الظروف القاسية لما هجر وطنه الذى أشرب حبه وذاد عنه ، ولكنها الحياة وما أقساها .

العودة ثانية :

وفى هذه الأثناء أبرق إليه المرحوم عبد المحسن السعدون ليعود إلى العراق فسافر على حساب الحكومة العراقية إلى بغداد واحتفى به احتفاءاً يليق بمنزلته ومقامه ، وأقام له السيد عبد الحميد كنه حفلا تكريمياً فى فندق مود فى اليوم الحادى عشر من تموز ١٩٢٣ م[1] ، وألقيت فى هذا الحفل قصائد تكريمية ، منها قصيدة الأستاذ المرحوم جميل صدقى الزهاوى التى يقول فيها :

أرى فَلقاً يمحو الدجى ثم لا أدرى
أمطلع فجــر ذاكَ أم مطلع الشعر
أم اليوم قد هبّتْ ترحب دجــلةٌ
ببلبلهـا الغريدِ والشــاعر الحر

ويقول :

لقد عاد معروفٌ أخى بعــد غيبةٍ
فأهلاً برب الفضل والأدبِ الوَفْر
وإنى بمعروفٍ لأعــتزُّ إنه
أخو ثقةٍ والحر يعتز بالحرِ
كلانا يريد الحق فيما يقوله
وإنى وإياه إلى غايةٍ نجرى

---

(١) ينظر ذكرى الرصافى للرشودى ص ٩٨ ـ ١٠٠ ، وص ١٥٩ ـ ١٦٣ ، وجريدة الاستقلال العدد ١٧٨ (١٩٢٣ م) .

فخذ بيدى اللهم فى كل دعوةٍ
وهذا أخى معروف أشدد به أزْرى
وإنك يامعروفُ أنت فمُ الهدى
وأنت البياضُ الحلو من غرة الدهر
إذا قلتَ شعراً ذاعَ فى كل جانب
كأنّ أثيرَ الجو واسطةُ النشر
أزَحْتَ بنورٍ منك ظلمة ليله
فماذا به أبقَيْتَ للأنجمِ الزُّهْر (١)

وقصيدة المرحوم عبد الرحمن البناء التي يقول فيها :

السعدُ وافى والحبيبُ موافى ... واليمن صفَّق معلناً لهتاف
إن الألى كرهوا وجودك بيننا ... ورموا حقوقَ الشعب بالإجحاف
لا تبتئس مما جنوه لأنهم ... ناموا وطرف الدهر ليس بغافِ
حِقْدٌ وراء السجف كان موقعاً ... فكأنه خافٍ وليس بخافِ
قالوا نفيت عن العراق بزعمهم ... والنفى للأدباء ليس ينافى
ماأنصفوك وأنت أكبر منصفٍ ... ويد الغريم عديمة الإنصاف

ويقول :

سر للعلاء بنا فأنتَ إمامنا ... فى يوم تأبين ويوم زفاف
واسلك بنا سبلَ الفلاح لعلّنا ... بالسعى نحيي ميت الأسلاف
وارغم أنوفَ الحاسدينَ بأوبةٍ ... تمشى على الهامات والأكتافِ
ما أنتَ فى بغدادَ ضيفٌ عاملٌ ... لكنَّ ضيفك أسعَدُ الأضيافِ
بل انتَ بلبل مجدها ورياضِها ... تشدو بأحسنِ اشطر وقوافِ (٢)

---

(١) ديوان الزهاوى ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣ (طبعة ١٩٢٤ م)
(٢) تنظر القصيدة فى ذكرى الرصافى ص ١٢٩ ـ ١٣١

وألقى الرصافي في هذا الحفل قصيدته المشهورة « إلى أبناء الوطن »[1]، وهي :

سرْ في حياتك سَيْرَ نابهْ ولُمِ الزمانَ ولا تحابهْ
وإذا حللْتَ بموطنٍ فاجعلْ محلك في هضابه
واخترْ لنفسك منزلاً تهفو النجومُ على قبابه
ورُمِ العلاءَ مخاطراً فيما تحاول من لبابه
والمجـد ليس يناله إلاّ المخاطرُ في طلابه
وإذا يخاطبك اللئيمُ فصمَّ سمْعَك عن خطابه
وإذا انبرى لك شاتماً فاربأ بنفسك عن جوابه
فالروضُ ليس يضيره ما قد يطنطن من ذبابه
ولربّ ذئب قد أتاك من ابن آدمَ في إهابه
ما امتاز قطُّ عن ابن آوى شخصُه بسوى ثيابه
وإذا ظفرت بذي الوفاء فحطّ رحلَكَ في رحابه
فأخوك مَن إنْ غاب عنك رعى ودادَك في غيابه
وإذا أصابك ما يسوءُ رأى مصابَك من مصابه
وتراه ييجع إن شكوت كأنّ ما بك بعضُ ما به

. . .

ياقومُ قد هرم الزمانُ من التمادي في انقلابه
فلذاك عند الهاجرات يسيلُ شيءٌ من لعابه
ما زال من خَرَفٍ به للناس يهذر في كِذابه
يأتي بكل عجيبةٍ تدعو اللبيب إلى ارتيابه

(١) الديوان ص ٧١ ـ ٧٣

والنـاس فى عطش تسـير إلى ارتواءٍ من شرابه
فتى يجود لنـا الزمانُ ولو بمذْقٍ من وطـابه
وإلى متى هـو سـاتر وجه الحقيقة فى ضبـابه
يتـلو بصرف الحادثات لنـا فصولاً من كتـابه
كم يدّعى وطنيـةً من لم تكن مرّت ببـابه
فـتراه ينفخُ لاغيـاً فيها وينفخ فى جـرابه
ليكون مكتسباً بهـا مالاً تهالك فى اكتسابه
فـكأنما هـو صائد وكأنمـا هى من كلابه
وتراه يرمى المخلصـين بكل سهمٍ من جعـابه
ويعيب قوماً بالخيـانة والخيـانة بعض عابه

• • •

لابد للوطن العزيز من المسكّن لاضطرابه
من مجلس للشعب ينظـر بالتـأمل فى مآبه
وينوبُ عن أبنـائه إن صادقوه على منـابه
حتى ترى أمـرَ البـلاد به يعودُ إلى نصـابه
أبِهتْ حكومتُنا لـه والشعب ليس لـه بـآبه
أتُرى الحكومة تبتغيه ونحن نعرض عن طلابه
هـذا لعمـر أبيك مـا يدعو الحليم إلى انتحابه
هـلاّ يقومُ القاعدون مسارعين إلى انتخـابه
كى ينقذ الوطن الذى صرفَ الزمانُ له بنابه
وغدا يهدّدُ بالبوار بنيه بورٌ فى ترابه
إن لم تكونوا مدركيه فـلا محالة من خرابه

• • •

آب المسافر للديار على اضطرار في إيابه
لو كان يجنح للاياب لما تعجّلَ في ذهابه
قد كان يمرح في التغرب بالحفاوة من صحابه
لا تعجبنَّ لخاملٍ لبسَ النباهةَ في اغترابه
فالسيفُ أحسنُ ما يكون إذا تجرّد من قرابه
أمّا العراق فانَّ لي كلَّ الرجاء بأسد غابه
ينجابُ يأسي بالرجاء إذا نظرتُ إلى شبابه
من كل مَنْ هو في ظلامِ الليل أضوأ من شهابه
لَمَعَ الذكاءُ بوجهه كالبرق يلمع في سحابه
يا مَنْ زكت أحسابُهم فأتوا بأخلاقٍ نوابه
ووجوهُهم بالنيّرات من النجوم لها مشابه
إني لأشكر فضلكم شُكرَ المثاب على ثوابه
كالرَوض يشكر وابلاً حيّا الأزاهرَ بانسكابه

وأراد عبد المحسن السعدون أن يتصل الرصافي بالملك فيصل الأول ليزول ما بينهما من جفاء ، وقابله غير أن المقابلة لم تكن ودية من جانب الملك ، فخرج منه مغاضبا .

المجلس التأسيسي :

قال الرصافي :

لا بدّ للوطن العزيز من المسكّن لاضطرابه
من مجلس للشعب ينظر بالتأمل في مآبه

في آب ١٩٢٣ م رفعت إلى هيأة التفتيش مضبطة وقع عليها ما ينوف على مائتي شخص من الرجال المعروفين في بغداد يرشحون الرصافي لعضوية

المجلس التأسيسي[١] ، ويؤيدون بيانه الذى نشره فى جريدة الاستقلال[٢] .

وكان الرصافى أول من رشح نفسه للنيابة ، وقد جاء فى مقدمة بيانه :

« إن من الواجب الوطنى أن أعلن لأبناء بلادى الرأى الذى أرتئيه فى مسألتنا الحاضرة لعلهم يرون فيه من الصواب ما يؤهلنى عندهم للنيابة فى المجلس التأسيسى المطلوب انتخابه اليوم » .

وشرح منهجه وموقفه من الحكومة، وأوضح السياسة الخارجية وعلاقة العراق بالانكليز ، ومما قاله : « إننى أعتقد أن للانكليز اليوم منفعة اقتصادية فى بلادنا ، وأرى من الواجب علينا أن نعينها تعينا واضحاً ، وأن نحدها تحديداً بيّناً بحيث لا تكون مخلة باستقلالنا ولا مجحفة بمنفعتنا. ولا ريب أن المنافع الجارية بين الأمم إذا لم تكن متقابلة على وجه التبادل كانت ضرباً من التحكم الذى تأباه أمة على غيرها . وهكذا يلزم أن تكون مناسباتنا مع الانكليز قائمة على تبادل المنفعة » .

وختم بيانه بقوله : « وأنا الآن غير منتسب الى حزب من الأحزاب الموجودة فى العراق ، ولكن لمنتخبىَّ أن أؤلف لهم حزبا فى المجلس التأسيسى نفسه بعد تمام انتخابه جارياً على هذه الخطة التى لم أر فى الوقت الحاضر أنفع منها لبلادى » .

ولم يفز فى انتخابات هذا المجلس الذى افتتح يوم الخميس ٢٧ آذار سنة ١٩٢٤ ، الموافق ٢١ شعبان سنة ١٣٤٢ هـ .

فى الصوافة :

سافر الرصافى إلى الآستانة — كما ذكرنا — بدعوة من أحمد جودة بك

---

(١) تنظر جريدة العراق العدد ٩٩٢ (السنة الرابعة ٢٠ آب ١٩٢٣ ، ٧ محرم ١٣٤٢ هـ) .

(٢) العدد ١٩٣ (٣ آب ١٩٢٣ م ، ١٩ ذو الحجة ١٣٤١ هـ) ، وينظر « ذكرى الرصافى » للرشودى ص ٢١٦ — ٢٢٠ .

صاحب جريدة: « إقدام » لاصدار جريدته بالعربية ولم يتفق معه عليها ودعاه مرة أخرى عبدالله أفندى لاصدار مجلة : « سبيل الرشاد » واتفق معه على إصدار المجلة باسم « العرب » . وكان عبد الرحمن النقيب ، وطالب النقيب قد قررا إصدار جريدة فى بغداد تدعو إلى « أن العراق للعراقيين » واستدعى لهذه المهمة من القدس ، ولكن الجريدة لم تر النور ، لأن الانكليز نفوا السيد طالب النقيب .

وحينما نبحث عن رغبته فى هذا العمل نجد أنها كانت قوية ، وأن له آراء فى الصحافة والصحفيين . يقول مخاطبا محمد باقر صاحب جريدة « البلاغ » فى بيروت .

على أنى وإن أبديتُ سخطاً فما أدعوك فيه إلى الفراغ
فلا تترك فراغك عن ملال فيفرح من ملالك كل طاغ
فقم فى القوم منتضياً يراعاً يُفلّق هامَ ارباب الرواغِ(١)

وتحدث عن الصحافة وما كانت عليه الجرائد فى الآستانة فقال :

ولم أرَ شيئاً كالجرائد عندهم
مبادئه منقوضة بالمقاصدِ
يقولون : نحن المصلحون ولم أجد
لهم فى مجال القول غيرَ المفاسد
على رسْلكم ياقوم كم تُسمعوننا
مقالة محقودٍ عليه وحاقدٍ
ألا فارحموا بالصفح عن نهج صحفكم
فقد أوردتنا اليوم شرَّ الموارد

(١) الديوان ص ١٠٤ .

وما الصحف إلاّ أنْ تدور بنهجها مع الحق أنّى دار بين المعاهد
لعمرىَ أنّ الصُّحْفَ مرآة أهلها بها تتجلى روحُهم المشاهد (١)

ووصف حالتها فى الآستانة عقب الهدنة للحرب العالمية الأولى فقال :

أرى الأَتْراكَ فى دار الخلافه تمادوا فى الخصومة والسخافه
غَدوا يتطاعنون بكل هُجْرٍ من القول المخالف للشرافه
فما عملت رماحُ الخَطّ فيهم كما عملتهَ أقلامُ الصحافه(٢)

وكان من دعاة حرية الصحافة ، وقد وقف مواقف محمودة دافع فيها عن حرية الأقلام ، قال :

أيا حريةَ الصحف ارحمينا فانا لم نَزَلْ لك عاشقينا
متى تصلين كيما تطلقينا عدينا فى وصالك وامطلينا
فأنا منك نقنع بالوعود
فأنت الروحُ تشفين الجروحا يحرّج فقدك البلد الفسيحا(٣)
وليس لبلدة لم تحوِ روحا وإنْ حوتِ القصور أو الصروحا
حياة تستفاد لمستفيد(٤)

وعندما أقدمت إحدى الحكومات السابقة على تعديل قانون المطبوعات وكان — رحمه الله — نائباً فى المجلس دافع عن حرية الصحافة وقال : « يفهم مما توخته الحكومة من هذا التعديل ومما قاله الخطباء فى هذه الجلسة أنّ الصحافة مريضة وانها محتاجة إلى الدواء الشافى فى الحال الحاضر ، وأنّ الوزارة الحاضرة جاءت تطلب الشفاء لهذا المريض من طريق واحد

(١) الديوان ص ٢٢٥ـ ٢٢٦
(٢) الدايون ص ٤٥٤
(٣) يحرج : يضيق .
(٤) الديوان ص ١٢١

هو تحميل هذا المريض بقيود أخرى غير القيود السابقة ، ولكن هذه الطريقة أو هذا الدواء لم يكن دواءاً شافياً ، وأن المريض لم يزل مريضاً . إذن ما هو الدواء الناجع ؟ أما أنا فأقول كما يقول الشاعر : « إنما الحيلة فى ترك الحيل » . أقول جربنا هذه الطريقة فلم تنجح فلنطلق الصحافة ولا نقيدها إلا فى المحاكم ، ونقول لها افعلى ما شئت لعل هذه الطريقة تنجح .

يقال : إن الصحافة تشتم الناس ، أظن أنه لا يوجد واحد شتمته الصحف أزيد منى ، ومع ذلك فأنا أشكر الصحف التى شتمتنى إذا كانت لا تقصد من وراء ذلك إلا المصلحة العامة ، وإذا كنت أغتاض لشخص من الشتم فتوجد محاكم أراجعها وأشكو عندها وهى تقضى لى حسب القوانين الموضوعة .

أقول على الحكومة أن تسحب هذه اللائحة وتأتى بلائحة جديدة أخرى ترفع القيود عن الصحافة[1] » .

ويرى أن الصحافة يجب أن لا يمارسها إلا أصحابها ، يقول الأستاذ محمود العبطة : « كنت أقرأ له الجرائد فى الأوقات التى أتردد فيها عليه ، وكانت جرائدنا — ولا تزال معظمها مع الأسف — تحشد كل خبر سخيف وكل مقال مهلهل ، دعك من النفاق وقلة الذوق والأخلاق ، فقال : « يجوز لكل مهنة أن يمارسها من غير أصحابها إلا الصحافة[2] » .

ويذكر أمين الريحانى أن الرصافى دافع عن الحكومة فى قضية تتعلق بابعاد بعض الصحفيين المتطرفين فى صدقهم ، ولا ندرى بالضبط متى كان ذلك . يقول :

---

(١) مجلة الوادى العدد ١٥ ص ١١ ـ ١٢ (السنة العشرون ١٤ آذار ١٩٥٩ م) ، وينظر كتاب القومية والاشتراكية فى شعر الرصافى ص ١٤٣ ـ ١٤٤ ، ومحاضرات عن معروف الرصافى ص ٦٣ .

(٢) مجلة الجزيرة العدد ١٢ ص ١٨ (السنة الأولى نيسان ١٩٤٧) .

« وقد سمعت صديق معروفا يدافع عن الحكومة فى قضية تتعلق بإبعاد بعض الصحفيين المتطرفين فى صدقهم فيذكر النسبية كمبدأ عام فى الحياة ، ويحاول أن يبين ماله من صلة بحرية الصحافة . وما أظن أن أحداً من النواب أدرك معناه أو فهم شيئاً مما قال ، ولكن صوته العريض الأجش فعل فيهم فعل البيان . وما أراد منه وهو أن المبعدين استحقوا الإبعاد جزاء ما فعلت أقلامهم » (١)

وتحققت رغبتُه فى إصدار جريدة يومية سياسية أدبية اجتماعية باسم « الأمل » ، وصدر عددها الأول يوم الاثنين الأول من تشرين الأول سنة ١٩٢٣ م الموافق العشرين من صفر الخير سنة ١٣٤٢ ﻫ . وكان صاحب الامتياز ومدير سياستها ، وقد أوضح سياستها فى العدد الأول ، وهى سياسته التى شرحها فى البيان الذى أعلنه حينما رشح نفسه للنيابة فى المجلس التأسيسى، يقول : « لقد رشحت نفسى للنيابة عن الشعب فى المجلس التأسيسى الذى تمّ انتخابه أو كاد يتم ، وقد نشرت منهجى السياسى فى بعض الصحف المحلية ، فلا بدّ أن أبناء الوطن قد اطلعوا عليه وعرفوا مغزاه وليس منهجنا فى هذه الصحيفة غير منهجنا المتبع فى النيابة ، وليس ما نقوله هنا إلا شرحاً وتوضيحاً لما قلناه هناك » .

ثم يقول : « لقد ألهمتنا الأيام أن لا طريق لنجاتنا اليوم غير أن نمت بالصداقة إلى حلفائنا الانكليز لكى نتوصل بها إلى غايتنا الشريفة ولبانتنا السامية ولأجل عين ألف عين تكرم . فمن كان مخالفاً لنا فى هذا فليحسن ظنه بنا قبل كل شىء ثم ليجادلنا بالتىهى أحسن ، وليقم علينا الحجة فإننا عندئذ نحترمه ونحتمل منه كل خلاف ، وله علينا أن لا نقابل حجته إلا بالحجة ولا برهانه إلا بالبرهان ، فإما أن تكون العقبى له وإما أن تكون لنا .

ونحن — وايم الله — يسرنا جداً أن يظهر لنا الحق ولو فى جانب من

(١) قلب العراق ص ٢٥٢

كان مخالفا لنا فى رأيه ، لأننا نشاركه ويشاركنا فى الغاية التى يرمى إليها كل منا . بهذا يتبين للقراء الكرام المنهج الذى ننتهجه فى صحيفتنا « الأمل » آملين من كرمهم ألا يتسرعوا فى الحكم وأن ينتظروا ما تأتى به الأيام ، ومن الله التوفيق » .

واعتقد الناس أنّ الجريدة تنطق بلسان سياسة الزعيم المغفور له عبد المحسن السعدون[١] ، وقد أوضح الأستاذ مصطفى على الحقيقة بقوله : « عندما سمعنا بعزم الرصافى على إصدار جريدة سياسية لم يخامرنا شك فى أنه سيؤيد بها سياسة السعدون لما بينهما من صداقة وثيقة ووداد أكيد . وحين صدرت أحاطت بها ظروف أيدت عندنا هذا الرأى ولم تغيره ، فقد أختطت لها خطة سياسية مرنة سارت على نهجها فى حياتها القصيرة . وكانت فى جانب الحكومة القائمة فلم تقف منها موقف المعارض ، ثم انها احتجبت بعد أن أستقال عبد المحسن السعدون[٢] ، وتولى الرياسة جعفر العسكرى[٣] .

أليس فى هذه الظواهر كلها ما يعزز الرأى القائل : إنها كانت تؤيد سياسة السعدون ، وأنها كانت تستمد منه المعونة المالية ، حتى إذا ما تخلى عن الحكم اضطر صاحبها إلى أن يوقفها ويكف عن إصدارها ؟

ظللنا معتنقين هذا الرأى وأحسب أنه هو الرأى الذى يؤمن به الناس عندنا إلى يومنا هذا ولا يرون سواه . إلا أن الرصافى نفسه أزال عنى ما كان عندى يقينا ، وبدد ما كان اعتقاداً حين جرى ذكر جريدة «الأمل» فإذا هو لم يكن يفكر قط فى إصدار جريدة وإنما طلب امتيازها باسمه رغبة فى مساعدة ابراهيم حلمى العمر ؛ لأن السعدون لم يكن مطمئنا إلى سلوكه

(١) تنظر مقدمة كتاب نظرة إجمالية فى حياة المتنبى ص ٦ .
(٢) فى ١٥ تشرين الثانى ١٩٢٣ م .
(٣) فى ٢٢ تشرين الثانى ١٩٢٣ م .

ولا واثقاً بإخلاصه ولا أميناً من تقلبه وكيده، فأبى أن يمنحه امتياز جريدة سياسية فتبرع الرصافي ونال امتياز هذه الجريدة إيثاراً لصديقه يومئذ ثم سلمها إليه يتصرف بها كيف يشاء ، وإن جرت عليه ما جرت من البلوى »[١].

وقال الأستاذ العبطة : « سألته عن جريدة « الأمل » التي كان يصدرها في بغداد فقال : « إنها ليست لي وإن وضع اسمي عليها ؛ وذلك أن المرحوم الأستاذ حلمي العمر قد سحبت أجازة جريدته فبقي بدون رزق فأخذت له امتيازاً باسم « الأمل » وكان يتعيش منها . وليس لي من هذه الجريدة إلا الاسم فقط »[٢].

ومهما كان تبرير الرصافي فقد نشرت جريدة « الأمل » مقالات عن الإنكليز ومود ، ففي العدد (٥٦)[٣] إشارات إلى أن مود لم يرفع بفتح بغداد شأن أمته فحسب بل خدم القضية العربية أعظم خدمة . وذكرت الجريدة أن كثيراً من قصار النظر يعدون يوم فتح بغداد يوم حداد ومصيبة، وهو صحيح لو بدل هذا الفتح استعبادنا القديم باستعباد جديد، ونقلنا من الحكم التركي إلى الحكم الاستعماري ولكن الأيام أثبتت عكس هذه الأوهام، فلم تمض أعوام إلا وتسلم أبناء البلد الحكم . وفي العدد نفسه خطاب المعتمد السامي الذي يقول إن قدوم مود مثل قدوم الإسكندر الأكبر وتراجان وخلفاء النبي وهولاكو أثراً وجلالا .

وتساءل الدكتور يوسف عز الدين : هل هذه المقالات هي التي دعت إلى تعيينه مفتشاً للغة العربية سنة ١٩٢٤ ، أو أن المقالات نشرت بغير علمه

---

(١) الرصافي – صلتي به س ١٩٤ — ١٩٥ .
(٢) مجلة الجزيرة العدد ١٢ ص ١٨ (السنة الأولى ١ نيسان ١٩٤٧ م) .
(٣) الصادر في ٦ كانون الأول ١٩٢٣ م.

وهو ذو الشخصية القوية[1]؟

وقد أحسن الرصافى صنعاً حينما أوقف جريدته بعددها الثامن والستين الصادر يوم الخميس ٢٠ كانون الأول سنة ١٩٢٣ م الموافق ١١ جمادى الأولى سنة ١٣٤٢ هـ ، وأنقذ نفسه من هذا الاتجاه الذى سارت فيه .

ونشرت « الأمل » إلى جانب المقالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية مقالات أدبية وقصائد رائعة . ونشر الرصافى فيها محاضراته الأربع : نظرة إجمالية فى حياة المتنبي ، ونظرة انتقادية فى الأدب ، وطبقات الشعراء ، وجمودنا فى اللغة .

ونشر عدة قصائد له هى : آثار العرب الخالدة ـ قصر الحمراء ـ ، وتنويمة الطفل ، وعلى جسر مود ، والشتاء ، وفى معرض نهضتنا النسائية .

وشجع فيها الحركة الأدبية والفكرية فى العراق ، ونشر قصائد وبحوثاً لكبار الشعراء والكتاب كالمرحوم جميل صدقى الزهاوى ، وحسين الظريفى الأعظمى ، والأستاذ محمد بهجة الأثرى ، والملا عبود الكرخى ، وعبد القادر الزهاوى ، وعبد الرحمن البناء ، وأمين بك ناصر ، وناجى القشطينى ، وإبراهيم فهيم الخالدى .

وأصابه هجوم عنيف من بعض الصحف العراقية كجريدة « العراق » لرزوق غنام رزوق ، و « الناشئة الجديدة » لإبراهيم صالح شكر .

أما جريدة « العراق » فقد كانت قبل أن يصدر الرصافى أمله من المقدرين لشاعريته وروحه الوطنية العالية وكانت تشيد به فى كل مناسبة وتنشر له القصائد والتعقيبات التى تدل على إعجابها بشاعريته وشخصيته القوية ووطنيته،

---

(١) مجلة العربى العدد ١١٠ ص ١١٤ (كانون الثانى ١٩٦٨ م) وفى الأدب العربى الحديث ــ بحوث ومقالات ــ ص ١٠٣ .

ولكن صاحبها ما إن سمع بعزم الرصافي على إصدار جريدته حتى كتبت «العراق» مقالا هاجمت فيه الرصافي وأمله ، ومما قالته : «أراد الرصافي أن يكون له أمل فكان له أمل . عاش الرصافي كل هذه المدة من غير أمل حتى فتح الله عليه أن وجد له أملا أخرجه من هذا المأزق الذى ظل فيه زمناً قضيض المضجع مشرد الخواطر . والرجل شاعر واسع الخيال نافذ النظر فى حجب الغيب لذلك نحن نأمل أن يكون أمله لامعاً براقاً كما تشتهى نفس الشاعر ، فيبقى علينا حينئذ أن نسأل أنفسنا إذا كان ذلك الأمل حقيقة أم خيالا ؛ لأنا نعلم أن صاحبه من أولئك الذين « فى كل وادٍ يهيمون » .... ولم يكفِ الأستاذ الرصافى أن تقلب بقلبه وعواطفه وفكره فى سماء الخيال وفى سماء أخرى كذلك كالطائر فى الفضاء ، بل قد تنقل فى بلاد الله يبحث عن أمل له عز مطلبه ، وقد حظى أخيراً بالحصول على أمله ....

ويقولون : مسكين هذا الشاعر تلعب به العواطف وتحركه اللبانات فيندفع الى حيث يجد فسحة الأمل « ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل » .

وقد اصطحب الأستاذ الرصافى فى أمله الجديد زميلا[1] عرف بآماله الواسعة وهو موضوع مقالى التالى[2] » .

وكتب الرصافى مقالا يرد فيه ما جاء فى جريدة العراق ، قال : « فى بغداد آدمى يقال له رزوق غنام يستحق أن يسمى بأبى العجب . كانت فى بغداد فترة قبل إنشاء حكومتنا العربية لا كانت من فترة صار فيها الوضيع شريفاً ، والخامل نبيها ، والجاهل معلما ، والخادم حاكماً ، والصعلوك مثريا . وكان هذا الآدمى من الذين أثروا بفضل تلك الفترة فصار صاحب ثروة بعد أن كان ما كان .

---

(١) هو المرحوم إبراهيم حلمى العمر .

(٢) جريدة العراق المسائى العدد ٣٠٤ (٣٠ أيلول ١٩٢٣ م) .

إنّ هذا لعجيب ، ولكن الأعجب منه أنه نال تلك الثروة بصيرورته شيخاً للصحافة العربية فى بغداد ، وأعجب من هذا وذاك أنه لا يعرف أن يجمع بين كلمتين من اللغة العربية . فما وجوده اليوم إلا أثر من آثار تلك الفترة المشؤومة التى أبقته لطخة سوداء فى جبين الصحافة العربية .... على أننا نعلم من هم الذين أغروا صاحب العراق بنا فسوف نوجه سهامنا إلى مغريه ونعرض عنه ولا نجاريه جرياً على عادة العرب القديمة التى قال فيها شاعرهم : « كالثور يضرب لما عافت البقر[1] » .

وظلت جريدة العراق تحاربه ، فما كان منه إلا أن وجه على الصفحة الأولى من جريدة « الأمل »[2] هذا السؤال : « إن صاحب جريدة العراق رزوق داود أنطون المتسمى أخيراً برزوق غنام يقول فى جريدته عن الرصافى أنه مستعرب مؤقتاً لنشر المبادىء الفاسدة ، وأنه لولا كرم طبع رزوق غنام ونفسه العربية الرفيعة لما سمح للرصافى المستعرب أن يعيش تحت سماء بلاده فى ظلها الظليل ويتنعم بخيراتها فى حين أننا نرى رزوق غنام جعل جريدته وقفاً للذب عن الدخلاء ولتحبيذ مهاجرة التيارية وغيرها ، فرأينا أن نرجع إلى أهل البلاد فنسألهم هذا السؤال : هل الدخلاء من التيارية وغيرهم أشرف عندكم من الرصافى وأقرب إليكم منه ؟ وهل تقبلون أن يعيش الرصافى فى بلادكم من غير استحقاق بل بمجرد سماحة رزوق غنام وكرم طبعه العربى . ويا أهل البلاد هل تصادقون رزوق غنام على أن الرصافى ليس منكم ، وأنه مستعرب مؤقتاً لنشر المبادئ الفاسدة ؟

نرجو الجواب بصراحة فان الرصافى مستعد لأن ينسحب من بلادكم عند أول كلمة منكم قائلة بالايجاب » .

---

(١) جريدة الأمل العدد الثانى (٢ تشرين الأول ١٩٢٣) .

(٢) العدد الثامن (٩ تشرين الأول ١٩٢٣ م) .

ونشرت « العراق » مقالات كثيرة تهاجم الرصافي فيها وتحط من قيمته وتشهّر به ، ولكن هذه الحملة خفت بعد سنوات قليلة ، وبدأت الجريدة تنشر له القصائد وتشيد بذكره .

وأما « الناشئة الجديدة » فقد كانت — أيضاً — تقدر الرصافي وتشيد بذكره ، وقالت حينما نشرت قصيدته « بعد براح الشام [١]» التي مطلعها :

قد صحّ عزمك والزمان مريض   حتّام تذهب في المنى وتئيض

« من بدائع الشاعر العبقري الأستاذ معروف الرصافي ، نقول مع رفائيل بطي أن كلمة « الشاعر العبقري » لا تنطبق على شاعر عصري انطباقها على الأستاذ الرصافي ويشايعنا في هذا الاعتقاد معظم أدباء العالم العربي [٢] » .

ولكن « الناشئة الجديدة » غيّرت سياستها ووقفت للرصافي بالمرصاد وشجعت الكتاب على شتمه ونشرت مقالاتهم . . وبدأت بنشر برقية من البصرة هذا نصها : « إن كان للأمل وطنية صادقة نرجوكم إرشادها بالتباعد عن الطعن بسمعة الرجال العاملين[٣] » .

وبدأت تنشر المقالات منها مقالة بقلم أديب بصري[٤]، قال فيها : « من شر ما ابتلى الله به الأمة العربية المنكودة الحظ نوابغ سوء ودعاة ضلال همهم العبث بكرامتها بأسنة مثالبهم ومطاعنهم وديدنهم نهش أعراضها بأنياب شتائمهم وسبابهم . . وهذا شأن هاجي الأمة العربية الكبير وناهش عرضها معروف الرصافي ، فانه أكبر شوكة في عين الأدب العربي وليس كما

(١) الديوان ص ٤٢٠ — ٤٢٣

(٢) الناشئة الجديدة العدد التاسع (٢٦ تشرين الأول ١٩٢٣م)

(٣) الناشئة الجديدة العدد العاشر (٢ تشرين الثاني ١٩٢٣ م)

(٤) وقع باسم (حماد) .

قيل كذباً وبهتاناً : « ألمع جوهرة فى تاج الأدب العصرى[1] » ، لأن سدى شعره خدمة الترك ولحمته معاداة العرب . وليست حملات عقوقه ومواقف غدره بخافية على الأمة . ومما يروى له أنه خاطب أحد رجال تركية بلغة أولاد جنكيز قبل الحرب بقوله : « مولاى إن داعيكم قد غسل يديه من العرب والعروبة منـــذ عشر سنوات » . وقد برهنت الأيام على صدق قوله هذا[2] » .

ونشرت[3] افتتاحية بعنوان « المعلوم والمجهول — معروف الرصافى يستجدى بشعره » ، وهى تأييد لما كتبه « حماد » فى العدد السابق ، وقد تحدثت عن عقوقه لأستاذه الآلوسى ، وقالت إنه فقير فى المال والصفات الحسنة والأخلاق الفاضلة . وإنه أوقف شعره على مدح الطغاة والفجرة أعداء الأمة والبلاد ، ومدح بعض رجال الثراء والجاه ليتصدقوا عليه بالمال كمدحه للشيخ خزعل وحصوله على أربعمائة ربية فقط ، ومدحه لفخر الدين بك جميل ، ورثائه لشاب من شبان بغداد لقاء أجر مائتى ربية .

وأشارت إلى ضعفه فى الكتابة وأغلاطه التى اتضحت فى افتتاحية العدد الأول من جريدته « الأمل » . وأنه اتخذ من جريدته وسيلة للنصب وابتزاز أموال الناس .

ووعدت أن تصدر عدداً خاصاً تضمنه شعر الرصافى المنكر ومطاعنه الشنعاء فى الأمة العربية والشخصيات الكبيرة ، ولكن جماعة عرفت بالفضل طلبت أن تضرب عن ذلك صفحا رحمة ورفقاً به . وظنت الجـــريدة أنه

---

(١) هذه عبارة الأستاذ رفائيل بطى فى كتابه الأدب العصرى ج ١ ص ٦٧

(٢) الناشئة الجديدة العدد ١٣ (٢٣ تشرين الثانى ١٩٢٣ م) .

(٣) العدد ١٤ (٣٠ تشرين الثانى ١٩٢٣م) .

سيتوقف عن التعرض لها ، ولذلك قالت : « غير أن الرصافي المخلد إلى الصّغار أبت عليه نفسه الخبيثة إلا أن يرسلها على سجيتها فتحرش بنا في « أمله » أمس مما دلنا على أنه يود أن نفتح باب المناقشة على مصراعيه . ولولا وعدنا لأولئك الملتمسين — ووعد الحر دين — لعمدنا إلى ذلك وأعلمنا الجمهور من هو معروف الرصافي[1] » .

واستمرت في حملتها ، ولم تقف عند هذا الحد بل استعدت الحكومة عليه، وكتبت في إحدى افتتاحياتها [2]. « ان سكوت الحكومة العراقية عن مساوىء معروف الرصافي وتناسيها جناياته المتتابعة هو الذي ضم اليه أولئك الأفراد ، وهو الذي غرر البعض بشهرته وأنها لو عملت بواجبات القانون في التنكيل به وبأمثاله من الخونة المارقين لجنبت بعض السذج عدوى تضليله وتدجيل أمثاله ، ولما دعت أولئك الفتيان يتغلب عليهم نزق الشباب وغرور الفتوة فيغالطون أنفسهم ليغالوها عن هذه الجرثومة الفاسدة في البلاد » .

والتزم الرصافي ـ رحمه الله ـ الصمت إزاء هذه الحملات والتشهير ، ولم يشتم أو يرد بل اكتفى بتوجيه نداء إلى الشعب العراقي[3] قال فيه : « إلى الشعب العراقي النجيب ، إلى كل أديب أريب ، إلى كل انسان شريف : أتقدم حانياً رأسي احتراماً ثم أقول : أنا ـ وأقلام البيان طوع بناني ـ غير عاجز ـ ولله الحمد ـ عن مساجلة فطاحل الأدب في آدابهم ، فكيف أعجز عن دعي من أدعياء الأدب كصاحب الناشئة . ولكني على مالديّ من قدرة بيانية أعرض بشراشري عن هذا الرجل فلا أمر بلغوه الا وأنا من الكرام ، ولا أجيبه اذا خاطبني إلاّ بسلام .

(١) العدد ١٥ (٧ كانون الأول ١٩٢٣م) .

(٢) العدد ١٧ (١٩ كانون الأول ١٩٢٣م) .

(٣) جريدة الأمل العدد ٥٧ (٨ كانون الأول ١٩٢٣ م ، ٢٩ ربيع الثاني ١٣٤٢ هـ)

لم يجر بيني وبين هذا الرجل ما يدعو الى هتك الأعراض وانتهاك الحرمات وخفر الذمم وترك الحياء الى كل قول هراء ، بل هو حتى أمس كان من المتملقين الىّ وكان يحترمني ويجلني بنفســـه وبجريدته ، غير أنه اتصل أخيراً باناس اشتروه بمال واستخدموه فى محال ، فإذا هو مكشر عن أنياب لؤمه فى وجهى . فعلىّ للأدب أن لا أجاريه فى سفاهته لعلمى بأنه آلة صماء وأن قوماً آخرين أغروه بنا وأشلوه علينا ، وما علموا ان المضرة الناشئة من شتائم « الناشئة » لاتخصنى وحدى بل تعمهم ، بل تعم المجتمع العراقى أجمع .

وان التاريخ لبالمرصاد ، ولا بدّ من يوم ينكشف فيه عن وجه الحقيقة لثامها ، وتنفذ فى قلب كل معتد أثيم سهامها . ولا أريد أن أقول لصاحب « الناشئة » سوى ماقاله الشاعر العربى القديم :

سيبقى بقاءَ الدهر ما قلت فيكمُ   وأما الذى قد قلتمـــوه فريحُ

ونشرت جريدة « الأمل » بعض المقالات التى دافعت عن الرصافى والزهاوى والعبيدى وغيرهم ممن تعرضوا لحملات « الناشئة الجديدة » .

ولم ينل الرصافى من جريدته غير السباب من جـــريدة « العراق » و « الناشئة الجديدة » وغيرهما من الصحف ، وغير الحقد والدس من الكثيرين . وعاد بخفى حنين بعد أن اصطلى بهذه النار عند عودته الى العراق ١٩٢٣ ، وكان يأمل أن يرتاح بعد أن استقدمه المرحوم عبد المحسن السعدون .

واعتزل الحياة العملية منزوياً فى فندق من فنادق بغداد[1] ، وألّف فى

(١) تنظر مجلة الحرية العدد الأول والثانى ص ٨٠ (السنة الثانية تموز ١٩٢٤) .

هذه الفترة كتابه « آراء أبي العلاء المعري » ونشرت منه فصولا جريدة « المفيد » البغدادية . وطلب اليه أن يتولى تدريس الآداب العربية في المدرسة الحربية في بغداد فرفض .

وكان المرحوم السعدون يرعاه ويعينه ، ولما ساءت حالته المعاشية نظم قصيدته المشهورة « إلى غرة آل السعدون »(١) مخاطباً عبد المحسن :

أعبدَ المحسن السعدون إني ... أراك مناط أسباب الرجاءِ
وأبصر من فعالك بدرَ تمٍ ... يلألىء من نجارك في سماءِ
لذلك قد أتيت إليك أشكو ... رثاثة بزتي وبلى كسائي
فقد رقَّتْ ثيابي اليوم حتى ... تكاد تذوب من مَسّ الهواءِ
غدت شفافة حتى كأني ... لبست بهنَّ أثوابَ الرياء
وليس العُري من ثوب معيباً ... لـكاسي النفس من حلل الاباءَ
وما ضرّ المهند فَقْدُ جفنٍ ... إذا ما كان محمود المضاء
فإن لم تدرك الأيامُ عُريي ... بثوب منك يا غمر الرداءَ
لبست قرار بيتي في نهاري ... ولم أخلعه إلا في المساءَ
فإن جاء المساء لبست منه ... ظلاماً ما تمزّق بالضياءَ
وصرت أجول كالخفاش ليلاً ... وألجأ في النهار إلى الضراء(٢)
ولست أريد ثوباً أتحميّاً ... ولا من زي أرباب الثَراء
ولكن بزة البدوي أبغي ... فمن ثوب عليّ ومن عباءَ
ومن كوفية صحبت عقالاً ... يكون الرأس منها في غطاء
فذا زي يتم به رجوعي ... إلى عيش بسيط ذي هناء

---

(١) الديوان ص ٢١٨ — ٢٢٠ ، وتنظر مجلة الثقافة الجديدة ص ٢٣ ، وشعراء العراق في القرن العشرين ص ٧٨ .

(٢) الضراء : الشجر الملتف في الوادي .

وما صيّرت ملبوسي خفيفاً   لأني خفت من ثقل الغطاء
وكيف وأنت أكرم من حباني   بأكرم ما رجوت من الحباء
ولكني رغبت عن اكتساء   يطول به من الدنيـا عنائي
وكيف يكون مطلوبي حقيراً   وأنت أجل من تحت السماء
وهل أنا غير عبـدٍ أنت منه   خصصت أبا عليّ بالولاء
لاتخذنّ إخلاصي وصـدقي   لكم من كل موبقة وقائي
وأجعل ما حييت جميل شكري   لما أسديت من نعم غذائي
ولست أرى الحياة تطيب إلاّ   بحسن تحمدي لك والثناءِ(١)
واعلم أنّ ما أشكو إليكم   يسر الماردين على عدائي
ويشمت بي الذين لهم نفوسٌ   مرضْنَ من العيوب بكل داء
ولم يشمت بأحرار البرايا   سـوى لؤمائهم والأدنياء
ولكن هوّن البرحاءَ أني   شكوت إلى جدير باشتكائي
شكوت إلى فتى جمّ المزايا   كبير النفس منفرد السناء
فتى يوليك عند البؤس خيراً   ولا ينساك في حال الرخاء
رحيب الباع مؤتلق المحيا   أصيل الرأي وقّاد الذكاء
صريح في مقاصـده إذا ما   أسرَّ القوم حسواً في ارتغاءَ
زكت أخلاقُه فصفت ورقّت   فهن لكل مكرمة مرائي
يلاقي الزائرينَ ببشر وجه   تجلل بالمروءة والحيـاء
اذا رأس البـلاد أبو عليّ   فقد وضحت بها طرق العلاء
وان ولي الوزارة وهو أهلٌ   فيا حُسْنَ السياسة والدهاءَ

(١) ظل عبد المحسن يرعى الرصافي ، وبقي الرصافي وفياً له ، وقد حياه بقصيدة « الوسام وفخامة رئيس الوزراء » الديوان ص ٢٢٠ ، وتحدث عن محاولة قتله في قصيدته « نحن في يوم حادثة الرئيس » الديوان ص ٢٢١ ، ورثاه أحر الرثاء وبكاه أوجع البكاء حينما انتحر ـ رحمه الله ـ بقصيدته « ميتة البطل الأكبر » ص ٢١٨ وقصيدته المشهورة الأخرى الديوان ص ٣٢٠ ـ ٣٢٣ ، وقصيدته « ذكرى فتى السعدون » الديوان ص ٣٢٤ـ٣٢٦

العودة الى الوظيفة :

وأحدثت هذه القصيدة ضجة فى بعض الأوساط فتأثر بذلك الملك فيصل وأوعز الى المرحوم ساطع الحصرى بإعادة الرصافى الى المعارف وكان ذلك عام ١٩٢٤م، وعين مفتشاً للغة العربية(١) فى وزارة ياسين الهاشمى. يقول الشبيبى ـ وكان وزيراً للمعارف أوانذاك ـ :« وفى سنة ١٩٢٤ زارنى الأستاذ المرحوم السيد طه الراوى وأخبرنى بأن الرصافى لا يشغل وظيفة تناسبه فرجحنا أن تسند اليه وظيفة مفتش اللغة العربية فى وزارة المعارف إذ ذاك وأعد له مكتب فى ديوان الوزارة . . . وزاول عمله هناك وكان يزور بعض المدارس ورفع أكثر من مذكرة عن حالة اللغـــة العربية وتدريسها فى مدارس بغداد ذلك الحين »(٢) .

ونقل فى سنة ١٩٢٧ إلى تدريس الأدب العربى فى دار المعلمين العالية ، واستقال عام ١٩٢٨ ولم يعد إلى التوظف حتى وافته منيته .

محاولة الهجرة :

فى عام ١٩٢٨ حاول أن يهجر العراق ويذهب إلى الهند . وقد أرسل إلى عبداللطيف المنديل برسالة فى السابع من شهر تشرين الأول سنة ١٩٢٨ يسأله رأيه فى السفر إلى مصر لطبع ديوانه ، أو إلى الهند ، أو إلى نجد لمقابلة ابن السعود ، يقول رحمه الله ـــ: «سيدى الباشا أبو ماجد : أسألكم على طريق الاستشارة وأرجو الجواب ولو مختصراً بلا أو نعم .

السؤال الأول : أريد الذهاب إلى مصر لأجل طبع الجزء الثانى من

---

(١) الرصافى ـــ صلتى به ص ١٦٣ ، وأدب الرصافى ص ٧٩ ، ومحاضرات عن الرصافى ص ٨ ، ومجلة الحرية العدد ٣ ـ ٤ س ١٩١ (السنة الأولى أيلول ١٩٢٤ م) .
(٢) مجلة الوادي العدد ١٥ ص ٨ (السنة العشرون ١٤ آذار ١٩٥٩ م) .

الديوان وقد رأيت أن أعلن ذلك فى الصحف وأن أفتح باباً للاشتراك فيه منذ الآن على أن تكون قيمة الاشتراك ربيتين لا غير . فهل من المناسب أن أقدم على هذا العمل ؟ وهل ترون أنه ينجح اذا أقدمنا عليه ؟

السؤال الثانى : على تقدير أن ما ذكرته آنفاً غير مناسب ، وعلى تقدير أنه لا ينجح ، فهل ترون من الموافق أن أسافر الى الهند ؟ وما هى الطرق التى أتمكن من النجاح فيها اذا سافرت؟

السؤال الثالث : على تقدير أن السفر الى الهند غير موافق لكم ، فهل يمكنكم أن تتعهدوا بإعداد الوسائل اللازمة لسفرى الى نجد لمقابلة الملك السعود .

هذا وأرجو أن لا أكون قد أزعجتكم بهذه الأسئلة التى أوردتها عليكم الا لكونى لا أأتمن أحداً سواكم فى هذا البلد . وتفضلوا بقبول دوام احترامى لشخصكم الكريم سيدى »[1] .

ووصل الرصافى الى البصرة بعد كتابة هذه الرسالة بقليل ، ونشرت جريدة «الاستقلال»[2] خبر وصوله ، قالت : « بلغنا أن قد وصل الأستاذ الرصافى الى البصرة وطلب اليه هناك بعض معارفه العدول عن عزمه ، وقد حل ضيفاً على معالى عبد اللطيف باشا المنديل » .

وتعهد المنديل بإرساله الى الهند ، ولكنه تلقى كتاباً من عبـــد المحسن السعدون يطلب اليه أن لا يسهل مهمته[3] ، وعاد الى بغداد فى العام نفسه[4] .

---

(١) تنظر الرسالة فى كتاب الرصافى فى أعوامه الأخيرة ص ٩٤ .

(٢) العدد ١٣٢٤ (السنة التاسعة ١٠ تشرين الأول ١٩٢٨ م ، ٢٥ ربيع الثانى ١٣٤٧ هـ) .

(٣) الثقافة الجديدة ص ٢٣ ، وشعراء العراق ج ١ ص٧٨

(٤) كتبت جريدة الاستقلال العدد ١٣٤٣ (السنة التاسعة ١ تشرين الثانى ١٩٢٨)م تقول : « عاد إلى العاصمة حضرة الأستاذ الفاضل شاعرنا الكبير معروف أفندى الرصافي فأهلا به » .

وتحدثت الصحف عن هذه الهجرة فكتبت جريدة «العراق»(١) تقول :
« سئم حضرة الأستاذ الرصافي حياته في التدريس وثقلت عليه الأعباء التي وضعت على كاهله فاعتزم الرحيل عن هذه البلاد . وعاد الى داره فأخذ حقيبته وليس له شيء سواها ، وفيها دواوينه وبعض الكتب التي يحتفظ بها وغادر بغداد — كما يعرف القراء — وهو لا يدري الى أين يتوجه . ثم كان من أمر سفره ما كان من تدخل فخامة رئيس الوزراء(٢) بإرجاعه الى بغداد قبل أيام ، وانزوى في داره ، وكنا نعتقد أن وزارة المعارف ستقدر منزلة الأستاذ وترفع عنه ما يتشكى منه . تعني به وهو شاعر العراق وأديبه الخالد ، غير أننا قد علمنا أن استقالة الأستاذ من التدريس قد قبلتها وزارة المعارف .

وعزيز على أبناء البلاد أن يروا شاعرهم الكبير في حيرة من الحياة وفي هذه الضيقة التي يتألم منها ، بينما يرون شذاذ الآفاق يعيشون في هذه البلاد مغتبطين بريع يدرّ عليهم الخيرات والبركات . ومن هوان الدنيا أن يكون الشاعر الخالد في هذه البلاد منسياً من قومه ، مهملا من حكومته فعسى أن تعرف الحكومة أن الأستاذ أولى بالاكرام من كل أحد ؛ لأنه شاعر المجد والخلود » .

وكتب شكري الحماني مقالا بعنوان « أسباب طيران بلبل العراق الغريد الأستاذ الرصافي إلى جهة غير معلومة »(٣). وذكر أنه كان أبياً يرغب في وظيفة حرة بأقل من راتب التدريس؛ لأن الدراهم لا قيمة لها عنده . وقال: « إن بعض طلاب الدار المذكورة - دار المعلمين العالية - أساءوا الأدب معه قبل سفره

---

(١) العدد ٢٦٠٢ (السنة التاسعة ٥ تشرين الثاني ١٩٢٨ م) .
(٢) هو المرحوم عبد المحسن السعدون .
(٣) جريدة الاستقلال العدد ١٣٢٩ (السنة التاسعة ١٦ تشرين الثاني ١٩٢٨ م)

بضعة أشهر فترك التدريس بضعة أيام ؛ لأن عنده عزة نفس وإباء وشمم وقلما تجتمع فى غيره ، وشعور حى وعواطف رقيقة حساسة تتأثر من النسيم اذا هبّ بخلاف هواه . وبناءاً على التماس سعادة مدير المعارف العام طه بك الهاشمى وبعض الإخوان عاد الى التدريس » .

ورد الأستاذ « مصطفى على » ما ذكره الحمانى ، وخلاصة ما قال[١] : إن الرصافى ضاق ذرعاً بوطنه بعد أن رأى ما رأى فأراد الابتعاد . ثم قال: « ان الشعور الحى والعواطف الرقيقة الحساسة التى خبرتها نفس الأستاذ لم تحسن فهمها أيها الرجل ، فليس هـذا موقعها ، وانما هى فى نفسه المتألمة لمصاب بلاده وحالتها السيئة ، وفى جوانبه المتأججة أسى أن لا يرى بلاده فى المنزلة التى يهواها لها ، وفى عبقريته الفذة التى ورثها عن أكبر شاعر عربى أعجب به الأستاذ الرصافى ألا وهو أبو العلاء المعرى ، وفى تلك الروح التى شاركه فيها فنظر الى الحياة وبؤسها والى الإنسانية المعذبة وشقوتها فتبرم وتألم ، واحتقر الحياة ، ورأى فيها شبحاً مخيفاً سـعيد من ابتعد عنه بكل ما أوتى من قوة وحول . فأبو العلاء سعيد بفقدانه لبصره ، كما أن الرصافى رأى السعادة فى ابتعاده ولو بعداً نسبياً عن هذه الصور المخيفة . فعواطف الرصافى واحساساته أكبر من أن تقدرها أيها الكاتب وإن ادعيت قربك من شخصيته ، اذ ليس كل قرب قرباً » .

فى مجلس النواب :

بقى الرصافى بعيداً عن الوظيفة ، وفى عام ١٩٣٠ م انتخب نائباً عن لواء العمارة[٢] ، وانتخب فى هـذه الدورة عضواً فى لجنة أمور المعارف ،

---

(١) جريدة العراق العدد ٢٥٨٧ (السنة التاسعة ١٨ تشرين الأول ١٩٢٨) .

(٢) نواب لواء العمارة فى هذه الدورة هم : محمد العربى وفالح الصيهود ومعروف الرصافى وعبد الكريم الديوان . (الزمان العدد ٢٨٧ (السنة الأولى ٢١ تشرين الأول ١٩٣٠) وجريدة العراق العدد ٣٢٠٨ « السنة الحادية عشرة ٢١ تشرين الأول ١٩٣٠) .

وعضواً فى لجنة مكتبة المجلس النيابى ، وضم الى لجنة الجواب على خطاب العرش[١].

ونال تكريماً من محبيه وكتب اليه المرحوم ابراهيم حلمى العمر رسالة يهنؤه فيها[٢] . وأقام له أهالى العمارة مآدب تكريمية وكان منها مأدبة زميله فى النيابة الشيخ محمد العربى[٣].

وكان جريئاً فى المجلس وقد عارض معاهدة ١٩٣٠ معارضة قوية[٤] ، وأبدى رأيه فى شعار الدولة وقال فيه : « إن الشكل الذى رأيته فى اللوحة هو شكل خارج عن الذوق كشكل خفاش مفتوح الجناحين وقد كسر جناحاه . فأطلب احالة اللائحة إلى لجنة اختصاصية للتصحيح[٥]» . وعارض لائحة تخفيض رواتب الموظفين ، ورأى أن لا تخفض رواتب الذين تقل رواتبهم عن (١٠٠ روبية) ، وأن الحكومة تستطيع أن تعالج العجز بالاقتصاد من مصروفات الجيش . قال : « فاسترحم أن ينظر إلى صغار الموظفين لا صغار الموظفين الذين يتقاضون (٣٠ أو ٤٠ روبية) فقط ، بل مائة روبية فما دون ، ولا يقطع من الراتب إلا ما زاد على (١٠٠)[٦]» .

وتحدث عن لائحة قانون المطبوعات ، وقال : « أنا أعلم أن الصحافى الذى ينشر فى جريدته ما يضر بسلامة الدولة عقابه الاعدام ، وهذا الجزء مضمون فى قانون العقوبات البغدادى ، ولهذا أرى أن الغاء هذه المادة هو الصواب » .

---

(١) جريدة العراق (العدد السابق) .

(٢) جريدة الزمان العدد ٢٨٨ (السنة الأولى ٢٢ تشرين الأول ١٩٣٠) .

(٣) جريدة الزمان العدد ٢٨٩ (السنة الأولى ٢٣ تشرين الأول ١٩٣٠م) .

(٤) سنتحدث عنها فيما بعد .

(٥) جريدة نداء الشعب (البلاد) العدد ٣١٩ (السنة الثانية٢ كانون الأول ١٩٣٠م).

(٦) جريدة نداء الشعب (البلاد) العدد ٣١٨ (السنة الثانية ١ كانون الأول ١٩٣٠).

وقال : «كنا ننتظر أن تأتى الحكومة بلائحة قانون المطبوعات ترفع عنها كابوس المادة «٢٣» الثقيل ، ولكن جاء هذا القانون وفيه مادة تشبه تلك المادة . وقد جاء فيها : «يضر بالأمن الداخلى والخارجى» ، والمادة «١٦» من القانون الجديد تقول : «بسلامة الدولة» . وأنا أرى أن الذى يرتكب مثل هذا الجرم يساق إلى المحاكم ، والمحاكم هى تنظر فى القضية»[١] .

وانتخب نائباً عن بغداد بعد ذلك ، ولم يرشح فى مجلس ١٩٢٤ م . ثم انتخب بعد هاتين المرتين نائباً عن لواء الدليم ثلاث مرات .

الأولى : عام ١٩٣٥[٢] ، وانتخب عضواً فى لجنة أمور المعارف[٣] . وحل المجلس بعد انقلاب بكر صدقى فى ٢٩ تشرين الأول سنة ١٩٣٦ م[٤] .

الثانية : عام ١٩٣٧ م[٥] ؛ وحل هذا المجلس بعد اغتيال بكر صدقى[٦] .

الثالثة عام ١٩٣٧ م[٧] ، وبقى الرصافى نائباً حتى حلت هذه الدورة[٨] ولم يعد بعدها إلى المجلس النيابى .

---

(١) جريدة العراق العدد ٣٣٨٠ (السنة الحادية عشرة ١٥ أيار ١٩٣١ م).

(٢) نواب لواء الدليم فى هذه الدورة هم : على السلمان ، ومشحن الحردان ، ومعروف الرصافى ، وخميس الضارى ، وتوفيق برتو . (تنظر جريدة البلاد العدد ٦١٦ (السنة السادسة ٥ آب ١٩٣٥ م ، وجريدة العراق العدد ٣٩٤٧ (السنة الرابعة عشرة ٥ آب ١٩٣٥م).

(٣) جريدة البلاد العدد ٦٣٢ (السنة السادسة ١٢ آب ١٩٣٥) .

(٤) صدرت الارادة الملكية بحله يوم السبت (١٣ تشرين الأول ١٩٣٦ م الموافق ١٦ شعبان ١٣٥٥ هـ) .

(٥) نواب هذه الدورة عن لواء الدليم هم : على السلمان ، ومشحن الحردان ، وخميس الضارى ، ومعروف الرصافى ، وكمال السنوى . (البلاد العدد ٨٠٤ السنة الثامنة ٢١ شباط ١٩٣٧م) .

(٦) صدرت الارادة الملكية بحله يوم الخميس ٢٦ آب ١٩٣٧ ، الموافق ١٩ جمادى الآخرة ١٣٥٦ هـ

(٧) نواب هذه الدورة هم : معروف الرصافى ، ومشحن الحردان ، وكمال السنوى ، وخميس الضارى ، ونجيب الراوى ، (البلاد العدد ١٠٤٧ السنة التاسعة ١٩ كانون الأول ١٩٣٧ م)

(٨) صدرت الارادة الملكية بحلها يوم الأربعاء ٢٢ شباط ١٩٣٩ م الموافق الثانى من شهر محرم ١٣٥٨ .

وقد صور نواب هذا المجلس بقوله :

وشامخ الأنف ما ينفك مكتسياً
ثوب التكبر فى بحبوحة النادى
قد لازم الصمت عيّاً فى مجالسه
كأنما هو من نواب بغداد (١)

وتحدث عن المجلس فقال :

عَلمٌ ودستورٌ ومجلسُ أمةٍ ... كلٌ عن المعنى الصحيح محرفُ
أسماء ليس لنا سوى ألفاظها ... أما معانيها فليست تعرف
من يقرأ الدستور يعلمْ أنه ... وفقاً لصك الانتداب مصنف
من ينظر العلم المرفرفَ يلقه ... فى عز غير بنى البلاد يرفرفُ
مَنْ يأت مجلسنا يصدّق أنه ... لمراد غير الناخبين مؤلف(٢)

وتحدث عنه فى « الرسالة العراقية » وأشار إلى طبيعة الانتخابات التى ترافق عملية اختيار النواب ، وأنه لم يكن مؤلفا من أحزاب سياسية مختلفة فى مبادئها متعارضة فى سياستها كما هو شأن المجالس النيابية عند الشعوب الحرة وانما يضم حزباً واحداً هو حزب الحكومة لا غير ، فمبدؤه مبدأ الحكومة وسياسته سياستها ، وبعبارته : « هو فى كل ما تعرضه عليه الحكومة رهن إشارتها ، فإن أشارت عليه بالقبول قبل ، أو بالرفض رفض ، وخلاصة القول أنه لا يمثل الشعب تمثيلا صحيحاً »(٣) .

---

(١) الديوان ص ٢٩٥ ، وينظر مع الرصافى الثائر ص ٧٢ .

(٢) الديوان ص ٤٦١ — ٤٦٢ .

(٣) الرسالة العراقية ص ٣٦ (نسخة الأستاذ عبد الله الجبورى) ، وينظر كتاب آراء الرصافى فى السياسة والدين والاجتماع ص ٢٩ .

الفصل الثانى

العـــزلة

فى الفلوجة :

قال الرصافى : « لم أتوظف حتى سنة ١٩٣٠ م ، فانتخبت نائباً فى المجلس الذى صدّق معاهدة ١٩٣٠ فعارضت المعاهدة فبقيت نائباً فى ذلك المجلس ثم انتخبت مرة ثانية . ولما لم أرشح مرة أخرى للنيابة بقيت مدة من الزمن محتاراً فى أمر معيشتى حيث أن راتبى كان لا يزيد على الـ (١٢ ديناراً) ، فقررت أن أهجر بغداد لسببين :

الأول : أن راتبى لا يكفينى فى بغداد .

والثانى : أردت أن أشتغل اشتغالات فكرية بعيداً عن صخب العاصمة. فقررت الذهاب إلى الفلوجة فذهبت إلى هناك سنة ١٩٣٣ أو سنة ١٩٣٢[1]، وبقيت هناك أشتغل بكتابى « الشخصية المحمدية » حتى سنة ١٩٤١ م ولما وقعت الحرب بين العراق والانكليز اضطررت الى العودة إلى بغداد »[2] .

وكان قد رغب فى الهجرة إلى بعقوبة إلا أن السيد عبد الحميد كنه جعله يعدل عنها ، وحبّذ له الإقامه فى الفلوجة ، وسافر إليها واستأجر دار الحاج مهدى الطيار وأنزل صديقه الرصافى فيها . ولما اشترى

---

(١) هاجر الرصافى إلى الفلوجة سنة ١٩٣٣ م ، قالت جريدة الاستقلال تودعه العدد ١٨٤١ (الأربعاء ١٥ آذار ١٩٣٣ ، ١٩ ذو القعدة ١٣٥١ هـ) : « فاذهب بسلام إلى الفلوجة يا أستاذ ، ولا تيأس ولا تأسف فهذه هى حال الأديب العبقرى الفنان ، وما ذلك إلا لأن البشرية عامة ناكرة جاحدة » .

(٢) مجلة الثقافة الجديدة العدد الأول ص ٢٣ (نيسان ١٩٥٤ م) وشعراء العراق فى القرن العشرين ج ١ ص ٧٨ .

السيد عبد العزيز عريم الدار المطلة على الفرات تشوّقه للانتقال اليها فوافق واستقر فى دار آل عريم إلى أن هجر الفلوجة .

قضى الرصافى أعوامه فى الفلوجة بالمطالعة والتأليف وزيارة الأصدقاء واستقبال الزائرين والترحيب بهم ، وكان يتردد إلى ديوان آل عريم المطل على الفرات . وقد وصف هذا الديوان بأبيات نقشت على صدره وهى :

ديوان آل عُريمٍ — خير الدواوين مبنى
على الفرات مطلٌّ — يحكيه فيضاً وحسنا
إن جاءه الضيف يوماً — أطال شكراً وأثنى
من قبل كان علىّ — فيه يقوم ويعنى
واليوم بابن على — فيه الفخار يكنى
بشرى لآل عُريمٍ — فذكرهم ليس يفنى (١)

الأعوام الأخيرة :

بقى الرصافى فى الفلوجة يقرأ ويؤلف حتى قامت ثورة رشيد عالى الكيلانى فى مايس ١٩٤١ ، ولما دخل الإنكليز الفلوجة غادرها فى أيار من العام نفسه وعاد إلى بغداد ، ونزل فى ضيافة صديقه خيرى الهنداوى إلى أن اتخذ له داراً ، ثم انتقل بعد ذلك إلى دار فى الأعظمية . وكانت هذه الدار تنطق بالخصاصة والبؤس ، وقد بقى فيها إلى أن توفاه الله .

عاش فى بغداد فى حالة ضيق ونكد ، ويبدو أن هذا كان يلازمه قبل العودة وأن العجز المالى كان يقعده عن السفر والاصطياف . كتب إلى المرحوم طه الراوى بتاريخ (١١ تموز ١٩٣٨) قائلا : « ان العجز المالى

(١) الرصافى فى أعوامه الأخيرة ص ٩٣ ، ومعروف الرصافى لطبانة ص ٥٩ .

قد أقعدني عن ارتكاب فاحشة الاصطياف في سورية ، فويل ثم ويل للعاجزين عن هذه الفاحشة » (١)

وكان تقاعده لا يزيد على (١٨) ديناراً(٢)، ووصل به الأمر في السنوات الأخيرة إلى أن يطالب من الأصدقاء ما يسد به عوزه بعد أن لحقت ضريبة الدخل بتقاعده وارتفعت الأسعار بسبب الحرب وكتب إلى الأستاذ سعيد البدري عدة رسائل يطالب منه إبلاغ عبد العزيز المانع بارسال مساعدة له وبرّ الرجل وأرسل إليه مبلغاً من المال استعان به على الزمان وعادياته(٣).

ولم يكن أمامه بعد هذا الضيق إلا أن يلجأ إلى بيع السكاير عام ١٩٤٣م، وفتح دكاناً في محلة السفينة بالأعظمية ، وكان يقتات من تقاعده ومما يدره عليه الدكان (٤) . ولم يستمر في بيع السكاير ووقع في ضائقة شديدة فكتب إلى الأستاذ كامل الجادرجي بتأريخ (١٧ نيسان ١٩٤٤م) طالباً منه التوسط للحصول على اجازة صنع السكاير . يقول في هذه الرسالة : « مولانا السيد كامل المحترم : انقطعنا عن بيع السكاير منذ شهرين أو أكثر فعدنا إلى ما كنا عليه من الضنك في المعيشة . وتعلمون أننا استعضنا عن ذلك بأخذ اجازة صنع السكاير ، ولكن هذه لم تخرج حتى الآن عن طور المواعيد بلا قبض وقد علمنا أن إدارة الانحصار الآن مشغولة بتجديد الاجازات وأنها تلغي الاجازات القديمة فأخشى أن تلغي أجازتنا قبل أن نستعملها ولو مرة واحدة. ونحن لم يبق لنا من وسيلة للارتزاق سوى هذه ، فعسى أن تكلموا يوسف بك في ذلك فتحولوا دون الغاء الاجازة .

---

(١) مجلة الوادي العدد ١٥ ص ١٤ (السنة العشرون ١٤ آذار ١٩٥٩ م) .

(٢) مجلة الأديب العدد ٥ ص ٣٦ (مايس ١٩٤٥ م) .

(٣) تنظر الرسائل المتبادلة بين الرصافي والبدري في كتاب الرصافي في أعوامه الأخيرة ص ٧٥ — ٨٦ .

(٤) ينظر القافلة ص ١٢ .

وتالله لولا الضرورة لما أزعجتكم بالمراجعة ، فأرجو عفوكم ولا زلتم أهلا للفضل والاحسان»[1] .

ووصف الرصافي حاله ومرضه فى الرسائل التى أرسل بها إلى مظهر بك الشاوى، يقول فى رسالته المؤرخة (٢تشرين الثانى ١٩٤٤م): «واعلم أيها الشهم الهمام أننى اليوم أعيش فى حياة معتلة وصحة مختلة ، وفى آخر أيام الحياة ولم يبقَ عندى شيء من آمالها ولا من لذتها سوى آلامها، ولذا أصبحت الماديات لا قيمة لها عندى فلا أنظر اليها إلا فى الدرجة الثانية من أمور الحياة ، وإنما يهمنى وينعش نفسى وينفس كربى عطفكم علىّ وعنايتكم بى واهتمامكم بأمرى، فهذا عندى لا تعادله الدنيا بجميع زخارفها ، أما الدنانير والثياب الفاخرة فتأتى فى المرتبة الثانية فى نظرى . ولا تحسبوا هذا زهداً منى فى الدنيا، كلا، بل هو مقت لها وتذمر من أهلها الذين نسيت نفسى لأجلهم وقضيت عمرى فى البكاء على ما نابهم ، وما أنا بنادم على ذلك ، بل أحمد الله تعالى عليه كل الحمد ، وأنا الذى أقول خطاباً لأبناء الوطن :

يالاهجين بشتمى فى مجالسهم ... ناموا على الأمن فى أحضان غفرانى
لا تحسبونىَ منكم جازعاً ضجراً ... وإن يكن شظفى فى العيش أضوانى[2]

وكتب اليه بتأريخ (٤ كانون الثانى ١٩٤٥) قائلا : «أما أنا فبالنظر إلى كونى مختل الصحة ، عديم الراحة ، معتلج الهموم مضطرب الجنان ، أرانى هامة اليوم أو الغد ، قائماً على شفير القبر انتظار يومى المحتوم فلا تعلق نفسى بأمل ولا تسكن إلى رغبة . ولكنى — ولله الحمد — مطمئن النفس بأنى سألاقى ربى بوجه أبيض وقلب سليم وسريرة نقية ، ذلك لأنى قمت بالواجب بحسب المستطاع ، حتى نسيت نفسى . ولم أقصد فى كل ما قلت

---

(١) مجلة الوادى العدد ١٥ ص ١٣ (السنة العشرون ١٤ آذار ١٩٥٩ م) .

(٢) صفحات من حياة الرصافى وأدبه ص ٢٨ .

أو فعلت إلا منفعة وطن عشت فيه ، وقوم نشأت بينهم . أنا اليوم في السبعين ولقد قضيت أكثر من خمسين عاماً في غناء ونواح بالشعر ، فطوراً أتغنى بمجد العرب والاسلام ، وطوراً أنوح على ضياعه منذ أيام عبد الحميد الظالم المستبد . كانت صحف مصر تنشر لي من القصائد الصاخبة ما يحير الألباب ويشنج الأعصاب حتى ادعى بعض الصحافيين بأن معروف الرصافي اسم مستعار غير حقيقي وإلا فكيف تنشر هذه القصائد وصاحبها معلوم في بلاد تغتال فيها الأحرار ولا حرية فيها للأفكار .

فلما جاءت دولة العرب — كما يزعمون — كان جزائي منها جزاء سنمار حتى اضطرتني أن أقول :

ويلٌ لبغداد مما سوف تذكره عني وعنها الليالي في الدواوين
لقد سقيتُ بفيض الدمع أربعها على جوانب وادٍ ليس يسقيني[1]

وكان الشيخ مظهر الشاوي قد أعانه في أيامه الأخيرة بعد أن قرأ ما كتبه الأستاذ مهدي القزاز في مجلة الأديب البيروتية[2] عن حالته ، يقول الأستاذ القزاز : « رأيته قبل مدة في إحدى الأماسي يسير على ضفاف دجلة في الأعظمية ، وكان منحني الظهر يتوكأ على عكاز من الخشب البالي يرتدي الكوفية والعقال والعباءة والنعل وهي من القدم وكثرة الاستعمال بحيث لا يكاد يظهر لونها فلم أعرفه بادىء الأمر وإنما تخيلته رجلا بدوياً قذفت به الصحراء إلى المدن . ولكن عندما صافحته ورأيت عينيه البراقتين وأنفه الأشم عرفت أن هذا البدوي الغارق في تأملاته هو الشاعر الرصافي .

كان يسير وحيداً تظهر عليه علامات البؤس والشقاء واضحة جلية في حين كانت القصور الرابضة على شاطىء دجلة والأضواء المتلألأة من نوافذها ،

(١) المصدر السابق ص ٣٣ — ٣٤ .
(٢) الجزء التاسع ص ٤٥ وما بعدها (أيلول ١٩٤٤ م) .

والسعادة المخيمة على نوافذها تبين عن نعمة وثراء ، والشاعر الكبير لايكاد يجد قوته الضروري أو يجدد ملابسه الرثة ذات الخروق العديدة .

اضطر الشاعر قبل أسابيع لمرض نزل به نتج عن سوء التغذية وقلة العناية أن ينزل مستشفى العزل بجانب الكرخ من بغداد ، وهذا المستشفى خصص لايواء الأشخاص الذين يبتلون بمرض خطر سار ، فقلقت قلوب المحبين والمقدرين لهذا الشاعر وظروفه وما نكبته الأيام من قسوة وسوء حال متلهفين لسماع أخباره وأدوار مرضه متمنين شفاءه » .

وهزت هذه الكلمات المرحوم مظهر الشاوى وهو فى معتقله فى العمارة عام ١٩٤٤ م وقال عندما قرأه : « فاقشعر جلدى ووقف شعر رأسي وخجلت أن تكون فى العراق خمسة ملايين نسمة وفيهم شاعر ويعجزون عن أعاشته فكتبت من فورى إلى وكيلى فى مزارعى الملا عبد الهادى طلبت فيه ان يبتاع ثلاث كسوات عربية كاملة وأن يصنع للرصافى « مخصرة » من الأبنوس مفضضة ويطعمها بالذهب ويكتب عليها أنها هدية الشاوى لصديقه الرصافى. وتمّ ما أردت فشكرنى الرصافى بقصيدة ثم خصصت له راتباً شهرياً قدره أربعون ديناراً عراقياً ظلّ وكلائى يدفعونه له . ثم قصدت كاتب العدل فأوصيت أن يستقطع من تركتى هذا المبلغ ويدفعه إلى الرصافى ما دام حياً إذا عاجلتنى المنية قبله ، ولكنه انتقل إلى رحمة ربه ، وأنا لا أزال رهين المعتقل »[1] .

وتركت هذه الالتفاتة ثلاث قصائد قالها الرصافى فى مظهر الشاوى ، وأربع رسائل كتبها اليه .

أما القصائد فالأولى رائية مؤرخة فى ٢٤ تشرين الأول ١٩٤٤ ، ذكر

---

(١) صفحات من حياة الرصافى وأدبه ص ٢١ .

فى مطلعها : « لما بلغ مظهر بك الشاوى وهو معتقل فى العمارة أن الرصافى يعانى ضنك العيش أرسل إليه مائة دينار ، فكتب الرصافى إليه كتاباً يشكره فيه » والقصيدة هى التى يقول فيها :

إلى مظهر الشاوىّ منى تحية | كأخلاقه فيها الثناء المعطّر
فتى مدّ فى أعلى المفاخر باعه | فأدرك ما إدراكه متعذر

ويقول :

سأشكرك الشكر الذى أنت أهلُه | وإن كان شكرى عن نوالك يقصر
وأجعل قرص الشمس عند طلوعها | علامة شكر كل يوم يكرر
إذا ذرّ قرن الشمس كل صبيحة | تلا قرنها شكر كوجهك مزهر [1]

والثانية فائية مؤرخة فى ١ تشرين الثانى ١٩٤٤ ، وفيها يقول :

إليك يا مظهر الشاوى مغلغلة | فيها الثناء لكم كالدر فى الصدف
تأتيك تحمل إجلالا وتكرمة | من شاعر شاكر بالصدق متصف [2]

والثالثة يائية مؤرخة فى ٢ شباط ١٩٤٥ عنوانها «عصاى فتية» [3] وهى :

أنا شيخ وذى عصاى فتيّه | قد أتتنى من مظهر لى هديّه
صاغة الصابئين قد ألبسوها | حلية ذات صنعة عبقريه
وشّحوها من مُظهر بكلام | مُعرب عن مودة أخويه
هى تحكى عصا ابن عمران قدراً | فلذا صيغ رأسها رأس حيّه
فسأمشى بها قوياً سويا | بعد ما كنت ماشياً كالحنيه

(١) المصدر السابق ص ٢٢ — ٢٣ ، ومعروف الرصافى لطبانة ص ٦٢ .

(٢) المصدران السابقان ص ٢٤ — ٢٥ ، ص ٦٣ ، وذكرى الرصافى للرشودى ص ١٥٨ .

(٣) الديوان ص ٥٥٢ ، والمصدران السابقان ص ٢٦ ، ص ٦٣ — ٦٤ .

وستبقى الذكرى بها لأخاء موثق بالوشائج الأدبيه
شرف قد أفادنيه إخائى لكريم من أسرة حميريه

أما الرسائل فهى أربع : الأولى مؤرخة فى ٢ تشرين الثانى ١٩٤٤ ، والثانية مؤرخة فى ١٢ تشرين الثانى ١٩٤٤ ، والثالثة مؤرخة فى ٢ كانون الأول ١٩٤٤ ، والرابعة مؤرخة فى ٤ كانون الثانى ١٩٤٥ (١) ، أرسلها فى ٣١ كانون الثانى ١٩٤٥ بعد أن أضاف إليها قوله : « قبل يومين أرسل إلىّ حمدى الباجه جى رئيس الوزراء رجلا يخبرنى بأنه سيقدم لائحة إلى المجلس بتخصيص راتب إلىّ . أما أنا فقلت له هذا لا لزوم له وما أدرى ماذا سيكون » .

واهتم الرأى العام والصحافة بالرصافى فى هذه الفترة ، ووجه فى ٢٧ كانون الثانى ١٩٤٥ م إلى الصحف وكتابها نداءاً هذا نصه : « أرى بعض الصحف — هنا وفى الخارج — تكتب عنى من حين إلى آخر فتذكر أنى فى عوز أعانى منه الفقر والسقام ، وأنى فى ضنك من العيش . ثم هى بعد ذكر ذلك تستعطف الحكومة علىّ ، كأن من واجبات الحكومة أن تسد عوز المعوزين إلى غيرذلك من الأقوال التى لاتجارى الواقع ولا تنطبق على الحال.

أما أنا فأقول : لا شك أن ما تقوله عنى تلك الصحف صادر عن نية حسنة وعاطفة شريفة تستحق الحمد والثناء ، ولكن هذا لا يمنعنى أن أقول بأنه غير صحيح . نعم أنى ذو صحة مختلة أحيا حياة معتلة ، ولكنى — والحمد لله — غير محتاج ولا يعوزنى شىء من مقومات الحياة . وكل ما هنالك أنى أعيش كفافاً ، ولم يكن عيشى كذلك فى هذه الأيام بل تعودته منذ زمان طويل متبعاً فيه قول أبى العتاهية :

---

(١) تنظر هذه الرسائل فى كتاب صفحات من حياة الرصافى وأدبه ص ٢٧ — ٣٦ .

حسبك مما تبتغيه القوت ما أكثر القوت لمن يموت

فأرجو من كتاب الصحف أن يكفوا ، ومن قرائها أن لا يكترثوا لمثل هذه الأقوال وأنا — وإن شكرت لتلك الصحف اهتمامها بى — استنكر استعطافها الحكومة علىّ إذ لاعلاقة للحكومة بهذا الأمر إن صح ما يقولون فأرجو أن تحول اهتمامها إلى ماهو أهم وأعم من الأمور » . (١)

ونظم فى أعوامه الأخيرة عدة قصائد فى موضوعات مختلفة ، ولكن أهمها قصيدته « شكر فى مناحة » التى نشرت فى الديوان بعنوان « عتاب وولاء » (٢) من غير اشارة إلى المناسبة التى قيلت فيها أو الشاعر الذى وجهت إليه .

وقصة هذه القصيدة أن الأستاذ نعمان ماهر الكنعانى أرسل إليه بقصيدة فى ١٢ تشرين الأول سنة ١٩٤٣ م) يقول فيها :

ما نال ما نلت أصحاب الملايين يا خالد الذكر فى دنيا الدواوين
خلدت ذكراك فى شعر وفى أدب وإن من خلداه غير مغبون (٣)

فاهتز الرصافى وتأثر كثيراً ونظم قصيدة « شكر فى مناحة » فى ١٤ تشرين الأول ١٩٤٣ م وقال فيها « إلى الشاعر المفضال الأستاذ نعمان ماهر الكنعانى » ، وهى (٤) :

---

(١) جريدة البلاد العدد ٢٤١٨ (السنة السادسة عشر ٢٨ كانون الثانى ١٩٤٥ ، الموافق ١٣ صفر ١٣٦٤ هـ) . وينظر كتاب معروف الرصافى — حياته وأدبه السياسى الواعظ ص ٨٩ .

(٢) ينظر ديوان الرصافى ص ١٧١ — ١٧٤ ، وذكرى الرصافى ص ١٧٣ـ١٧٧ .

(٣) تنظر القصيدة فى الرصافى فى أعوامه الأخيرة ص ٢٢ ، وذكرى الرصافى للرشودى ص ١١٠ — ١١٢ .

(٤) نقلنا القصيدة من نسختها الأولى المكتوبة بخط الرصافى ، والموجهة إلى الأستاذ الشاعر نعمان ماهر الكنعانى ، حرصا على تقديمها كما كتبها الشاعر .

اقيم راية تحميدى وشكرانى ... للشاعر الصادق الإحساس نعمان
أقيمها رمز تعظيم على نشز ... من القريض رفيع ليس بالدانى
للشهم ذى الحسب الزاكى بمحتده ... فرع الذؤابة من علياء عدنان
من جاءنى بقواف جد زاهية ... كمثل أزهار روض ذات ألوان
قد زانهن بوشى من بدائعه ... حتى اتسقن بأنغام وأوزان
لما شدون بموسيقى براعته ... مازجن فى الشدو ألحاناً بألحان
ينوط بالسمع من ألفاظها درراً ... ويزدهيك من المعنى بأفنان
لقد فعلن بنفسى حين أنشدها ... ما يفعل الماء فى أحشاء ظمآن
فقلت والنفس تطفو فى مسرتها ... حيناً وترسب أحيانا بأحزن
ياشاعراً تطرب الدنيا نشائده ... كيف ابتدعت نشيداً هاج أشجانى
أنشدتنيه رقى تحكى بروعتها ... حسن الفرائد فى أسلاك عقيان
شعر يفيض شعوراً قد نكأت به ... قرحاً قديماً بقلبى كان أدمانى
إن كان بالشجن الماضى يذكرنى ... فإنه عن شجون اليوم سلانى
هذا لعمرك شعر قد سررت به ... وإن يكن هاج بى شجواً فأبكانى

• • •

إليك أرسل يا نعمان قافية ... تنبيك عن شغفى فى حب أوطانى
أشربت حب بلاد ما نشأت بها ... إلا لأدفع عنها كل عدوان
أخلصت حبى لها حتى نسيت به ... نفسى وأهلى وأحبابى وخلانى
ياموطناً لست منه فى موادعة ... عش بعد موتى عيش الوادع الهانى
فكل من فيك تعنينى سعادتهم ... وكل أبنائك الأعداء إخوانى
إن سرك الدهر يوما سرنى وإذا ... آذاك بالمزعجات الدهر آذانى
ما ضرنى أن كل الناس تحقرنى ... إن كنت أنت جليل القدر والشان
وليس ينفعنى عز ولا شرف ... إن لم تكن أنت ذا عز سلطان
لو ملكونيك عن قهر بلا ثقة ... ما كنت غير ظلوم فيك خوان

آليت منذ بلغت الحلم فى وطنى ... أنْ لا أقابلَ نعماه بكفرانِ
وأنْ أكونَ له عَوناً أوازره ... بالنصر أولَ أنصار وأعوان
إنى وإنْ لم أوفق فى تحرره ... بنيتُ المجد فيه خير بنيانِ
لولا التعاونُ بين الناس ما شرفتْ
نفسٌ ولا ازدهرت أرضٌ بعمران
لولا التعادى الذى تشقى الوحوش به ... ما كان أفضلَ منها كلُّ إنسانَ

• • •

يا قومُ إنى من الدنيا ضحيتكم ... فقرّبوا من حياتى كلَّ قربان
واستنصروا الله وادعوه لينقذكم ... مما بكم حلَّ من هُون وخسران
لا تحسبونىَ منكم جازعاً ضجراً ... وإنْ يكن شظفى فى العيش أضوانى
إنى ألِفْتُ على الأيام محنتى
فالنُّعم والبؤسُ عندى اليوم سيّان
تختار نفسى الطوى بالعز قانعةً ... وتترك القصف فى ذل لمبطانِ
أعيش عيشة غنْدى وهو ذو جدة
فى الهند يمشى وئيداً شبهَ عريان
العزّ أعصمُ للإنسان من شبعٍ ... والذل أقتل من جوع لجوعانَ
فالذل يقتل نفساً منه باقيةً ... والجوع يقتل منه جسمه الفانى
وما الطعامُ بمأكول للذته ... وإنما هو تقويمٌ لأبدان
وفى القفار غنى للمستقيت به ... عن المطاعم تخليطاً بألوانَ
وكلُّ ما يملك الإنسان عارية ... يزول عنه ولو من بعد أحيانَ
وإنّ ذكر الفتى بعد الممات بما ... يحيي الثناء عليه عمره الثانى

• • •

يا لاهجين بشتمي في مجالسهم
ناموا على الأمن في أحضان غفراني
لولا ترفعُ نفسي عن سفاهتكم　　أحرقتكم من لظى هجوي بنيران
جادلتموني فما أحسنتمو جدلي　　حتى بذيتم بذاءَ الماجن الخانى
وخضتمُ الباطلَ المبدى بنعرته　　شتى الأقاويل من زور وبهتان
ومن عناء الليالي أن يجادلني　　من ليس يقرع بالبرهان برهاني
بل يترك القول من عجز ومن خور
إلى التقول عن زهو وطغيان
تأبى المروءةُ إلّا أنْ أخالفكم　　فالغش ديدانكم والنصح ديداني
وإنّ لي في إبائي كل شائنة　　عزماً يؤيده بالله إيماني
ولا أريدُ قصاصاً من شتائمكم　　بل اتبع العفو عنها بعض إحساني
وإن ذكرى مساويكم إذا اتقدت　　أهرقْتُ دني عليها سجل نسيان
تلكم سجية حر النفس يذكرها　　عني الأخلاء من شيبٍ وشبان

• • •

يا منتمين إلى عرب وهم عجمٌ　　من كل أحمر هيّان بن بيّان
سمجِ الملامح في عثنونه صَهَبٌ
مستعجمِ القول جافي الطبع مرطانِ
كيف استويتم صقوراً في مجاثمكم
ولستمُ في السجايا غيرَ غربان
وما بكم غير قرد في جبلّته　　وإنْ يكن جاء في مسلاخ إنسانَ
إذا تسميتمُ عرباً فلا عجب
في أن يُسمَّى ابنُ آوى بابن سرحان
تستنثرون صَغاراً من معاطسكم　　وتشمخون إلى آفاق كيوانَ
وربّ مستكبرٍ منكم تتلتلُه　　أيدي الأجانب تلَّ الجارم الجاني

فيستكين لهم حتى يكلمهم   في رعدةٍ بلسان الخائف العاني
كم تُظهرون عَفافاً في تدينكم   وتُضمرون ضميرَ الفاجر الزاني
لو كان في الجن شيءٌ من خبائثكم   لعاذَ بالله منها كلُّ شيطانِ

• • •

هذي قواف دعاني أن أفوحَ بها   شعراً أتى من زكي النفس نعمانِ
ذاك الأديبُ الذي باهى بسيرته
كلَّ الكواكب من قاصٍ ومن دانِ
وباهرت في مساعيه مكارمُه   أهلَ المكارم من أبناء عدنانِ
أكرم به يافعاً شرخ الشباب به   ريّان من شرف بالمجد مزدانِ

خاتمة المطاف:

عاني الرصافي في أعوامه الأخيرة آلاماً كثيرة وأصيب بذات الرئة وداهمه في البرد القارص فلم يمهله أكثر من ثلاثة أيام[1]، ومضى إلى ربه صباح يوم الجمعة ١٦ آذار سنة ١٩٤٥ م الموافق ٢ ربيع الثاني ١٣٦٤ هـ.

وفي الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم نفسه حمل النعش على الأكتاف وساروا به إلى مقبرة الأعظمية. ومشى خلفه محبوه وفي مقدمتهم حكمة سليمان والدكتور إبراهيم عاكف الآلوسي، ووقف بعض الأدباء يؤبنونه بقصائد وكلمات.

---

(١) ينظر الرصافي صلتي به ص ٤٠، ومجلة الأديب ج ٥ ص ٣٦ (مايس ١٩٤٥م)، وجريدة البلاد العدد ٢٤٥٩ (السنة السادسة عشرة ١٨ آذار ١٩٤٥، ٤ ربيع الثاني ١٣٦٤ هـ – يوم الأحد).

الوصية :

يقول الأستاذ مصطفى على : « بينما كنا مجتمعين ننتظر أن نحتفل بتشييع جثمان الفقيد ، جرى ذكر الوصية التى أودعها الفقيد الكريم صديقه محموداً السنوى وطلب منه أن لا يذيعها إلا بعد وفاته ، فأخرجها السنوى وسلمنى إياها وهى مكتوبة بخط الرصافى نفسه فقرأتها ، والحاضرون يستمعون »[1] .

والوصية خلو من التأريخ ، ويرجح الأستاذ مصطفى أنه كتبها بعد الضجة التى أثيرت عليه فى شباط سنة ١٩٤٤ حينما نشر كتاب « رسائل التعليقات » ويبدو أنها كتبت فى نهاية شهر شباط أو فى أوائل شهر آذار. ووصية الرصافى الخالدة هى :[2] « إلى إخوانى الأحرار :

أراهم يهيجون علىّ العوام باسم الدين ، ولا أظنهم يتركوننى حتى يعدمونى الحياة ، وليس لى من ألتجىء إليه سوى الله ، وكفى بالله حافظاً وحسيبا . وليس لى من الأقارب من أعهد إليهم بوصيتى سوى معارفى من الأصدقاء الأحرار من أهل البلاد ، فلذا أكتب هذا إليهم على أن يقوموا بتنفيذه ولهم من الله الأجر .

كل ما كتبت من نظم ونثر لم أجعل هدفى منه منفعتى الشخصية ، وإنما قصدت به منفعة المجتمع الذى عشت فيه والقوم الذين أنا منهم ونشأت بينهم ، فلذا لم أوفق إلى شىء فى حياتى يسمى بالرفاهية والسعادة فى الحياة .

---

(١) الرصافى ــ صلتى به ص٤٣ .

(٢) تنظر فى جريدة البلاد العدد ٢٤٥٩ (السنة السادسة عشرة١٨ آذار ١٩٤٥م)، والرصافى ــ صلتى به ص ٤٣ ، وذكرى الرصافى للرشودى ص ٢٣٥ ، ومعروف الرصافى لطبانه ص ٦٧ .

لا أملك سوى فراشى الذى أنام فيه وثيابى التى ألبسها ، وكل ما عدا ذلك من الأثاث الحقير الذى فى مسكنى ليس لى ، بل هو مال أهله الذين يساكنوننى .

كل من اعتدى علىّ فى حياتى فهو فى حلّ منى ، وإن كان هناك من اعتديت عليه فهو بالخيار إن شاء عفا عنى ، وإلا قضى بينى وبينه الله الذى هو أحكم الحاكمين .

أنا — ولله الحمد — مسلم مؤمن بالله وبرسوله محمد بن عبد الله إيماناً صادقاً لا أرائى فيه ولا أداجى ، إلا انى خالفت المسلمين فيما أراهم عليه من أمور يرونها من الدين ، وليست هى منه إلا بمنزلة القشور من اللباب . ولا يهمنى من الدين إلا جوهره الخالص ، وغايته المطاوبة التى هى الوصول إلى شىء من السعادة فى الحياة الدنيوية الاجتماعية ، والحياة الأخروية ما أمكن الوصول إليه من ذلك بترك الشرور وبعمل الصالحات . وكل ما عدا ذلك من أمور الدين فهو وسيلة إليه وواسطة له ليس إلا .

بما أن « عبد بن صالح » الذى هو معاونى على العيش فى مسكنى كنت أنا السبب فى زواجه ، وقد ولد له بنات صغار ، وليس له من أسباب المعيشة والكسب ما يجعله قادراً على إعاشتهن ، أرجو من أهل الخير فى الدنيا ومن أصدقائى الكرام الأحرار أن يسعوا فى إيجاد شغل له يكسب به ما يقوم بإعاشتهن ، وإن الله لا يضيع أجر المحسنين .

كل ما عندى من الكتب المخطوطة التى كتبتها أنا تباع لمن يرغب فى شرائها على أن يكون له حق الطبع والنشر ، ولا يكون لى فيها سوى الإسم ، ويدفع المال الحاصل من بيعها إلى بنات « عبد » .

أدفن في أي مقبرة كانت على أن يكون قبري في طرف منها ، وأن يكون في أرض مظلومة ، وهي التي لم تحفر قبلا .

إنْ كانت الحياة نعمة سابغة من الله على عباده ، فإن الموت رحمة واسعة منه عليهم . فالموت هو رحمة الله التي وسعت كل شيء .

« كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » .

وذيّل الوصية بقوله : « المؤمن بالله وحده لا شريك له معروف الرصافي » .

قصيدة الرصافي

بخطه

شكر في مناحة

الى الشاعر المفضال نعمان ماهر الكنعاني

اقيم رايه تحميدي وشكراني ... للشاعر الصادق الاحساس نعمان
اقيمها رمز تعظيم على نشز ... من القريض رفيع ليس بالداني
للشهم ذي الحسب الزاكي بمحتده ... فرع الذؤابة من علياء عدنان
من جاءني بقوف جد زاهية ... كمثل ازهار روض ذات الوان
قد زانهن بوشي من بدائعه ... حتى انسقن بانغام واوزان
الماشدون بموسيقى براعته ... مازجن في الشدو الحانا بالحان
ينوط بالسمع من الفاظها دررا ... ويزدهيك من المعنى بافنان
لقد فعلن بنفسي حين انشدها ... ما يفعل الماء في احشاء ظمآن
فغلت والنفس تطفو في مسرتها ... حينا وترسب احيانا باحزان
يا شاعرا تطرب الدنيا نشائده ... كيف ابتدعت نشيدا هاج اشجاني
انشدتنيه رقي تحكى بروعتها ... حسن الفرائد في اسلاك عقيان
شعر يفيض شعورا قد نكأت به ... قرحا قديما بقلبي كان آدماني
ان كان بالشجن الماضي يذكرني ... فانه عن شجون اليوم سلاني
هذا لعمرك شعر قد سررت به ... وان يكن هاج لي شجوا فابكاني

اليك ارسل يا نعمان قافية — تنبيك عن شغفي في حب اوطاني

أشربت حب بلاد مانشأت بها — الا لادفع عنها كل عدوان

اخلصت حبي لها حتى نسيت به — نفسي واهلي واحبابي وخلاني

ياموطنا لست منه في موادعة — عش بعد موتي عيش الوادع الهاني

فكل من فيك تعنيني سعادتهم — وكل ابنائك الاعداء اخواني

ان سرك الدهر يوما سرني واذا — آذاك بالمزعجات الدهر آذاني

ماضرني ان كل الناس تحقرني — ان كنت انت جليل القدر والشان

وليس ينفعني عز ولا شرف — ان لم تكن انت ذا عز وسلطان

لو ملكونيك عن قهر بلا ثقة — ماكنت غير ظلوم فيك خوان

آليت منذ بلغت الحلم في وطني — ان لا اقابل نعماه بكفران

وان اكون له عونا اوازره — بالنصر اول انصار واعوان

انى وان لم اوفق في تحرره — بنيت للمجد فيه خير بنيان

لولا التعاون بين الناس ماشرفت — نفس ولا ازدهرت ارض بعمران

لولا التعادي الذي تشقى الوحوش به — ماكان افضل منها كل انسان

∴

ياقوم انى من الدنيا صحبتكم — فقربوا من حياتي كل قربان

واستنصروا الله وادعوه لينقذكم — مما بكم حل من هون وخسران

لاتحسبوني منكم جازعا ضجرا — وان يكن شططي في العيش اضواني

انى ألفت على الايام محمصتي — فالنعم والبؤس عندي اليوم سيان

تختار نفسي لطوى بالعز قانعة ... وتترك القصف في ذل لمبطان
اعيش عيشة عندي وهو ذو جدة ... في الهند يمشي ويبدأ شبه عريان
العز اعصم للانسان من شبع ... والذل اقتل من جوع لجوعان
فالذل يقتل نفسا منه باقية ... والجوع يقتل منه جسمه الفاني
وما الطعام بمأكول للذته ... وانما هو تقويم * لابدان
وفي القفار غني للمستغيث به ... عن المطاعم تخليطاً بالوان
وكل ما يملك الانسان عارية ... يزول عنه ولو من بعد احيان
وان ذكر الفتى بعد الممات بما ... يحيي الثناء عليه عمره الثاني

يا لاهين بشتمي في مجالسهم ... ناموا على الامن في احضان غفراني
لولا ترفع نفسي عن سفاهتكم ... احرقتكم من لظى هجوي بنيران
جاد التوفق مما اختشتموا جدكم ... حتى بذيتم بذاء الماجن الخاني
وخضتم الباطل المبدي بنعرته ... شتى الاقاويل من زور و بهتان
ومن عناء الليالي ان يجادلني ... من ليس يقرع بالبرهان برهاني
بل يترك القول من عجز ومن خور ... الى التقول عن زهو وطغيان
تأبى المروءة الا ان اخاطبكم ... فالغش ديدانكم والنصح ديداني
وان لي في اباثي كل شائنة ... عزماً يؤيده بالله ايماني
ولا اريد قصاصا من شتائمكم ... بل اتبع العفو عنها بعض احساني
وان ذكرى مساويكم اذا اتقدت ... اهرقت من عينها سجل نسيان
تلكم سجية حر النفس يذكرها ... عني الاخلاء من شيب وشبان

يا منتمين الى عرب وهم عجم ... من كل احمر هيان بن بيان

سمج الملامح في عثنونه صهب ... مستعجم القول جافي الطبع سرطان

كيف استويتم صقورا في مجاثمكم ... ولستموا في السجايا غير غربان

وما بكم غير قرد في جبلته ... وان يكن جاء في مسلاخ انسان

اذا تسميتموا عربا فلا عجب ... في ان يسمى ابن آوى باسم سرحان

تستنزرون صغارا من معاطسكم ... وتشمخون الى آفاق كيوان

ورب مستكبر منكم تقبله ... ايدي الاجانب قبل الجارم الجاني

فيستكين لهم حتى يكلمهم ... في رعدة بلسان الخائف العاني

كم تظهرون عفافا في تدينكم ... وتضمرون ضمير الفاجر الزاني

لو كان في الجن شيء من خباثتكم ... لعاذ بالله منها كل شيطان

∴

هذه قواف دعاني ان انوح بها ... شعر أتى من زكي النفس نعمان

ذاك الاديب الذي باهى بسيرته ... كل الكواكب من قاص ومن دان

وباهرت في مساعيه مكارمه ... اهل المكارم من ابناء عدنان

اكرم به يافعا شرخ الشباب به ... ريان من شرف بالمجد مزدان

١٤ تشرين الاول ١٩٤٢ ——

معروف الرصافي

الفصل الثالث

العقيدة

أخلاقه :

قبل أن نتحدث عن عقيدة الرصافي الدينية والقومية والوطنية وآرائه في السياسة ، يجدر بنا أن نقف عند لمحات من أخلاقه ؛ لأنها المنطلق الأول لمعرفة عقيدته وآرائه .

من شمائله الحميدة وفاؤه لأمه وزوجه وأساتذته وبعض الساسة كعبد المحسن السعدون وعبد اللطيف المنديل وغيرهما من رجال العراق والعرب . وقد مرّ بنا طرف من هذا الوفاء وعرضنا أقواله التي قالها عن إيمان وشعور صادقين .

ومن خصاله المعروفة كرهه للرياء والنفور منه، والصراحة التي لا تشوبها منفعة ، ولا خوف من سلطان ، يقول :

أُحبُّ صراحتي قولا وفعلا ... وأكره أن أميـل إلى الرياء
فما خادعت من أحـد بأمر ... ولا أضمرت حسواً في ارتغاء
ولست من الذين يرون خيراً ... بإبقاء الحقيقة في الخفاء (١)

وكان يمقت الكذب كثيراً ويعتبره عيباً لا يليق بالإنسان الذي كرمه الله. قال له الأستاذ كامل الجادرجي في (٢٨ تموز ١٩٤٤ م) (٢) : « تغيرت كل مظاهركم إلا شيئاً واحداً هو تعصبكم الشديد ضد الكذب . فإذا سمحتم لي

---

(١) الديوان ص ١٨٩ .

(٢) ينظر مجلة الثقافة الجديدة ص ٧ ، وشعراء العراق ج ١ ص ٥٦ ـ ٥٧ .

واخبرتمونى من الذى غرس فى نفسيتكم هذه الفضيلة ، وإن شئت فقل هذه العادة أو هذا الطبع ؟ وأجابه الرصافى : « أنا لا أتذكر فى أيام صباى لا فى البيت الذى نشأت فيه ولا فى المدرسة أن شخصا ذمّ الكذب أمامى أو نهانى عنه سوى ما كنت أسمعه من الناس إذا تشاتموا يقول أحدهم للآخر : « إنك كذاب » ، فكنت أشعر بذلك أن الكذب قبيح وممقوت . هذا فى أيام صباى وأنا دون البلوغ ، ثم لما قرأنا القرآن فى الكتاتيب وأخذنا نؤدى أحياناً الفروض الدينية كالصيام والصلاة ونتردد إلى المساجد لاستماع الواعظين أو الخطباء ، فكان ذلك له تأثير فى نفوسنا وماعدا ذلك لم اتذكر شيئاً خاصاً أو مؤثراً خاصا كرّهنى الكذب سوى أنى كنت أشعر عندما أقرأ ما فى القرآن أو أسمع واعظا كنت أشعر أن الكذب قبيح » .

وكان جريئا لايخاف أحداً ، وليس أدل على جرأته من نشره القصائد الوطنية والثورية فى العهدالعثمانى حتى ظن بعضهم أن اسمه ليس حقيقيا وأنه مستعار لشاعر آخر ، لأنه لا يعقل أن يجازف إنسان بحياته فى مثل تلك الظروف القاسية . ولكن الرصافى الذى تعود أن يقول الحقيقة لا يرهب البطش ولا يخاف الحكام :

تعوّدت تصريحى بكل حقيقـــة
وللمرء من دنياه ما يتعـــوّد
إذا رُمت نصحا جئت بالنصح واضحا
وما كان من شأنى الكلام المعقد (١)

ويرى أن المسلم يجب أن يكون حراً فى حياته وتفكيره ، « أما كونه حراً فى حياته فلانه بقوله : « لا إله إلا الله » يتجرد من كل عبودية لغير الله فلا يخضع لسلطان إلا سلطان الله ، ولا يقبل حكما إلا الله . وحكم الله

---

(١) الديوان ص ٧٤ .

وسلطانه لايتجليان له إلا فى الشرع الذى أنزل الله على نبيه محمد ، وفى القانون الذى أجمع عليه المسلمون ، لأن اجماع المسلمين منبعث من وحدتهم، فهو يحمل روح الاسلام الذى هو دين الوحدة ، فلذا يكون حكم القانون حكم الله ، وسلطانه سلطان الله.

وبالجملة فعلى المسلم أن لايقبل حكما إلا الله ، وأن لا يخضع إلا لسلطان الله ، ومتى كان كذلك كان بلا ريب حراً فى حياته التى يمثلها قوله : « لا إله إلا الله » .

وأما كونه حراً فى تفكيره فلأمرين :

أحدهما : أن الشرع الإسلامى جعل العقل مناط التكليف فلا يكلف إلا مَن كان عاقلا . . . . وكان التفكير واجبا على كل مسلم مكلف فى شرع الإسلام ، فلذا نرى القرآن يدعو إلى التفكير ويأمر به فى كثير من الآيات.

والثانى : أن دين الإسلام ليس فيه رياسة دينية لأحد على أحد ، فلا أحبار فيه ولاقسوس ولارهبان ، فلا يكون المسلم تبعا لغيره فى معرفة أموره الدينية المتعلقة فى حياته اليومية ، أى لا يجوز أن يكون مقلداً لغيره فى تلك الأمور بل عليه ان يكون حراً على شرط ان لا يخرج به اجتهاده عن الوحدة الاسلامية » . (١)

ويدعو إلى أن يعوّد الانسان نفسه حرية الفكر والصراحة ، وقد نصّ على ذلك فى البيان الذى أعلن فيه ترشيحه للنيابة فى المجلس التأسيسى عام ١٩٢٣ ، يقول : « يجب أن نعوّد أنفسنا حرية الفكر والصراحة فى القول . وأن نحترم لكل ذى رأى رأيه وإن كان مخالفا لما نراه ، وأن لانتسرع إليه بالتهم الباطلة ما لم يقم عندنا الدليل القاطع على خيانته (٢) » .

---

(١) الرسالة العراقية ص ٧٣ ـ ٧٤ ، وينظر آراء الرصافى فى السياسة والدين والاجتماع ص ٤٨ .

(٢) جريدة الاستقلال العدد ٩٣ : (٣ آب ١٩٢٢م) ، وينظر ذكرى الرصافى ص ٢١٦

ويبعث صرخته إلى مصر فى قصيدته(١) التى القاها فى الاحتفال بشوقى حينما بويع بامارة الشعر ، فقد رأى أن مصر تكرم شوقيًا ولكنها تقيم الحجر على الدكتور طه حسين والمرحوم الأستاذ علي عبد الرازق صاحب كتاب « الاسلام وأصول الحكم » . يقول :

ولكننى قد أنظرُ الحفلة التى ... تقامُ له ذا اليوم فى مصر ساخرا
إذا احتفلت مصر بشوقى فما لها ... تقيم على الأحرار فى العلم حاجرا
فقد أسمعتْنا ضجة أمطرت بها ... علياً وطه حاصباً متطايرا
فما بال هذا عُدَّ فى مصر مارقاً ... وما بالُ هذا عُدَّ فى مصر كافرا
إذا لم تَكُ الأفكارُ فى مصر حرّةً ... فليس لمصر أن تُكرِّم شاعرا
أيُرفع قدرُ العلم ينطق ناظماً ... ويوضع قدرُ العلم ينطق ناثرا
ويُختص بالتبجيل من جاء منشداً ... ويقذف بالتجهيل من جاء فاكرا
ألا إنَّ هذا الشعر ليس بطائلٍ ... إذا كان عمّا يبلغ العلم قاصرا
كما أنّ هذا العلم ليس بنافعٍ ... إذا لم تكن فيه النفوسُ حرائرا
وتكريمُ رب الشعر ليس بمفخرٍ ... لمن كان عن حرية الفكر جائرا
وإلا فعصرُ الجاهلية قبلنا ... له السبقُ فى تكريم منْ كان شاعرا

والرصافى يؤمن بالقوة ، لأنه لا عيش لمن لا يستطيع دفع الأذى ، يقول :

فلا عيشَ فى الدنيا لمن لم يكن بها ... قديراً على دفع الأذى والمكارهِ
لعمركَ ماهذى الحياة بلمبسٍ ... لمن حيك من عجز نسيجُ شعارهِ
ولكنْ لمن أمسى بأيدٍ وقوةٍ ... يجرّ على الأيام فَضْلَ إزارهِ(٢)

---

(١) الديوان ص ١٣٦ — ١٣٨ .

(٢) الديوان ص ٣٦ .

ولكن هذه القوة ينبغي أن لاتستعمل إلا فى الحق الذى جعله نصب مقاصده وعينيه :

لذاك جعلت الحق نصبَ مقاصدى ... وصيّرت سرّ الرأى فى أمره جهرا
وجردْتُ شعرى من ثياب ريائه ... فلم أكسه إلا معانيَه الغرا
وأرسلتُه نظماً يروق انسجامُه ... فيحسبه المصغى لانشاده نثرا
فجاء مضيئاً ليلُه كنهاره ... وإن كان بعض القوم يزعمه كفرا (١)

والا فى الحق الذى قام لأجله ثائراً :

أمارس دَهْراً من جديدَى داهرا ... وما زال ليلى بالعراقين ساهرا
أبى الحقُّ إلا أنْ أقومَ لأجله ... على الدهر فى كل المواطن ثائرا
وأنْ أتمادى فى جدالِ خصومه ... وأقرع منهم بالبيان المكابرا
وإنى لأهوى الحقَّ كالطيب ساطعاً ... وكالريح هبّاباً وكالشمس ظاهرا
ستبقى لنفسى فى هواه سريرةٌ ... إذا الدهرُ أبلى من بنيه السرائرا
وتكره نفسى أنْ أكون مخادعاً ... لأدركَ نفعا أوْ لأدفعَ ضائرا (٢)

والرصافى شديد الحرص على كرامته ، يقول المرحوم طه الراوى : «كان كثير الحرص على كرامته بل كان يعتبرها أثمن ما يملكه وأعز مايحرص عليه . فاذا شعر ولو من بعد أنَّ أحداً تعرض له فيها هاج ولاهياج البحر الزاخر . وكل الذى أصابه من مجافاة بعض اخوانه ومقاطعة بعض خلصانه متولد من هذه الناحية ، فانه إذا شمّ من أحد رائحة تخيل منها أنها تحط من كرامته أو تخدش عزة نفسه قطع ما بينه وبينه غير آسف ولا نادم » (٣) .

---

(١) الديوان ص ٥١ .

(٢) قصيدة « فى حفلة شوقى » الديوان ص ١٣٦ .

(٣) مجلة عالم الغد العدد ٩ ص ٩ (١ نيسان ١٩٤٥) ، وينظر ذكرى الرصافي ص ٨ .

وهو القائل فى قصيدة « الغنى غنى النفس[١] » .

لاتـشكُ للناس يوما عسرة الحال ... وإنْ أدامتك فى هـمٍّ وبلبالِ
وجانب اليأسَ واسلك للرجا طرقا ... فالدهرُ ما بين إدبارٍ واقبال
واركبْ على صهواتِ الجد مغتربًا ... فيما تحاول ذا حلّ وترحالِ

ومن إبائه ماذكره المرحوم نورى ثابت « حبزبوز » ، فقد استدعاه رئيس الوزراء أوانذاك وقال له بأنهم يدفعون إلى الصحفيين الذين يأتون إلى العراق ، بينما الرصافى مهجور فى الفلوجة . وطلب منه أن يسافر إلى الفلوجة ويكلمه بقبول النيابه الشاغرة ، وإذا أراد فليبــقَ معارضًا فى المجلس ، وإذا احتاج إلى المال فانه مستعد لدفعه ؛ لأنه ليس من الإنصاف والمروءة أن تدفع الدنانير إلى الغرباء بينما الشاعر العظيم ابن هـذا الوطن يبقى منسيًا مهجوراً . وقال نورى ثابت : « وفعـلا استأجرت سيارة خصوصية وذهبت إلى أستاذى صحبة صديقى العزيز أبو حمد ومدير إدارة جريدتى حينذاك حاتم الكرخى ، فبلَّغت أستاذى ماقاله فخامة الرئيس ، فقال والشمم بادٍ على محياه : « أما النيابة فأنا أقبلها ، وأما الدراهم من المخصصات السرية فأنا أرفضها رفضا باتا ، وأفضل أن أموت جوعا على التطفل على خزينة الدولة[٢] » .

وكان — رحمه الله — مع حاجته كريما لايبقى من المال باقيا ، زاهداً فى عرض الحياة الدنيا ، يقول المرحوم طه الراوى : « ذكر لى أنه كان يجلس إلى أحد بائعى الدخان فجاءت امرأة بيــدها إناء من نحاس قال : فأسرّت إلى صاحب الدكان حديثا لم أفهمه فأخذ منها الإناء وأعطاها

---

(١) الديوان ص ٥٣٢ .

(٢) حبزبوز (ملحق العدد ٢٣٤) ص ٧ (١٩ كانون الأول ١٩٣٦ م ، ٥ شوال ١٣٥٥ هـ) .

بضعة قروش بغدادية — والقرش البغدادي إذْ ذاك يعادل فلسين ونصف الفلس اليوم — . قال : فسألته عن جلية الأمر فأخبرني أنَّ هذه المرأة وهي أم يتيم لاتملك شيئاً من المال فجاءت بهذا الإناء لترهنه عندي بهذا المبلغ الزهيد لكي تنفقه على ابنها يوم العيد غداً . قال: فتأججت في نفسي نار الألم ، فأدخلت يدي في جيبي وأخرجت ما فيه ، وكان إذ ذاك لايجاوز بضعة عشر قرشا فأعطيتها لصاحبي ليعطيها إياها . وقمت على الفور وذهبت إلى البيت والألم يحزّ في نفسي فلم يغمض لي جفن تلك الليلة حتى نظمت القصيدة التي عنوانها « اليتيم في العيد(١) » .

ولزهده في المال أثر بليغ في حياته ، فإنه إذا وصل إلى يده الشيء الكثير منه بدّده في الوقت القصير وبقي قانعاً بالقليل يتبلغ به . وكثيراً ما تمرّ به الأيام خاوي الوفاض لا يملك شروى نقير وهو في كل ذلك لا يبدي ضجراً ولا يتملكه اليأس . يعرف ذلك منه كل من صحبه من خلصان رفاقه . ولا أخال كيسه حوى مبلغاً كبيراً من المال فبقي فيه شهراً واحداً(٢) » .

ومن أخلاقه نظرته الإنسانية الشاملة وجوانبها المتعددة(٣) ، وحبه للناس وكرهه للحرب التي تزهق الأرواح وتدمر العمران وتخرب البلاد .

دينه :

نشأ الرصافي نشأة دينية ودرس في الجوامع وتلقى علوم الدين على شيوخ عصره كالأستاذ محمود شكري الآلوسي وعباس القصاب وقاسم القيسي ،

---

(١) الديوان ص ٥٨ — ٦٣ .

(٢) مجلة عالم الغد العدد ٩ ص ٨ (١ نيسان ١٩٤٥م) وينظر ذكرى الرصافي ص ٧ .

(٣) ينظر البحث الذي كتبه الدكتور شوقي ضيف في كتابه دراسات في الشعر العربي المعاصر (ص ٥٨ وما بعدها) عن « جوانب إنسانية عند الرصافي » .

ولكنه كان حر الرأى يمقت التقليد ويأبى الانصياع إلا للحق والعقل ، ولذلك يقول :

وخلوا جمودَ العقل فى أمر دينكم فإن جمود العقل للدين مفسد[١]

وقد جرّت عليه هذه الحرية فى القول إن أن يرمى بالإلحاد ، ويطالب بعضهم بنفيه إلى بلاد الكفر . يقول المرحوم أحمد حسن الزيات عنه أنه « مسلم اللسان جاهلى القلب[٢] » ، ويقول محمد الحسين آل كاشف الغطاء : « والرجاء الأكيد فى حكومتنا الموقرة وأولياء الأمور — سددهم الله — طرد مؤلفه من العراق وإلحاقه ببلاد الكفر[٣] » .

والتهمة قديمة ، وقد صورها فى قصيدته « قعر البحر[٤] » :

أيا بغدادُ لا جازتك سحبٌ ولا حلّت بساحتك الجدوبُ
تطاول ساكنوك علىّ ظلماً فضاق علىّ مغناك الرحيب
وكم نطقوا بألسنةٍ حدادٍ يسيلُ بها من الأشداق حُوب
رمانى القوم بالإلحاد جهلاً وقالوا : عنده شكٌ مريبُ
ألا يا قوم سوف يجدّ جدى وسوف يخيب منكم من يخيبُ
فمن ذا منكم قد شقّ قلبى وهل كُشفت لكم فىَّ الغيوبُ
فعند الله لى معكم وقوف إذا بلغت حناجرَها القلوبُ
يقينى شرَّ فريتكم يقينى بأنَّ اللهَ مطلعٌ رقيبُ
ولم تخفر لكم عندى ذِمامٌ ولكنْ عادةُ الريح الهبوبُ

(١) الديوان ص ٧٥ .

(٢) ذكرى الرصافى ص ٤٩ .

(٣) الرصافى فى أعوامه الأخيرة ص ٤٣ .

(٤) الديوان ص ٢٥٨ — ٢٥٩ .

وتصدّى لمن كفروه وردّ ما قالوه ، ومن ذلك قوله :

وإنْ كنت قد كفرتنى بجهالةٍ فبالبهت كم كفرت من مسلم قبلى
وإنك فى تكفيرك الناسَ كافرٌ تهاون بالله الذى جلّ عن مثل
رويدك قد كفرت يا وغدُ مؤمناً وكذبت فيما تدعى سيد الرسل
وأنت من الإسلام فى كل حالةٍ بمنزلةِ الظلم الصريح من العدل(١)

وقوله :

يا أيها المفتى بتكفيرنا مهلا فقد جئت بأمر نكير
بأى جهلٍ فيك مستأصلٍ علمت يا جاهل ما فى الضمير
وذاك أمرٌ ليس تمتاشه إلا يد الله العليم القدير(٢)

وقوله :

رويدك إنّ الكفر ما أنت قائلٌ وإن صريح العُرف ما خلته نكرا
هل الكفر إلا أنْ ترى الحق ظاهراً فتضرب للأنظار من دونه سترا
وأنْ تبصر الأشياءَ بيضاً نواصعاً فتظهرها للناس قانية حمرا(٣)

كان الرصافى مسلما ، ولكنه — كما قلنا — يكره التقليد ، ولذلك ثار عليه الثائرون واتهم بالكفر والإلحاد . وقد أوضح - رحمه الله - عقيدته الدينية فى وصيته التى تقدمت فهو « مسلم مؤمن بالله وبرسوله محمد بن عبد الله إيمانا صادقا ، لا يداجى فيه ولا يرائى ، ولكنه خالفهم فيما رآهم عليه من أمور يرونها من الدين وليست هى منه إلا بمنزلة القشور من اللباب ، ولا يهمه من الدين إلا جوهره الخالص .

(١) الديوان ص ٥٣٠ .
(٢) الديوان ص ٥٠٨ .
(٣) الديوان ص ٥١ .

وتحدث فى « الرسالة العراقية » عن حرية المسلم(١) ، وذكر فى كتابه « خواطر ونوادر » (٢) أنه ليس من المتعصبين المتشددين فى الدين ولكنه مسلم كهؤلاء المسلمين الذين نراهم ونعرفهم .

ودافع عن الإسلام فى شعره وكتبه ، ومن ذلك قوله فى قصيدة « يقولون(٣) » :

يقولون فى الإسلام ـ ظلماً ـ بأنه يصدُّ ذويه عن طريق التقدم
فإنْ كان ذا حقا فكيف تقدمتْ أوائله فى عهدها المتقدمِ
وإن كان ذنب المسلم اليوم جهله فماذا على الإسلام من جهل مسلمِ
هل العلمُ فى الإسلام إلا فريضة وهل أمّـة سادت بغير التعلم ؟
لقد أيقظ الإسلامُ للمجد والعلى بصائرَ أقوام من المجد نوّم

وكان الرصافى يؤمن بوحدة الوجود ، يقول : « إن البحث والتفكير قد ألجآنى إلجاءاً لا محيص عنه إلى الإيمان بوحدة الوجود ، وجعلانى أعتقد اعتقاداً جازما بأنّ التصوف الإسلامى محض فى نشأته وتطوراته ...

وليس قولى هذا بالمرجم ولا اعتقادى بالمتوهم فقد اتضح لى كالشمس فى رأد الضحى أن محمداً « رسول الله » جاء بحقيقتين ناصعتين :

إحداهما : وحدة الله .

والثانية : وحدة الوجود(٤) » .

---

(١) تنظر ص ١٠١ ــ ١٠٢ من كتابنا هذا .

(٢) ينظر الرصافى — ملحق به ص ٤٨ .

(٣) الديوان ص ١٢٨ .

(٤) رسائل التعليقات ص ١٣ — ١٤ .

وذكر هذا الإيمان في قصيدته « الحقيقة المطلقة (١) » التي أنشدها في حفلة الأدباء التي أقيمت لشاعر الهند طاغور حين زار العراق سنة ١٩٣٢ ، وفيها يقول :

وإلى الحقيقة تنتهي   طرق الضلالة والهدايه
هي من يموت ومَنْ يعيش وكل قابلة ودايه
هي كل ما وعت العقول ، وكل ما روت الروايه
منها الفنا وبها البقا   ومن الفناء هي الوقايه
ليس الوجودُ لغيرها   إلا خيالا في مرايه
وإذا نظرت الكائنات بأسرها فهي السنايه
إني أرى سر الحقيقة كائناً في اللانهايه
وأرى الوجود وإنْ تعدد واحداً عند الدرايه

وفي قصيدته « بني وطني (٢) » التي نظمها سنة ١٩٤١ م ، وفيها يقول :

وما خالقُ الأكوان إلا مهندسٌ   وإن جلّ عن تعريفه بالمهندس
تجلى على ألوانه بصفاته   وأغلس فيهم كنهه كل مغلس
وأقبسهم نوراً شديداً جلاؤه   فساروا به كالعمى في كل حندس
وألبسهم حمر الغرائز فاغتنوا   بحمرتها عن كل ثوب مورّس
وما مقبسٌ عند النهى غير قابسٍ   ولا لابسٌ عند النهى غير ملبَس
فأيان جال الطرف لم يرَ غيره   إذا كان في ألحاظه غير مبلَس
حقيقة مخلوقاته لم تكن سوى   حقيقته، دع عنك حدس المحدس
ألا إنني للكائنات موحدٌ   ولو أرغمت كلُّ المذاهب معطسي

---

(١) أدب الرصافي ص ٨٥ ، والرصافي صلتي به ص ٥٥ .

(٢) الديوان ص ٤٧٠ — ٤٧١ ، وينظر أدب الرصافي ص ٨٥ ، والرصافي صلتي به ص ٥٦ .

وذكرها فى مقدمة كتابه « الشخصية المحمدية » فقال : « بسم الحقيقة المطلقة ، الحمد لها والصلاةوالسلام منها علينا ...» . وقال فى مقدمة «الرسالة العراقية : « الحمد لمن لاحمد لغيره، ولا وجود لأحدسواه ، والصلاةوالسلام على مَن عرف قدر نفسه وأخلص النصيحة لأبناء جنسه ...» .

عروبته :

كان الرصافى مخلصاً لعروبته مؤمناً بوحدة أقطارها ، وكان يتصل بمن يشتغل بالقضية العربية . قال الأستاذ كامل الجادرجى له : هل كان لكم صلة بالجماعة الذين كانوا يشتغلون بالقضية العربية ؟ » فأجابه : « كنت أجتمع بهم دائماً ، ولكنى لم أدخل معهم بصورة رسمية فى حزب أو جمعية ، غير أنى كنت أعطف على كل جماعة تطالب بحقوق العرب على شرط أن لا تستمد قوتها من الأجانب . وكان فى تلك الآونة قد تألفت جمعية فى بيروت أكثرها من المسيحيين — وهى الجمعية التى طاردها جمال باشا فى أثناء الحرب — وقد حبذت أعمالهم فى بداية الأمر فنظمت القصيدة التى عنوانها « فى معرض السيف »(١) دعوت فيها الى النهضة العربية ولكن بعد ذلك اطلعت على منهاج تلك الجمعية ، ولما علمت بأن لهم اتصالاً بالأجانب نظمت قصيدتى التى عنوانها « ما هكذا »(٢) أردُّ بها عليهم وأفند آراءهم ، إذْ قد شممت منها رائحة التفرقة بين المسلمين والنصارى ، والذى يقرأ القصيدة يفهم ما كان قصدى من ذلك »(٣)

وكان — رحمه الله — يفخر بالعرب ويبكى مجدهم الضائع ويدعوهم إلى النهوض وبناء حياة جديدة فيها عزة وتقدم ، يقول :

---

(١) الديوان ص ٣٩٩ — ٤٠١ .
(٢) الديوان ص ٤٠٢ — ٤٠٥ .
(٣) مجلة الثقافة ص ٢٠ ، وشعراء العراق ج ١ ص ٧٤ .

يا أيهـــا العُرب هبّـوا من رقادكم
فقد بدا الصبح وانجابت دجى الخطر
كيف النجاح وأنتم لا اتفـاق لـكم
والعـود ليس له صوت بلا وتر
ما لى أراكم أقـلّ النـاس مقـدرة
يا أكثر الناس عـدّاً غير منحصر (١)

ودعا إلى الوحدة العربية ، وهى عنده بنت الوحدة الاسلامية (٢) ، ولـكنّ : هاتين الوحدتين تكادان تـكونان من المستحيل أو شبه المستحيل فى الوقت الحاضر ، وأكبر مانع لتحقيقهما السياسة الأجنبية المسيطرة على البلاد العربية والاسلامية .

ويبدو حبه للوحدة والعروبة فى قصيدته « بين تونس وبغداد » (٣) التى أنشدها فى حفلة الترحيب بالزعيم التونسى عبد العزيز الثعالبى عند قدومه إلى بغداد سنة ١٩٢٥ م ، يقول :

أتونسُ إنّ فى بغـــدادَ قوماً ترفُ قلوبهم لك بالودادِ
ويجمعهـــم وإياكِ انتسابٌ إلى من خصّ منطقهم بضاد
ودين أوضحت للناس قبلا نواصعُ آيه سبـــلَ الرشاد
فنحن على الحقيقة أهلُ قربى وإنْ قضت السياسة بالبعادِ
وما ضرّ البعاد إذا تدانت أواصرُ منَ لسان واعتقادِ
وإنّ المسلمين على التآخى وإنْ أغرى الأجانب بالتعادى

(١) الديوان ص ٦٥ .
(٢) الرسالة العراقية ص ١٦ ، وآراء الرصافى فى السياسة والدين والاجتماع ص ٢٠ .
(٣) الديوان ص ١٣٤ — ١٣٦ .

وكان يدعو إلى وحدة التعليم ، يقول :

ثم انهجوا فى بلاد العُرْب أجمعها نهجاً على وحدة التعليم مشتملا
حتى إذا ما انتدبنا العُرْبِ قاطبة كنا كأنا انتدبنا واحداً رجلا(١)

واتهم — مع هذا الحب لأمته — بهجوها وقتل اللغة العربية، وموافقته على اتخاذ اللغة التركية لغة للتعليم الابتدائى فى الولايات العربية(٢) .

ولعل موقفه من الإصلاحيين الذين كانوا يهدفون إلى اللامركزية هو الذى جعل هؤلاء يؤمنون بأن الرصافى يكره العرب ويسعى إلى تتريكها . وحقيقة الأمر أن الرصافى أيد الإصلاحيين ؛ لأنهم كانوا يدعون إلى اللامركزية ، وقد أوضح رأيه فى قصيدته « فى معرض السيف »(٣) ، قال:

هى المنى كثغور الغيد تبتسمُ إذا تطرَّبها الصمصامة الخذمُ
دع الأمانىّ أوْ رُمْهُن من ظُبةٍ فإنما هى من غير الظبي حُلُمُ

ولما اطلع على لائحتهم فى بيروت ورأى فسادها قال قصيدته « ماهكذا »(٤) يؤنبهم وينقد رأيهم وعقدهم مؤتمراً فى باريس :

أصبحت أوسعهم لوما وتثريبا لما امتطوا غارب الافراط مركوبا
وألهبت منهم الأهواء جارية إلى التفـرق ألهوباً فألهوبا

ومنهـا :

قل للعريسىّ والأنباءُ شائعةٌ والصُّحُفُ تروى لنا عنه الأعاجيبا

---

(١) الديوان ص ٨٨ .

(٢) تنظر جريدة شط العرب العدد ١١ (١٢ أيلول ١٩٢٤ م) ، وجريدة المفيد العدد ١٩٧ (١٥ أيلول ١٩٢٤ م) .

(٣) الديوان ص ٣٩٩ — ٤٠١ .

(٤) الديوان ص ٤٠٢ — ٤٠٥ .

علام تعقد فى باريزَ مؤتمراً ... ما كنت فيه برأى القوم مندوبا
وهل تعمد حقى العظم فعلته ... لما نمى خبراً للطان مكذوبا[(١)]
إذْ راح يستنجدُ الافرنج منتصفا ... كأنه حَمَلٌ يستنجد الذيبا

ومنهـــا :

يا أيها القومُ لا يغررْكُمُ نَفَرٌ ... ضجــوا بباريز إفساداً وتشعيبا
جاءت رسائلُهم بالشر مخــربةً ... تفتنُّ فى المكر أسلوباً فأسلوبا

ولمـا نشر هذه القصيدة التى انتقد بها دعاة الاصلاح واللامركزيين ضج ضجيج القوم وأخذت صحفهم تشنع عليه وترميه بكل سوء . وبلغه الخبر وهو فى الاستانة فبات قلقا ، وكتب قصيدة « فى ليـلة نابغية »[(٢)] التى يقول فيها :

خاض الدجى وظلامُ الليل مختلطُ ... صوتٌ به الوجدُ مثل السيف مخترطُ

ويقول :

قل للألى نطقوا بالضاد مُدّغماً ... لم يدغم الضادَ آباءٌ لكم فرطوا
أيحسن اللحنُ إذْ آباؤكم فصحوا ... أم يحسن العجز إذ آباؤكم نشطوا
فيكم غلوٌ وتقصــيرٌ وبينهمـا ... ضاع المرادُ ، أأنتم أمةٌ وَسَطُ ؟
إنى ابتليت بقومٍ يبعرون على ... أعقابهم وإذا عنّفتهـــم ثلطوا

ويقول :

قل للأعاريب قد هانت مكارمكم ... حتى ادّعاها أناسٌ كلّهم نَبَطُ

---

(١) لما عقدوا مؤتمرهم فى باريس أرسل حقى العظم وكان إذ ذاك بمصر تلغرافاً إلى جريدة الطان الباريسية يطلب فيه من الحكومة الفرنسية أن تتدخل فى أمر سورية . فى هـذا البيت إشارة إلى هذا التلغراف الذى أرسله حقى العظم .

(٢) الديوان ص ٤٠٥ — ٤٠٧ .

برأتُ للعرب العـــرباءِ من فئةٍ ... ينمون للعرب إلا أنهم سقط
أين المكارم إنْ هم أصبحوا عربا ... فإنها فى طباع العرب تشترطُ
إنْ يغمطونى لأنىّ جئت أنهضهم ... فأى مستنهض ذى نجدة غمطوا
هم كالضفادعِ فاسمعهم إذا رطنوا ... فما هنالك إلا اللغـــوُ واللغطُ

لقد كانت هذه الحادثة سبباً لاتهامه بشتم العرب والطعن فيهم ، وقد أوضح — رحمه الله — رأيه[1] ، وذكر السبب الذى دعاه للوقوف من هؤلاء هذا الموقف ، وهو اتصالهم بالأجانب وتعصبهم الدينى .

وطنيته :

كان الرصافى محباً لوطنه ، مدافعاً عنه ، مضحيا من أجله ، يفرح إنْ رأى بلاده عامرة وينوح إذا رآها غامرة[2] . وقد أشرب حب بلاده وذاب شوقا بها ، يقول :

أشربت حبَّ بلادٍ ما نشأتُ بها ... إلاّ لأدفعَ عنها كلَّ عدوانِ
أخلصتُ حبى لها حتى نسيت به ... نفسى وأهلى وأحبابى وخلانى[3]

ويقول :

ولى وطنٌ أفنيتُ عمرى بحبه ... وشتّتُ شملى فى هواه مبددا
ولم أرَ لى شيئــاً عليه وإنما ... علىَّ له فى الحب أنْ اتشددا
تعلقته منذ الصبا مغـــرما كما ... تعلق ليلى العامرىُّ معمّـدا

---

(١) تنظر ص ١١١ من كتابنا هذا .

(٢) تنظر جريدة الأمل العدد ٢ (٢ تشرين الأول ١٩٢٣ م) .

(٣) الديوان ص ١٧٢ .

وسيّرت فيه الشعر فخراً فطالما   شدوت به فى محفل القوم منشدا(١)

ولا يترك هوى وطنه وإن جار عليه :

وإنى وإنْ جارت علىّ مواطنى   فؤادى على قطانهنّ موزع(٢)

ولا يجفو بلاده وإن جفته :

إنْ جفتنا بلادُنا فهى حِبٌّ   ومن الحب يُستلذ الجفاءُ
لم نحُلْ عن عهودها مذ جفتنا   بل لها الودُّ عندنا والوفاء
قد بكينا شجواً عليها ومنها   وعنانا سقامُها والشقاءُ
كم أرَدْنا سُخطاً عليها ولكن   غلب السخطَ فى القلوب الرضاءُ
إنما هذه المواطنُ أمٌّ   مُستَحَقٌ لها علينا الولاء
انْ خَدَمْنا فلا نريد جزاءاً   ومن الأم هل يُراد الجزاءُ؟(٣)

وتتجلى وطنيته فى شوقه وحنينه إلى بغداد والعراق(٤) ، وفى مواقفه التى دافع فيها عن وطنه وسعى إلى خلاصه من المصائب والمحن التى ألمت به.

---

(١) الديوان ص ٧٧ .

(٢) الديوان ص ٦٢ .

(٣) الديوان ص ٣٣٨ .

(٤) ينظر الديوان ص ١٤١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٣١ ، ٢٥٨ .

الفصل الرابع

السياسة

شاعر السياسة :

كان الرصافى شاعر السياسة والاجتماع ، وقد عرف بهذين الجانبين من موضوعات الشعر وأغراضه فى العصر الحديث ، ونجح فيهما نجاحاً كبيراً ، وأطلق قصائده صرخات مدوية ، وألهب شعور الشباب بقصائده التى ندد فيها بالظلم والطغيان والاستبداد ، وطالب بالحد من السلطة المطلقة .

وخاض غمار السياسة واكتوى بنارها وأصابه ما أصاب غيره من الوطنيين المخلصين ، ولكنه لم يكن سياسياً بالمعنى المعروف للسياسة ، ولعل صراحته وصدقه فى القول أبعداه عنها . وقد اهتم الدارسون بهذا الجانب من جوانب حياته وأولوه عناية كبيرة وفسروا الحوادث تفسيراً سياسياً[1] ، وفهموا القصائد فهماً عقائدياً . وأغلب الظن أن معظم هذه الدراسات تميل إلى المبالغة فى تصوير الواقع ؛ لأنّ الرصافى لم يكن سياسياً بل كان شاعر السياسة والاجتماع . وقد حدثنا بذلك من كانوا قريبين منه ، يقول الأستاذ نعمان ماهر الكنعانى : « عرفت الرصافى فى أعوامه الأخيرة معرفة لا أبتعد عن الصواب إذا قلت فيها إنها أتاحت لى إعطاء الحكم على حقيقة الشاعر فى مجال السياسة بمفهومها المحدد لذا أستطيع أن أقول إن من ينعت الرصافى بكونه سياسياً يقع فى وهم هو إلى الخطأ أقرب . فقد كان للرصافى هوى فى السياسة ، هوى قد تجاوز قابلية الرجل إلى الدرجة التى خيّل له فيها أنّ فى وسعه أن يكون من فرسانها فى الوقت الذى لم تكن له من الخبرة العالية أو القابلية الشخصية ، بله النفسية أن يغدو من رجالها » .

---

(١) للاستاذ رؤوف الواعظ دراسة جيدة فى أدب الرصافي السياسي.

ويذكر أن الرصافي عالج الشعر السياسي في مختلف العهود ، إلا أن شعره السياسي في كل الأدوار لم يخرج عن كونه شعر مناسبة سياسية أثّرت في الرصافي فاستوحى منها قصيدة مضيفاً عليها من عواطفه الخاصة الشيء الكثير دون الالتفات إلى المقومات السياسية لتلك المناسبة » .

وينتهي إلى القول بأنه لم يكن غير شاعر عالج في شعره بعض المناسبات السياسية وهذا لا يعني قطعاً أنه من رجال السياسة .

ويذكر — بعد ذلك — أنه كان ذا هوى بالسياسة ، وكان ذا هوى أن يوصف بها ، بل كثيراً ما كان يقول : « إنه لا يرى في الشعر غير واسطة لبيان أهدافه السياسية ، وليس الشعر عنده بغاية »[1] .

ويؤيد ما ذهبنا إليه وما ذكره الأستاذ الكنعاني أن الرصافي نفسه كان لا يعترف بوجود نهضة سياسية في العالم العربي . وقد أدلى سنة ١٩٢٢ م بحديث إلى مجلة « الهلال » القاهرية . ومما قاله : « لا أدري أية نهضة تعنون في البلاد العربية ؟ أنهضة سياسية أم نهضة أدبية ؟ فإن أردتم الأولى فلا أعلم أن هناك نهضة سياسية سوى أني أسمع أن في مصر شيئاً من ذلك . ولكوني اعتدت أن لا أعول على السماع في معرفة الحقائق ، لا أعلم حقيقة ما يجري في مصر اليوم من الحركة السياسية . وأما في غير مصر من الأقطار العربية فلم أر ما يجوز أن يسمى اسم نهضة . وأما الذي جرى هنالك في أثناء الحرب العامة وما بعدها فلم يكن صادراً عن دافع سياسي أو شعور وطني قومي ، وإنما كان صادراً عن يد أجنبية أوجدته لمصلحتها واستعملته لمنفعتها . وكيف يمكن حدوث نهضة سياسية عامة حقيقة في بلاد استولى على أهلها الجمود الديني واختلفت عقائدهم وتضاربت نحلهم وهم لم يتمسكوا من أمور دينهم إلا بما يطيل مسافة الخلاف بينهم ، وانحطت

(١) تنظر جريدة الأخبار العدد ٣٦٩٨ (السنة الرابعة عشرة ١٤ آذار ١٩٥٣) .

أخلاقهم إلى حيث جعلوا الدين بأيديهم آلة لضرب بعضهم بعضاً فى سبيل أهوائهم المتخالفة(١) » .

وقال فى قصيدة « ذكرى الشيخ الخالصى »(٢) .

قد أبت هذه السياسة إلاّ أنْ تكون الغشاشة الدساسه
وأبت أن تصافح الناس إلاّ بيدٍ من خديعة فرّاسه
كلما مسّت الأمورَ بكفٍ لوّثتها بما بها من نجاسه
إنّ فى هذه السياسة سهماً جعل اللهُ باطلاً قرطاسه
ما تعاطى غير الخداع « غلادستون » فيها كلا ولا « دلكاسه »
إنْ أحسّتْ بقوةٍ من خصيم كانت الظبي لم يزايل كناسه
وهى إنْ آنسَتْ من الخصم ضَعفاً
كانت الليثَ مبرزاً أضراسه

وحينما ننظر فى باب « السياسيات » من ديوانه نجد أن معظم قصائد هذا الباب قيلت فى مناسبات خاصة ، وهى — وإن عبّرت عن رأيه فى كثير من القضايا — لا تدخل فى ميدان السياسة التى تقوم على أسس وأصول . ولا يقلل هذا الرأى من قيمة الرصافى ، بل ينصفه ويضعه حيث يجب أن يوضع فى تأريخ الفكر العربى والثورة العربية المعاصرة .

ولم يدخل — رحمه الله — فى حزب من الأحزاب ، يقول : « لم أدخل معهم بصورة رسمية فى حزب أو جمعية »(٣) . ويقول فى البيان الذى رشح فيه نفسه للنيابة فى المجلس التأسيسى

(١) ذكرى الرصافى للرشودى ص ٢٠٥ — ٢٠٦ .
(٢) الديوان ص ٣١٠ — ٣١١ .
(٣) مجلة الثقافة ص ٢٠ ، وشعراء العراق فى القرن العشرين ج ١ ص ٧٤ .

سنة ١٩٢٣ م . » وأنا الآن غير منتسب إلى حزب من الأحزاب الموجودة فى العراق ، ولكن لمنتخبىَّ أنْ أؤلف لهم حزباً فى المجلس التأسيسى نفسه بعد تمام انتخابه جارياً على هذه الخطة التى لم أرَ فى الوقت الحاضر أنفع منها لبلادى »[1] .

وصوّر الأحزاب فى قصيدته « الوطن والأحزاب »[2] التى قالها عندما سقطت وزارة الاتحاديين وقامت وزارة أحمد مختار باشا الغازى قبل الحرب البلقانية ، وكان الخلاف شديداً بين الاتحاديين والائتلافيين، يقول :

متى نرجو لغمتنا انكشافا ... وقد أمسى الشقاقُ لنا مطافا
ملأنا الجو بالجدَل اصطخابا ... وكنا قبلُ نملؤه هتافا
وما زلنا نهيم بكل وادٍ ... من الأقوال نرسلها جُزافا
ونرجف فى البلاد بكل رعبٍ ... يهزّ فرائص الأمن ارتجافا
تباكينا على الوطن اختداعاً ... فأنبتنا بأدمعنا الخلافا
أجاعتنا المطامع فاختلفنا ... لنملأ فى موائدنا الصحافا
ولكنّا من الوطن المفدى ... نخيط على مطامعنا غلافا

ومنها :

أقول ولو يسوء القومَ قولى ... بياناً للحقيقة واعترافا
قد اختلف البريةُ واختلفنا ... فكنا نحن أسوأها اختلافا
فلا تغررك أحزابٌ شدادٌ ... بأنّ لهم أقاويلا لطافا
فإن بواطن القوم احتراصٌ ... وإنْ أبدتْ ظواهرهم عفافا
وما اختلفوا لمصلحةٍ ولكن ... ليأكلَ أقوياؤهمُ الضعافا

---

(١) جريدة الاستقلال العدد ١٩٣ (٣ آب ١٩٢٣ م) وينظر ذكرى الرصافى ص ٢٢٠ .
(٢) الديوان ص ٤٠٩ — ٤١١ .

الدولة العثمانية :

يرى المرحوم محمد رضا الشبيبي أن الرصافي كان معدودا من الفئة الثائرة الغالية في ثورتها في محاربة الحكم العثماني والقيام بانقلاب عليه[1]، وفي هذا القول نصيب كبير من الصحة ، لأنه ـ رحمه الله ـ كان يحارب الظلم والطغيان ولذلك كان يسعى للإطاحة بالحكم العثماني ، ولكن قلبه كان مع العثمانيين على الإنكليز الذين دخلوا العراق وبعض الأقطار العربية فاتحين لا مصلحين . لقد كانت الحكومة العثمانية جائرة مستبدة، ويصوّر هذا الاستبداد والجور بقوله:

حكومة شعبنا جارت وصارتْ ... علينا تستبد بما أشارَتْ
فلا أحداً دعتْه ولا استشارت ... وكل حكومةٍ ظلمت وجارت
فبشرها بتمزيق الحدودِ[2]

ويقول في قصيدة « تنبيه النيام »[3]:

عجبت لقوم يخضعون لدولة ... يسوسهمُ بالموبقات عميدُها

ويصف « آل السلطنة »[4] وصفاً دقيقاً فيقول :

هم يُعدّون بالمئات ذكوراً ... وإناثاً لهم قصورٌ مُشاله
ولهم أعبُدٌ بها وإماءٌ ... ونعيمٌ ورفعة وجلاله
تركوا السعيَ والتكسب في الدنيا وعاشوا على الرعية عاله
يتجلى النعيم فيهم فتبكي ... أعينُ السعي من نعيم البطاله
يأكلون اللُّبات من كدّ قومٍ ... أعوزتهم سخينة من نخاله

---

(١) تنظر مقدمة كتاب معروف الرصافي لطبانه ص ٦ .

(٢) الديوان ص ١١٨ .

(٣) الديوان ص ١٠٣ — ١٠٥ .

(٤) الديوان ص ٤٠٨ — ٤٠٩ .

فكأنّ الأنامَ يشقون كدّاً كى تنال النعيمَ تلك السلاله

ويقول بعد أن يصف استغلالهم للطبقات الفقيرة :

ليس هذا فى مذهب الاشتراكية إلا من الأمور المحاله
وهو فى الملة الحنيفية البيضاءِ كفرٌ بربنا ذى الجلاله

وصبّ غضبه على السلطان عبد الحميد الذى كان ثائراً عليه قبل سفره إلى الآستانة لما عرف به من ظلم وجبروت . وفى ديوانه قصائد نظمها ببغداد فى عهد الاستبداد الحميدى تتقد ثورة على الطغيان ، ولظى على الجور(١) . وتحدث عن سقوطه فقال فى قصيدة « فى سلانيك(٢) » :

هوى عبد الحميد به هوياً إلى دَرَكِ الملوك الظالمينا
وأنزل عن سرير الملك خلعاً وأفردَ لا نديمَ ولا قرينا
فسيقَ إلى سلانيك احتباساً له كى يستريح بها مصونا
ولكن كيف راحةُ مستبدٍ غدا بديار أحرارٍ سجينا

وقال فى قصيدة « وقفة عند يلدز(٣) » :

ياملوكَ الأنام هلاّ اعتبرتم بملوك تجور فى الأفعال
ليس عبد الحميد فرداً ولكن كم لعبد الحميد من أمثال
فاتركوا الناسَ مطلقين وإلاّ عشتم موثقين بالأوجال
هل جنيتم من التجبر إلاّ كل إثم عليكمُ ووبال

---

(١) تنظر فى الديوان قصائد « اليتيم فى العيد » ص ٥٨ ، و « السجن فى بغداد » ص ٤٢ ، و « رقية الصريع » ص ١٦٢ ، و « إيقاظ الرقود » ص ١١٦ .

(٢) الديوان ص ٣٨٢ — ٣٨٥

(٣) الديوان ص ٣٨٥ — ٣٨٨

وحينما أعلن الدستور العثمانى سنة ١٩٠٨ م هلل له وقال فى قصيدة « تموز الحرية » (١) .

أكرم بتموز شهراً إنّ عاشره ... قد كان للشرق تكريما وتعزيزا
شهر به الناسُ قد أضحت محررةً ... من رق من كان يقفو إثر جنكيزا
سل أهلَ باريز عن تموز تلقَ لهم ... يوما به كان مشهودا لباريزا
فى شهر تموز صادفنا لما وعدت ... بيض الصوارم بالدستور تنجيزا
هى المساواة عمتنا فما تركت ... فضلا لبعض على بعض وتمييزا

ولم تدم فرحته بالدستور فقد استغله الحكام أبشع استغلال وأصبح بيدهم كلمات يفسرونها كيفما يشاءون . وفى قصيدة « شكوى إلى الدستور (٢) » تصوير لما كان يقوم به الاتحاديون فى تأليف الوزارات وإدارة الدولة ، يقول :

فهل أيها الدستور تسمع شاكياً ... بك اليوم يرجو أن يرى نهضة الشرق
لقد جئت من أفق الصوارم طالعاً ... علينا طلوع الشمس من منتهى الأفقَ

ويقول :

بك اليوم أشقانا الألى أنت مسعدٌ ... لديهم فيا لله للمسعد المشقى
نراك بأيديهم على الخلق حجةً ... وأنت عليهم حجة لا على الخلق
قد استأثروا بالحكم وارتزقوا به ... وسدوا على من حولهم منبع الرزق
كأنّا لهم شاةٌ فهم يحلبوننا ... وكم مخضوا أوطاننا مخضة الزقِ
وهم يأخذون الزبد من بعد مخضها ... ولم يتركوا للساكنيها سوى المذق
أترضى بأن تختص بالحكم معشراً ... وتصبح للباقين حبراً على رَق

---

(١) الديوان ص ٣٨٨ — ٣٨٩ .

(٢) الديوان ص ٣٩٧ — ٣٩٩ .

ويصف حالة الدستور وما كان تقوم به جمعية « الاتحاد والترقى» ويقول بعد أن يتحدث عن سوء الأحوال فى الدولة العثمانية : « ولما أدرك خطر هذه الحالة وفظاعتها طبقة من أحرار البلاد وكان أكثرهم من أمراء الجيش وضباطه ، ألفوا جمعيتهم المعلومة وهى « جمعية الاتحاد والترقى » وأخذوا يعملون تحت أستار الخفاء حتى قاموا قومتهم المعلومة فأعلنوا الدستور ثم قضوا على عبد الحميد وأشياعه . وقد انضم إليها بادىء بدء عامة الناس فى جميع البلاد إلا النزر اليسير ، وكان أكثر الذين انضموا إليهم من أولئك الذين عاشوا زمنا طويلاً فى تلك الحالة المحزنة التى دبّ فيها الفساد فى الأخلاق العامة فلم يكن انضمامهم إلى الجمعية إلاّ بداعٍ من دواعى المنفعة الخاصة . ومن هنا دبَّ الفساد فى الجمعية نفسها أيضاً واختلط فيها الصالح بالطالح والخبيث بالطيب . وكان هذا أول خطأ وقعت فيه تلك الجمعية ، ذلك الخطأ الذى أدركتها به الشيخوخة وهى فى عهد طفولتها ولذلك لم تعش هى ولا الدولة العثمانية إلا مدة يسيرة من الزمن .

فيفهم من هذا أن إعلان الدستور لم يكن إلا من قبيل صحوة الموت فى الدولة العثمانية »(١) .

ويذكر أن الأحـــوال لم تتبدل بعد إعلان الدستور إلا بالاسم ، وظلت العوامل القديمة تنخر فى جسم الدولة ، وبقى الفساد يستشرى فى المجتمع . وزاد على الأدواء القديمة داء جديد هو التحزب الأعمى للجمعية ، وأصبح الانتساب إليها وحده كافياً لتسنم أعلى المناصب ونيل أكبر الوظائف فى الدولة ، ولذلك انضم إليها أرباب المطامع الخاصة والأخلاق الفاسدة . ولم ينضم إليها هو ، يقول : « لم أدخل قط ، كما أنه لم يطلب إلىّ ذلك

---

(١) الرسالة العراقية ص ١٩ — ٢٠ ، وينظر آراء فى السياسة والدين والاجتماع ص ٣٧ — ٤٠ .

أحد ، وقد كنت حراً ، وفى كثير من المسائل كنت ضدهم ، كما إنى كنت أوافقهم فى بعض القضايا »(١) .

وقف الرصافى هذا الموقف من الدولة العثمانية وسلاطينها وحكامها غير أنه لم يحاربها لاسقاطها بل لإصلاح ما فسد فيها ، وكان من الدعاة للامركزية ، يقول الأستاذ مصطفى على : « أما اللامركزية التى لا تنفصل عن الدولة العثمانية ، فصحيح أن الرصافى كان يقول بها وقد سمعته مراراً يذكرها وعندى مايؤيد هذا الرأى ويعززه »(٢) .

ويتجلى حبه للدولة العثمانية الإسلامية فى قصائد كثيرة ، منها قصيدته « الوطن والجهاد »(٣) التى نظمها عند دخولها الحرب العالمية الأولى يستنهض المسلمين إلى الجهاد فى سبيل الذود عن الوطن ، يقول :

يا قومُ إنَّ العِدا قد هاجموا الوطنا
فانضوا الصوارمَ واحموا الأهل والسكنا
واستنفروا لعدو الله كل فتى
ممن نأى فى أقاصى أرضكم ودنا
واستنهضوا من بنى الإسلام قاطبةً
من يسكن البدو والأريافَ والمدنا
واستقتلوا فى سبيل الذود عن وطنٍ
به تقيمون دينَ الله والسننا
واستنكفوا فى الوغى أن تلبسوا أبداً
عار الهزيمة حتى تلبسوا الكفنا

---

(١) مجلة الثقافة ص ٢٠ ، وشعراء العراق ج١ ص ٧٤ .

(٢) أداب الرصافى ص ٢٢ — ٢٣ .

(٣) الديوان ص ٤٨٩ — ٤٩١ .

إنْ لم تموتوا كراماً فى مواطنكم
متم أذلاء فيها ميتة الجبنا
عارٌ على المسلمين اليوم أنهم
لم ينقذوا مصر أو لم ينقذوا عدنا

ويقول مخاطباً حسين كامل ووزيره حسين رشدى :

قل للحسينين فى مصر رويدكما ... قد خنتما اللهَ والإسلام والوطنا
شايعتما الانكليز اليوم عن سفهٍ ... تا لله ماكان هذا منكما حسنا
قد بعتما الدينَ بالدنيا مجازفةً ... فكنتما فى البرايا شرّ من غبنا
لاتفرحا بالوسامين اللذين هما ... طوقا إسارة مصر فيكما اقترنا
قد مثّلا منكما للناس قاطبةً ... عجلاً أضلَّ الورى من قبل أوْ وثنا
ما ازدان صدراكما شيئاً بحماهما ... بل أصبحا فى كلا صدريكما درنا
إنّ الحميةَ لم تنظر بمقلتها ... إلى وساميكما إلا بكت حزنا
ماكان أغلاهما إذ قد غدت لهما ... خزائنُ النيل فى أيدى العدا ثمنا
ستندمان ولا يجديكما أبدا ... أن تقرعا السنَ أو أن تقبضا الذقنا
هذى جيوشُ بنى التوحيد زاحفة ... على العدا وعلى من ضلَّ منتتنا
لترسلنَّ عليكم كلَّ راعدةٍ ... تهمى الدماء وتمريها ظبى وقنا
حتى تعودَ إلى مصر كرامتها ... ويطهر النيل من ماءٍ به أجنا

ومنها قصيدته « نواح دجلة »[١] التى قالها بعد سقوط بغداد فى أثناء الحرب العالمية الأولى ، يقول :

هى عينى ودمعها نضّاحُ ... كلُّ حزنٍ لمائها يمتاحُ
كيف لاأذرفُ الدموعَ وعزّى ... بيد الذل هالكٌ مجتاحُ

---

(١) الديوان ص ٤١٨ ــ ٤١٩ .

قد رمتني يدُ الزمان بخطبٍ جللٍ ما لليلهِ إصباحُ

ويقول :

أين أهلُ الحفاظ هل تركوني نهبةً في يد العدوّ وراحوا ؟
برحوا واديَ السلام عجالا أجِدٌ براحهم أم مزاحُ ؟
لو رأوني سَبِيًا بأيدي الأعادي لبكوا مثلما بكيت وناحوا
لا مسائي بعد البعاد مساءٌ يومَ بانوا ولا الصباحُ صباحُ
أتمنى بأن أطيرَ إليهم بجناحٍ ، وأين مني الجناح ؟
أنا أدري بأنهم بعد هجري لم يذوقوا غمضا ولم يرتاحوا
بل هُمُ اليوم عازمون على الزحف بجيشٍ به تغصّ البطاحُ
إنْ تأتوا فربضةُ الليث تأتي بَعدها وثبةٌ له وكفاحُ
كيف يُغضون عن إغاثة وادٍ زانه من ودادهم أوضاحُ
فعليه من نحر عثمانَ تاجٌ وله رايةُ الهلال وشاحُ
أنا باقٍ على الوفاء وإن كانت بقلبي من الحبِّ جراح
فاليهمْ ومنهمُ اليوم أشكو بلغيهم شكايتي ياريَاحُ

الاستعمار :

كان الرصافي ثائراً على الاستعمار وأذنابه ، منكراً أعمال الحكام المؤتمرين بأمره . وقد جرّ عليه هذا الموقف الصارم كثيراً من الأذى وحورب في رزقه وسدت عليه منافذ الحياة ، ولكنه لم يأبه لذلك وظل يقارع الاستعمار حتى لفظ أنفاسه .

ويرى أن الغرب أصل البلية وحامي حمى العملاء ، وأن التمسك به سيجر البلاد إلى الدمار، ولن تتوحد الأمة العربية والاستعمار فوق أراضيها . ولن يسعد الشعب والحكام يمتصون خيرات الوطن . وكان يدعو إلى تركه ، لأنه

يزين القول دائما وينقض العهود ، يقول فى قصيدة « ميتة البطل الأكبر »[١] عبد المحسن السعدون :

واتركوا الغربَ وأهليه ولا تسمعوا منهم إلى ما قد يقالُ
وعلى أنفسكم فاتكلوا خاب مَنْ فيه على الغير اتكالُ
فالمواعيدُ التى قد وعدوا كلها منهم خداعٌ واحتيالُ
كلما قال لنا ساستُهم نقضت أقوالهم منهم فعالُ
هكذا كونوا وإلا فاعلموا أنما استقلالكم شىءٌ محالُ

ويسخر من سياسة المستعمرين فيتحدث عن « الحرية فى سياسة المستعمرين »[٢] حديثاً مراً يقطر أسى ، يقول :

ياقوم لاتتكلموا إنّ الكلام محرّمُ
ناموا ولا تستيقظوا ما فاز إلا النوّمُ
وتأخروا عن كل ما يقضى بأن تتقدموا
ودعو التفهم جانبا فالخير أن لاتفهموا
وتثبتوا فى جهلكم فالشر أن تتعلموا
أما السياسة فاتركوا أبداً وإلا تندموا
إن السياسة سرها لو تعلمون مطلسمُ

ويقول :

من شاء منكم أن يعيشَ اليوم وهو مكرَّمُ
فليمسِ لا سمعٌ ولا بصرٌ لديه ولا فمُ
لا يستحقُ كرامةً إلا الأصمُ الأبكم

والاستقلال عنده عماد الحياة الحرة الكريمة، وليس لشعب أن يتقدم مالم يحطم

(١) الديوان ص ٣١٨ ــ ٣١٩ .
(٢) الديوان ص ٤٤٨ ــ ٤٤٩ .

القيود ويقضي على المعاهدات الجائرة والقواعد العسكرية . وقد تحدث عن الاستقلال في كتابه « الرسالة العراقية »[١] وقصائده ، يقول في قصيدة « ذكرى فتى السعدون»[٢] .

فيابطلا بالنفس ضحى وإنما بذلك لاستقلالنا سنّة سنّا
فعلّمنا أن التفادىَ واجبٌ على كل قوم حاولوا شرفَ المغنى
سنسعى إلى ما قد سعيت من العلى بصادق عزم ينكر الضعف والوهنا
وإنا لقوم مستقلون فطرة إذا أنكر استقلالنا منكرٌ ثرنا
فلو جُعلتْ تبراً سبيكا بيوتُنا ولسنا بحكام أبينا بها السكنى
يهون علينا في السياسة أننا نُصلَّبُ في الأعواد أو ندخل السجنا

ووقف من الاستعمار بكل ألوانه موقفاً ثابتاً ، وكانت قصائده وكلماته ناراً حامية تنصب على المستعمرين الذين ابتلي العراق بهم ، وكان يرى أنَّ الانكليز هم المصيبة الكبرى التي نزلت ، والكابوس الذي خيم على البلاد ، ولا بد أن نرفع هذا الكابوس الثقيل لكي نسير بالبلاد نحو شاطىء السلام[٣] ، وهم ليسوا بمنقذي الوطن ولا محرريه ولو كتبوا العهود والمواثيق :

وليس الانكليز بمنقذينا وإن كتبت لنا منهم عهودُ
متى شفق القويُّ على ضعيفٍ وكيف يعاهد الخرفانَ سيدُ
ولكن نحن في يدهم أسارى وما كتبوه عن عهد قيودُ
أما والله لو كنا قروداً لما رضيت ترابتنا القرودُ[٤]

وكيفَ ينصفنا الانكليز وقد جمعوا مكائد الدهر كله :

---

(١) ص ٣٢ وما بعدها ، وينظر آراء في السياسة والدين والاجتماع ص ٢٥ وما بعدها .

(٢) الديوان ص ٣٢٤ — ٣٢٦ .

(٣) الرسالة العراقية ص ٨٨ ، وينظر آراء في السياسة ص ٣٢ .

(٤) الديوان ص ٤٦٠ .

لقد جمع الدهر المكايدَ كلها بقدر كبير صيغ من معدن الخبث
فصاغ طباع الانكليز من الذى تقاطر فى الأنبيق كالمطر الدّث
يقولون : إنّا عاملون لسعدكم ولم يعملوا غير الكوارث والكرثَ
فكم بعثوا فى الشرق حرباً دميمة تمثل فى أهوالها ساعة البعثَ
وكم أرسلوا دساً جواسيس مكرهم على الناس يشتدون بالنبش والنبث
وهم سلبوا أرضَ العراق سمينها ولم يتركوا للقوم فيها سوى الغث(١)

ويخاطب أهل لندن فى قصيدته التى رثى بها عبد المحسن السعدون فيقول:

ياأهلَ لندن ما أرضت سياستكم أهلَ العراقين لا بدواً ولا حضرا
إنّ انتدابكم فى قلب موطننا جرحٌ نداويه لكن لم يزل غبرا (٢)

والانكليز هم الذين ثبتوا الاقطاع فى العراق، لأنه يرسخ أقدامهم ويخدم مطامعهم وسياستهم الاستعمارية ، يقول : « إذ هم يريدون بهذا القانون تثبيت سياستهم الاستعمارية بإعطاء مَنْ والاهم وحرمان من عاداهم . وليس هناك وسيلة إلى ذلك أحسن من الأخذ بالنظام الاقطاعى فى الفرات بواسطة هذا القانون »(٣) .

والانكليز هم الذين قتلوا الملك فيصل الأول وابنه الملك غازى، يقول: « انهم غير أبرياء من التهمة الموجهة إليهم فى وفاة الملك فيصل الأول . وأن يدهم الخفية ملطخة بدم ابنه الشاب الملك غازى وأن الغلام والعبد اللذين كانا معه فى سيارته ليلة أصيب ، واللذين لم يعلم أنى هما اليوم إلا الله، يعلمان كيف أصيب ذلك الملك الشاب فى تلك الليلة . وأنهم تمهيداً للفتك بالملك غازى أوعز إلى أحد المنجمين فى العراق فتنبأ بأخبار منها سقوط البراق

(١) الديوان ص ٤٦٧ — ٤٦٨ .
(٢) الديوان ص ٣٢٢ .
(٣) الرسالة العراقية ص ١١ .

لكى يطمئن الرأى العام فى العراق بأن ما يصيبه ليس إلا قدراً من الأقدار.(١)

هذه نظرته إلى الانكليز وموقفه منهم ، غير أن بعض الباحثين يرون أنه كان متحمساً لهم وقد خدمهم بجريدته « الأمل » ، ولما لم ينل منهم منصباً ناصبهم العداء ونظم فيهم قصائد غائظة لهم كل الغيظ ، ومن ذلك بالذات قال قوله :

للانكليز مطامع ببلادكم لا تنتهى إلاّ بأن تتبلشفوا(٢)

وحارب الاستعمار الغربى المتمثل بإيطالية التى احتلت ليبيا ، وفرنسا التى احتلت سوريا ولبنان ومعظم شمال افريقية . ويتمثل موقفه هذا فى قصائده « ما هكذا» و « إلى الحرب » و« فى طرابلس » و«رؤياى الصادقة» و«الشيطان والطليان »(٣).

الحكم :

يقول الرصافى :

لنا ملك وليس له رعايا وأوطانٌ وليس لها حدودُ
وأجنادٌ وليس لهم سلاحٌ ومملكةٌ وليس لها نقودُ
أيكفينا من الدولات أنّا تعلق فى الديار لنا البنودُ

---

(١) الرسالة العراقية ص ١٢١ .

(٢) الرصافى فى أوجه وحضيضه ص ٣٠٣ـ ٣٠٥ ، وينظر مجلة العربى العدد ١١٠ ص ١١٤ (كانون الثانى ١٩٦٨ م) ، وكتاب فى الأدب العربى الحديث ـ بحوث ومقالات ص ١٠٣ .

(٣) الديوان ص ٤٠٤ ، ٤٧٨ ، ٤٨٢ ، ٤٩٢ ، ٤٩٧ ، وينظر كتاب القومية والاشتراكية فى شعر الرصافى ص ١٠٢ ، ١٠٩ ، والشعر العراقى الحديث للدكتور عز الدين ص ٥٣ ، والشعر العراقى فى حرب طرابلس للأستاذ الوائلى ص ١٦ وما بعدها .

وإنا بعد ذلك في افتقارٍ إلى ما الأجنبي به يجودُ
تجوز سيادةُ الهندىّ فينا وأما ابن البلاد فلا يسودُ
إذنْ فالهند أشرف من بلادى وأشرفُ من بنى قومى الهنودُ
وكم عند الحكومة من رجالٍ تراهم سادةً وهم العبيد
كلابٌ للأجانب هم ولكن على أبناء جلدتهم أسود[1]

بهذه الأبيات لخص رأيه فى الحكومة العراقية التى قامت سنة ١٩٢١ م ، وهى ثمرة البغاء السياسى الانكليزى ، أبوها الانكليز وأمها الثورة العراقية[٢] ويصفها وصفاً دقيقا فى قصيدته « حكومة الانتداب[٣] » ، يقول :

أنا بالحكومة والسياسة أعرفُ أألام فى تفنيدها وأعنف ؟
سأقول فيها ما أقول ولم أخفْ من أن يقولوا شاعر متطرف
هذى حكومتنا وكل شموخها كذب وكل صنيعها متكلف
علم ودستور ومجلس أمة كلٌّ عن المعنى الصحيح محرّف
أسماء ليس لنا سوى ألفاظها أما معانيها فليستْ تعرف
من يقرأ الدستورَ يعلم أنه وفقاً لصك الانتداب مصنف
من ينظر العلم المرفرف يلقه فى عز غير بنى البلاد يرفرف
من يأت مجلسنا يصدق أنه لمراد غير الناخبين مؤلف
من يأت مطرد الوزارة يلفها بقيود أهل الاستشارة ترسف
أفهكذا تبقى الحكومة عندنا كلماً تموّه للورى وتزخرف ؟

---

(١) الديوان ص ٤٦٠ ، وتنظر مقالة «الرصافى والبيت الهاشمى» للأستاذ مصطفى على فى كتاب مهرجان الرصافى ص ٧٧ .

(٢) الرسالة العراقية ص ١٠ ، ١٧ ، ٢٢ .

(٣) الديوان ص ٤٦١ — ٤٦٤ .

ويقول في قصيدة « يامحب الشرق »[١] :

وإذا تسأل عمّا هو في بغداد كائنْ
فهو حكمٌ مشرقيّ الضَّرْع غربيّ الملابن
وطنيّ الإسم لكن انكليزيّ الشناشن [٢]
عربيّ أعجميٌ معرب اللهجة راطنْ
فيه للإيعاز من لندنَ بالأمر مكامن

وكان لا بدّ أن يقف من الملك فيصل الأول والوزارة موقفاً ينبع من هذا الوضع ، ولذلك خاصم الملك ووزراءه وقال فيهم الشعر الذى جعلهم سخرية للشعب . وقد حاول المرحوم عبد المحسن السعدون أن يزيل هذا الجفاء بينه وبين الملك فلم يوفق ، وتوسط المرحوم الثعالبي فلم يفلح وظلّ الجفاء حتى ودع الملك الحياة[٣] .

ولكنه مدح الملك حينما جاء إلى العراق ، يقول في قصيدة « في دار النقيب »[٤] .

ماذا يريدُ المرجفونَ بكل بهتانٍ وزور
من بعد ما بدت المنى للقوم باسمةَ الثغور
في دار مولانا النقيب بوجهِ مولانا الأمير

---

(١) الديوان ص ٤٣٦ ـ ٤٣٨ .

(٢) الشنشنة : الطبيعة والسجية .

(٣) لمعرفة تفصيل هذه المسألة ينظر معروف الرصافي للواعظ ص ١٧٣ وما بعدها ، والرصافي في أعوامه الأخيرة ص ١٠٣ ، ومجلة كلية الآداب ج ٥ ص ٢٢٥ ، ومجلة العربي العدد ١١٠ ص ١١٦ (كانون الثاني ١٩٦٨ م) ، ومهرجان الرصافي ص ٧٤ ، والأدب العربي الحديث للدكتور عز الدين ص ١٠٥ .

(٤) الديوان ص ٢٨٥

ويقول له :

أفيصلُ أنتَ فيصلُ كل حكم   نريد به تقدمَنا السريعا
نريدُ به لنا مُلْكاً كبيراً   وعزاً في مواطننا منيعا
لعرشٍ عونقت فيه المنايا   وسابقت الدماءُ له الدموعا
بيوم ظاتِ الطعناتُ فيه   تمج على الثرى منا نجيعا
حكى ورد الدماء به شقيقاً   فذ ل في المصيف لنا الربيعا
فرنا بالبدار إلى المعالى   فلست ترى بنا إلا مطيعا(١)

وطلب منه أن يعفو عنه في رسالة بعث بها إليه في سابع تموز سنة ١٩٢٣ م ، يقول : « . . . وقلت تلك القصيدة التي أوجبت غضبكم عليّ إلى يومنا هذا مع أنها لم تكن صادرة عن حزازات في النفس ، وإنما كانت عن اجتهاد خاص واعتقاد تقدم بيانه . فلما جئت إلى دمشق الشام أيام حكومتكم فيها علمت أنّ غضبكم من أجل هذه القصيدة لم يفتر كما أخبرني بعض أصحابي نقلا عن نوري السعيد مع أن كثيراً من العلماء والأدباء في سورية كانوا قد شهروا أقلامهم أثناء الحرب في الطعن بجلالة والدكم ، وقد شملتموهم بأنظار الصفح والعفو جميعاً . وما أدري ما الذي استوجب استثنائي منهم واستمرار غضبكم عليّ من دونهم »(٢) .

ورثاه بقصيدته « في يوم أبي غازي »(٣) التي يقول فيها :

أبو غازي قضى فأقيم غازي   فأنطقنا التهاني والتعازي

ويقول :

أبا غازي فقَدْنا منك قرماً   يناجز دوننا يوم النجازِ

(١) مهرجان الرصافي ص٧٦ .

(٢) مهرجان الرصافي ص ٧٣ — ٧٤ .

(٣) الديوان ص ٣٣٤—٣٣٦ .

حللت من العراق وأنت ركزٌ   بحيث الأرض جيدة الركاز
فحل اليُمن منذ حللْتَ فيه   وقبلا كان عنه ذا انحياز

ورثى الشريف الحسين بن على بقصيدته « أبو الملوك »[1] التى يقول فى مطلعها :

بدا وجه العروبة فى حلوكِ   غداة قضى الحسين أبو الملوكِ

ووقف الموقف نفسه من بعض الساسة كنورى السعيد ، فقد مدحه بقصيدته « فخامة الرئيس ووسام الرافدين »[2] ، يقول :

ته يا وسامَ الرافدين بصدر منْ   هو فى العلى للرافدين وسامُ
نورى السعيد أبو صباح منْ به   سعدَ العراقُ فثغره بسّامُ
قد أنعم الملكُ المطاعُ به لكى   يزدانَ فيه وزيرُه الضرغامُ
يا حبذا ذاك الوزيرُ وحبذا الملك المطاع وحبذا الإنعامُ

وهجاه بقوله :

إنّ نورى السعيد قد كان قبلا   آدمياً فصار بالمسخ قردا
قد أبى أن يعيش حراً مع العر   ب فأمسى للتيمسيين عبدا
مثل إبليس ما أطاق سجوداً   وأذاق الهوان لعناً وطردا[3]

وبقوله :

قل لى بربك يا سعيدُ   ولست بالرجلِ السعيدِ

(١) الديوان ص ٣٢٨ .
(٢) الديوان ص ٥٢٠ .
(٣) معروف الرصافى للواعظ ص ١٩٣ .

من للعراق يصونهُ من كل شيطان مريد
جردّته من أسده وغدا العَرينُ بلا أسود[١]

أما الوزارة فهى كما قال :

إنّ الوزارةَ لا أباك عندنا ثوبٌ يفصّل فى معامل لندنا
لا يرتديه سوى امرىءٍ أضحى له طبعاً ودادُ الانكليز وديدنا[٢]

وقد أوضح رأيه فى اختيار الوزارة، وزيف ما كان يلجأ إليه الحكام فى تشكيلها[٣]، وتحدث عن الوزراء - ووزير المعارف خاصة - حديثاً يظهر ما كان عليه الحكم فى عهده[٤].

المعاهدات :

تحدث الرصافى عن معاهدتين هما : معاهدة سنة ١٩٢٢ م التى قال فيها عند نشرها :

نشروا المعاهدة التى فى طيها قيدٌ يعض بأرجل الآمال
قد أبلغونا حبستة استعبادنا لكن مموهــــة بالاستقلالِ
والعهد بين الانكليز وبيننا كالعهد بين الشاة والرئبال
من ذا رأى ذئب الذئاب مصافحاً بتودد حملا من الأحمال
لكنهم خافوا انفكاك قيودنا فاستوثقوا منهن بالأقفال
كتبوا لنا تلك العهودَ وإنما وضعوا بها قفلا على الأغلال

---

(١) مع الرصافى الثائر ص ١٥

(٢) الديوان ص ٥٠٤ :

(٣) تنظر الرسالة العراقية ص ٤٩ وما بعدها

(٤) تنظر الرسالة العراقية ص ٥٦، والديوان ص ٤٦٢ ـ ٤٦٤، ٥١٠، ٥١٤

شلت أكفُّ موقعيها إنهـم حلت عليهم لعنـة الأجيال
هب أنهم أمنوا انفكاك قيودنا أفيأمنون تقلب الأحوال[1]

ومعاهدة سنة ١٩٣٠م ، وكان حينما صدقت عضواً فى مجلس النواب ، وعارضها معارضة شديدة[2] وألقى خطابه المشهور الذى يقول فيه :

إن هذه المعاهدة تشترك مع المعاهدات السابقة فى ثلاثة أمور :

الأولى — إن المعاهدة يجب قبل كل شىء أن تستند إلى قوة لتكون ذات قيمة . فقيمة كل معاهدة تساوى قوى عاهدها ، وبالنظر إلى هذه الحقيقة تكون معاهدتنا مع بريطانيا كمعاهدة الحمل مع الذئب . وما أدرى أية قيمة تكون لمعاهدة تقع بين الحمل (الخروف) والذئب ؟

الثانى — المعاهدات كلها تقوم على أساس تبادل المنافع وعلى أساس الغرم بالغنم وإلا كانت ضرباً من ضروب الاغتصاب البرىء والتسخير . وإذا لم تكن هناك منافع متبادلة كانت المعاهدة غير صحيحة . وكلما نظرت فى المعاهدات السابقة وفى هذه المعاهدة لم أجد إلا منافع لبريطانية تضمنها هذه المعاهدة . وأما المنافع التى تضمنها بريطانية تجاه المنافع فما هى ؟ وهل ضمنت شيئاً ؟ كلا ما ضمنت شيئاً منها .

---

(١) الديوان ص ٥١٠ .

(٢) الذين عارضوا معاهدة ١٩٣٠ فى مجلس النواب هم : ياسين الهاشمى وناجى السويدى ورشيد عالى الكيلانى وعلى جودة ومعروف الرصافى وعبد الكريم الديوان وصادق البصام وبهجة زينل وعبود الملاك وابراهيم عطار باشى وغياث الدين النقشبندى ومحمد صدقى وعثمان حاج علوان .

(تنظر جريدة نداء الشعب — البلاد — العدد ٣٠٦ (السنة الثانية ١٧ تشرين الثانى ١٩٣٠ م ، ٢٦ جمادى الثانية ١٣٤٩ هـ) .

الثالث — نحن فى عقد هذه المعاهدة لسنا على اختيار بل على اضطرار . كلنا نعلم أن العراق فى قبضة بريطانية الحديدية أو النارية . وأن الانكليز لهم سلطة نافذة قهارة جبارة غدارة . فنى هذا الوضع نعقد مع الانكليز معاهدة ؟ بمعنى أنهم يملون علينا ونحن نكتب — إذن ليس لنا خيار بل بصورة الاكراه . ولا أعرف ما مبلغ معاهدة تعقد بهذه الصورة من الصحة ؟

نعم إن هذه المعاهدة تخالف المعاهدات السابقة فى شىء واحد وهو أن المعاهدات السابقة رفعت اسم الانتداب تجاه العراقيين فقط ، أما تجاه الغرب فالانكليز يعاملون العراق بصورة منتدبة . ولكن التمويه فى هذه المعاهدة برفع الانتداب ليس تجاه العراقيين فقط بل تجاه أمم الغرب أيضاً ، وذلك بدخول العراق عصبة الأمم بين الدول المستقلة .

إن المفاوضات جرت على أساسين : أحدهما دخولنا فى عصبة الأمم بلا قيد ولا شرط . أرجوكم أن هذه المعاهدة فيها سبعون ألف شرط وقيد ، ونحن ندخل عصبة الأمم بموجبها ، فما معنى بلا قيد وشرط ؟ أليست هذه المعاهدة كلها قيود وشروط ؟

أقول : إذا دخلنا عصبة الأمم وبيدنا هذه المعاهدة فاننا لا نكون مستقلين حتى ولو دخلنا قدس الأقداس وملكوت السماء . فمن العجب أن نستقل وبيدنا هذه المعاهدة . ثم إن هذه المعاهدة لا تنفذ إلا بعد دخولنا عصبة الأمم ودخولنا فيها يكون فى سنة ١٩٣٢م ، فما هذه العجلة كما قال الهاشمى ؟ ولماذا نمضى المعاهدة قبل سنتين من تنفيذها ؟ .

فلنتبصر ولنتريث على الأقل قبل نصف سنة من تنفيذها وننظر بها حينئذ ثم ندخل على أثر ذلك عصبة الأمم . هذا ما أريد أن أقوله »[1] .

---

(١) جريدة نداء الشعب — البلاد — العدد ٣١٠ (السنة الثانية — الجمعة ٢١ تشرين الثاني ١٩٣٠ م ، ٣٠ جمادى الثانية ١٣٤٩ هـ) .

وتحدث عنها فى كتابه « الرسالة العراقية » وقال : « إن هذه المعاهدة قد أملتها القوة البريطانية إملاءاً على الحكومة العراقية لكى تقوم مقام الانتداب الذى ضج الشعب العراقى بمقته ، ولهج برفعه ودفعه . فالغاية التى ترمى إليها بريطانية فى هذه المعاهدة هى :

أولا — تثبيت قدمها الاستعمارية فى العراق .

وثانياً — التمويه بها على العراقيين إنهم سيستقلون ، وأن الانتداب بهذه المعاهدة سيزول باستقلالهم الذى يتم بادخالهم عصبة الأمم عقب وضعها موضع التنفيذ . ولم تخجل بريطانية من جعل دخولهم عصبة الأمم من مقومات استقلالهم ، وهى تعلم والناس كلهم يعلمون أنّ حكومات الهند كلها داخلة فى عصبة الأمم وهى مع ذلك فى الدرك الأسفل من جهنم أسر الانكليز »[١] .

وذكر أن الحكومة العراقية اتخذت جميع ماعندها من الوسائل ومهدت جميع ما لديها من الطرق لتصديق المعاهدة فى المجلس النيابى ، كالتدابير التى استعملتها فى إجراء الانتخاب ولترشيح النواب والدعاية الاقناعية والمجىء بنواب يؤيدونها ، وتهيئة جبهة معارضة فى المجلس إذ أوحت إلى المرحوم ياسين الهاشمى بأن يتزعم المعارضة . وانتهى إلى القول بأن هذه المعارضة مصطنعة مفتعلة من قبل الحكومة نفسها ، ولم يصوت برفض المعاهدة نائب خارج عن هذه المعارضة غيره . يقول : « فأنا وحدى رفضتها من غير أن يواضعنى أحد على رفضها . فمن هذا يتضح لك أن كل ماجرى فى المجلس النيابى فى شأن المعاهدة لم يكن إلا بتدبير وتمهيد من الحكومة »[٢] .

---

(١) الرسالة العراقية ص ٣٥ — ٣٦ .

(٢) الرسالة العراقية ص ٣٦ .

وتحدث عن هذه المعارضة فقال : « موقفي معلوم ، عارضتها ولكن تريد (١) أن تعرف كيف عارضت ؟ نعم ، كانت قضية تلك المعاهدة المشؤومة حديث أهل بغداد ، وفي إحدى الليالي اجتمع عدد من السياسيين في دار جعفر باشا — جعفر العسكري — وكنت أنا معهم ، وكان نوري باشا من الذين يسعون لاقناع النواب المعارضين واقترب مني وطلب مني أن نختلي ففعلت فقال لي نوري باشا : يامعروف إنني أطلب منك أن توافق على المعاهدة ولك ماتريد . فقلت له : يانوري إذا حدثتني بهذا مرة ثانية فلن أكلمك . فابتسم وقال : « لقد أردت أن أمتحنك ليس إلا » . ثم تركت دار جعفر باشا بعد دقائق »(٢)

وليس في ديوانه المطبوع إشارة إلى هذه المعاهدة ، وكأنه — رحمه الله — اكتفى بما تحدث به في المجلس والرسالة العراقية وتصريحاته الخاصة .

الثورات :

كان الرصافي نائباً عن العراق في عاصمة الدولة العثمانية عندما قامت الحرب العالمية الأولى، وعندما أعلن الشريف حسين ثورته في (٩ شعبان) ١٣٣١ هـ — ٥ حزيران ١٩١٦ م — لم يقف إلى جانبها ، لأنها تحارب حكومة الخلافة الإسلامية التي كان من محبيها والمطالبين بالحكم اللامركزي في ظلها . ولم يكتف بذلك بل هجا الشريف حسين بقصيدة سماها « ثالث ثلاثة » وهم : الشريف حسين وحسين كامل سلطان مصر وحسين رشدي رئيس وزرائها(٣) . ولذلك كان موقفه من البيت الهاشمي معروفا ، وفي رسالته المرسلة إلى الملك فيصل الأول بتاريخ (٧ تموز ١٩٢٣م) ما يلقي ضوءاً على هذه المسألة . (٤)

(١) الخطاب إلى الأستاذ نعمان ماهر الكنعاني .
(٢) الرصافي في أعوامه الأخيرة ص ١٤ — ١٥ .
(٣) تنظر القصيدة في مهرجان الرصافي ص ٧٢ ، ومعروف الرصافي للواعظ ص ١٦٣ .
(٤) تنظر الرسالة في ص ١٣٤ من كتابنا هذا .

وليس له قصيدة فى الثورة العراقية التى قامت فى ٣٠ حزيران ١٩٢٠م ، وقد فسر بعضهم ذلك بأنه كان بعيداً عن العراق ، ورأى الآخرون أنه قصّر فى هذا الميدان(١) . وحديثه عن الحكومة العراقية يوضح موقفه من ثورة العشرين(٢) .

أما حركة ٢٩ تشرين الأول سنة ١٩٣٦م التى قام بها بكر صدقى فليست انقلاباً ؛ لأنها لم تقدم مافيه الفائدة ، يقول : « وما هى بالانقلاب إذْ لم يتبدل بها شكل الحكومة وإنما هى سقوط وزارة وقيام أخرى ، ولا أقل ولا أكثر . والوزارة العراقيـــة فى عهودها الأخيرة أصبحت لاتسقط إلا بأحد أمرين : إما بثورة عشائرية كسقوط وزارة المدفعى التى أثارعليها الهاشمى نفسه بعض عشائر الجنوب فأسقطها وحلّ هو محلها ، وأما بحركة جيشية كسقوط وزارته(٣) بحركة الجيش المعلومة »(٤) .

ويرى أن الانكليز هم الذين دفعوا بكر صدقى لخروجه على حكومة المرحوم ياسين الهاشمى لما أخذ ينجد من وراء ستار ثوار فلسطين بالمال والعتاد ، وهم الذين دبروا — أيضاً — القضاء على بكر صدقى . يقول : « عندما أخذ القائد العراقى بكرصدقى يبتاع عتاداً وطيارات للجيش العراقى من غير بريطانية دبرت لاغتياله مكيدة خفية لم يَعْلَمْ عنها أحد حتى الكمه من أهل العراق . وكانت هى التى دبرت خروجه على حكومة ياسين الهاشمى لما أخذ هذا الآخر ينجد من وراء ستار ثوّار فلسطين بالمال والعتاد حتى أسقط حكومته بكر صدقى بالطريقة التى يعلمها الخاص والعام . وهنا يجب

---

(١) ينظر معروف الرصافى للواعظ. ص ١٩٥ — ١٩٧ .

(٢) ينظر قول الرصافى فى ص ١٣٢ من كتابنا هذا :

(٣) أى : وزارة المرحوم ياسين الهاشمى .

(٤) الرسالة العراقية ص ٢٧ — ٢٨ .

أن نتمثل بقوله تعالى : « ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين »(١) .

ويقول متحدثاً عن الإنكليز : « إنهم هم المبتدأ والخبر فى الحادثه المسماة بالانقلاب فى العراق ، تلك الحادثهالتى ابتدأت باسقاط وزارةياسين الهاشمى وانتهت بقتل بكر صدقى فى الموصل . وأن الذى أزعجهم من وزارة ياسين هو إمداد ثوار فلسطين بالمال والسلاح ، كما أن الذى نقموه من بكر صدقى هو ابتياعه للجيش العراقى العتاد والطيارات من ألمانية وإيطالية »(٢) .

ولا بدّ أن يقف الرصافى هذا الموقف من انقلاب بكر صدقى ، وهو القائل :

وكيف تساس مملكة بعدلٍ إذا ما الحكم أصبح عسكريا(٣) .

وله قصيدة نظمها فى ٣٠ تشرين الأول ١٩٣٦ م ، أى بعد الانقلاب بيوم سماها « يوم سقوط وزارة الهاشمى »(٤) ، يقول فيها :

لا تأمنْ دنياك فى حالة مهما تكن زاهيةً زاهره
وانظر لعقبى وزراء مضوا كيف عليهم دارت الدائره
باتوا على النعماء فى ليلةٍ شبَّت لهم فى صبحها نائره
إذْ قذفتهم عن كراسيّها وزارة كانت بهم وازره

وبعد أن يشير الى مصرع المرحوم جعفر العسكرى وزير الدفاع فى وزارة الهاشمى ، وهروب نورى السعيد إلى مصر ، ولجوء ياسين الهاشمى ورشيد عالى الكيلانى إلى سورية يقول :

(١) الرسالة العراقية ص ١١٤ — ١١٥ .
(٢) الرسالة العراقية ص ١٢١ — ١٢٢ .
(٣) الديوان ص ١٤١ .
(٤) تنظر فى كتاب ذكرى الرصافى للبدرى ص ٢٤ — ٢٦ .

وكانت الأفواهُ مكمومةً ... فأصبحت من بعدهم فاغره
تلهج بالشتم لهم لاذعاً ... وتكثر الضحكَ بهم ساخره
وهي — وإن كانت لهم قبل ذا ... مادحةً حامدةً شاكره
هذى هي الدنيا وأبناؤها ... في يومنا والحقب الغابره
لا تنفع الناسَ مساعيهم ... إذا الجدود انقلبت عاثره
لو قيل لى فى الجيش من ذا الذى ... كان بما أوقعه آمره
قلت سلوا الكرخِ اقتدوا أمره ... فى تلكم الدائرة الماكره(١)
ففى فلسطينَ وثوارها ... لهم يد تعرفها القاهره
قد دبّرت منهم لهم كيدَها ... حتى غدت منهم بهم دائره
أهل العراقين متى تأبهوا ... للغير الهاجمة الدامره
فى كل يوم لكم هيعةٌ ... مضحكة كالنكتة النادره

وحينما قامت ثورة ٢ مايس ١٩٤١ أيدها وكان يومذاك معتكفاً فى الفلوجة وأنشد قصيدته المشهورة « اليوم الأغر — يوم الجيش وزعيمه »(٢) التى يقول فيها :

اليوم قرّى يا مواطنُ أعينا ... وتطربى بالحمد منك الألسنا
فلقد وفاك الجيش حقك سابغاً ... إذ قام فيك على البلاد مهيمنا
وسعى يحوطك بالصوارم دائباً ... لزعيمه العالى الرشيد ومذعنا(٣)
جيش إذا اقتحم المخاطر واثقاً ... بالله والنصر المؤزر مؤمناً
متوشحاً عز الشهامة جاعلا ... كزعيمه حبَّ المواطن ديدنا

---

(١) يريد السفارة البريطانية التى كانت تدبر المؤامرات والانقلابات .

(٢) ينظر كتاب أسرار ٢ مارس ١٩٤١ لبجرى ص ١٥٦ — ١٥٧ ، ومعروف الرصافى الواعظ، ص ١٨٨ — ١٨٩

(٣) هو المرحوم رشيد عالى الكيلانى أحد زعماء الثورة ورئيس وزرائها .

سر يازعيمَ الشعب غيرَ منازع بالجيش للعز المجالِ بالسنا
وأعِدْ لنا عهد الرشيد وحاكهِ بالإسم والهمم الرفيعة والكنى

وشهد ما اقترفه الإنكليز حينما دخلوا الفلوجة فنظم قصيدته « يوم الفلوجة »(١) التي يقول فيها :

أيها الانكليز لن نتناسى بغيكم فى مساكن الفلوجه
ذاك بغى لن يشفى اللهُ منه بالمواضى جريحه وشجيجه
هو كرب تأبى الحميةُ أنَّا بسوى السيف نبتغى تفريجه
هو خطب أبكى العراقين والشا م وركن البنية المحجوجه
حلها جيشكم يريد انتقاماً وهو مغرٍ بالساكنين علوجه
يوم عاثت ذئاب آثور فيها عيثة تحمل الشنار سميجه
فاستهنتم بالمسلمين سفاهاً واتخذتم من اليهود وليجه
وأدرتم فيها على العزل كأساً من دماء بالغدر كانت مزيجه
واستبحتم أموالها وقطعتم بين أهل الديار كل وشيجه

وكاد يصيبه ما أصاب الأحرار من قتل أو اعتقال لولا أنه عاد إلى بغداد وسكن فيها . ولولا أن عبد المسيح وزير توسط فى إلغاء أمر اعتقاله الذى أصدرته الحكومة سنة ١٩٤١ بعد عودته من الفلوجة . وانطوى على نفسه فى بغداد ، يقول : « إنى منذ ذلك الحين أقللت من الاختلاط بالناس حتى إنى لم أقابل كثيراً من أصدقائى منذ شهور . وقد مضى أكثر من ثلاثة أشهر لم أزر كامل الجادرجى »(٢) .

ويروى الأستاذ سعيد البدرى أن الرصافى كتب رسالة إلى نورى

(١) الديوان ص ٤٦٦ — ٤٩٧
(٢) الرصافى فى أعوامه الأخيرة ص ١٠

السعيد رئيس الوزراء فى ذلك الوقت يرحب فيها باعتقاله ، ويذكر أنّ الأحرار المعتقلين كلهم إخوانه وأبناء وطنه وليس بأفضل منهم ، وإن الحياة معهم أشرف من الحياة التى يحياها فى البيت(١) .

وحينما عاد الوصى عبد الاله بحراب الانكليز إلى العراق استقبله الرصافى بقوله :

زفتْ الينا العروسُ وزوجها الانكليسُ
المهر منا دماءٌ والعرس حرب ضروس
كم مزقت حرمات وكم أضيعت نفوس
وكم أديرت علينا من المنايا كئوس
وكل هذا لتحظى بالبعل تلك العروس
يوم العروس لعمرى يوم كريه عبوس(٢)

وحينما أعدم الضباط الأحرار الذين قاموا بثورة مايس ، قال يبكيهم :

أيها الأنجم التى قد رأينا عبراً فى أفولها كالشموس
إنّ هذا الأفول كان شروقاً فى دياجير طالع منحوس
وسيأتى الزمان منه بسعيد تنجلى منه داجيات النحوس
شنقوكم ليلا على غير مَهْل ثم دسوا جسومكم فى الرموس
شنقوكم لأنكم قد أبيتم أن تكونوا فى ربقة الانكليس
أيها الأنجم التى تركتنا فى أسىً من مصابها محسوس
فى سبيل الأوطان متم ففزتم بأجلّ التمجيدِ والتقديس(١)

---

(١) الرصافى فى أعوامه الأخيرة ص ١٠٢
(٢) الديوان ص ٣٩٢
(٣) الديوان ص ٢٨١

الاقطاع

كان الرصافي -رحمه الله- ثائراً على الاقطاع ركيزة الاستعمار والاستغلال. يقول : « ثم إن العراق اليوم يمثل العصور الاقطاعية بأشوه وجوهها السود وأقبح صورها المنكرة ، حيث ترى من يملك ألوف الفدادين من أراضيه التي تسقى سيحاً أو بواسطة المضخات . وترى في ملكه الواسع العظيم ألوفاً من الناس يكدون له ويكدحون ويحرثون ، ويزرعون وليس لأحدهم من مرافق الحياة سوى ثوب أسمال ورغيف خشكار ، وترى صاحبهم في نعيم سابغ وعز باذخ وشرف شامخ ، يقضي أوقاته في عيش رغيد وفي قصف ولهو من كد هؤلاء المدقعين الذين يجرعون كؤوس البؤس والشقاء[1] .

ويرى أن قانون التسوية الذي أصدرته الحكومة كان يهدف إلى السيطرة على الفلاحين بطريق الاقطاعيين ، وبالتالي إلى خدمة الانكليز الذين كانوا يسعون إلى تثبيت سياستهم الاستعمارية باعطاء من والاهم وحرمان من عاداهم. وليس هناك وسيلة أحسن من الأخذ بالنظام الاقطاعي في الغمرات بواسطة هذا القانون .

ويرتبط بالاقطاع « نظام دعاوى العشائر » ، وقد حمل عليه حملة عنيفة، يقول : « وكيف يدينون بالاسلام وأنت تراهم من عاداتهم المنكرة وتقاليدهم المستهجنة يتخبطون في حمأة نتنة من همجيتهم التي أعادوا بها الجاهلية الجهلاء على أشنع وجه وأفظعه والحكومة من ورائهم تؤيدهم في ذلك بقانون العشائر، ذلك القانون الذي ليس هو كفراً في الاسلام فقط ، بل هو كفر وأشنع من

(١) الرسالة العراقية ص ١٠ ، وآراء الرصافي في السياسة والدين والاجتماع ص ١٩

الكفر فى جميع الأديان . وليت هذا القانون خص بأهل السواد من العشائر الذين يسكنون الأرياف يحرثون الأرض ويزرعون كما تقتضيه تسميته بقانون العشائر ، ولكننا نراه إذا شاء الهوى جرى تنفيذ أحكامه على أهل المدن أيضاً[1] » .

لقد شهد الرصافى الاقطاع وظلمه ، ورأى كيف يطبق « نظام دعاوى العشائر » فرفع صوته عالياً مستنكراً الجرائم التى تقترف والحياة اللاهية التى يعيشها المستغلون ، وصرخ قائلا :

فإلى كم نشقى وحتى مَ نبقى هكذا فى عماية وضلال
إنما الحق مذهب الاشتراكية فيما يختص فى الأموالِ
مذهب قد نحا اليه أبو ذرّ قديماً فى غابر الأجيالِ
ليس فضل الزكاة فى الشرع إلاّ خطوة نحو مبتغاه العالى
مبدأ ذو مقاصد ضامنات ما لأهل الحياة من آمال
موصلات إلى السعادة فى العيش هواد إلى طريق التعالى
ليس للمرء أن يعيش بلا كد وإن كان من عظام الرجال[2]

إنها اشتراكية محمد صلى الله عليه وسلم التى حملها الصحابة ورفع بها أبو ذر صوته وليست اشتراكية البلاشفة التى ذكرها بقوله :

للانكليز مطامع ببلادكم لا تنتهى إلا بأن تتبلشفوا

* * *

إن حياة الرصافى الحافلة بالكفاح والصراع السياسى توحى بأنه شغل عن التأليف وانصرف يقارع الخطوب ويرد كيد الأعداء ، ولكن المتتبع للحركة الفكرية فى العراق الحديث يجد له آثاراً فكرية تستحق الاعجاب والتقدير

(١) الرسالة العراقية ص ٦ وتنظر ص ٤٠ وما بعدها ، والرصافى صاغى به ص ٢٠٨ ، وآراء الرصافى فى السياسة ص ١٢

(٢) الديوان ص ١٧٩

وهذه الآثار تمثل حياته الفكرية وأعماله العقلية التى تحتاج إلى صبر طويل ومتابعة مضنية وتفكير عميق . وليت آراءه سجلت كلها لترسم صورة صادقة لحياته ، ولكن الكثير منها ضاع ولا سيما ماكان يبديه فى مجالسه وأحاديثه الخاصة فقد ذكر الذين عاصروه واتصلوا به أن له مجلساً عامراً بالأحاديث ، زاخراً بكل مافيه النفع وإنارة السبيل . يقول الدروبى متحدثاً عن مجلسه : « عرف له البغداديون فى عهد شبابه مجلساً حافلا عامراً من مجالس الأدب والفضل والشعر والقريض فى مقهى الشط — المصبغة — يتردد عليه فيه رجال العلم وأمراء البيان وفضلاء الأدباء ، فكان مجمعهم أشبه بمنتدى للفكر والأدب ، يتبارى فيه الشعراء ، ويتجاوب فيه الخطباء والبلغاء وتدور أسئلة الأدب والشعر . وللأستاذ الرصافى القول الفصل والكلمة الحقة فى ذلك ، وهو بطل حربها وسيد جمعها »[1] .

وعقد مجالس فى أماكن مختلفة ، وكان يختلف إليها منهم محمد طاهر جلبى آل الراضى وشكرى الحمامى وحبيب العيدروسى وأحمد القايمقجى وطه الراوى وناجى القشطينى ومنير القاضى ونورى ثابت — صاحب جريدة حبزبوز الهزلية — وعبد القادر المميز — صاحب جريدة أبو حمد الهزلية — والملا عبود الكرخى — الشاعر الشعبى — ومصطفى على وجميل صدقى الزهاوى وغيرهم من رجال الفكر والأدب ، وكان المتردد على هذه المجالس لايخرج منها إلا والنشوة تغمره بما يتخللها من نكات وطرائف وبحوث ممتعة.

وكان بيته فى الفلوجة والأعظمية ، منتدى القوم ، ولعل الذين كانوا يترددون عليه يسجلون انطباعاتهم ويروون أقواله وآراءه ليحفظها التأريخ وتكون مادة يرجع اليها الباحثون حينما يتحدثون عنه ، أو يكتبون تأريخ الفكر المعاصر فى العراق .

---

(١) البغداديون ص ١١١ـ١١٢ وينظر وصف مجلسه فى جريدة الاستقلال العدد ١٧٦٠ (٧ كانون الأول ١٩٣٢ م ، ٨ شعبان ١٣٥١ هـ)

الباب الثاني

آشارة

الفصل الأول

الشعر

عُرف الرصافى بشاعريته الفذة وقصائده الرائعة التى هزّت الدنيا بما فيها من صراحة فى القول وصدق فى التعبير، وعاطفة جياشة وتأثير عجيب يأخذ بمجامع القلوب. ويكاد الشعر يطغى على آثاره ويحتل مكانة مرموقة فى عالم الأدب بعد أن طبع ديوانه عدة مرات فى بيروت والقاهرة، وترنم بقصائده العرب فى كل مكان، حتى خيل للناس أنه شاعر ليست له يد طولى فى اللغة والأدب والتاريخ والاجتماع. والباحث فى حياة هذا الرجل الفذ وآثاره يجد له كتبا كثيرة، فى موضوعات مختلفة وبحوثا مفيدة فى اللغة والأدب، وقد أشار الدارسون إلى معظم هذه الكتب والبحوث واستفادوا منها وعكفوا عليها، لأن الرصافى وضعها لمنفعة الناس وخدمتهم. يقول فى وصيته «كل ما كتبته من نظم ونثر لم أجعل هدفى منه منفعتى الشخصية، وإنما قصدت به منفعة المجتمع الذى عشت فيه والقوم الذين أنا منهم، ونشأت بينهم، فلذا لم أوفق إلى شىء فى حياتى يسمى بالرفاهية والسعادة فى الحياة». ويقول: «كل ما عندى من الكتب المخطوطة والتى كتبتها أنا تباع لمن يرغب فى شرائها على أن يكون له حق الطبع والنشر ولا يكون لى فيها سوى الاسم[1]» ويقول فى شعره[2]:

ولست على شعرى أريد مثوبة ولكنّ نصح القوم جل مراميا

---

(١) الرصافى – ملحق به، وصيته، مؤلفاته ص ٤٣–٤٤، وذكرى الرصافى الرشودى ص ٢٣٥–٢٣٧ ومعروف الرصافى اطبانه ص ٦٧

(٢) الديوان ص ١٢٥

وقد اتصف الرصافى فى مؤلفاته بالإخلاص للفكرة التى يحملها والعقيدة التى يؤمن بها ، لذلك جاءت صادقة معبرة عن آرائه أحسن تعبير .

وكتبه — رحمه الله — فى موضوعات مختلفة ، ويمكن أن نصنفها فى أبواب تجمع شتاتها وتلم أشباهها ونظائرها ، وهذه الأبواب هى :

١ — الشعر .

٢ — اللغة .

٣ — الأدب .

٤ — التاريخ والاجتماع والسياسة .

٥ — التعليقات .

٦ — المقالات .

• • •

اشتهر الرصافى بالشعر أكثر من اشتهاره باللغة والأدب ، لأنه عاش فى عهد كان العرب فيه يطربون للقصيدة الرنانة والكلمات المعبرة عن آمالهم فى الإنعتاق من نير العبودية ، وكانت قصائده تهزهم هزاً عنيفاً وتأخذ بمجامع قلوبهم التى أدمتها الأيام وزادها إيلاماً تعسف الحكام وظلمهم ، وسارت قصائده فى البلاد وتغنى بها العرب وهم فى محنتهم ، وكان البعض يظن أن اسمه مستعار ، لأنه لا يعقل أن تترك الحكومة شاعراً يدعو العرب إلى الثورة والانقضاض على المستبدين والطغاة . يقول الرصافى : « وكانت هذه القصائد تصل إلى أمريكا فى ذلك الوقت ، وكان فى أمريكا جريدة لصاحبها نعوم المعلكي اللبنانى وكان يقتبس هذه القصائد وينشرها

فى « المناظر » جريدته . فكتب يوما مقالا قال فيه إن معروف الرصافى اسم مستعار لا اسم حقيقى ، وأورد أدلة على ذلك ، منها إنه لا يمكن فى البلاد العثمانية أن يقوم رجل وينشر هذه القصائد وتتركه الحكومة وشأنه ولا تعمل له شيئاً . فكتب محمد كرد على كتاباً خاصاً إلى صاحب «المناظر» يقول فيه : « انك مخطىء ، لأن معروف الرصافى رجل حقيقى ولنا معه مكاتبات وهو فى بغداد » فنشر البعلبكى هذا الكتاب فى جريدته وعلق عليه بأنا لا نسلم لمحمد كرد على هذا القول مالم ينقض الدليل الذى أقمناه على أدعائنا ، فكرد على أرسل إلى هذه القطعة فكتب إلىّ أن يافلان اترك هذا الرجل وما يقول ، لأن الرجل يخدمنا من هذه الناحية ، لماذا ننبه الحكومة على أن هذا الاسم حقيقى فهذا قد يسبب اضطهادنا [1] » .

ويقول الشاعر بشارة الخورى « الأخطل الصغير » : « سبقت معروف الرصافى شهرته إلينا بما كانت تنشره له صحف مصر قبل إعلان الدستور من غرر القصائد تنبعث منها لفحات الحرية ، ويتطاير عن جوانبها شرر الوطنية حتى اعتقدنا أن معروف الرصافى اسم مستعار لشاعر عراقى كبير ، وإلا فكيف يجسر رجل يظله خيال عبد الحميد ورجال عبد الحميد على بعث هذه الثورة فى قلب البلاد العثمانية ، وينفخ فى موقد الاصلاح الاسلامى فى فى بلد كبغداد حيث تسود الرجعية الدينية وتطغى [2] » .

بدأ الرصافى ينشر قصائده فى مجلة « المقتبس » التى كان يصدرها فى مصر المرحوم محمد كرد على ، وفى جريدة « المؤيد » اليومية للشيخ على يوسف . يقول : « وفى هذه الفترة من تاريخ حياتى التى قضيتها فى التدريس فى الاعدادى

---

(١) مجلة الثقافة الجديدة العدد ١ ص ١٦ (نيسان ١٩٥٤) ، وشعراء العراق فى القرن العشرين ج ١ ص ٦٩ .

(٢) جريدة البلاد العدد ١٨٨ (السنة الأولى الاثنين ٢٣ حزيران ١٩٣٠ م ، ٢٥ محرم ١٣٤٩ هـ)

الملكي وهي لاتتجاوز الثلاث سنوات صرت أبعث قطعاً من شعري إلى مجلة «المقتبس» التي كانت تصدر في مصر لصاحبها محمد كرد علي، وكان يحرر في جريدة المؤيد اليومية أيضاً، فصرت أنا والأستاذ جميل صدقي الزهاوي نرسل قطعاً من شعرنا فينشره في المجلة، وفي بعض الأحيان في جريدة «المؤيد» للشيخ علي يوسف أيضاً»[1].

أما شعره الأول فقد ضاع عندما احترقت غرفته في جامع الخاتون ببغداد، يقول: «وفي جملة الأشياء التي احترقت دفتر يحتوي على أوائل شعري الذي لاأذكر منها شيئاً مطلقاً»[2]. وأما شعره الذي نظمه في صباه فقد ذكر بعضه في ديوانه المطبوع.

وآثاره الشعرية هي:

١ — ديوان الرصافي:

طبع ديوانه أول مرة في بيروت سنة ١٩١٠م (١٢٢٨هـ). وقد تحدث عن طبعه فقال: «إنني لما توجهت مع نواب العراق إلى الآستانة، لما وصلنا إلى بيروت استبقاني أدباء بيروت الذين احتفوا بي احتفاءاً كبيراً ولكني تضايقت من جهة قلة الدراهم التي كانت معي فاقترح عليّ محي الدين الخياط أن أطبع ديواني في بيروت وتعهد بأن يقوم بتصحيحه وأن يكتب له مقدمته، فأعطتني إحدى المطابع ٣٠ ليرة فرنسية ذهباً»[3]. وعني بترتيبه وتبويبه والوقوف على طبعه محي الدين الخياط، وعني بتفسير ألفاظه

(١) مجلة الثقافة الجديدة ص ١٦، وشعراء العراق في القرن العشرين ج ١ ص ٦٨.

(٢) المصدران السابقان ص ١٣ و ص ٦٥.

(٣) مجلة الثقافة الجديدة العدد الأول ص ١٩ (نيسان ١٩٠٤)، وشعراء العراق في القرن العشرين ج ١ ص ٧٣.

الشيخ مصطفى الغلاييني منشىء مجلة « النبراس » فى بيروت ، ولكنه لم يكمل شرحه لمرض عرض له .

وأهدى ديوانه إلى الخياط . يقول : « أقـــدم هذا الديوان هدية إلى حضرة الأستاذ الفاضل الشيخ محيي الدين أفندى الخياط ، وأنا أعتقد أن ليس فيما يحويه هذا الديوان بين دفتيه ما يستحق أن يعد مع الهدايا ، ولكن الذى جرأنى على إهدائه هو ما يقولون من أن الهدايا على مقدار مهديها » .

والديوان فى مقدمة وأربعة أبواب ، وتشتمل المقدمة على كلام موجز فى الشعر والشعراء ، وهى بقلم الشيخ الخياط الذى يقول فيها : « طلب من الرصافى يوم كان فى بيروت أن يجمع متفرق شعره فى ديوان فأبى الطلب ورغبت المكتبة الأهلية المعروفة بانتقاء أحاسن المنظوم والمنثور والمخطوط والمطبوع أن تتولى الطبع ورغب الرصافى أن أكون أنا الواقف على طبعه وعهد إلىّ فى أن أصدره بمقدمة موجزة ، وتبرع صاحب النبراس الزاهر بأن يتولى تفسير بعض ما فيه من الألفاظ الغريبة ، فشكرنا له هذه الأريحية وإنى لأشكر الرصافى تفضله باهداء ديوانه إلىّ ، وأعترف بأن أمثال هذا الديوان لا يليق أن يهدى إلا إلى كبار النفوس والعقول ليحصل التناسب بين منتوجات النفوس الكبيرة المهدية وبين النفوس الكبيرة المهدى إليها ، لا أن يهدى إلى مثلى من المستضعفين فى الأرض ، ولكن حسن ظن الرصافى بى يجعلنى أن أتطاول إلى ما هو على مثلى بعيد المنال »(١) .

أما الأبواب الأربعة فهى : الكونيات والاجتماعيات والتاريخيات والوصفيات .

---

(١) الديوان ص ١٥

ونال الديوان عند صدوره حظوة عظيمة واهتم به الدارسون والمتأدبون. يقول رفائيل بطي : « أخرج ديوانه الأول للناس فأجمعت صحافة العرب على أنه الديوان العصري البليغ بحق ، وأن صاحبه مبتكر طريقة النظم الاجتماعي وفارس الميدان فيه »(١).

وفي صيف ١٩٣١ أضاف إلى هذا الديوان ما نظمه بعد نشره ، وطبعه ببيروت وفيه سبعة أبواب جديدة هي : الفلسفيات ، الحريقيات ، المراثي، النسائيات ، السياسيات ، الحربيات ، المقطعات .

وكتب الأستاذ الشيخ عبد القادر المغربي مقدمته وقال فيها : « لم يكن يخطر ببالنا أن يقوم ببلاد العراق على تأخرها بالنسبة إلى مصر شاعر يبذ النابغين ، ويتلقى راية الشعر الاجتماعي باليمين ، أريد به السيد معروف الرصافي . فقد تصفحت ديوانه تصفحاً يليق به وبمكانة صاحبه ثم لما أتيت على آخره لم أجد وصفاً ينطبق عليه أحسن مما قاله صاحبه فيه :

طابقت لفظيَ بالمعنى فطابقه ... خلواً من الحشو مملوءاً من الدرر
إني لأنتزعُ المعنى الصحيح على ... عُـرىٍ فأكسوه لفظاً قُدَّ من درر

هذا ما يقال في الديوان من حيث لفظه ومعانيه الجزئية ، أما مطالبه أو أغراضه الشعرية العليا فهي من أشرف الأغراض وأنبلها وأعلقها بمصلحة الأمة التي نشر هذا الديوان بين أبنائها »(٢) .

وتحدث في هذه المقدمة عن شاعرية الرصافي وأسلوبه وألفاظه ومعانيه وأغراضه الشعرية . وظلَّ ما كتبه أساساً مهماً في دراسة شعر الرصافي يحوم حوله الكتاب والدارسون ، وبقيت هذه المقدمة الضافية سبيلا يدخل منها الأدباء حينما يقرأون جميع طبعات الديوان .

---

(١) سحر الشعر ص ٨٤ .

(٢) الديوان ص (أ) .

والديوان فى هذه الطبعة لم يسلم من الأغلاط المطبعية والارتباك فى التبويب ، وقد أشار الأستاذ مصطفى على إلى ذلك ، يقول « على أن تبويب الديوان لم يجر على إطلاقه ، فرب سياسة واجتماع ومدح وهجاء احتلت أماكن من قصائد الوصف ، ورب وصف شمل قصائد السياسة والاجتماع والكونيات والحريقيات مثلا . وهكذا يقال فى كل باب من أبواب الديوان ، فالتبويب إذن جاء فى الأعم الأغلب »[١] . وذكر أن هذه الطبعة لم تحو كل ما نظمه فى حياته ، لأن ما يقارب من ستمائة بيت من شعره القديم احترق — كما ذكرنا - ولأن الرصافى نفسه حذف بعض القصائد والأبيات ، أو أنه نسى بعضها فضاعت مع ما ضاع من شعره[٢] .

وهذه الطبعة من الديوان آخر ما رآه الرصافى فى حياته ، وقد هيأ الله للديوان من يقوم بطبعه وإخراجه عام ١٩٤٩ م (١٣٦٨ هـ) فى القاهرة[٣] ، باشراف الأستاذ مصطفى السقا الذى كتب له مقدمة استعرض فيها طبعتى الديوان السابقتين ، وتحدث عن الطبعة الثالثة الجديدة . يقول : « تمتاز هذه الطبعة عن الطبعتين السابقتين بمزايا :

أولاها : غزارة مادة الشعر الذى تحويه ، فقد اشتملت على طائفة من الأشعار والمقطوعات التى لم تنشر قبل فى كلتا الطبعتين ...

وتمتاز هذه الطبعة كذلك بشرح كثير من القصائد التى لم تشرح فى الطبعتين السابقتين .

ومن مزايا هذه الطبعة ضبط المشكل المبهم من الألفاظ »[٤] .

---

(١) محاضرات عن معروف الرصافى ص ٤٠ ، وينظر الرصافى صلتى به ص ١٨٤ .

(٢) ينظر الرصافى — صلتى به ص ١٨٥ — ١٨٦ .

(٣) هو السيد محمود حلمى صاحب المكتبة العصرية ببغداد .

(٤) الديوان ص (ح — ى) .

وألحقت بهذه الطبعة وغيرها من الطبعات مقدمة الطبعة الثانية التى كتبها الشيخ عبد القادر المغربى .

وطبع الديوان الطبعة الرابعة فى القاهرة عام ١٩٥٣ م (١٣٧٣ ﻫ) باشراف الأستاذ السقا ، وأثبت مقدمته التى كتبها للطبعة الثالثة ومقدمة الأستاذ المغربى التى كتبها للطبعة الثانية . وفى هــذه الطبعة قصائد لم تنشر من قبل وكان الأستاذ عبدالحميدالرشودى قد نشرها فى كتابه « ذكرى الرصافى » سنة ١٩٥٠ م .

وطبع الطبعة الخامسة فى القاهرة عام ١٩٥٦ م (١٣٧٥ ﻫ) وليس فيها مقدمة الأستاذ السقا وإنما توشحت بمقدمة الأستاذ المغربى فقط .

وطبع الطبعة السادسة فى القاهرة عام ١٩٥٩م (١٣٧٩ ﻫ) وفيها مقدمه الأستاذ المغربى ومقدمة قصيرة للأستاذ عبد الصاحب شكر البادرائى ، تحدث فيها عن أغلاط الطبعةالثالثة التىأشرف عليها الأستاذ السقا ،وعن شعر الرصافى وأسلوبه .

وفى المكتبات طبعة للديوان لم يكتب على الجزء الأول منها عددها ، وكتب على الجزء الثانى أنها الطبعة السابعة . وقد تم طبعها فى القاهرة بلا تاريخ وفيها مقدمة الأستاذالمغربى ومقدمة الأستاذ البادرائى. وصفحات هذه الطبعة كصفحات الطبعة السادسة غير أن فهرس موضوعات القصائد والقوافى يختلف بعض الاختلاف . ولا ندرى سبب إهمال تاريخ الطبع أو الاشارة فى الجزء الأول إلى أنها الطبعة السابعة .

ومهما يكن من أمر فهذه الطبعة والطبعة السادسة من أكمل طبعات الديوان لأنهما نشرا بعد سقوط الحكم الملكى فى العراق الذى كان يحظر على المواطنين نشر قصائد الرصافى كلها .

وجميع طبعات الديوان التى تم إخراجها فى القاهرة فى مجلدين كبيرين ،

وهى طبعات جيدة لولا ما فيها من أخطاء مطبعية وتاريخية .

وصدرت طبعة مصورة له فى بيروت عام ١٩٦٩ م (١٣٨٩هـ) مأخوذة عن الطبعة السابعة القاهرية .

ويقوم الأستاذ مصطفى على بطبع «شرح ديوان الرصافى» فى بيروت وقد طبع قسم منه عام ١٩٦٩، ولم يصدر حتى الآن. ولعل هذه الطبعة — إن قدر لها الظهور — تكون أحسن الطبعات وأنفعها وأضبطها، لأن الأستاذ مصطفى خير من يعرف الشاعر .

٢ — الأناشيد المدرسية :

وضع الرصافى طائفة من الأناشيد الوطنية التى يتغنى بها الطلبة . جمعها خليل طوطح مدير دار المعلمين فى القدس وضبط أنغامها بالنوتة الأفرنجية وطبعها هناك سنة ١٩٢٠ م .

ولم نقف على هذه الأناشيد ولم يقف عليها غيرنا لننقل ما كتب فى وصفها[1] .

٣ — تمائم التعليم والتربية :

نظم الرصافى معظم هذه الرسالة فى الاستانة سنة ١٩٢٢م، وقد أوضح سبب وضعها فى المقدمة التى كتبها لها، يقول: «إن فى أدمغة الصبيان قابلية عظيمة للتلقى واستعداداً كبيراً للأخذ فلا مؤثر فى الكون إلا تنطبع آثاره فيها بكل سهولة، وتكون بعد انطباعها أعز امحاء من خطوط الرواجب، ولذا قالوا: «العلم فى الصغر كالنقش فى الحجر»، ولذا أيضاً أخذ المفكرون

---

(١) ينظر الأدب العصرى فى العراق العربى ج ١ ص ٧٤ ، والرصافى — ملتى به ص ٨٨ ، ومحاضرات عن معروف الرصافى ص ١١

من رجال الأمم الراقية يتحرون وسائل الاستمادة من هـــذه القابلية فيما يريدونه للأحداث الصغار من التربية الفكرية الأخلاقية . ومما أوجدوه من تلك المسائل ما كتبوه لهم من الأناشيد التى تشرب قلوبهم حب الوطن وتلقنهم الاخلاق الحسنة وتعودهم على التفكر والاعتبار بمخلوقات الله إلى غير ذلك مما يكون له تأثير حسن فى أخلاقهم أيام الصبا .

وهذا هو الذى دعانى أن أكتب لأبناء مدارسنا هذه الرسالة الشعرية التى ضمنتها مقاطيع مختلفة من الشعر المدرسى وسميتها «تمائم التعليم والتربية»، راجياً من الله تعالى أن ينفع بها الشبان من أبناء الأمة وإنه على ذلك قدير وبالإجابة جدير »(١) .

وكانت قصائد هذه المجموعة فى صدور الناشئة يرددونها صباحَ مساءَ ، ويأخذون منها العبر والعظات . وقد كتبت بأسلوب قريب من مدارك التلاميذ ولكن الشاعر يبعد أحياناً ويحلق فى أجواء الشعر الرفيع ، يقول : « لقد نظمتها للتلاميذ واخترت لهم فيها الموضوعات والأغراض الملائمة ، ولكننى مهما حاولت أن أنزل إلى مستواهم فى البيان وأكلمهم باللغة التى تناسب مداركهم لم أقدر ، فالكتابة للصغار عسيرة حقاً »(٢) .

وأراد الرصافى إعادة طبعها ولكن المنية عاجلته، وطبعت عام ١٩٤٩ فى بغداد باشراف الأستاذ الدكتور جميل سعيد وتقديم الأستاذ يوسف يعقوب مسكونى .

هذه آثاره الشعرية كما تركها وقد طبعت بعد وفاته مجموعات شعرية مأخوذة من ديوانه الكبير أو من قصائده التى لم تنشر .

---

(١) تمائم التعليم والتربية ص ٧

(٢) الرصافى صلتى به ص١١٣

ومن هذه الآثار :

٤ — المنهل الصافى من شعر الرصافى :

وهو مختارات أدبية اخلاقية اجتماعية تاريخية جمعت لتكون محفوظات للطلاب ، ظهرت الطبعة الأولى منها فى بغداد عام ١٩٥٠، والطبعة الثالثة عام ١٩٥٧ .

٥ — مع الرصافى الثائر :

وهو مجموعة من شعره فى الوطنية والسياسة والاجتماع ، اختارها الأستاذ ابراهيم العلوى . وقدم لها وطبعها فى بغداد عام ١٩٥٩ م .

٦ — درر القوافى من شعر الرصافى :

وهو مجموعة شعرية مختارة من قصائده ، طبعت فى بغداد سنة ١٩٦٩ ، وفيها ستة أبيات لم تنشر من قبل هى :

يستنكرون من الأحرار لهجتهم ... ولا يقيمون للأفكار أوزانا
إذا تقولت فى شغب فهم أذن ... وإن نصحت غدوا صماً وعميانا
وكيف أنشد شعراً فى سواسية ... شدوا الخناق به بغياً وعدوانا
وأى معنى لشعر فى ذوى نزق ... لا يفسحون لحر الفكر ميدانا
وهل يجوز وقد راموا تبذله ... أنْ لا أكون عليه اليوم غيرانا
هم أنكروا موقفى فيه وقد علموا ... أنى رفعت به للمجد عنواناً[1]

---

(١) درر القوافى من شعر الرصافى ص ٤٠

الفصل الثانى

اللغـــة

شغف الرصافى باللغة واهتم بدراستها ، وله فيها مؤلفات هى :

١ – دفع الهجنة فى ارتضاخ اللكنة :

جمع فى هذا الكتاب كلمات عربية الأصل استعملت فى اللغة العثمانية ، يقول فى فاتحته . « أما بعد : فهذه عدة كلمات وألفاظ عربية جمعتها من اللغة العثمانية يلزم كل من عنى بلغته من أبناء العرب أن ينظر فيها ويتدبرها لتكون له واقية من العجمة وحامية من اللكنة . فان هذه الألفاظ منها ما استعمله أهل اللسان العثمانى فى غير معناه العربى ، ومنها مالم يكن عربياً وهم يحسبونه عربياً ، وقد أخذها العرب منهم فاستعملوها استعمالهم وهم لايشعرون ، وذلك لكثرة الاختلاط بين الفريقين فرأيت أن أضع هذه الرسالة لأنبه فيها على تلك الألفاظ بذكر معانيها العربية ومعانيها العثمانية ، وبيان ماهو عربى منها وما هـــو غير عربى ، وسميتها « دفع الهجنة فى ارتضاخ اللكنة » فعسى أن تكون لبنى قومى نافعة ولتلك الهجنة دافعة »(١) .

والكتاب معجم ذكر فيه الكلمات العربية فى اللسان العثمانى ، وقد وجدها تنقسم خمسة أقسام :

١ – ما لم يغيروا لفظه ولا معناه .

٢ – ما غيروا لفظه ومعناه .

٣ – ما غيروا لفظه دون معناه .

٤ – ما غيروا معناه دون لفظه .

---

(١) دفع الهجنة فى ارتضاخ اللكنة . ص ٣

٥ — ما وضعوه من عند أنفسهم قياساً على القواعد العربية ، وليس هو من كلام العرب .

والقسم الأول لا كلام للمؤلف عليه ، لأنه خارج عن غرضه فى هذه الرسالة ، أما القسم الثانى والثالث فقد ذكرهما عرضاً وإن كانا خارجين عن غرضه ، لأن اللفظ فيهما متغير فلا يخشى منه على العربية إذ لا التباس فيه ، والألفاظ التى من هذا القبيل يصح أن تعد تركية كالألفاظ المعربة فى لغة العرب ، وأما القسمان الرابع والخامس فهما غرضه إذ بهما يقع الالتباس ومنهما تنشأ اللكنة ، لأن ألفاظهما عربية المبنى تركية المعنى .

ورسم منهج الرسالة بقوله : « ولما كان ما وضعوه من عند أنفسهم أكثر ضرراً على اللغة العربية ، لأنه من قبيل الألفاظ المصنوعة رأينا أن نقدمه فى الذكر ثم نأتى بعده بما غيروا معناه دون لفظه لكثرة ضرره أيضاً وشدة لزوم معرفته ، ثم نأتى بعد هذين بالقسمين الآخرين »[٢] .

ومما وضعوه من عند أنفسهم : ابتصار ، وابذال ، وإخشاب ، واستحصال ، واستحقان ، واسترجاء ، واسترقاب ، واستفراش ، واستكناه ، واستمزاج ، واستملاك ، واصاغة ، واعزام ، وتدفين ، وتزهر ، وتسييب ، وتطحل ، وتكاسر ، وتماميت ، وتمسخر ، وخجالت ، وسكرنت ، وفدائى ، ومترسب ، ومشبوع ، وغيره .

ومما غيروا معناه دون لفظه : أثر ، واتيان ، واجتسار ، واحساس ، وارادت ، وارتحال ، واستجواب ، واستحكام ، واسطار ، واشارت ، واشعار ، وأصناف ، واغتشاش ، وأفكار ، والتماس ، وتبديل ، وتبرد ،

---

(١) دفع الهجنة ص ٨ .

وتحرير ، وتخصيص ، وتدنى ، وتسجين ، وجذوه ، وحظ ، ورايمه ، ورعناه ، وشفق ، وعنعنه ، وفائض ، ولحوق ، وخير ، ومحجوب ،وغيره.

ومما غيروا لفظه دون معناه : آبلاق ، وأسباب ، وبايات ، وبدايت ، وشفره ، وطاول ، وستيل ، وصونه ، وطابور ، وكوب ، ومعونه ، وهلال وغيره .

ومما غيروا لفظه ومعناه : آبدال ، وتكية ، وحالا ، وفراخى ، وموسقه وغيره .

وختمها بقوله : « هذا ماتيسر لنا جمعه من الألفاظ العربية المستعملة فى اللسان العثمانى ، وليس مافاتنا من تلك الألفاظ بأقل مما جمعناه منها فى هذه الصحيفة إذ نحن لم يتسن لنا استقراء مفردات اللغة العثمانية استقراءاً تاماً وإنما قصدنا بجمع ماتيسر من الكلمات تنبيه الأفكار ودعوة أبناء العرب إلى التيقظ عند استعمالهم أمثال هذه الكلمات التى يعلمهم بها كون المتكلمين بالتركية على مسمع منهم ومرأى، فهم يأخذونها عنهم ويستعملونها استعمالهم من حيث لا يشعرون .

وهناك أمر آخر أهم مما نحن فيه يجب التنبه له والتنبيه إليه وهو الأسلوب والتركيب ، فاننا اليوم نجد فى كلام العرب جملا مركبة من مفردات عربية على أسلوب تركى ، ونجد كثيراً من هذه الجمل فى الجرائد والمكاتبات وفى الكلام المتداول بالألسنة ، ومعلوم أن تركيب الكلام فى التركية يأتى فى الغالب على عكس تركيبه فى العربية [١] » .

وحظيت هذه الرسالة باهتمام كبير وكتبت عنها مجلة « لغة العرب » [٢] تقريظاً واستحسنتها غاية الاستحسان ، غير أن كاتب التقريظ انتقد الرصافى وقال : إنه أخلّ فى بعض مواطن ، منها أنه نسب إلى الترك وضع ألفاظ

---

(١) دفع الهجنة ص ١١٠

(٢) الجزء ٦ ص ٣٢٩ — ٣٣١ (السنة الثانية تشرين الثانى ١٩١٣ م)

هم أبرياء منها ، وأنه تعرض لقتل الألفاظ من غير أن يدلّ على بدل لها وأنه ربما فسر اللفظة بغير معناها المشهور .

ورسالة « دفع الهجنة فى ارتضاخ اللكنة » مطبوعة فى الاستانة بمطبعة « صداى ملت » سنة ١٣٣١ ، وأنفقت على طبعه إدارة مجلة « لسان العرب » التى كان يصدرها فى الأستانة الأستاذ احمد عزة الأعظمى .

٢ — دفع المراق فى كلام أهل العراق :

هذا الكتاب فى لغة أهل العراق ، ولم يطبع حتى الآن بل ظل قسم كبير منه فى الصحف ، ووجد بعضه الأستاذ مصطفى على (١) بين أوراق المؤلف المبعثرة ، وضاع البعض الآخر .

كتب الرصافى مقدمة هذا الكتاب فى ٤ شباط سنة ١٩١٩ م (الثانى عشر من جمادى الآخرة سنة ١٣٣٧ هـ) ، ونشرها فى مجلة « لغة العرب »(٢) ثم نشر فيها عدة فصول منه فى سنواتها الرابعة والخامسة والسادسة الصادرة بين آب سنة ١٩٢٦ م وأيلول ١٩٢٨ م . وفى هذه الفصول تحدث عن اللغة حديث العالم المتتبع .

والهدف من الكتاب واضح فى مقدمته ، يقول : « وإنما هدفنا فى هذا الكتاب هو أن نضبط لغة العامة بما يلزم من الضوابط الصرفية والنحوية لأسباب :

الأول : أن يكون ذلك كمقدمة لمن أراد أن يبحث بحثاً تاريخياً عن اللغة العربية وما طرأ عليها من الطوارىء التى أثرت فيها ، وتصنيف ما حدث

---

(١) ينظر كتابه الرصافى — صلى به ص ٢٤١

(٢) الجزء الثانى ص ٨٥ — ٨٨ (السنة الرابعة آب ١٩٢٦ م)

فيها من التغييرات المختلفة باختلاف الأزمنة والأمكنة ، والمقايسة بين حاضرها وغابرها ليعلم هل تلك التغيرات هى انحطاط فى اللغة أو هى ارتقاء فيها .

الثانى : تسهيل التفاهم بين أهل البلاد المختلفة فيسهل على السورى مثلا فهم كلام العراق ، وعلى العراقى فهم كلام السورى والحجازى ، لكننى لم أتكلم هنا إلا عن لغة أهل العراق فقط ، وعسى أن يكتب بعض السوريين مايسهل به على العراقى فهم كلام السورى .

الثالث : تنبيه الأفكار إلى أدبيات العوام، فإن الأدبيات الخاصة بالعوام موجودة عند جميع الأمم[١] » .

وتحدث فى هذه المقدمة عن تسمية الكتاب فقال : « ولما كان هذا الكتاب خاصاً بلغة العامة من أهل العراق وسمته باسم من كلام العامة فسميته « دفع المراق فى كلام أهل العراق » .

والمراق : كلمة عامية تقع فى كلامهم بمعنى الافتكار فى الشىء لأجل الخوف منه ، أو لأجل معرفته وحب الاطلاع عليه ، وهى بالمعنى المذكور دخيلة فى كلامهم ولها أصل فى العربية ، وهى جمع « مرقّ » — بتشديد القاف — ، يقال : مراقّ البطن — بتشديد القاف — لما رقّ ولآن منه ، ومنها أخذ الأطباء لفظ « المراقية » — بتشديد القاف — التى هى عندهم تطلق على نوع من الماليخوليا التى معناها الخلط الأسود منسوبة إلى مراق البطن ، إلا أنهم يخففون ياءها فيقولون : « مراقية » — بتشديد القاف — ويطلقونها على طرف من الجنون كالهوس . وقد أخذ الأتراك هذه الكلمة فحرفوا معناها ، ومنهم أخذتها العامة فاستعملوها بالمعنى المذكور

(١) مجلة لغة العرب الجزء الثانى ص ٨٧ — ٨٨ (السنة الرابعة آب ١٩٢٦ م) .

آنفاً (١) . وإنما تعمدت استعمال هذه الكلمة فى اسم الكتاب ليكون الاسم مطابقاً لمسماه » . (٢)

وظلت مجلة « لغة العرب » تنشر فصولا من الكتاب إلى شهر أيلول سنة ١٩٢٨ ، ثم استرده الرصافى . وحينما صدرت جريدة « حبزبوز » للأستاذ نورى ثابت ، نشرت ستة فصول منه (٣) ، وهى قسم الأمثلة العامية، ووعدت بطبعه كله غير أنها لم تبر بوعدها . تقول الجريدة (٤) : « هذا كتاب ثمين عنى بجمعه شاعر العراق الأعظم وأستاذنا الكبير معروف أفندى الرصافى ، وقد نشرت مجلة لغة العرب قسماً منه . وفى هذا الكتاب الدال على سعة التتبع وصدق الاستقصاء تتجلى لك عبقرية الأستاذ الكبير ليس فى الشعر العالى فحسب وإنما فى كل ما استعرضه نبوغه الممتاز . ولما كانت الجريدة أكثر جرائد القطر انتشاراً بين العامة وددنا أن نخصها بمحتويات هذا الكتاب فراجعنا سعادة الأستاذ فتلطف وأذن لنا بذلك . فلهذه الصحيفة الصغيرة كل الفخر بنشر ما دبجته يراعة الأستاذ العظيم . كما أننا سوف نطبع هذا الكتاب على نفقة الجريدة ونقدمه لاستفادة القراء متى ما انتهينا من نشر محتوياته تباعاً . وسنبدأ بالأمثال العامية المعروفة فى بغداد وشرحها » .

ولعل الأستاذ مصطفى على يقوم بطبع ماصنف ونسق من هذا الكتاب، ليقدم خدمة جلّى لصديقه الرصافى وهو فى العالم الثانى ، وينفع الدارسين

---

(١) ذكر هذا التفسير نفسه فى كتابه دفع الهجنة ص ٧٥ – ٧٦

(٢) مجلة لغة العرب الجزء الثانى ص ٨٨ (السنة الرابعة آب ١٩٢٦ م)

(٣) نشرت فى الأعداد : ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٢ الصادرة بين ٢٢ كانون الثانى و٢٣ شباط من سنة ١٩٣٢ م

(٤) العدد ١٦ (١٢ كانون الثانى ١٩٣٢ م)

والباحثين فى اللهجة العراقية التى كان الرصافى من السباقين فى دراسة نحوها وصرفها وأساليبها وأمثالها .

٣ — الآلة والأداة :

كتاب جمع فيه مااستطاع أن يجمعه من أسماء الآلة والأداة وما يتبعهما من الملابس والمرافق، لشدة الحاجة فى هذه الأيام إلى مثل هذه الأسماء ،وقدّم له بمقدمة فى الاشتقاق والتعريب .ولم يطبع الكتاب ولعله أصبح الآن فى متاهات الضياع بعد أن ودّع صاحبه الدنيا وتوزعت آثاره وتناثرت هنا وهناك ، ولكن مقدمته النفيسة منشورة فى الصحف والمجلات ، نشرها الرصافى فى جريدة « الأمل »[١] بعنوان « جمودنا فى اللغة » وفى مجلة « الحرية »[٢] بعنوان « اللغة العربية ـ رأى جديد فى الاشتقاق والتعريب » .

وفى هذه المقدمة تحدث عن الاشتقاق والتعريب ، وأوضح السبب الذى دفعه إلى تأليف الكتاب ، يقول : إن اللغة العربية قد توقفت عن التقدم ولم تجر مع الزمان وأن توقفها قد انجرّ بها إلى تأخرها اليوم عن لغات الأمم الراقية فأصبح المتكلم بها عاجزاً عن التعبير عن كل مايراه من آثار المدنية الحاضرة . وأكثر مايظهر هذا العجز فى أسماء الآلة والأداة لأننا محظور علينا أن نشتق من كل مصدر اسم آلة ينطبق معناه على مانراه من الآلات ، كما أننا محظور علينا أن نعبر عما نراه باسمه الأعجمى على طريقة التعريب .

وهذا هو الذى دعانى أن أجمع فى هذا الكتاب مااستطعت أن أجمعه من أسماء الآلة والأداة وما يتبعهما من الملابس والمرافق لشدة الحاجة اليوم إلى مثل هذه الأسماء بكثرة المسميات التى حدثت فى العصر الحاضر . ولئن

---

(١) الأعداد : ٦٠، ٦١، ٦٦، ٦٧ ، الصادرة بين ١١ و ١٩ كانون الأول ١٩٢٣م .

(٢) الجزء التاسع ص ٤٩٣ وما بعدها (السنة الثانية مارت ١٩٢٦) .

كان هذا الكتاب غير وافٍ بالمراد فليس الغرض من وضعه سدّ ماذكرت من الخلل فإن ذلك ممـــا لا أستطيعه أنا وحدى ، وإنما الغرض منه تنبيه الأفـكار إلى ردم الثلمة وإنهاض الهمم إلى كشف هذه الغمة »(١) .

ورتب كلمات الكتاب على حروف المعجم باعتبار الحرف الأول من الـكلمة سواء كان أصليا أم مزيدا ، وربمـا جاءت بعض الـكلمات مكررة فى موضعين ، وعلة ذلك أنه وقف ـ بعد أن ذكرها ـ على معنى آخر لهـا فذكرها ثانية فى محل آخر . وقد اعتذر عن ذلك قائلا : « وذلك لابأس به إذ ليس هذا الـكتاب معجما من معاجم اللغـة حتى يجب أن يكون محـكم الترتيب ، وإنما هو مجموع كلمات »(٢) .

٤ — محاضرة حول التدريسات العربية :

سافر الرصافى فى أواخر عام ١٩٢٦ م إلى البصرة لتفتيش مدارسها(٣) وألقى هناك محاضرة نفيسة على جمهور المعلمين طبعت فى بغداد سنة ١٩٢٦م . تحدث فيها عن صلاح اللغة العربية للتدريس وأشار إلى مدرسيها ، وأبدى ملاحظاته فيما شاهده من المدرسين . يقول : « إن كان هناك من ينازع فى كون اللغة العربية صالحة لأن تكون لغة العلم فى الجامعات العلمية العليا ، فلا نزاع فى كونها صالحة كل الصلاحية لأن تكون لغة العلم فى المدارس الثانوية على الاطلاق . ولا نريد هنا أن نناقش الحساب أولئك الذين زعموا أن تدريس العلوم العالمية باللغة العربية متعذر أو متعسر فى الوقت الحاضر ؛ لأن هذا ليس من غرضنا فى هذا الموقف ، ولـكننا مع اعترافنا بخلو اللغة العربية

---

(١) مجلة الحرية ص ٥٠٢ .

(٢) مجلة الحرية ص ٥٠٣ .

(٣) تنظر جريدة العراق العدد ٢٠٠٨ (السنة السابعة ، ٣ كانون الأول ١٩٢٦ ، ٢٦ جمادي الأولى ١٣٤٥ هـ) .

فى الوقت الحاضر من بعض المصطلحات العلمية المستجدة فى العلوم العصرية نستطيع أن نقول : إن الكلية الأميركية البيروتية منذ نشأتها الأولى كانت اللغة العربية فيها هى لغة التدريس »[1] .

وتناول موضوعات اللغة العربية بحسب المنهج وهى : القواعد والقراءة والمحفوظات ، والإنشاء . يقول عن القواعد :

١ — يجب على المدرس ، أن ينظر فى الموضوع قبل الدرس حتى يكون عنده متعينا ، معلوم الحدود ، مرتب المسائل .

٢ — أن يكون موضوع الدرس على مبحث واحد ، فاذا كان الموضوع هو المثنى فلا يسوغ للمدرس أن يقرنه بالجمع ، وإذا كان الموضوع هو الجمع وجب أن يقتصر منه على جمع التصحيح مثلا وأن يفرد جمع التكسير بدرس على حدة ؛ لأن ثنائية الموضوع تؤدى إلى التشويش وسوء الفهم وعدم الإتقان .

٣ — اشتراك جميع التلاميذ فى الدرس . من دواعى الأسف انى كثيراً مارأيت بعض المدرسين فى مدارس العراق لايشغل بدرسه أكثر من تلميذين أو ثلاثة .

٤ — رأيت بعض المدرسين إذا سأل أحد التلاميذ عن مسألة فسكت التلميذ قليلا بادره المدرس بالجواب فوراً ، وهذا خطأ يجب اجتنابه ، فالواجب على المدرس إذا سكت التلميذ عن الجواب أن يمهله قليلا فإن عجز وجّه السؤال إلى بقية التلاميذ ، فإن عجز هؤلاء أيضاً كان هو المجيب.

٥ — وكذلك إذا أخطأ التلميذ فى الجواب وجب على المدرس أن

---

(١) محاضرة حول التدريسات العربية ص ٣ ، وتنظر جريدة الاستقلال العدد ١٨٥٥ (٣١ آذار ١٩٣٣ م ، ٥ ذو الحجة ١٣٥١ هـ) .

لا يستعجل فى تصحيح خطئه ، بل يرجع فيه إلى غيره من بقية التلاميذ ، وذلك بأن يسألهم : هل كان جوابه خطأ أو كان صوابا ؟ فإن عجزوا عن تصحيح خطئه صححه هو لهم .

٦ — إن الغرض الأعلى الذى ينبغى أن يرمى إليه المدرس فى أثناء تدريسه هو التفهيم ، إذ بدونه يذهب الوقت سدى ، ويكون الاشتغال بالدرس عبثا ، فلا لوم على المدرس إذا اقتدى هذا الغرض بكل ماعزّ وهان من الدرس فهو إذن يستطيع أن يترك معظم الدرس لأجل تفهيم مسألة واحدة منه[١] .

وتحدث عن القراءة والمحفوظات ، أما الإنشاء فقد أحال المدرسين فيه على كتبه المؤلفة لهذا الغرض .

وبعد أن هاجر إلى الفلوجة أعادت جريدة الاستقلال[٢] نشر هذه المحاضرة تقديراً لجهوده وإشادة بفضله .

---

(١) المصدر السابق ص ٧ وما بعدها .

(٢) ينظر العدد ١٨٥٥ (الجمعة ٣١ آذار ١٩٣٣ ، ٥ ذو الحجة ١٣٥١ هـ) . والعدد ١٨٥٦ (الأحد ٢ نيسان ١٩٣٣ ، ٧ ذو الحجة ١٣٥١ هـ) .

الفصل الثالث

الأدب

١ — الأدب العربي :

الكتاب محاضرات ألقاها على المدرسين فى أثناء العطلة الصيفية عام ١٩٢١ فى بغداد باقتراح من وزارة المعارف وطلب منه أن يجمعها فى كتاب لتطبع وتعم فائدتها فأجاب وطبعها فى العام نفسه . وأعيد طبع الكتاب مرات آخرها عام ١٩٥٤ وهى الطبعة السادسة وكانت بعنوان « الأدب العربى ومميزات اللغة العربية فى أدوارها المختلفة » .

أهدى الرصافى كتابه إلى الأستاذ محمود الشابندر الذى طبع الكتاب بنفقته ، يقول فى إهدائه : « أقدم هذه الرسالة هدية إلى الفاضل الهمام والسيد المقدام حضرة الوطنى الغيور محمود الشابندر لعلمى بما له من الحب الخالص للأدب وذويه . فعسى أن تقع منه موقع القبول ، وأن ينتفع بنشرها مطالعوها من أبناء الوطن » .

ولم يكتب المؤلف المقدمة بل كتبها رفائيل بطى ، يقول : « أما بعد فهذه محاضرات نفيسة فى الأدب العربى وتاريخه ، ألقاها حضرة الأستاذ الكبير معروف أفندى الرصافى على جمهور من مدرسى المدارس والمتأدبين فى بغداد ، فاستفاد منها فريق وحرم فريق ، لذلك طلبنا إلى حضرته أن يجمعها فى كتاب لتطبع فتعم فائدتها ، وقد أجاب الطلب وعهد إلىّ بطبعها ففعلت [1] » .

---

(١) الأدب العربى (الطبعة الأولى) ص ٣

وكتب الأستاذ يوسف يعقوب مسكونى مقدمة طبعتها الثانية يقول : « وهذه محاضراته فى الأدب العربى تنم عن درس عميق ، وحب لأدب العرب ، وعشق لتراثهم الخالد مع الأيام ، فجاءت هذه المحاضرات صوراً جميلة لمظاهر هذا الأدب وأقباساً مشعة من لوامعة وقممه الراسيات [١] » .

تحدث الرصافى فى هذا الكتاب عن مميزات اللغة العربية فى أدوارها المختلفة ، واختلاف لهجات القبائل ، وانتشار اللغــة ، وارتقاء المعانى ، وتهذيب الألفاظ والأساليب ، وظهور اللحن فى الكلام . وبعد أن فصَّل القول فى هذه الموضوعات انتقل إلى دراسة الأدب ، فتحدث عن تعريفه ورأيه فيه ، وموضوعه وغايته ، وتقسيمه ، ومزايا المنظوم على المنثور والنسبة بينهما ، والشعر ونشأته . وقد قرظته جريدة العراق [٢] ، وكتب المرحوم الدكتور مصطفى جواد نقداً له سماه « أوهام الرصافى فى الأدب العربى [٣] » صحح فيــه بعض ما جاء فى الكتاب من أوهام فى الموضوعات والأسلوب . يقول : « قال فى ص (٢٩) من محاضرات الأدب العربى المطبوع سنة ١٩٢١ : « قالوا : وأول لحن سمع بالبادية « هذه عصاتى » ، وأول لحن سمع بالعراق « حى على الفلاح » » .

قلنا : فى ج ١ ص ١٨٦ من المزهر للسيوطى ما عبارته : « وتقول : هذه عصاى ، وزعم الفراء أن أول لحن سمع فى العراق : هذه عصاى » . وقال الجوهرى فى مادة (ع ص ا) : وهذه عصاى ، قال الفراء : أول لحن سمع بالعراق : هذه عصاتى .

---

(١) الأدب العربى (الطبعة السادسة) ص ٣

(٢) العدد ٥٣٦ (السنة الثانية ٢٣ شباط ١٩٢٢ م جمادى الآخرة ١٣٤٠ هـ) .

(٣) جريدة العراق العدد ٣١١٢ والعدد ٣١١٥ (السنة الحادية عشرة (١ و ٤ تموز ١٩٣٠ م ، ٤ و ٧ صفر ١٣٤٩ هـ) .

فدعوى أنه أول لحن سمع بنجد تحتاج إلى دليل ؛ وما لم يذكر مصدره من التاريخ لا يعتد به ، ولا يصدق قائله » .

ويقول الدكتور : « وقال فى ص ٣٥ : « استبدال الحروف العربيـة بالحروف اللاتينية » ، وأضاف الاستبدال إلى المتبدل به فأخطأ ؛ والصواب أن يضاف إلى المستبدل أى : مفعوله ، فيقول : «استبدال الحروف اللاتينية بالعربية » . ولولا هذا الشرط لالتبست علينا أمور كثيرة ولم نميز المبدل عن المبدل منه . ومن ذلك قوله تعالى فى القرآن المجيد : « أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ؟ » ، وقوله — عز وجل — : « أن لا تنفروا يعذبكم الله عذابا أليما ، ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئا » ، وقوله — عز من قائل — : « وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم » . ويحل الظرف محل البـاء فى قوله تعالى : « إن أردتم استبدال زوج مكان زوج » ، ويجوز حذف الباء والمبدل منه كما مر » .

٢ — دروس فى تاريخ آداب اللغة العربية :

الكتاب محاضرات ألقاها سنة ١٩٢١ وطبعها باسم « الأدب العربى» ولكنه أضاف إليها وحذف منها وأعاد تبويبها وألقاها على طلبة دار المعلمين العالية ببغداد ، ونشرها سنة ١٩٢٨ ملحقة بمجلة « التربية والتعليم » للأستاذ المرحوم ساطع الحصرى ، ثم فصلت كراساتها عن أجزاء المجلة وضم بعضها إلى بعض فألف منها هذا الكتاب .

طبع أول مرة سنة ١٩٢٨ ببغداد ، وأعيد طبعه سنة (١٣٧٩ هـ — ١٩٦٠ م) وقدم له الدكتور صلاح خالص ، يقول : « يسرنى أن أقدم إلى القراء الكرام فى هذا الكتاب شاعرنا الكبير معروف الرصافى ناقداً ومؤرخاً للأدب واسع الاطلاع ، دقيق الملاحظة ، عميق التفكير ، وقد

عرفنا الرصافي الشاعر مجدداً بعيداً عن التقليد كذلك سنرى الرصافي الناقد في هذه الصفحات مفكراً حراً مبدعاً غير مقلد يحاول أن يستنبط من معلوماته الكثيرة واطلاعه الواسع قواعد للأدب العربي ، أو بتعبير أدق قواعد عامة للفن في الأدب العربي»[1] .

تحدث الرصافي في هذا الكتاب عما يستلزم النظار في تاريخ اللغة والأدب وهي : النظار في مفرداتها وتراكيبها وأساليبها ، وفي قسمي المنظوم والمنثور، وأحوال العرب ، والبيئة العربية ، والمجاورين للعرب ، وفي حياة الرجال من العلماء والأدباء والرواة والقصاص ، وما ألفوا من الكتب والأسفار .

وتكلم على الفروع التي يمكن تقسيم هذا الفن اليها وهي: تاريخ مفردات اللغة ، وتاريخ التراكيب والجمل ، وتاريخ المعاني ، وتاريخ المنثور ، وتاريخ المنظوم ، وتاريخ المتكلمين باللغة ، وتاريخ مشاهير أهل العلم والأدب ، وتاريخ آثار هؤلاء المشاهير .

وتحدث بعد ذلك عن الأدب وتعريفه ورأيه فيه ، وموضوعه وغايته ، والقوى العقلية ومنزلتها في الأدب وهي : الذكاء والخيال والحس والحافظة والذوق ، ثم عن تقسيم الأدب ومزايا المنظوم على المنثور والنسبة بينهما ، والشعر ونشأته ، وطبقات الشعراء والأسلوب .

وختم الكتاب بالكلام على الفصحى والعامية ، والإعراب في اللغة ، واختلاف لهجات القبائل .

٣ — نفح الطيب في الخطابة والخطيب :

عهد إلى الرصافي حينما كان نائباً عن المنتفك في مجلس المبعوثان العثماني بتدريس الخطابة العربية في مدرسة الواعظين بالقسطنطينية ، ولم يكن عنده

---

(١) مقدمة الطبعة الثانية ص ٣

من الكتب التى يرجع اليها فى هذا الفن سوى كتاب «البيان والتبيين» للجاحظ، فقرأه واستخرج منه هذه الرسالة وأضاف ما أطلع عليه من أحوال خطباء العصر الحديث .

يقول : « والذى دعانى إلى وضع هذه الرسالة هو أنهم عهدوا إلىّ بدرس الخطابة العربية فى مدرسة الواعظين بقسطنطينية ، ولم يكن عندى من الكتب التى أرجع اليها فى هذا الفن سوى كتاب الجاحظ المذكور فاستخرجت منه هذه الرسالة بعد أن طالعته بتدبر من أوله إلى آخره أكثر من عشرين مرة، وقد سميتها « نفح الطيب فى الخطابة والخطيب » .

والله أسأل أن ينفع بها الطالبين ، ويجعل أجرها للجاحظ — رحمه الله — أنه على ذلك قدير وبالإجابة جدير »[1].

وتحدث عن الخطابة والخطباء ، ووقف فى المبحث السادس عشر منه على خطباء العصر ممن عرفهم كعبد العزيز الثعالبى التونسى، والشيخ عبد العزيز شاويش ، والأمير شكيب أرسلان ، وصالح الشريف التونسى، والشيخ أسعد شقير ، ومحمد كرد على ، والشيخ محمد رشيد رضا ، والشيخ مصطفى الغلاييني، وفيلكس فارس ، واسكندر العازار ، والياس طراد ، وابراهيم الحورانى ، وأنطوان شحيبر ، وأمين الريحانى ، وبشارة الخورى (الأخطل الصغير) وداود مجاعص .

طبع الكتاب بمطبعة الأوقاف الاسلامية بالآستانة سنة ١٣٣٦ (١٩١٧م).

٤ — آراء أبى العلاء المعرى

ألف الرصافى هذا الكتاب مرتين : الأولى سنة ١٩٢٤ م بعد أن أوقف

---

(١) نفح الطيب ص ٣ نقلا عن كتاب الرصافى — صلتى به ص ٩٩ — ١٠١ .

جريدته « الأمل » واعتزل الحياة العملية منزوياً فى فندق من فنادق بغداد(١)، ونشرت فصولا منه جريدة « المفيد البغدادية »(٢) وقدمت له بقولها : « كثير هم الذين كتبوا عن أبى العلاء المعرى وآخرهم الدكتور طه حسين أستاذ الجامعة المصرية ، فقد ألف كتاباً انتشر فى العام الماضى عن المعرى وفلسفته وشعره ، وقد أراد الأستاذ الكبير معروف الرصافى أن يطرق باب هذا الموضوع فأنشأ كتابا نفيساً عن فيلسوف العرب الكبير بزّ فيه كل من تقدمه من الباحثين ، ولا ريب فإن الشاعر وحقيقته ومراميه لا يعرفها إلا شاعر مثله . ومن أحق من الأستاذ الرصافى شاعر القرن العشرين بالاطلاع على مكنونات الفيلسوف المعرى ؟ ونحن الآن ننشر مقدمة هذا السفر الثمين» (٣) .

ونشرت مجلة الحرية فصل « الروح والجسد » فى عددين منها (٤) .

والمرة الثانية التى ألف الرصافى فيها كتابه هذا كانت سنة ١٩٣٧ حينما كان معتكفاً فى الفلوجة ، وفى هذه المرة أعاد النظر فيه وأضاف اليه فصلين جديدين هما « رأى المعرى فى الخضر » و« رأى المعرى فى أهل المذاهب» ،

وفى سنة ١٩٣٩ سافر المؤلف إلى لبنان مستجما وسلم كتابه إلى مجلة المكشوف لطبعه ولكنها لم تطبعه ، يقول: « ولما ذهبت فى سنة ١٩٣٩ م إلى لبنان مصطافا كانت تصحبنى هذه الرسالة فأشير علىّ بعرضها على أصحاب مجلة المكشوف فى بيروت ، وقيل لى إنهم من دأبهم طبع أمثال هذه الكتب ونشرها ، فعرضتها عليهم فاستمهلونى للنظر فيها ريثما تنظر اللجنة فى أمرها ، وبينما أنا فى انتظار جوابهم إذ وقدت نار هذه الحرب الضروس فأخذ

---

(١) مجلة الحرية الجزء الأول والثانى ص ٨٠ (تموز ١٩٢٤) .

(٢) العدد ١٠٩ وما بعده (السنة الثانية ٢٦ مايس ١٩٢٤ م) .

(٣) العدد ١٠٩ (٢٦ مايس ١٩٢٤) .

(٤) مجلة الحرية الجزء ٣ — ٤ ص ١٢١ (السنة الأولى أيلول ١٩٢٤ م) ، والجزء ٥ ص ٢٣٨ (تشرين الثانى ١٩٢٤ م) .

المصطافون يتركون مصايفهم فى لبنـان عائدين إلى بلادهم ، وأذهلنى ارتباك الحالة عن انتظار الجواب فعدت إلى بغداد مع العائدين . وبعد مضى شهرين كتبت إلى صديق لى فى بيروت أن يذهب إلى أصحاب المكشوف فيسألهم عما تم من أمر الرسالة ، فأجابنى بأنهم وافقوا على طبعها ونشرها ، وأرسل إلىّ مع كتابه نسخة من المكشوف الذى نشروا فيه فصلا من فصول الرسالة تنويهاً بها . ثم أخبرنى بعد ذلك بأنهم أخروا طبعها حتى تنتهى الحرب لارتفاع سعر الورق هناك . ولم تزل الرسالة حبيسة عند أصحاب المكشوف إلى يومنا هذا الذى لم تزل فيه الحرب قائمة على قدم وساق من نيران »[1].

ومات قبل أن يطبع الكتاب ، وأعيد إلى الموصى لهم به ، وظل حبيساً إلى أن طبعه الأستاذ عبد الحميد الرشودى فى بغداد سنة ١٩٥٥ م ، وبذلك أنقذه من الضياع وقدّم للدارسين خدمة كبيرة .

جمع الرصافى فى هـذا الكتاب المتفرق من شعر أبى العلاء المعرى فى اللزوميات واستخلص آراءه وصنفها تصنيفاً دقيقاً ، يقول فى المقدمة : « كنت قبل هذا نظرت فى اللزوميات بمنظار الصناعة الشعرية فانتقيت منها زهاء ستمائة بيت كلها غرر ولم أنظر إليها عند انتقائها إلا من جهـة الصناعة بقطع النظر عن الموضوع . ثم جمعتها فى كراسة وسميتها « ألزم الألزم من لزوم مالايلزم » ، فبتلك الكراسة المنتقاة تتجلى للقارىء شاعرية المعرى وحكمته معا . غير أنها لا يتضح بها مذهبه ولا تعرف منها آراؤه بوضوح تام لأنى تركتها كما هى فى الأصل مبعثرة غير مرتبة . وذلك أن كتاب اللزوميات إذا نظرت فيه رأيت نظيمه منثورا فهو مختلط الأبيات غير متماسكها ، إذ تجد فى الغالب كل بيت منه قائما بنفسه من جهة معنـاه غير مرتبط بما قبله ولا بما بعده فنى الصفحة الواحدة منـه تراه يتكلم فى مواضيع شتى . . . . » .

---

(١) على باب سجن أبى العلاء ص ٢٧ ومابعدها .

ثم يقول : « ولما كان شعر اللزوميات كله على هذا النحو غير مبوب بحسب مواضيعه ولا مفصل ، صعب على القارىء أن يحيط بآراء ناظمه الفلسفية ومذاهبه الاجتماعية إلا بعد تمحيصه وجمع متفرقاته ورد كل بيت منه إلى قرينه وتنقيح متناقضاته التى كان أبو العلاء يتعمدها مراعاة لأهل زمانه ورداً للتهم عنه ، فبعد ذلك تتجلى غياهب الغمـــوض عن آرائه وتظهر للعيان مذاهبه ومناحيه .

ولقد أخذت على نفسى بعد انتقاء « ألزم الألازم من لزوم مالا يلزم » أن أعرض للقراء هذا الكتاب الجليل لكى تظهر لهم آراؤه ولم أقصد بذلك إلا خدمة الحقيقة ومزيد التعريف لصاحبه الذى هو شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء . وقد التزمت أن لا أتكلم عنه بشىء بل أترك الكلام له فيتكلم هو عن نفسه ويعرب عن آرائه ، ولا يظنن القارىء أنى معه فى كل ما قال بل فى آرائه مالا أوافقه عليه لاسيما رأيه فى مسألة الحجاب ، وإنما أنا حاكٍ عنه بل هو الحاكى عن نفسه لاغير . ولربما أنكر علىّ هذا العمل بعض أسرى التقليد من الجامدين ، ولكن خذ عنك أيها القارىء الكريم ، فلعمرى أن قوماً يكونون من ضيق العطن بحيث لا يحتملون الإصغاء إلى ماقاله المعرى ـ ولو غير موافقيه على ماقال ـ لجديرون بالزوال بعيدون عن الكمال . وإنى لأنزه النابهين من أهل هذا العصر عن أن يكونوا من جمود الفكر فى هذه الدركة السفلى »(١) .

والموضوعات التى خاضها أبو العلاء فى كتابه « اللزوميات » كثيرة ، وقد حصرها الرصافى فى تسع وثلاثين مسألة(٢) ، وكان قد حصرها فى سبع وثلاثين حينما نشر منها فصولا فى جريدة المفيد(٣) ولكنه أضاف

---

(١) آراء أبى العلاء المعرى ص ٧ — ٩ .

(٢) المصدر السابق ص ٩ — ١٠ .

(٣) العدد ١٢١ (٩ حزيران ١٩٢٤ ـ ٦ ذو القعدة ١٣٤٢ هـ) وما بعده .

إليها مسألتين بعد أن أعاد النظر فيه وكتبه مرة ثانية عام ١٩٣٧ م .

وختم الكتاب بقوله : « وهنا ننهى هذه الرسالة التى لم نقصد بها إلا التنويه بأبى العلاء شاعر البشر بل شاعر الكون بما له من الفضل التالد والذكر الخالد ، ونختمها ببيتين له يدلان على أنه كان مبعداً فى افتكاره كل الإبعاد :

لا تأمنن من الدهور تغيراً حتى تكون ظباؤها كذئابها
ويصير فى شيبان مجنى غرسها ويعود مسقط ثلجها فى آبها[1]

وللرصافى كتاب آخر عن أبى العلاء المعرى هو « على باب سجن أبى العلاء » الذى كان تعليقاً على كتاب « مع أبى العلاء فى سجنه » للدكتور طه حسين ، وسنتحدث عنه فى فصل التعليقات .

٥ — نظرة إجمالية فى حياة المتنبى :

الكتاب محاضرة ألقاها على المدرسين فى صيف ١٩٢٢ م ، ونشرها فى جريدته « الأمل »[2] ، وطبعت فى كتاب ببغداد سنة ١٩٥٩ ، وفى هذا البحث تحدث المؤلف عن حياة المتنبى وسلوكه مع الناس والأمراء وشاعريته. وقد أوضح رأيه فيه وقارنه بأبى العلاء المعرى الذى كان شامخا أبدا .

وقد أثارت هذه المحاضرة نقاشاً فى الصحف ، ومن ذلك تعليق الأستاذ إسماعيل الشيخ داود الذى نشره فى جريدة « الأمل »[3] .

٦ — الأدب الرفيع فى ميزان الشعر وقوافيه :

جمع فى هذا الكتاب ما ألقاه من الدروس فى العروض والقافية على

---

(١) آراء أبى العلاء المعرى ص ١٨٥ .

(٢) الأعداد : ٨ ، ٩ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٢٦ ، الصادرة بين ٩ تشرين الأول ١٩٢٣م و ٣١ تشرين الأول ١٩٢٣ .

(٣) العدد ١١ (١٣ تشرين الأول ١٩٢٣) .

طلبة دار المعلمين العالية. وقد اتسم هذا الكتاب بسمة التجديد والتحرير: وفتح باب الاجتهاد لأوزان الشعر ، وشجع على التقدم فى موسيقى الشعر العروضية . وقد أوضح أهداف الكتاب فى مقدمته وهى أهداف أوحتها طبيعة الشاعر الذى يخشى على المتأدب الوقوع فى الخطأ العروضى ، يقول(١) : « من الآداب الرفيعة ميزان الشعر المسمى قديماً بفن العروض وإن جاز للشاعر أن يستغنى عنه بالسليقة فليس للأديب غنى عنه البتة . فمعرفة هذا الفن ضرورية للأديب دون الشاعر . وكنت فى سنة ١٣٤٧ هجرية قد أمليت دروساً مختصرة فى ميزان الشعر على من رغب فى معرفته من طلاب دار المعلمين العالية فى بغداد . ولما كانت فى تناول هذا الفن من كتب القوم صعوبة على الراغب فى الالمام به الماماً مستوفز عجلان ، التزمت فى إملاء هذه الدروس الاجمال ، وفى تقريرها الإيضاح ، وفى ترتيبها التدرج ليسهل فهمها على من سلك طريقها بلا مرشد أو دليل . وها أنا أثبتها فى هذه الرسالة للمتأدبين من طلاب الأدب العربى ، عسى أن تكون فيها لهم فائدة »(٢) .

والموضوعات التى عالجها المؤلف فى هذا الكتاب هى : ميزان الشعر ، فن العروض ، حاجة المتأدب إلى معرفة هذا الفن ، مصطلحات العروض ، بحور الشعر ، القوافى وما ينبغى للناظم والأديب أن يعرفه منها ، وفنون الشعر الملحقة بالبحور الستة عشر كلزوم مالا يلزم والتمويف والتسميط والتشريع والاجازة والتشطير والتخميس . ثم تكلم على الدوبيت والموشح ، وفنون الشعر الجارية على ألسنة العامة وهى : الزجل والمواليا والكان كان والقوما . وختم الكتاب بقوله : « وآخر ما نقوله هنا فنختم به هذه الرسالة هو أن الشعر وليد الغناء ، ومادامت الألحان فى الأغانى لاتدخل تحت حد

---

(١) تاريخ كتابة هذه المقدمة تشرين الأول سنة ١٩٤٠ حينما كان معتكفاً في الفلوجة.

(٢) الأدب الرفيع ص ١٠ (الطبعة الأولى) .

أو حصر ، فكذلك أوزان الشعر لا تعد ولا تحصى »[١] .

طبع الكتاب سنة ١٩٥٦ م (١٣٧٥ هـ) بإشراف الأستاذ عبد الحميد الرشودي ، وكتب له الأستاذ كمال إبراهيم مقدمة ذكر فيها أن الرصافي أنفق جهداً كبيراً في تقريب مآخذ هذا العلم إلى طالبه وتيسيره إلى متناوليه ، وأنه درج على طريقة السابقين في عرض الموضوعات وترتيب أجزائها ولكنه خالفهم في أمور منها : طريقته في تبسيط القواعد وتوضيحها ، وضرب الأمثلة ، ودعوته إلى حرية الأوزان وعدم التقيد بالبحور الستة عشر .

وكتب المرحوم الدكتور مصطفى جواد كلمة قدم فيها الكتاب وقال بأنه اتسم بسمة التجديد والتحرير وفتح باب الاجتهاد لأوزان الشعر وشجع على التقدم في موسيقى الشعر العروضية ، وأخذ بالمذهب الطبيعي المتبع في جميع الفنون .

وأعيد طبعه في بغداد سنة ١٩٦٩ م (١٣٨٩ هـ) .

٧ — الرؤيا :

ترجم هذه الرواية عن الأديب التركي نامق كمال ، وطبعها في بغداد سنة ١٩٠٩ م . ولم نطلع عليها لنتحدث عنها ، ولم يكتب عنها أحد لننقل كلامه أو نلخصه[٢] .

---

(١) الأدب الرفيع ص ١٢٥ .

(٢) ينظر الرصافي — صلتي به ص ٨٧ ، ومحاضرات عن معروف الرصافي ص ١٠ ، والأدب المصري ج ١ ص ٧٣ .

الفصل الرابع

التاريخ والاجتماع والسياسة

للرصافى نظرات صائبة فى كثير من القضايا التاريخية والاجتماعية والسياسية ، وقد جرّت كثير من هذه الآراء والنظرات المصائب عليه ، وجعلت رجال الدين يرمونه بالالحاد ويطالبون بنفيه إلى بلاد الكفر ، ولا سيما بعد أن ذاع خبر كتابه «الشخصية المحمدية» أو «حل اللغز المقدس» وبعد أن نشر كتابه « رسائل التعليقات » .

ومن آرائه فى التاريخ وكتبه قوله :

فما كتبُ التأريخ فى كل ماروت   لقرائها إلا حــــديثٌ ملفَّقُ
نَظرْنا لأمر الحاضرين فرابنا   فكيف بأمر الغابرين نصدقُ[1]

وليس فى هذا القول مايعجب الدارسين والمتزمتين منهم ، ولكنه لايأبه لذلك ، ومن هنا جاءت كتبه التأريخية والاجتماعية والسياسية صرخات عنيفة هزّت كيان المتزمتين فتألبوا عليه وهاجموه هجوماً عنيفاً ظلت ذيوله بعد موته سنوات طويلة ، وما تزال بقايا النيران تتأجج هنا وهناك .

وكتبه فى هذه الموضوعات هى :

١ ــ الشخصية المحمدية .

الشخصية المحمدية أو حل اللغز المقدس أحد كتبه المهمة التى لم تطبع حتى الآن لما فيـــه من آراء مثيرة ، ولذلك قال للأستاذ الجادرجي عنه :

---

(١) الديوان ص ٣٠٦

« إن الوضع لايساعد على طبعه فى العراق حيث ان الناس لا يحتملون الآراء التى فيه ولو كانت الظروف تساعدنى لكنت أذهب إلى أوربا أو تركية فاطبعه هناك »(١) .

والدافع الذى حدا به إلى تأليف هذا الكتاب إعجابه بشخصية النبى العربى محمد (ص) وحبه لحرية الفكر والتعبير عن الرأى بكل إخلاص وصدق . ولقد أراد بعد أن كثرت الكتب فى السيرة النبوية أن يخوض غمار هذا الموضوع الذى شغل الناس ، وأن يبدى آراءه بصراحة .

يقول الأستاذ مصطفى على متحدثا عن فكرة تأليف «الشخصية المحمدية» :
« إن فكرة تأليف هذا الكتاب لم تقم فى نفسه إلا فى سنة ١٩٢٩م بعد ثورة الرأى التى أثيرت على أثر نشره كلمته التى صور بها النبى وزوجه عائشة أمام وفد الحبشة . . . . لقد أبقت تلك الثورة فى نفس الرصافى ندوبا عميقة الأثر مؤلمة الوقع فكان إذا جرى لها ذكر أو إذا ذكرت السيرة النبوية جاشت غوارب آلامه واتقدت نيران أحزانه فأنحى باللائمة على الجمود الذى ران على العقول ، ونقد مؤلفى السير ، ووصمهم بجهل هذه الشخصية العظيمة ، وكثيرا ما سمعته يقول وهو يكاد يتميز من الغيظ والحنق : « ظهرت بجزيرة العرب أعظم شخصية عالمية فلم يقدرها أتباعها حق قدرها » أو يقول : «لقد أضاع المسلمون شخصية نبيهم وجردوه من عظمته ومزاياه ، وعطلوا مواهبه النيرة ، ولم يزيدوا على أن جعلوه كالآلة الحاكية ان وضعوا فيها اسطوانة حكت ، وإلا فهى جماد لاحراك فيه . وهكذا يعتقد هؤلاء بنبيهم إذا جاءه جبريل نطق ودعا ونصح وبلغ وهدى ، وإلا فلا رأى له ولا قول » ، أو يقول : « إن محمداً لايزال لغزاً وأنا الذى سأحل هذا اللغز » .

(١) مجلة الثقافة الجديدة العدد ١ ص ٢٣ (نيسان ١٩٥٤) وشعراء العراق فى القرن العشرين ج ١ ص ٧٩ .

من أجل ذلك سمى كتابه هذا « الشخصية المحمدية » أو « حل اللغز المقدس »[١] .

ألف هذا الكتاب بعد أن هجر بغداد واتخذ الفلوجة معتزلا ، وكتب مقدمته فى الخامس من تموز سنة ١٩٢٣م وظل يشتغل به حتى سنة ١٩٤١م، ولما وقعت الحرب بين العراق والانكليز بعد ثورة مايس اضطر على العودة إلى بغداد ومعه هذا الكتاب .

أوضح فى المقدمة هدفه من الكتاب ومنهجه فقال : « وبعد فقد كنت أكتب للتاريخ وكنت أحسب للتاريخ حسابا ، واجعل له منزلة يستحق بها أن أكتب له ما أكتب حتى لقد قلت فيما قلته من قبل :

وأكتب للتاريخ ما أنا كاتب ليجعله أحدوثةً كُلُّ مخبر

ولكن الأيام تنضج المرء بحوادثها فيستحيل من حال وينتقل من طور إلى طور وكذلك فعلت بى الأيام حتى أصبحت لا أقيم للتاريخ وزنا ولا أحسب له حسابا ؛ لأنى رأيته بيت الكذب ومناخ الضلال ومشتجر أهواء الناس ، إذا نظرت فيه كنت كأنى منه فى كثبان من رمال الأباطيل قد تغلغلت فيها ذرات ضئيلة من شذور الحقيقة فيتعذر أو يتعسر على المرء أن يستخلص من وطيس أباطيله ذرات شذور الحقيقة . وهذا ما دعانى أن أكتب قصيدتى « ضلال التاريخ »[٢] التى قلت فيها :

وما كتبُ التاريخ فى كل ما روت لقرائها إلا حديث ملفّقُ
نظرنا لأمر الحاضرينَ فرابنا فكيف بأمر الغابرينَ نصدق
وما صدقتنا فى الحقائق أعينٌ فكيف إذن فيهن يصدق مهرقُ

---

(١) الرصافى — صلى به ص ٢٤٨ .

(٢) ينظر الديوان ص ٢٥٦ .

وهل قد خصصنا دون من مات قبلنا
بخبث السجايا ؟ شــدّ ماننحمق

فأنا اليوم أبرأ إلى الحقيقة من التأريخ ، وأنا اليوم أكتب ما أكتب للحقيقة وحدها لاشريك لها عندى .

ولئن أرضيت الحقيقة بما أكتبه لها لقد أسخطت الناس على ولكن لايضرنى سخطهم إذا أنا أرضيتها ، كما لاينفعهم رضاها إذا كانت على أبصارهم غشاوة من سخطهم علىّ وعلى قلوبهم أكنة من بغضهم إياى ، وإنما أنا وهم كما قال الأول :

نحن بما عندنا وأنتَ بما عنـــدك راضٍ والرأىُ مختلفُ

فإن قلتَ أيها القارىء الكريم : من يضمن لك أنك ترضى الحقيقة ؟ وهل رضاها عنك فيما تكتبه هنا إلا دعوى مجردة لاتقوم إلا فيما تزعمه أنت؟

قلت : كفى بحرية الفكر ضامناً لى رضاها ، وما علىّ فى نجاح هذه الدعوى من صدقها إلا أن أفتكر حراً وأكتب حراً ، فإن أصبت ماأردته لها فقد أرضيتها وإن أخطأت فلى ما يعذرنى عندها من أننى لا أقصد إلا رضاها ، ولا أنحاز إلا إلى جانبها ، ولا أتحرى إلا الوصول إليها ، وإذا كنت لا أتبع هوى النفس فيما أكتبه عنها فما أنا بمسؤول عما لا طاقة لى به منها .

أما سخط الناس من أجل أننى خالفتهم لوفاقها ، وصارحتهم فى بيانها جرياً على خلاف ماجروا عليه من عادات سقيمة وتقاليد واهية فلست مبالياً به ولا مكترثاً له مادمت لا أطلبُ بما أكتبه إلا رضى الحقيقة :

لعمرك إن الحرّ لايتقيـــدُ ألا فليقل ماشاءَ فىّ المفندُ[1]

---

(١) ينظر الديوان ص ٧٤ .

وإنى لأعلم أنهم سيغضبون ويصخبون ويسبون ويشتمون ، فإن كنت فى قيد الحياة فسيؤذيني ذلك منهم ولكنى سأحتمل الأذى فى سبيل الحقيقة ، وإلا فليس لى أن أهتف باسمها ولا أن أدعى حبها كما يدعيه الأحرار ، وإن كنت ميتاً فلا ينالنى من سبابهم شر كما لا ينالهم منه خير، فان سبّ الميت لا يؤذى الحي ولا يضر الميت كما قال محمد بن عبد الله عظيم عظماء البشر » .

وتحدث بعد هذه المقدمة عن موضوعات كثيرة تتصل بالنبي الكريم محمد (ص) ونبوته ودعوته وأعماله ، وتكلم على القرآن الكريم وإعجازه ، والقراءات وتعددها واختلافها . وكتب فصلاً مسهباً فى «الشخصيات المريبة» وأدخل فيها محمد بن اسحاق والحسن البصرى ، ومما قاله : « وإليك فى خاتمة هذا البحث كلمة نقولها فى الشخصيات المريبة فى الاسلام وهى كثيرة ، ومنها ماهو أشد غموضاً من هذه الشخصية التى أطلنا الكلام فيها . وجل هذه الشخصيات المريبة إن لم نقل كلها من الأمم المغلوبة التى لها عند العرب والاسلام ترات وذحول ، والتى أخذ أبناؤها فى صدر الإسلام يكيدون ويمكرون جهد أحقادهم متسترين بثوب من إسلامهم الظاهر لكى يضربوه بسيف مطبوع من أحكامه ويرموه بسهم مريش بآياته » .

وهذه الفقرة من آخر ما كتب فى خاتمة الكتاب ، وبقيت فصول منه شغلته عنها كتب أخرى فلم يكمل « الشخصية المحمدية » ، وقد قال للأستاذ الجادرجي فى يوم ٢٩ أيلول (سبتمبر) ١٩٤٤ : « لم نكمل هذا الكتاب ، لأن الكتاب كما تعلمون هو عبارة عن ملاحظات كنت أدونها كلما خطر لى خاطر حول هذا الموضوع »(١) . ومات — رحمه الله — بعد هذا الحديث بشهور .

---

(١) مجلة الثقافة الجديدة العدد ١ ص ٢٣ (نيسان ١٩٥٤) ، وشعراء العراق فى القرن العشرين ج ١ ص ٧٩ .

وكتاب « الشخصية المحمدية » فى ثلاثة وأربعين جزءاً ، يقول الرصافى فى رسالته إلى الأستاذ سعيد البدرى بتأريخ ٢٥ آذار ١٩٤١ : « وقد كتبت مقالا آخر مسهباً بعنوان « هل لمحمد معجزة سوى القرآن » وبحثت فيه عن الشخصيات المريبة فى الإسلام وألحقته بكتاب « الشخصية المحمدية » فصار به الكتاب ثلاثة وأربعين جزءاً » (١)

ووصف الأستاذ الجادرجي نسخة الكتاب بقوله : « إن النسخة التى نقلت عنها الكتاب هى النسخة الأصلية التى كتبها المؤلف بخطه ، وهى مؤلفة من ٤٣ كراساً وقد اعتبر المؤلف كلا منها جزءاً . ان معظم تلك الأجزاء على نسق واحد وحجم كل منها ٢٣ سم طولا و١٧ سم عرضاً ، وكل جزء من هذا الحجم يحتوى على ٣٠ ورقة إلا جزءان وهما الجزء الثلاثون والجزء الواحد والثلاثون فكل منهما يحتوى على ٦٠ ورقة وحجم كل واحد منهما ٢٠ سم طولا و١٦ سم عرضاً » (٢) .

ونسخة الأستاذ الجادرجي التى نقلها عن النسخة الأصلية فى أربعة مجلدات تضم (١١٥٤) صفحة ، وقد أتم نقلها فى ٣١ آب ١٩٤١ ، وكتب الرصافى فى آخرها بتاريخ ٥ آب ١٩٤٤ : «اطلعت على هذه النسخة التى استنسخها صديقى الفاضل كامل الخيام « الجادرجي » على النسخة التى كتبتها بخطى من كتابى « الشخصية المحمدية » ، فرأيتها صحيحة كاملة خالية من الأغلاط فى النسخ ، فلذا أجيز له روايتها والنقل عنها والاعتماد على ما هو مكتوب فيها قبل طبع نسخة الكتاب الأصلية ونشرها . وبما أنى أثق بثقافة كامل الخيام وبصدقه وإخلاصه فى مسائل العلم والأدب كتبت هذا إعلاماً بذلك » .

وفى خزانة المجمع العلمى العراقى ببغداد نسخة مصورة عن نسخة الأستاذ الجادرجي ، وعليها اعتمدنا فى الحديث عن الكتاب .

---

(١) آراء الرصافى فى السياسة والدين والاجتماع ص (ﻫ) .

(٢) مجلة الوادي العدد ١٥ ص ٤ (السنة العشرون ١٤ آذار ١٩٥٩ م) .

وكان الأستاذ مصطفى على من السباقين فى نسخ هذا الكتاب ، يقول : «كان الرصافى يكتب كتابه بالفلوجة ، وكلما أنجز شيئاً أخذته منه فنسخته، ولم يكن الرجل ضنيناً بكتابه على أحد بل رأيناه قد مكّن من نسخه كثيراً ممن طلبوا منه أن ينسخوه حتى انتشرت نسخه بين القراء ، واطلع عليه من رام الاطلاع . وقد سمح بقراءته لكثير ممن رغبوا فى قراءته ، ولكننى كنت أمتنع عن أن أعطى أحداً نسختى يقرؤها إلا بإذن من الرصافى نفسه، ولم أعطها إلا لصديق واحد اعتمد عليه ينسخها بعد أن رأيت الكتاب قد تعدد ناسخوه وكثر قارئوه »[١] .

ومن أوائل الذين اطلعوا على الكتاب الأستاذ أمين الريحانى الذى زار الرصافى فى معتكفه بالفلوجة، وكتب عنه قائلا : «كتب كتاباً فريداً فى بابه باللغة العربية هو سيرة النبي أطلعنى عليه مخطوطاً بيده فى سبعة دفاتر مدرسية [٢] ما أدهشنى مافى هذا الكتاب من العلم والتحقيق ؛ لأن مصادر الموضوع متوافرة لمن يشاء معالجته ويحسن البحث والموازنة ، إنما أدهشتنى القوة النقدة والمقدرة على التحليل والاستخراج والتفلسف فى عقائد لاتستقيم بغير الايمان والجرأة والصراحة »[٣] .

واطلع الدكتور زكى مبارك على الكتاب يوم زاره فى معتكفه. يقول : « أمر الشاعر فتاه بأن يحضر كتابه عن النبي محمد عليه الصلاة والسلام ، وألحّ الشاعر فى أن ألقى نظرة على ذلك الكتاب وهو مخطوط فى عشرة كراريس[٤]. وكنت قضيت ساعة فى هدوء ، فلما وقع بصرى على بعض فقرات الكتاب

---

(١) الرصافى — صلتى به ص ٢٥٣

(٢) كان هذا يوم زاره ، لأن الكتاب ٤٣ دفتراً .

(٣) قلب العراق ص ٢٥٣ .

(٤) كان ذلك يوم زاره

ثرت ثورة عنيفة وانطلقت أجادله بلا ترافق ولا تلطف. وقابل الشاعر ثورتى بأدب رائع دلنى على أنه من أقطاب العقل» (١).

ويقول عنه : « والرصافى مؤلف غير معروف ، ولكن كتابه عن النبي محمد كتاب هائل جداً ، وترجع أهميته إلى ما فيه من نقد الأخبار والأحاديث وقد لا تتسع الصدور لهذا الكتاب وهذا هو الشاهد على أن أسلافنا كانوا أوسع صدوراً وأعلى مقاماً» (٢) .

٢ — الرسالة العراقية :

هذه رسالة كتبها فى الفلوجة سنة ١٩٤٠ م ، وتحدث فى مقدمتها عن الدافع الذى حفزه إلى كتابتها . يقول (٣): « الحمد لله لمن لا حمد لغيره، ولا وجود لأحد سواه ، والصلاة والسلام على من عرف قدر نفسه ، وأخلص النصيحة لأبناء جنسه . وبعد فقد :

ركبْتُ بحور الشعر رَهواً ومائجاً … وأقحمتُ منها كلَّ هول يراعيا
وسيّرت سُفْنى فى طلابِ فنونه … وألقيتُ فى غير المديح المراسيا
وقلت: اعصنى ياشعر فى المدح إننى … أرى الناسَ موتى تستحق المراثيا
ولو رضيت نفسى بأمرٍ يشينها … لما نطقت بالشعر إلا أهاجيا (٤)

هذا ما قلته قبل خمسة وثلاثين عاماً ، ولم أخرج عنه فيما قلته من الشعر

---

(١) ذكرى الرصافى للرشودى ص ٧٣ .

(٢) المصدر السابق ص ٧٧ .

(٣) كتب هذه المقدمة يوم ٢٠ تموز ١٩٤٠م :

(٤) ينظر ديوانه ص ١٢٣ .

الى يومنا هذا حتى قضت الأيام أن أهجر بغداد الى معتزلى فى الفلوجة قبل سبع سنين من كتابة هذه الرسالة التى كتبتها فى أيام هذه الحرب الهتلرية الشرشلية ، وأنا قابع فى دار عزلتى ضحية لا بائى كل ضيم ، وعدائى كل ظلم، وقد تركت قول الشعر وما أنا بمجبل ، فلم أقله إلا قليلا أكتبه لنفسى وأنشده تابعاً لحسى . وكان من جملة ما ألهمتنيه الحوادث ولقنتنيه التجارب فى أيام عزلتى ما تقرأه — أيها القارىء الكريم — فى هذه الرسالة التى ما كتبتها لتنشر فى العراق الذى لا حرية فيه للكلام ولا حرمة فيه للرأى والفكر ، بل لتكون عبرة لمن يطلع عليها من أهل هذا الجيل أو الأجيال الآتية ، وسميتها « الرسالة العراقية » لأنى لم أخرج فى مباحثها عمّا له علاقة بالعراق من سياسة ودين واجتماع ، فإن كنتُ قد أفدت فذاك وإلاّ فقد ضاع قبلها ما قلت من نظيم ونثير » .

والرسالة فى خمسة أجزاء صغيرة ، تحدث فى الجزء الأول منها عن الزعماء فى العراق ، والاقطاعية فى العراق ، والطفل الهرم ، وطفلنا المولود ، وفى الجزء الثانى عن المغرورين باستقلالهم ، وعناصر النصر ، وكيف تؤلف الوزارة فى العراق ، وداء العراق العضال ، وما شيعة وما سنة ، وابن العلقمى الثانى . وفى الجزء الثالث عن رسالة نشرتها السفارة البريطانية فى العراق إبان الحرب العالمية الثانية بعنوان « التقاليد الإسلامية والمبادىء النازية » .

وفى الجزء الرابع أكمل حديثه عن رسالة نشرتها السفارة البريطانية فى بغداد بعنوان « حقيقة الأمبراطورية البريطانية » ، وعن الخداع والتمويه الذى تتبعه بريطانية فى سياستها الاستعمارية ، ودائرة التجسس البريطانى .

أما الجزء الخامس من « الرسالة العراقيـــة » فليس فى نسخة الأديب

الأستاذ عبدالله الجبورى التى اعتمدنا عليها(١) ، بل أشار اليها الرصافى نفسه فى رسالته الموجهة إلى الأستاذ سعيد البدرى بتأريخ ٢٥ آذار سنة ١٩٤١م ، يقول : « إن الجزء الخامس من الرسالة العراقية يحتوى على مقالين :

أحدهما : تاسوعاء شعبان الذى كتبناه قبل براحك الفلوجة فاطلعت أنت عليه ، فانى كتبته أولا فى رسالة « خواطر » ثم رأيته يناسب الرسالة العراقية أكثر فألحقته بها .

والثانى : هو مقال « المسلمون فى هذا العصر » ،وهذا على ما أظن كتبناه بعد براحك الفلوجة فلم تطلع عليه،وهو مقال أطول من « تاسوعاء شعبان» ، وفيه مباحث شتى لم يتطرق اليها علماء الدين من قبل بل لم ينتبهوا اليها البتة ، وقد أثبت فيه أن لا ملكية فى الإسلام» (٢).

والرسالة العراقية لم تطبع حتى الآن غير أن الأستاذ مصطفى على ذكر منها فصولا فى كتابه «الرصافى — صلتى به ، وصيته ، مؤلفاته»(٢) ، ونشر منها الأستاذ سعيد البدرى فصولا فى كتابه : « آراء الرصافى فى السياسة والدين والاجتماع »(٣)

وكان الرصافى قد نوى طبعها فى حياته ، ولكن ضيق اليد حال دون ذلك فبقيت تتناقلها الأقلام ، يقول فى رسالته إلى الأستاذ البدرى بتأريخ ٢٠ كانون الثانى ١٩٤١ م : « قبل وفاة عبد اللطيف المنديل وقبل أن تبارح أنت الفلوجة كنت قد كتبت إلى عبد العزيز المانع كتاباً طلبت منه عرضه على عبد اللطيف

---

(١) هذه النسخة منقولة من نسخة الشاعر المرحوم خضر الطائى .

(٢) آراء الرصافى فى السياسة والدين والاجتماع ص (ﻫ) .

(٣) ص ٢٠٧ ومابعدها .

(٤) ص ٩ وما بعدها .

وإعلامى بالنتيجة . وكنت قد ذكرت له فى ذلك الكتاب ما أنا عليه من حالة سيئة وصحة مختلة وضائقة مالية والتى تحتاج إلى شىء من معونة عبد اللطيف، وذكرت له « الرسالة العراقية » التى لو كان فى بغداد مطابع غنية أو تجار كتب كبار بعتها واستعنت بثمنها على ما أريد ، فطلبت من عبد العزيز أن يعرض هذه القضية على عبد اللطيف فإنى أعده من المحسنين فعسى أن يدفع لى شيئاً من المال لطبع هذه الرسالة ونشرها (١)» .

ولم يمد أحد يد العون لطبع هذه الرسالة ولم تطبع حتى الآن لما فيها من آراء لا ترضى البعض ، أو تسىء إلى رجال أحاطت بهم هالات من العظمة، وقد صدق الرصافى — رحمه الله — حينما قال فى مقدمتها : « وكان من جملة ما ألهمتنيه الحوادث ، ولقنتنيه التجارب فى أيام عزلتى ما تقرأه — أيها القارىء الكريم — فى هذه الرسالة التى ما كتبتها لتنشر فى العراق الذى لا حرية فيه للكلام ولا حرمة فيها للرأى والفكر بل لتكون عبرة لمن يطلع عليها من أهل هذا الجيل أو الأجيال القادمة » .

٣ — خواطر ونوادر :

وهو رسالة جمع فيها ماعنّ له من خواطر مختلفة فى الأدب واللغة والاجتماع ، كتبها فى الفلوجة سنة ١٩٤٠ ، يقول فى مقدمتها(٢) : « الخاطر هو الهاجس الذى يقع فى خلدك عفواً بلا قصد أو أى داعٍ من دواعى التفكير ، وأكثر ما يكون إذا كنت معتزل الخلطاء منفرداً عنهم . ولو انى من أول عهدى بالتفكير جمعت خواطرى لكانت شيئاً كثيرا .

وها أنا اليوم أثبت لك فى هذه الكراسة شيئاً مما عنّ أو يعنُّ لى من

---

(١) الرصافى فى أعوامه الأخيرة ص ٧٧ — ٧٨ .

(٢) كتب هذه المقدمة فى ٣٠ آب ١٩٤٠ م .

الخواطر وأضيف إليها بعض ما صادفته فى كتب الأدب من المسائل التى لها شأن فى الأدب أو فى غيره من أمور الحياة . وإن الذى دعانى إلى إثباتها هنا هو أنها حرة طليقة فى سنوحها من كل قيد فلا أرمى من ورائها إلى غاية خاصة ، ولا أريد بها إقناع مخالف أو إرضاء موافق ، بل أنا منها مثلما هى منى حر طليق فلا أمارى بها ولا أداجى . وإذا كانت كذلك فعسى أن يجد فيها من يطالعها من أهل الحرار فائدة ، وإلا فكم سودت المحابر قبلها من قراطيس كانت فى الناس أقل نفعاً من نقع الكراديس ، فاليكها كما هى بلا ترتيب ولا تبويب »[1].

وتحدث فى هذه الرسالة عن لفظة دعاية ، وذكر رأيه فى الأغانى ، وعالج موضوع « القرآن فى الراديو » وغير ذلك . وكان — رحمه الله — قد تحدث فيها عن « تاسوعاء شعبان » ولكنه ألحقه أخيراً بالرسالة العراقية لأنه يناسبها .

والرسالة غير مطبوعة ولم نر مخطوطتها ، وقد اعتمدنا على ما كتبه الأستاذ مصطفى على عنها فى كتابه « الرصافى — صلتى به ، وصيته ، مؤلفاته »[2].

٤ — آراء الرصافى فى السياسة والدين والاجتماع :

ليس هذا من الكتب التى سماها الرصافى بهذا الاسم ، وإنما هو مجموعة مقالات له ، اختارها الأستاذ سعيد البدرى من كتابيه « الرسالة العراقية » و « الشخصية المحمدية » ، وكتب لها مقدمة موجزة ، ووشحها الأستاذ خاشع الراوى بكلمة بليغة مؤثرة .

(١) خواطر ونوادر ، نقلا عن كتاب الرصافى — صلتى به ص ١٩٦ .
(٢) ص ١٩٦ وما بعدها .

والفصول التى اختارها الأستاذ البدرى من « الرسالة العراقية » هى : الزعماء فى العراق ، والإقطاعية فى العراق وقانون التسوية ، ودور الاقطاع ، وإلى المغرورين باستقلالهم ، والتمويه والخداع صبغة السياسة البريطانية ، ودائرة التجسس البريطانى ، والطفل الهرم ، وطفلنا المولود ، والوحدة الاسلامية ، وما شيعة وما سنة . أما الفصول التى اختارها من « الشخصية المحمدية » فهى : إهداء الهدى ، وبناء المسجد ، واقتران الدعوة بالسيف ، ولا إله إلا الله ، وغاية محمد صلى الله عليه وسلم ، وحبه قريشاً ، وحزم محمد ، ومن هم قريش؟ .

الفصل الخامس

التعليقات

للرصافى تعليقات على بعض الكتب التى اطلع عليها ورأى فيها ما يستحق الوقوف الطويل والمناقشة العلمية ، وقد جمعت هذه التعليقات فى كتب هى :

١ — رسائل التعليقات :

وهى الكتاب الذى أثار ضجة عنيفة بعد أن طبع ببغداد سنة ١٩٤٤ بإشراف الأستاذ الشاعر نعمان ماهر الكنعانى وتقديمه . وشارك فى هذه الضجة كثير من علماء الدين فى العراق ومصر لما جاء فى تعليقاته على كتاب « التصوف الاسلامى » للدكتور زكى مبارك من آراء تستحق الاهتمام .

أما فى العراق فقد طالب الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء باتلاف الكتاب وطرد صاحبه من العراق وإلحاقه ببلاد الكفر ، يقول: « هو من أضر الكتب الالحادية التى تستحق الاسقاط والطرد واللعن . والرجاء الأكيد فى حكومتنا الموقرة وأولياء الأمور — سددهم الله — طرد مؤلفه من العراق وإلحاقه ببلاد الكفر ، وجمع نسخ هذا الكتاب واتلافه كى لا يفسد عقائد الشباب العراقى النجيب ويزيد فى فساد أخلاقهم فيذهب كبار هذه الأمة وتنفسخ وحدتها وتتفرق جامعتها ، والساكت فى انكار هذا الأمر الفظيع راض والراضى شريك (١) » .

وأيد الشيخَ آل كاشف الغطاء كثيرٌ من علماء الدين،واهتمت الحكومة

(١) الرصافى فى أعوامه الأخيرة ص ٤٣

بالأمر وأحالت الكتاب إلى من يحسم المسألة ويقطع دابر الفتنة ، فكتب الأستاذ فهمي المدرس إلى مدير الأوقاف العام بتاريخ ٦ آذار ١٩٤٤ رداً على كتاب مديرية الأوقاف العامة المؤرخ فى ٢٩ شباط ١٩٤٤ ، أوضح رأيه فى « رسائل التعليقات » وقال انها ليست مما يستوجب الفتنة أو الضجة ، وجاء فى آخر خطابه : « وبالاجمال لم يظهر لنا من تعليقات الرصافى ما يمس كرامة الدين ، بل ظهر لنا أنه قوى الايمان بالله ورسوله ، راسخ الاعتقاد بما جاء به القرآن ، ومن كفّر مسلماً فقد كفر »(١) .

وكتب الأستاذ نورى القاضى السكرتير العام لمجلس الوزراء بتاريخ ١٩ آذار ١٩٤٤ كتاباً إلى مديرية الأوقاف العامة هذا نصه(٢) : « قدمت إلى صاحب الفخامة رئيس الوزراء صورة من عريضة مرفوعة إلى صاحب السمو الملكى الوصى المعظم من قبل رئيس جمعية الهداية الإسلامية وزمرة من رفقائه من المنتسبين لمديريتكم حول « رسائل التعليقات » التى أصدرها الرصافى .

إن العريضة تحتوى على المطالب الآتية :

(أ) إسقاط الجنسية عن صاحب الكتاب وإخراجه من العراق .

(ب) محاكمة الشخص المسؤول فى مديرية الدعاية العامة .

(ج) إعطاء الحرية لنشر الردود فى الصحف .

(د) مصادرة الكتاب .

أما ملاحظاتنا حول ذلك فهى كما يلى :

إن إسقاط الجنسية عن العراقى بالولادة لايسوّغه القانون الصادر وفقاً

---

(١) المصدر السابق ص٤١ ، ونسخة الكتاب المحفوظة لدى الأستاذ عبد الله الجبورى .

(٢) نذكره هنا نقلا عن النسخة المحفوظة لدى الأستاذ عبد الله الجبورى .

للقانون الأساسى ، كما أن إخراج العراق خارج المملكة العراقية ممنوع بحكم المادة السابعة من القانون الأساسى . أما محاكمة الشخص المسئول فى مديرية الدعاية عن نشر الكتاب أو مصادرة الكتاب فأمر يتوقف البت فيه إلى ما تقوله المحاكم فى هذا الشأن ؛ لأن المصادرة منوطة بقرار تصدره المحاكم ، كما أن معاقبة موظف ما من موظفى الدعاية يتوقف على ما تقوله المحاكم بشأن ما ورد فى الكتاب . أما نشر الردود فى الصحف فلا مانع من ذلك على أن تكون تلك الردود محدودة ضمن القواعد المتبعة فى المجادلات العلمية ، وألا يكون من شأنها إثارة الرأى العام ، وليس فيها ما يشوش السكينة العامة .

إنّ صاحب الفخامة يرى أنّ قانون العقوبات وقانون المطبوعات قد وَسّعا أحكاماً خاصة وصريحة عن الجرائم التى ترتكب ضد الأديان وغير ذلك ، فاذا كانت هناك جريمة من هذا القبيل تستنتج من هذا الكتاب فيمكن عندئذ مراجعة السبل القانونية بشأنها ومعاقبة المرتكب وفق القانون » .

وأما فى مصر فقد تزعمت الضجة مجلة « الرسالة » للمرحوم الأستاذ أحمد حسن الزيات ، وفسحت المجال للأستاذ دريني خشبة الذى حمل على الرصافى وعقيدته الدينية ورسائله . وردّه الرصافى فى مجلة « الرسالة[1] » . وكتب بعضهم كالأستاذ نعمان ماهر الكنعانى مقالات فى الصحف انتصروا فيها للرصافى .

وبعث الرصافى عقب الضجة برسائل إلى الأستاذ الكنعانى الذى تحمّل عبء الكتاب وتقديمه ، وفى هذه الرسائل[2] دافع عن نفسه وردّ التهم التى

---

(١) تنظر مقالات دريني خشبة ورد الرصافى فى الطبعة الثانية من رسائل التعليقات ص ٢١٣ وما بعدها .

(٢) تنظر فى كتاب الرصافى فى أعوامه الأخيرة ص ٣٢ وما بعدها

كالها له أعداؤه ، ووجه كلمة إلى الخصوم[1] ختمها بقوله :

لا درّ درُ رجال الدين إنهم ... قد أظهروا فيه منهم غير ما كتموا
وإن أتيت ببرهان فأعجــــزهم ... لم يحسنوا الرد بل من عجزهم شتموا
وإن تقل لهمُ قـــولا لتقنعهم ... شدوا عليك وردوا قبلما فهموا
خلائق كظلام الليـل من يرها ... يقل : بأمثال هذى تمسخ الأمم[2]

وما يزال الأستاذ الكنعانى يحتفظ ببعض رسائل الرصافى المتعلقة بهذه الضجة ولعله ينشرها فى يوم من الأيام لتتم أبعاد القضية وتتضح معالمها ، بعد أن خمدت . وأعيد طبع « رسائل التعليقات » فى بيروت سنة ١٩٥٧ م (١٣٧٦ هـ) من غير أن يثير ما أثاره فى طبعته الأولى عام ١٩٤٤ م .

ويضم كتاب « رسائل التعليقات » ثلاث رسائل :

الأولى : ما علقه على كتاب « التصوف الاسلامى » للدكتور زكى مبارك ، يقول متحدثاً عن وحدة الوجود : « إن البحث والتفكير قد ألجآنى إلجاءاً لا محيص عنه إلى الايمان بوحدة الوجود ، وجعلانى أعتقد اعتقاداً جازماً بأن التصوف إسلامى محض فى نشأته وتطوراته ، وإنه فكرة فلسفية مجردة لا علاقة لها بالزهد والعبادة ، ولا بالزهد والعباد ، وإن الصوفيين هم فلاسفة الاسلام الذين لا يرون فى الكون باطلا ، والذين تساوت عندهم المعانى المتضادة من حسن وقبح ، ومن خير وشر ، وهدى وضلال ، وانهم ـ أى الصوفية ـ أبعد الناس عن الزهد والتقشف وأن طريقتهم الوحيدة فى فلسفتهم هى التفكير المقترن بصفاء النفس ليس إلا ، وانهـــم لا يسعون جهدهم إلى تصفية النفس من أدران كل ما يعكر صفو التفكير إلا لكى

(١) المصدر السابق ص ٣٥

(٢) ينظر الديوان ص ٤٤٦ ـــ ٤٤٧ .

يقترن تفكيرهم بصفاء النفس فيكون نقياً خالصاً من شوائب كل غفلة ويكون لهم أهدى إلى معرفة الحقيقة الكلية المطلقة اللانهائية ، وبعبارة أخرى إلى معرفة الله .

وليس قولي هذا بالمرجم ، ولا اعتقادي بالمتوهم ، فقد اتضح لي كالشمس في رأد الضحى أن محمداً (رسول الله) جاء بحقيقتين ناصعتين : احداهما وحدة الاله ، والثانية وحدة الوجود .

أما الأولى فقد قالها بمنطوق العبارة لكي يحرر بها الناس من كل عبودية لغير الله وهي : « لا اله إلا الله » ، وأما الثانية فقد قالها بمفهوم العبارة لكي يوصل بها المواهب الفطرية العالية إلى الكمال النفسي الذي لا يتم إلا بمعرفة الله وهي « لا موجود إلا الله[1] » .

وهذه التعليقات هي التي أثارت الضجة عليه ، وجرى له ما تحدثنا عنه سابقاً .

الثانية : ما علقه على كتاب « النثر الفني » للدكتور زكي مبارك ، يقول « وأما قول الدكتور : « فهنالك مواطن للقول لا يصلح فيها غير النثر ، ومواطن أخرى لا يصلح فيها غير الشعر » ، فقول ينبو عنه الفهم ؛ لأنّ النثر يصلح لجميع المعاني على اختلاف أنواعها وتباين مواطنها ، وكذلك الشعر فان الشاعر يستطيع أن يعمد إلى حقيقة مادية جافة فيلبسها ثوباً قشيباً من الخيال ويظهرها للناس بصورة شعرية تتصل بالمشاعر والقلوب كما هو الواقع فاننا نرى الشعر العربي قد خاض عباب المعاني كلها من مادي ومعنوي ومن ديني ودنيوي ، ومن عقلي وخرافي ، كما أنه طرق أبواب العلوم كلها من دون أن يخرج فيها عن اتصاله بالمشاعر والعواطف . ألم يطرق المعري باب الحساب بقوله :

---

(١) رسائل التعليقات ص ١٣ — ١٥

سما نفرٌ ضربَ المثين ولم أزل بجمدك مثل الكسر يضرب فى الكسر

كما طرق غيره باب علم المنطق إذ قال :

لا تخطبنَّ سوى كريمة معشرٍ فالعرق دساس من الطرفين
أو ما ترى أنّ النتيجة دائماً تبع الأخس من المقدمتين

أما القصة فالشعر أولى بها من النثر ؛ لأنها فى الأكثر لا تكون إلا مما له اتصال بالمشاعر والعواطف والقلوب ، ولها فى الشعر العربى تاريخ قديم ينتهى إلى « تأبط شرآ » فى قصته مع الغول ، والفرزدق فى قصته مع الذئب . وهذا الفردوسى شاعر الفرس ألم يطرق لقومه باب تاريخهم بشعر خلدته له الأيام[1] » .

والثالثة : ما علقه على كتاب « التاريخ الاسلامى » للمستشرق الايطالى كايتانى - وكان قد اطلع على ترجمته التركية ، ومما قاله عنه : « ان المؤلف فى كلامه هذا ينكر اهتمام العرب قبل البعثة بحفظ أنسابهم وبمعرفتها ، ويدّعى أن ذلك حصل فى أيام عمر الخليفة الذى جعل للجند ديواناً ، ورتب لهم أرزاقاً ، فسجل فيه أسماءهم ورتبها بحسب قبائلهم فابتدأ بسبب ذلك اهتمامهم بحفظ الأنساب ، الى آخر ما يقول .

لا ريب إن هذا القول يخالف الواقع ويصادم المتعارف عند العرب إلى يومنا هذا ؛ لأنّ الذى لا يقبل المراء هو أن العرب كانوا يعيشون فى بداوة أو شبه بداوة ، وكانت هذه الحالة البدوية تقضى عليهم قضاءاً مبرماً بأن ينقسموا إلى قبل متعددة كل قبيلة منها تمتاز عن غيرها بانتمائها إلى جد أعلى من أجدادها ، وكان أبناء كل قبيلة منهم لا تجمعهم إلا جامعة الانتساب إلى

---

(١) رسائل التعليقات ص ١٠١ — ١٠٢

ذلك الجد الأعلى ، وليس لهم نظام يحفظ حقوق كل قبيلة من الاعتداء الواقع من قبيلة أخرى سوى الجامعة المذكورة . فانقسامهم إلى قبائل متعددة ، واعتزاز كل قبيلة منهم بنفسها ضد الأخرى أمر ضروري لا بدّ منه ولا محيص عنه . ولا ريب أن ذلك من أكبر الدواعي إلى أن يعرفوا أنسابهم ويحفظوها ويهتموا بها كل الاهتمام لا كما يقول المؤلف .

ثم إن ما أوجده عمر من تسجيل أسماء الجند بحسب القبائل لا يدل على أن ذلك لم يكن موجوداً من قبل ، بل يدل على عكسه إذْ لو لم تكن الأنساب هي التي تمتاز بها القبائل بعضها عن بعض لما رتب عمر الجند بحسب قبائلهم .

نعم نحن لا ننكر انّ علم الأنساب قد وقع فيه شيء من الخبط والخلط قبل الإسلام وبعده كالذي ذكره المؤلف عن الثعالبي من أن الاسكندر الكبير هو ابن اسحاق بن إبراهيم ، وإنه بهذا الاعتبار يكون ابن العم البعيد لمحمد ، ولكن هذا لا يستلزم أن علم الأنساب كله باطل لا أصل له »[1] .

ويعطينا هذا الكتاب صورة واضحة عن أسلوبه في نقد الكتب ، وتفنيد الآراء والرد عليها .

ولم يطبع الكتاب بنصه كما كتبه الرصافي بل حذف منه وأضيف إليه[2] .

٢ — على باب سجن أبي العلاء :

هذا الكتاب جزء من « رسائل التعليقات » كتبه سنة ١٩٤٢ م بعد أن

---

(١) رسائل التعليقات ص ١٢٧ — ١٢٩

(٢) ينظر كتاب الرصافي — ملحق به ص ١٣٣ وما بعدها .

قرأ كتاب « مع أبي العلاء في سجنه » للدكتور طه حسين . يقول: «جعلت هذا عنواناً لهذه الرسالة التي تحتوي على ملاحظات علقتها على أقوال الدكتور طه حسين في كتابه « مع أبي العلاء في سجنه » ، وألحقتها برسالة التعليقات السابقة »[1] .

وقد خالف الدكتور طه في كثير مما ذهب إليه من الآراء وناقشه فيها . يقول في المقدمة[2] : « هذا عنوان كتاب كتبه الدكتور طه حسين ونشره سنة ١٩٢٩ م غير أني لم أطلع عليه ، ولم أقرأه إلا في حزيران ١٩٤٢ ، وذلك أني كنت عند أحد أصدقائي فقال لي وقد جرى ذكر أبي العلاء : هل قرأت « مع أبي العلاء في سجنه » للدكتور طه حسين ؛ فقلت : لا ، ولا علم لي بكتاب هذا عنوانه . فقال : عندي نسخة منه ، فهل تحب أن تطالعه ؟ قلت : أمثلي يسأل هذا السؤال ، وأبو العلاء بلزومياته كان أستاذي ومرشدي إلى الحقيقة منذ أيام الصبا أيام كانت لزومياته قرآني الثاني أعبد الحقيقة بتلاوتها كما أعبد بتلاوة القرآن . وكيف لا أحب بل كيف لا أتهالك على مطالعة كتاب كتبه أبو العلاء الثاني عن أبي العلاء الأول . ومن ذا يكون أعرف بأبي العلاء من أخيه في العلم والأدب وفي أحد سجنيه ؟

عندئذ قام صاحبي فجاء بالكتاب وألقاه إليّ ، فابتهجت لأنه قد ألقي إليّ كتاب كريم . وها أنا أكتب هذه الكلمة وقد أتممت الكتاب مطالعة بتدبر وإمعان ، أكتبها معجباً به غير متعجب منه ؛ لأن الدكتور عوّدنا أن نراه من حين إلى آخر يغوص في لجج أبحاثه العلمية والأدبية فيخرج لنا منها درراً ثمينة ، وقد قيل : إذا عرف السبب بطل العجب .

---

(١) على باب سجن أبي العلاء ص ٤٢

(٢) كتب هذه المقدمة في ٢٨ حزيران ١٩٤٢ م .

على أن كلا من ثبوت إعجابى وانتفاء تعجبى لا يمنعنى من أن أخالف الدكتور فى بعض آرائه لأنى أحب أن أكون فى الرأى حراً وأن لا أكون مقلداً إلا فيما لا يناله إدراكى ولا تبلغه معرفتى ، عملا بما جاء فى الحديث : « استفت قلبك وإن أفتاك المفتون » .

على أن الدكتور لا تنتقص فضله المخالفة ، كما لا تزيده الموافقة خصوصاً إذا كنت لم أكتب ما كتبت إلا تحرياً للحقيقة مع احترامى لآرائه فى مثل هذه الأمور التى هو ابن بجدتها وأبو عذر الكلام عنها .

وها أنا أثبت ذلك للقارىء فى هذه الكراسة عسى أن يكون فيها ما يهدى إلى الصواب ، وينفع فى هذا الباب . وقد جعلت عنوانه « على باب سجن أبى العلاء »(١) .

وتحدث فى خاتمته عن كتاب « الفصول والغايات » للمعرى ، يقول : « هذا اسم كتاب لحكيم الشعراء وشاعر الحكماء أبى العلاء المعرى، وقد أتيح لى أن طالعت هذا الكتاب فعلقت عليه بعض الأقوال جرياً على عادتى فى مطالعة الكتب ، ولما اطلعت على كتاب « مع أبى العلاء فى سجنه » للدكتور طه حسين رأيته يتكلم فى آخر كتابه عن الفصول والغايات أيضاً كما يتكلم عن اللزوميات ، فأردت أن أتعقب الدكتور فى بعض ما يقوله عن « الفصول والغايات » أيضاً كما فعلت فى « اللزوميات » . وها أنا أثبت هنا ما عنّ لى فى ذلك من الآراء عسى أن تكون فيه فائدة للمطالعين »(٢) .

ومن أمثلة مخالفته للدكتور طه قوله : « أراد الدكتور أن يعلل هذا

---

(١) على باب سجن أبى العلاء ص ٤١ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق ص ٨٦ .

القيد الذى قيّد به أبو العلاء نفسه فى اللزوميات فقال فى مقاله : «وأول ما أواجهك به من ذلك وأنا أقدر أنك ستلقاه منكراً له ثائراً عليه هو أن اللزوميات ليست نتيجة العمل وإنما هى نتيجة الفراغ ، وليست نتيجة الجد والكد وإنما هى نتيجة العبث واللعب . وإن شئت فقل : إنها نتيجة عمل دعا إليه الفراغ ونتيجة جد جرّ إليه اللعب»[1] .

ثم أخذ الدكتور توضيحاً لذلك يتكلم عن طول المدة التى قضاها أبو العلاء وحيداً فى عزلته بلا جليس ولا أنيس ، ويطنب فى تفصيل ذلك وتعليله ليثبت أن ليس لأبى العلاء ما يملأ به فراغ أوقاته سوى هذا اللعب بالألفاظ والعبث بها على هذا النحو الذى أراد أن يشق به على نفسه كما قد شقّ عليها باعتزال الناس وترك الدنيا ولذاتها .

أما نحن فنقول : إنّ هذا القول من الدكتور مهما أيدته الأحوال والقرائن من حياة أبى العلاء فإنما هو ظن من الظنون التى لا تبلغ بصاحبها إلى علم اليقين،والظن قد ينقض بمثله أو بأقوى منه ، ولدينا نحن من الظن فى تعليل ذلك وتوضيحه ما هو أقوى من ظن الدكتور وأوسع ، وإليك بيان ذلك .

من المعلوم أن أبا العلاء كان لا يقرأ ولا يكتب كما صرح به الدكتور أيضاً فى كتابه ، فعلمه الغزير بمفردات اللغة وبسائر آدابها لم يأته إلا من طريق السماع فليس عنده للعلم بذلك مورد سواه . ومن البديهى أيضاً أن جميع ما قاله أو أملاه من منظوم ومنثور لم يصدر الا عن حافظته ، فليس له مصدر سواها ، اذ من البعيد كل البعد أنه كان عند استعماله مفردات اللغة فى منظومه أو منثوره يحضر قارئاً يقرأ له كتب اللغة ليأخذ منها ما يريد استعماله من الكلمات ، بل كان لا يرجع فى استعمالها الا الى حافظته

---

(١) مع أبى العلاء فى سجنه ص ١٠١ .

لا غير . وهذا يدل دلالة قاطعة على أن أبا العلاء كان من الحفظ بالمحل الأعلى الذى لا يدانيه مدان .

ثم نحن إذا نظرنا فيما تركه لنا أبو العلاء من منظوم ومنثور علمنا علم اليقين بأنه كان ذا علم غزير بمفردات اللغة وبسائر آدابها إلى حيث يستحق أن يعد الإمام الأوحد فيها بين زمانه ، كما أن هذه الآثار تدل أيضاً دلالة قاطعة على أنه كان ذا حافظة واسعة وذاكرة قوية شاملة وذكاء وقاد وفكر شاسع فعال .

وبالجملة إن هذه الآثار تدل بصراحة ووضوح على أنه كان ذا قدرة بيانية لا يعلو عليه فيها أحدٌ من أهل زمانه . ولا ريب أن أبا العلاء كان يعرف ما له من هذه القدرة ويشعر بها وبتفوقه على أقرانه فيها ، فلذا أراد أن يقول لأهل الفصاحة واللسن من أهل زمانه : أيها الناس إننى أقيد نفسى فى البيان بقيود تشق عليكم وأمشى مقيداً بها معكم فى طريق البيان الذى تسلكونه فأسبقكم وأنا مقيد ، وتعجزون عن اللحاق بى وأنتم مطاقون . وهكذا فعل فى اللزوميات فكان المجلى فى حلبة البيان وتركهم وراءه يخبون وهم بين المصلى والسكيت . فلماذا لا يجوز أن نقول بأن الذى حمل أبا العلاء على تقييد نفسه بهذه القيود هو هذا لا ما يقوله الدكتور من أنه أراد أن يملأ به فراغ أوقاته لاهياً لاعباً ؟.

فإن قيل : إن كان أبو العلاء قد فعل كل ذلك لإظهار تفوقه على أقرانه فى البيان فإن ذلك يدل على زهو وعجب منه لا مزيد عليهما ، ونحن لا نعلم شيئاً من ذلك فى أخلاق أبى العلاء بل كان أبعد الناس عن ذلك .

قلت : إنه لم يفعل ذلك تكبراً على أقرانه بل تهكما بهم وبما يدعون من شرف وفضل فى البيان ؛ وذلك لأن أبا العلاء كما كان يدل عليه شعره

فى اللزوميات يذم الناس ويمقت ما هم عليه من أحوال ويكذّب ما يدعونه من الفضل والشرف ولا يستثنى نفسه ولا يدّعى أنه خير منهم ، فكأنه أراد أن يقول لهم : إن كان ما تدعون من فضل وشرف قائماً بهذا البيان الذى فيه تتشدقون فأنا أقدركم عليه وأعلمكم بفنونه وأنا مع ذلك لا أدعى ما تدعون .

ثم أن هناك ما يدل على خلاف ما قاله الدكتور ، فمثلا ان الذى تركه لنا أبو العلاء من آثاره المقيدة بهذه القيود والتى هى محصول خمسين سنة من أيام عزلته — كما يقول الدكتور — كتابان :

أولهما : الفصول والغايات المنثورة التى لم يوجد منها اليوم سوى جزء يسير .

وثانيهما : ديوان اللزوميات من الشعر المنظوم .

على أنه لم يتقيد فى الفصول والغايات بلزوم ما لا يلزم فى أسجاعه كلها ، بل فى بعضها . وهذان الكتابان وإن كبرا لا يملآن فراغ أوقاته التى كانت خمسين سنة ، بل هذا الزمن الطويل يتسع بلا ريب لأكثر بكثير منهما ، خصوصاً بالنسبة إلى ما علمناه لأبى العلاء من قريحة فياضة ، وحفظ واسع ، وذكاء لامع ، وفكر فعال »[١].

طبع كتاب « على باب سجن أبى العلاء » فى بغداد سنة ١٩٤٦ م ، وقدم له الأستاذ محمد على الزرقا بمقدمة تحدث فيها عن الرصافى وآثاره ، وقد جاءت فى هذه المقدمة أخطاء صححها الأستاذ مصطفى على فى كتابه « الرصافى — صلتى به ، وصيته ، مؤلفاته »[٢].

---

(١) على باب سجن أبى العلاء ص ٤٧ — ٥١

(٢) ص ١٦٢ وما بعدها

ولم يطبع الكتاب كله ، لأن مديرية الدعاية العامة لم تسمح بنشر بعض فصوله وهي :

١ — أبو العلاء وقدرة الله .

٢ — هل رأى أبي العلاء في قدرة الله مصيب ؟

٣ — ملاحظات حول أبي العلاء وأقواله .

٤ — هل كان لأبي العلاء مذهب ؟

وهي تستغرق من الكتاب المخطوط بخط مؤلفه تسعاً وعشرين صفحة ، وتؤلف ثلاثة أخماس ما طبع من الكتاب . ثم أن الملحق الذي طبع في آخر الكتاب أضافته إليه دار الحكمة التي نشرته ، ولم يكن في أصل الكتاب المخطوط[١] .

٣ — عالم الذباب :

هذه الرسالة جزء من كتاب « رسائل التعليقات »[٢] طبعت في بغداد سنة ١٩٤٧ وكتب مقدمتها الأستاذ عبد الوهاب الأمين . وهي رد على رسالة « عالم الذباب » للدكتور فائق شاكر ، وقد تعرض فيها للحديث الذي يتضمن الأمر بغمس الذبابة إذا وقعت في الشراب أو في الطعام ؛ لأن في أحد جناحيها داءاً فهي تتقي به عند وقوعها في الشراب أو في الطعام ، وفي الجناح الثاني دواء .

---

(١) الرصافي — صلتي به ص ١٦٥

(٢) سماه الأستاذ محمود العبطة «عالم الحشرات» وقال عنه : « وهو من حلقات رسائل التعليقات كتبها أثر مطالعته كتاباً بهذا الاسم ترجمة الدكتور فائق شاكر » ، (تنظر جريدة البلاد العدد ٢٤٨٢ السنة السادسة عشرة ، الأحد ١ نيسان ١٩٤٥ م ٣ جمادى الأولى ١٣٦٤ هـ)

وتكلم الرصافى فى تعليقاته على اختلاف الروايات فى عبارة هذا الحديث، ومعنى غمس الذبابة فى الشراب أو الطعام . يقول : « يدعى الدكتور بأن المراد من الشفاء المذكور فى الحديث هو ما اكتشفه العلم فى هـذا العصر من البكتريوفاج التى فسرها بمفترسات الجراثيم ، وإذا كان المراد بالشفاء هو هذا فلننظر أين يوجد البـكتريوفاج من الذباب ، أهو فى أحد الجناحين أم فى كليهما، أم فى جسم الذبابة كله، أم فى قناتها الهضمية، أم فى ذراعيها ورجليها ؟

قال — حفظه الله — فى الفصل التاسع والصفحة (٥٢) : « إن الذباب المعروف بذباب البيوت يقع على البراز والمـواد القذرة ، وكل هذه مملوءة بالجراثيم المولدة للأمراض ، فاختيار الذباب لها يدل على أنه يأكل الجراثيم والبـكتريوفاج معاً ، فبأكله الجراثيم اجتمع فيه الداء وبحصول البـكتريوفاج فى جسمه اجتمع فيه الشفاء » .

إن المفهوم بصراحة من عبارة الدكتور هذه إن البـكتريوفاج يوجد فى جسم الذبابة ، ولم يخص به عضواً دون آخر ، ولما كان الجسم يشمل الجناحين جاز أن يقال بأنه موجود فى الجناحين أيضاً . (ولا ننس أن عبارة الحديث تخص به أحد الجناحين دون الآخر) .

ويفهم أيضاً ضمناً من عبارة الدكتور أن البـكتريوفاج يوجد فى القناة الهضمية من الذبابة ، لأنه قال بأنها تأكله مع الجراثيم المضرة أيضاً . وتتضمن عبارته أيضاً أن البـكتريوفاج يوجد فى رجلى الذبابة وفى يديها ؛ لأنه قال : « تقع على البراز » . ولا شك أن يديها ورجليها ترتطمان فى البراز فتعلق بهما الجراثيم المضرة والبـكتريوفاج معاً . فمن هـــذه العبارة نفهم صراحة وضمناً أن البـكتريوفاج يوجد فى جسم الذبابة كله حتى الجناحين[1] » .

---

(١) عالم الذباب ص ١٤

وينتهى الى أن الدكتور فائق شاكر يرمى الـكلام على عواهنه رميا .

ويرى الأستاذ مصطفى على أن الرسالة شوهت فى الطبع ووقعت فيها أخطاء كثيرة لو وقعت فى كتاب كبير لشوهته . فمن تلك الأغلاط ما وقعت فى ترتيب قسم من صفحاتها ، ومنها سقوط كلمات وحروف ، ومنها زيادة كلمات وحروف ، ومنها أغلاط عامة(١) .

تعليقات أخرى :

هذه رسائل الرصافى فى التعليقات ، وله فى « الرسالة العراقية »(٢) تعليق على رسالة « التقاليدالإسلامية والمبادىء النازية » لنجاتى صدقى، وهى من الرسائل التى نشرتها السفارة البريطانية فى بغداد ووزعتها فى سبيل الدعاية البريطانية مجاناً على الناس . يقول عنها : « وقفت على هذه الرسالة فرأيتها تحتوى على رزالة فى سفالة وفسق عن دناءة وجهالة . وقد اشمأزت نفسى من وقاحة كاتبها أى اشمئزاز فرأيت أن أعلق عليها بعض تعليقات ترذلها وتبين للناس زيفها عسى أن ينتفع به من يعرض عليه من أبناء الشرق عامة والمسلمين خاصة . وقد أثبتُّ هذه التعليقات فى هذه الرسالة العراقية ؛ لأنها تشتمل على مباحث لها صلة بالعراق » .

وله فى « الرسالة العراقية(٣) » أيضاً تعليق على رسالة « حقيقة الإمبراطورية البريطانية » التى نشرتها السفارة البريطانية فى بغداد . يقول عنها : « نشرت سفارة بريطانية فى بغداد فى سبيل الدعاية البريطانية رسالة صغيرة ذات ست

---

(١) ينظر : الرصافى — صلتى به ص ١٦٧ — ١٦٨

(٢) الجزء الثالث

(٣) الجزء الثالث والجزء الرابع

عشرة صفحة وربما كانت مترجمة عن الانكليزية سوى أنها مغفلة من التوقيع فما أدرى من كاتبها ؟

وقد حصلت لى نسخة من هذه الرسالة فقرأتها بعجب وإعجاب . أما إعجابى فيختص ببريطانية لتنازلها فى هذه الرسالة عن امبراطوريتها الواسعة المعظمة ، وأما عجبي فهو ما قرأته فى عباراتها من التمويهات والمغالطات التى لم أرَ مثلها فى عبارات السفسطائيين ولا فى مجادلات المعندين واللا أدريين .

إن الذى يقرأ هذه الرسالة يجب أن يقول إذا كان مؤمناً بصحة أقوالها إن المستعمرات التى تستغلها دول الغرب لا وجود لها فى الدنيا ، وإنما هى وهمٌ فى أوهام الناس الذين لا يعرفون حقائق الأمور ، وأن دولة بريطانية لا تملك إلا جزيرتها فقط ، وأن ملك بريطانية إنما هو ملك على بريطانية فحسب ، وأن كونه ملكا على الهند مثلا إنما هو حاصل بقطع النظر عن كونه ملكا على بريطانية ، إلى غير ذلك من الأقوال المموهة التى يكذبها الواقع ويسخر منها العقل الصريح .

وعندما قرأت هذه الرسالة رأيت أن أعلق عليها ما عنّ لى وتيسر من الكلام ، لا إظهاراً لزيفها بل إظهاراً لعجبي منها ؛ لأن زيفها ظاهر لا يخفى على أحد من البله » .

الفصل السادس

المقالات

للرصافى مقالات لغوية وأدبية وسياسية نشرها فى الصحف والمجلات وأهمها :

١ — جمودنا فى اللغة :

وهى محاضرة ألقاها فى المدرسة الخضرية بالموصل فى ١٤ تشرين الأول سنة ١٩٢١م ، وقد وصف مراسل جريدة «العراق»[١] فى الموصل المحاضرة بقوله: «اجتمع لفيف من أساتذة المدارس وقسم من أكابر وجهائها وأدبائها وعدد من تلامذة المدارس فى موعد مضروب فى المدرسة الخضرية لاستماع محاضرة يلقيها حضرة الشاعر الكبير معروف أفندى الرصافى، وكان السكوت سائداً فتفضل حضرة الأستاذ بإلقاء محاضرته» .

وألقاها فى بغداد على المدرسين سنة ١٩٢٢ م ، ونشرها فى جريدة «الأمل»[٢] واتخذها مقدمة لكتابه «الآلة والأداة» .

٢ — اللغة العربية — رأى جديد فى الاشتقاق والتعريب :

وهى بحث نشره فى مجلة «الحرية»[٣] للأستاذ رفائيل بطى ، وكان قد ألقاه محاضرة فى الموصل وبغداد بعنوان «جمودنا فى اللغة» وهو البحث السابق .

---

(١) تنظر جريدة العراق العدد ٤٢٥ (السنة الثانية ، السبت ١٥ تشرين الأول ١٩٢١م، ١٢ صفر ١٣٤٠ هـ) .

(٢) الأعداد : ٦٠ ، ٦١ ، ٦٦ ، ٦٧ ، الصادرة بين ١١—١٩ كانون الأول ١٩٢٢م

(٣) الجزء الثانى ص ٤٩٣ وما بعدها (السنة الثانية مارت ١٩٢٦ م)

٣ — الأمثال العامية :

وهى جزء من كتابه «دفع المراق فى كلام أهل العراق» نشرها فى جريدة «أ . حبزبوز[1]» .

٤ — نظرة انتقادية فى الأدب :

وهى محاضرة ألقاها على المدرسين فى صيف ١٩٢٢م ونشرها فى جريدة «الأمل»[2] ، وفيها تحدث عن القصيدة التى ادعاها سبعون شاعراً ، والتى مطلعها :

صاح فى العاشقين يالكنانه   رَشاً فى الجفون منه كنانه

وتكلم على لامية ابن الوردى ، وأوضح زيف ماذهب إليه النقاد فى استحسانها ، وعلى أبيات أبى العتاهية فى مدح الخليفة المنصور وتهنئته بالخلافة ، وختمها بكلامه على قول الابيوردى :

قالوا : تركت الشعر ، قلت : ضرورة
باب البواعث والدواعى مُغْلقُ
خلت الديار فلا كريم يُرتجى   منه النوال ولا مليحٌ يُعشقُ

٥ — نظرة إجمالية فى حياة المتنبى :

وهى محاضرة ألقاها على المدرسين فى صيف ١٩٢٢ ببغداد ، ونشرها فى جريدته «الأمل»[3] ، وطبعت فى بغداد سنة ١٩٥٩م . وقد تحدث فى هذه

---

(١) الأعداد : ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٢ ، الصادرة بين ١٢ كانون الثانى و ٢٣ شباط سنة ١٩٣٢ م)

(٢) الأعداد : ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٦ ، ٣٧ ، الصادرة بين ٨ — ١٣ تشرين الثانى ١٩٢٣ م .

(٣) الأعداد : ٨ ، ٩ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٢٦ ، الصادرة بين ٩ — ٣١ تشرين الأول ١٩٢٣ م .

المحاضرة عن حياة المتنبي وسلوكه مع الناس والأمراء ، وأوضح رأيه فيه ، وقارنه بأبي العلاء المعري .

٦ — طبقات الشعراء :

وهي محاضرة ألقاها على المدرسين في صيف ١٩٢٢م ببغداد، ونشرها في جريدة «الأمل»(١) ، وضمها إلى كتابه «دروس في تأريخ آداب اللغة العربية»(٢). وقد أبدى رأيه في تصنيف الشعراء إلى طبقات ، وأوضح مايذهب إليه في هذا التصنيف .

٧ — الشعر :

وهو بحث تحدث فيه عن تعريف الشعر ومبدئه ونشأته ، ودور الوزن فيه ، وتكلم على عامل الاتفاق والمصادفة وعامل الغناء والرقص في الوزن ، وأشار إلى أول مولود من الشعر ، وانتهى إلى أن السجع حلقة من حلقات اتصال بين النظم والنثر ، وأن الوزن متولد من السجع .

ونشر البحث في كتاب «سحر الشعر»(٣) للأستاذ رفائيل بطي، ونشره الرصافي في كتابه «الأدب العربي»(٤) ، وفي كتابه «دروس في تأريخ آداب اللغة العربية»(٥) .

٨ — الشعر والشعراء :

وهو حديث أجراه معه الأستاذ رفائيل بطي، ونشره في مجلة «الحرية»(٦)

---

(١) الأعداد : ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، الصادرة في ٣ ، ٤ ، ٥ كانون الأول ١٩٢٣ م

(٢) ص ٥٧ — ٦٨ (الطبعة الأولى) .

(٣) ص ٨٤ — ٩٦ .

(٤) ص ٨٠ — ٩٤ (الطبعة الأولى) .

(٥) ص ٤٩ — ٥٦ .

(٦) العدد الأول ص ٦—٧ (السنة الثانية تموز ١٩٢٥ م) .

وقد تكلم فيه على الشعر وتطور شاعريته ، ومن ولع به من الشعراء الأقدمين ، وأوضح رأيه فى الشعر الجاهلى والإسلامى والعصرى وشعراء الجيل ، ومستقبل الشعر العربى ، والشعر المنثور والشعر المترجم .

٩ — حديث فى الشعر :

أجراه معه الأستاذ أسعد حنا مندوب « المجلة الجديدة » للأستاذ سلامة موسى ونشره فيها سنة ١٩٣٦م . وقد تكلم فيه على اتجاهات الشعر الحديث ومقام الشعر ومكانه من الفنون الجميلة وإمارة الشعر(١) .

١٠ — افتتاحية جريدة الأمل :

شرح فيها خطة جريدة « الأمل »(٢) وموقفه من الانكليز .

١١ — إلى أبناء بلادى :

وهو البيان الذى أعلنه للناس مرشحا نفسه للنيابة فى المجلس التأسيسى ، ونشره فى جريدة « الاستقلال »(٣) الأستاذ عبد الغفور البدرى . وقد أحدث هذا البيان دويا ، وكتبت جريدة « الاستقلال »(٤) افتتاحية تطالب فيها المرشحين أن يكونوا كالرصافى جرأة وصراحة .

١٢ — معاهدة ١٩٣٠

وهو الخطاب الذى ألقاه فى مجلس النواب يوم الأحد ١٦ تشرين

---

(١) المجلة الجديدة العدد الرابع ص ٦١ — ٦٥ (السنة الخامسة أبريل ١٩٣٦ م) .

(٢) العدد الأول (الاثنين ١ تشرين الأول ١٩٢٣ م ٢٠ صفر ١٣٤٢ هـ)

(٣) العدد ١٩٣ (الجمعة ٣ آب ١٩٢٣ م ١٩ ذو الحجة ١٣٤١ هـ) .

(٤) العدد ١٩٤ (الأحد ٥ آب ١٩٢٣ م ، ٢١ ذو الحجة ١٣٤١ هـ) .

الثانى ١٩٣٠ م (٢٥ جمادى الثانية ١٣٤٩ هـ) عند تصديق معاهدة ١٩٣٠ م ، وفيه ندد بالحكومة وهاجم المعاهدة هجوماً عنيفاً .

نشرته جريدة « نداء الشعب »(١) ـ البلاد ـ مع خطب أقطاب المعارضة .

١٣ — مقالات

نشر الرصافى مقالات فى جريدة الأمل وغيرها من الصحف ، ونشر تعقيبات وردوداً ، وكلمات أدخل بعضها فى كتبه ورسائله ، وظل البعض الآخر فى تضاعيف المجلات وثنايا الصحف . ولعل أهم كلماته « كلمة إلى الخصوم »(٢) التى رد بها على ما أثير حوله عندما صدر كتابه « رسائل التعليقات » ، ومقاله الذى ردّ فيه ما كتبه الأستاذ محمد بهجة الأثرى(٣) ، تعليقاً على قصيدة « فى معرض نهضتنا النسائية » للرصافى .

١٤ — رسائل :

وهى كثيرة لا يمكن حصرها ، وقد أرسلها إلى أصدقائه من السياسيين والأدباء كالأستاذ كامل الجادرجى وعبد اللطيف المنديل والأستاذ طه الراوى والأستاذ نعمان ماهر الكنعانى والأستاذ سعيد البدرى وغيرهم .

ولعل أحد أصدقائه الذين عاصروه أو عاشوا سنواته الأخيرة يجمع هذه الرسائل التى تلقى ضوءاً على حياته وتوضح جوانب غامضة من سيرته ، وتقدّم صورة جلية عن العصر الذى عاش فيه .

• • •

(١) العدد ٣١٠ (السنة الثانية الجمعة ٢١ تشرين الثانى ١٩٣٠ م ، ٣٠ جمادى الثانية ١٣٤٩ هـ) .

(٢) تنظر فى : الرصافى فى أعوامه الأخيرة ص ٣٥ .

(٣) جريدة الأمل العدد ٦٣ (١٥ كانون الأول ١٩٢٣ م) .

هذه آثار الرصافي الفكرية ولعلنا استطعنا أن نكشف عنها وإن كان حصرها صعباً ، ولا سيما مقالاته ونثره ، وقد أوضح الأستاذ مصطفى على صعوبة ذلك بقوله : « كتب الرصافي كثيراً من النثر - غير كتبه - فضاع ؛ لأنه ما اعتاد أن يجمعه ويحتفظ به ، مما جعل الإحاطة به مستحيلة على من يرومها »(١) .

وقد وقفنا عند ماذكرناه من مقالات الرصافي ونثره خوفاً من أن نقع في الخلط والتزوير كما وقع بعض الباحثين .

(١) الرصافي — صلتي به ص ٨٥ .

الباب الثالث

آراؤه اللغويّة

الفصل الأول

النزعة اللغوية

اهتمامه باللغة :

اتجه الرصافى فى حياته العلمية الأولى إلى دراسة اللغة العربية على شيوخ عصره الكبار كالمرحوم محمود شكرى الألوسى الذى درس عليه مبادىء اللغة العربية والفروع ، يقول : « كنت أدرس العربية على أستاذى المرحوم محمود شكرى الآلوسى وأنا إذ ذاك دون العشرين حتى حفظت ألفية ابن مالك وقرأت لها عدة شروح ، وكنت مولعاً بحفظ الشواهد التى يوردها النحويون فى كتبهم وإذا مرّ بى فى أثناء الدرس بيت من الشعر راجعتُ فيه الشروح والحواشى فعلمت مَنْ قائله وماذا قبله أو بعده من الأبيات فحفظتها . وكنت قوى الحافظة حتى حفظت شيئاً كثيراً من هذا القبيل بحيث أن استاذى كان يلقبنى بالشواهد ، وكنت أشعر بميـــل فى نفسى شديد إلى الشعر لشدة تأثيره فىَّ(1) » .

ودرس كتب النحو المعروفة ، وأول كتاب درسه الأجرومية ثم قطر الندى وألفية ابن مالك ومغنى اللبيب وغيرها من كتب الشروح ، يقول متحدثاً عن مدرسة الحيدرخانة : « وأول كتاب درسته فى هذه المدرسة هو كتاب « الأجرومية » ، وقد أحالنى الأستاذ شكرى إلى تلميذ متقدم لتدريس هذا الكتاب . وبعد اتمام هذا الكتاب كان يوجد شرح يسمى « شرح خالد » فهذا أيضاً بدأت بدراسته على ذلك التلميذ ــ الذى لم أذكر اسمه ــ .

---

(1) مجلة الحرية العدد الأول ص ٧ ــ ٨ (السنة الثانية تموز ١٩٢٥م) .

وبعد مدة قليلة أخذ شكرى أفندى نفسه يدرسنى مباشرة ، ولما أتممت هذا الكتاب صرت أشعر أن شكرى أفندى أخذ يعتنى بى اعتناءاً خاصاً لما صرت أقرأ عليه كتاب « قطر الندى » لابن هشام وهذا الكتاب فيه متن وشرح ، وكان التلميذ الذى يدرسه يجب عليه أن يحفظ متنه وكنت أحفظ متن هذا الكتاب . ولم أتعلم مبادىء العربية إلا عن طريق هذا الكتاب ، وإنى أرى الآن أنّ هذا الكتاب هو أحسن كتاب يبدأ به لتعليم النحو وترك الأجرومية . فصار شكرى أفندى الآلوسى يستبقينى فيؤخرنى عن بقيـــة التلاميذ وذلك لغاية التطويل معى فى الدرس والاعتناء بى اعتناءاً خاصاً ، وكان قبل البدء فى الدرس يأمرنى بقراءة الدرس السابق على الحفظ ، وكان يعتنى بتفهيمى رغم كونه عصبى المزاج ، وقد كان يكرر علىّ الدرس عندما يستعصى علىّ فهمه ، ولما انتهيت من هذا الكتاب كانت العادة الجارية فى المدارس هو أن يقرأوا « شرح الفاكهى » لمتن « قطر الندى » ، وبعد الفاكهى يدرسون « ألفية ابن مالك » ، أما أنا فلم أتقيد بذلك بل بدأت رأساً بألفية ابن مالك وكان ذلك بموافقة شكرى أفندى ، وكان يتشدد علىّ فى حفظ الألفية أكثر من « قطر الندى » ، وكنت إذا لم أحفظ الدرس جيداً يمتنع عن تدريسى فى ذلك اليوم . وكان شكرى أفندى يعطينى بعض كتب الشواهد فى أثناء درس الألفية للمطالعة ولفهم الشواهد التى ترد فى السيوطى وبهذا السبب صرت أحفظ أنا من الشعر العربى شيئاً بهذه الواسطة حتى أن شكرى أفندى قال مرة وهو يدرس أحد التلاميذ وصادف أن تكلم عن بيت من الشعر من أبيات الشواهد فاتفق أن سمانى شخصياً « الشواهد » ، وكان يقصد بذلك اتقانى لهذه الأشعار إذ كان قد سألنى عن بيت من الشعر جاء فى الشواهد وعما قبله من أبيات وعما بعده وعن قائله ، فأجبت جواباً صحيحاً ، وكان هذا الجدُّ منى فى الدرس يشجع الأستاذ الآلوسى فى مثابرته على الاعتناء بى ، وقد أصبح معجباً بى ، وهذا ما كان يشجعنى على مثابرة

الدرس والتذوق به . وما كدت أصل إلى حفظ نصف الألفية حتى صرت أقلد أبيات الألفية فأنظم أبياتاً من الرجز مثلها » .

ويقول بعد ذلك : « وقبل أن أنتهى من دراسة الألفية باشرت بدراسة كتاب « مغنى اللبيب » على الشيخ عباس القصاب فى جامع الشيخ صندل فى جانب الكرخ بينما كنت أواصل الدرس فى الوقت عينه لدى الأستاذ شكرى أفندى الآلوسى وهو كتاب السيوطى(١) » .

وإلى تأثره بالأستاذ الآلوسى أشار فى قصيدته «واشيخاه» التى رثاه بها ، قائلا:

لأشكرنك يا «شكرى» مدى عمرى وأبكينك إبكاراً وآصالا
فأنت أنت الذى لقنتنى حكما بها اكتسيت من الآداب سربالا
أوجرتنى من فنون العلم أدوية شفت من الجهل داءاً كان قتّالا
فصحّ عقلى وقبلا كنتُ مشتكياً من علةِ الجهل أوجاعاً وأوجالا
أنا المقصر عن نعماك أشكرها ولو ملأتُ عليك الدهر إعوالا
فاغفر عليك سلام الله ما طلعت شمسٌ وماضاء بدرالليل أوْ لالا(٢)

وكان لهذه الثقافة اللغوية والنحوية أثر فى شعره ، ونجد عبارات بعض الشواهد والشعر القديم بادية فيه . ففى قصيدته « السجن فى بغداد » لمحة من قصيدة « طرفة بن العبد » ، يقول :

سكنّا ولم يسكن حراكُ التبدد مواطن فيها اليوم أيمن من غد
عفا رسم مغنى العز منها كما عفت « لخولة أطلال ببرقة ثهمد »
بلاد أناخ الذل فيها بكلكل على كل مفتول السبالين أصيدِ

---

(١) مجلة الثقافة الجديدة العدد ١ ص ١١ وما بعدها (نيسان ١٩٥٤ م) ، وشعراء العراق فى القرن العشرين ج ١ ص ٦٢ وما بعدها .

(٢) الديوان ص ٣٠٥ .

ويقول :

وهل أنا إلا من أولئك إن مشوا مشيت ، وإن يقعد أولئك أقعد

وهذا بيت دريد بن الصمة :

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشدِ

ثم يقول بعد ذلك ذاكراً شطر بيت طرفة :

وجوه عليها للشحوب ملامحٌ « تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد »

ويقول في قصيدته « بعد النزوح » :

أنا ابن دجـــلة معروفاً بها أدبي وإن يك الماء منها ليس يرويني

وهذا البيت قريب من بيت سالم بن دارة :

أنا ابن دارة معروفاً بهـــا نسبي وهل بدارة ياللناس من عار[1]

وشهد له بتضلعه في اللغة ومعرفة مداخلها علماء عصره كالأستاذ الجليل المرحوم طه الراوي الذي يقول : « وإني أسجل هنا أنَّ شاعرنا الراحل كان من أوسع الأدباء معرفة في اللغة العربية ، ولا أذكر أنني تذاكرت معه في موضوع منها إلا وجدته يستحضر الشيء الكثير مع الضبط الكامل والدقة في معرفة الخصائص والمزايا لكل كلمة يضبطها ولو قلت إنه كان يتمكن من الإجابة في أكثر اللغة التي تضمها المعاجم المطبوعة اليوم لم أبعد عن الحقيقة قيد شعرة ، مع أنه لم يملك من معاجمها على ما أعلم سوى كتاب « أقرب الموارد » . ولعل أكثر ما يحفظه منها يرجع إلى حفظه لشعر الشواهد ، وهو كما يعلم القارىء من أكثر الشعر انطواءاً على غريب اللغة وفصيحها .

(١) الديوان ص٤٢ ، ٤٢٦ ، والنقد الأدبي الحديث في العراق ص ٤٠١ ، ولغة الشعر بين جيلين ص ٧٢ ، ٧٦ ، ومجلة الثقافة الجديدة العدد الثامن ص ٢٦ (١٩٥٩ م) .

وكذلك كان متقناً لقواعد الصرف والنحو إتقاناً عجيباً ، وكثيراً ما كنا نتذاكر فى بعض موضوعات هـــذا العلم فأجده نافذاً إلى أعماق الموضوع محيطاً بجميع أطرافه . ولو قلت لك : إننى لم ألـق فى عمرى أديباً أوسع معرفة باللغة وخصائص مفرداتها ، وبالصرف والنحو وما يتصل بقواعدهما من قيود وشروط ، لم أعْـدُ الواقع »[1] .

وهذا يفسر لنا اعتناء الرصافى بلغـة شعره والاهتمام بالتعبير العربى الفصيح الذى رسمه البلغاء من العرب فى عصورهم الذهبية ، يقول فى قصيدته « فى القطار »[2] :

تذكرتُ فى أوطانىَ الأهل والصحبا ... فأرسلتُ دمعاً فاض وابلُه سكبا
وبت طريد النوم أختلس الكرى ... بشاخص طرف فى الدجى يرقب الشهبا
كئيب كأنّ الدهر لم يلقَ غيره ... عـــدواً فآلى لن يهادنه حربا
يقل كروبا بعضها فوق بعضها ... إذا ما رمى كرباً رأى تحته كربا
وإنى إذا ما الدهر جـرّ جريرة ... لتـأنف نفسى أن أكلـه عتْـبا
وقد عـــلم القوم الكرام بأننى ... غلام على حب المـكارم قد شبّا
وإنى أخو عزم إذا ما انتضيته ... نبا كل عضب عنه أو أنـكر الضربا
وإنى أعاف المـاء فى صفوة القذى ... وإن كان فى أحواضه بارداً عذبا
ولـكنّ لى فى موقف الشوق عبرةً ... تساقط من أجفانى اللؤلؤ الرطبا
إذا ضربت أوتار قلبي شجونُـه ... بَدَت نغماتٍ ترقص الدمع منصبّـا[2]

هذه الأبيات البليغة ذات السبك العربى الأصيل والنظم الرائق تذكرنا

---

(١) مجلة عالم الغد العدد ٩ ص ٩ (١ نيسان ١٩٤٥ م) ، وذكرى الرصافى للرشودى ص ٩ — ١٠

(٢) الديوان ص ٢٠٤

بالشعر العربى فى عصر ازدهاره وبالحكم البالغة التى كان المتنبى ينثرها فى قصائده ، فخوراً بمحامده وعـــزة نفسه التى أبت أن تشرب الماء العذب مشوباً بالذل والهوان . إن الرصافى يسلك هذا المسلك فى كثير من قصائده ، ولا سيما فى ديوانه الأول الذى طبعه سنة (١٩١٠ م) فى بيروت، وهذه الأبيات من ذلك الديوان الذى يمثل ارتباط الرصافى الوثيق بالتراث العربى وأصالته اللغوية ونقاء ألفاظه .

وقد انتبه الدارسون إلى هـــذه الظاهرة فى شعره ، يقول الدكتور إبراهيم السامرائى : « واللغة عند الرصافى قديمة حتى يخيل إليك أنك تقرأ لشاعر من شعراء العربية فى عصورها المتقدمة ، فهى متينة صلبة تغرس أصولها فى الغريب من اللفظ الذى يعسر فهمه ويدق تناوله . ولنسمعه يقول فى قصيدته « أنا والشعر »(١) :

وهل يخطر الشعر الركيك بخاطرى   إذا كان فى طوعى اختشابُ متينه(٢)

ويقول متحدثاً عن الغريب الذى عرفه فى دراسته الأولى وشغف به : « وقد تضطره القافية إلى أن يأتى بالغريب الذى لا يتسق وسهولته المعروفة فى طائفة كبيرة من قصائده . ففى مطلع قصـــيدته « ضلال التأريخ » (٣) يستعمل كلمة « أولق » ويريد بها الجنون ، ولا نرى أنها من مألوف العربية، وهذا من جناية القافية فى الشعر العربى :

أقول وطرفى فى المحـال محدّق   أبالدهر مَسٌ أم بأهليه أولق ؟

وتضطره الحاء أن يأتى بـ « المجاليح » لسـنين القحط مثلا فى قصيدته « من ويلات الحرب »(٤) :

(١) الديوان ص ١٩٦ .
(٢) مجلة الثقافة الجديدة العدد ٨ ص ٢٥ (١٩٥٩ م) .
(٣) الديوان ص ٣٥٦
(٤) الديوان ص ٢١٣

والحرب أغنت أناساً غنية عجباً وآخـــرين رمتهم بالمجاليح[1]

هذه الأبيات وغيرها من شعره تدل دلالة واضحة على ثقافته اللغوية واطلاعه الواسع على أدبها العربى فى عصوره القديمة ، وهو يمثل جانباً من جوانب ألفاظه وأسلوبه ؛ لأنه لم يسر هذه السيرة فى شعره كله ، بل لآن فى بعضها واقترب من العامية فى البعض الآخر ، يقول فى وصف شعره :

وأرسلته نظماً يروق انسجامه فيحسبه المصغى لإنشاده نثرا[2]

ويقول :

فإنىَ ما أطلعتُ شمسَ حقيقةٍ لمستمع إلا لتغربَ فى السَّمع
ولست أبالى بعد إفهام سامعى أكان بخفض اللفظ ماقلت أم رفع[3]

وللرصافى كثير من القصائد التى ينطبق عليها قوله : « فيحسبه المصغى لإنشاده نثرا » .

أما اقترابه من العامية فتمثله قصيدته « إلى صاحبة الحياة الجديدة »[4] يقول فيها :

هلمّ يا قـــوم نسعى إلى حيـاة سعيـــده
فإن فيـــنا افتقاراً إلى أمـــور عديده
إلى اتحـاد وســـعى إلى المسـاعى المفيده

---

(١) مجلة الثقافة الجديدة العدد ٨ ص ٢٨ (١٩٠٩ م)

(٢) الديوان ص ٥١

(٣) الديوان ص ٣٤٤

(٤) الديوان ص ١٥٦

ويقول :

فكل ما نبتغيه هو الحياة الجديده
هو الذى تدّعيه حبوبة فى الجريده
تلك الصحيفة تأتى لنا بكل شريده
تلك المجلة تحوى من كل عقد فريده

وقصيدته « يا محب الشرق »[1] ، يقول فيها :

يا محب الشرق أهلا بك يا مستر كراين
مرحباً بالزائر المشهور فى كل المدائن

ويقول :

جئتَ يا مستر كراين فانظر الشرق وعاين
فهو للغرب أسيرٌ أسر مديون لدائن
إن هذا الشرق والغرب لمغبونٌ وغابن

ويقول :

وإذا تسأل عمّا هو فى بغداد كائن
فهو حكم مشرقىّ الضرع ، غربىّ الملابن
وطنى الإسم لكن إنكليزى الشناشن
عربى أعجمى معرب اللهجة راطن
فيه للإيعاز من لندنَ بالأمر مكامن
هو ذو وجهين وجه ظاهر يتبع باطن
قد ملكنا كلّ شىء نحن فى الظاهر لكن

(١) الديوان ص ٤٣٩

نحن في الباطل لا نملك تحريكاً لساكن
أفهذا جائز في الغـــرب يا مستر كراين

أين هذه الأبيات من أبياته التي نقلناها من قصيدته « في القطار » والتي تمثل الأصالة العربية في الأسلوب ، والجزالة في نظم العبارات ، وأين هي من قوله في قصيدته « في المعهد العلمي »(١) :

لعمرك إن الحـــر لا يتقيد ألا فليقل ما شاء فيَّ المفندُ
إذا أنا قصدتُ القصيد فليس لي به غير تبيانِ الحقيقة مقصدُ
نشدت بشعري مطلباً عزّ نيله وإن هان عند الشعر ما كنت أنشد
فللنجم بعدٌ دون ما أنا ناشدٌ وللدر قدْر دون ما أنا منشدُ
وكم جنبتني عزة النفس منهلا يطيب به لكن من الذل موردُ
وما أنا إلا شاعر ذو لبانةٍ أنوح بها حيناً وحيناً أغرد
ولي بين شدقيَّ الهريتين صارم يُسلّ على الأيام طوراً ويغمد
ولا عجب إن عابني الشاعر الذي يقول سخيفَ الشعر وهو مقلد
فإن ابنَ بُرْدٍ وهو أكبر شاعر تنقصه في الشعر حمادُ عجردُ
تعوّدت تصريحي بكل حقيقة والمرء من دنياه ما يتعود

يقول المرحوم الشيخ عبد القادر المغربي معلقاً على هذه الأبيات وهو يتحدث عن أسلوب الرصافي : « فهو في كثير من مواقفه يستخرج المعاني الدقيقة ويعبر عنها بألفاظ جزلة وأسلوب فخم ، ويضمن شعره الأمثال والحكم ، والتلاميح الى قضايا العلم والفلسفة والتأريخ . وكثيراً ما سلك طريق التهويل والغلو في الوصف ، حتى ليخيل اليك أنه المتنبي لولا كلمات أو تعابير تجدها أحياناً في شعره تنبهك الى أنك انما تقرأ شعراً للمعاصرين، وهذا كقوله : لعمرك ان الحر لا يتقيد ... فقوله : « تبيان الحقيقة »

(١) الديوان ص ٧٤

و « تصريحي بكل حقيقة » و « وهو مقلد » تعابير لولاها لحسبنا قائل الشعر متنبي القرن الرابع لا الرابع عشر »[١] .

بحثه في اللغة :

اندفع الرصافي نحو اللغة يبحث فيها ويوضح خصائصها وسبل تنميتها ، لأنها مقياس رقي الأمة . وهذه قضية لا يمتري فيها عاقل وهي تصدق على لغات جميع الأمم الحاضرة والغابرة ، يقول : « فإذا أردت أن تعرف مبلغ كل أمة من العلم والصناعة والتجارة والسياسة وغير ذلك من أحوالها الاجتماعية فانظر في لغتها فإنك تعرف بها مبلغها من ذلك كله ؛ وذلك لأن اللغة تابعة في أطوارها أهلها المتكلمين بها . فإذا ارتقى أهلها في العلوم والفنون كانت لغتهم بالضرورة مشتملة على مصطلحات تلك العلوم ، واذا كان أهلها راقين في الصنائع كانت لغتهم مشتملة على كل ما يتعلق بتلك الصنائع من الكلمات .

وبالجملة فهي تلو حالتهم الاجتماعية وتبيع ارتقائهم في مدارج المدنية ، فأينما تقدموا تقدمت معهم ، وحيثما تأخروا تأخرت معهم »[٢] .

ان اللغة ظاهرة اجتماعية ، وهي تابعة للمتكلمين بها في جميع أطوارهم وأحوالهم المدنية والاجتماعية والدينية والسياسية والعلمية ، وفي أخلاقهم وعاداتهم ، وفي عقليتهم وطرز تفكيرهم[٣] . فكان لا بدّ أن يعنى باللغة العربية ويسعى الى تطويرها وتنميتها لتواكب حضارة العصر الحديث ، « فليس من الموافق لروح هذا العصر أن لا ننشد الشعر فيه الا بلغة

---

(١) مقدمة الديوان ص (و) .

(٢) جريدة الأمل العدد ٦٠ (١١ كانون الأول ١٩٢٣ م) ، ومجلة الحرية الجزء التاسع ص ٤٩٣ (السنة الثانية مارت ١٩٢٦ م) .

(٣) دروس في تأريخ اداب اللغة العربية ص ٤

امرىء القيس . ولا بد للشعر وللغة قبل الشعر من تقمصهما روح العصر وسيرهما مع الزمان وتطورهما بأطواره . وليست اللغة سوى واسطة نعرب بها عن أفكارنا ، ونترجم عن حياتنا ونعبر عن حاجاتنا ، ولا ريب أن أفكارنا وحياتنا وحاجاتنا اليوم غيرها فى زمن امرىء القيس ، فكيف نتقيد بلغته وهى قاصرة عن هذه الأفكار ، وهذه الحياة ، وهذه الحاجات . فيجب أن ننتفض من هذا الجمود وأن ننهض باللغة الى مستوى تكون فيه صالحة لأفكارنا . منطبقة على حياتنا العصرية ، كافية لحاجاتنا اليومية ، والا فعلى اللغة السلام »[1] .

وقد أولى اللغة عناية كبيرة ودرسها فى أدوارها المختلفة ، وقسمها قسمين كبيرين : الدور الجاهلى والدور الاسلامى ، وقسم الدور الاسلامى على أدوار مختلفة يمتاز بعضها عن بعض بمميزات خاصة به .

وخلاصة هذه الدراسة أن معرفتنا بحياة اللغة فى الدور الجاهلى مقصورة على حياة لا تزيد مدتها على قرن ونصف قبل ظهور الاسلام ، وأما حياتها قبل ذلك فمجهولة لعدم النقل ، وأن هذه اللغة لم تنته إلينا كلها وماوصل قليل من كثير . يقول أحمد بن فارس : « ذهب علماؤنا — أو أكثرهم — إلى أن الذى انتهى إلينا من كلام العرب هو الأقل . قال : ولو جاءنا جميع ما قالوه لجاء شعر كثير وكلام كثير . وأحر بهذا القول أن يكون صحيحاً ، لأنا نرى علماء اللغة يختلفون فى كثير مما قالته العرب ، فلايكاد واحد منهم يُخبر عن حقيقة ما خولف فيه بل يسلك طريق الاحتمال والإمكان[2] » . ولكنّ ما وصل إلينا يدل على أنّ اللغة العربية فى دورها الجاهلى راقية، غنية بالمفردات والأساليب الرائعة ، وأنها مرت بأدوار تدرجت فيها بالتهذيب إلى هذا الرقى العجيب .

---

(١) المصدر السابق ص ٤٨

(٢) الصاحبي ص ٦٧ — ٦٨

ويمكن أن نلخص مميزات اللغة فى هذا الدور بما يأتى :

١ — تمتاز فى مفرداتها باستعمال الغريب من الكلمات والوحشى النافر ، ويرجع ذلك إلى خشونة حياتهم والبداوة التى كانوا يحيونها ، وقد صقلت الأيام هذا الغريب وتلك الوحشية .

٢ — تمتاز فى أسلوبها باستعمال الألفاظ فى معانيها الوصفية ، أو فى معانٍ مناسبة للمعنى الأصلى بطريق المجاز .

٣ — تمتاز بجزالة الألفاظ والتراكيب والخشونة — أحياناً — فى التعبير .

٤ — تمتاز بكثرة استعمال المترادف من الكلمات ، وقلة وجود الأعجمى وغلبة الإيجاز فى الكلام وخلوه من اللحن .

أما الدور الاسلامى فقدكان أكثر تقدماً من الدور الجاهلى لتأثره بالقرآن الكريم ، وقد قسمه الرصافى أربعة أقسام :

١ — دور صدر الاسلام ويشمل بنى أمية ، ويبتدىء بظهور الاسلام وينتهى بقيام الدولة العباسية . وكان ظهور الاسلام قد عملت مؤثراته فى اللغة العربية عملها حتى حصلت فيها بتلك المؤثرات ستة أمور :

الأول : توحّد لغات قبائل العرب بتغلب لغة قريش عليها .

الثانى : انتشار اللغة العربية فى خارج شبه جزيرة العرب بسبب الفتوح الاسلامية .

الثالث : نموها واتساع أغراضها بطريقة التعريب وبطريقة تكوّن الألفاظ الاسلامية والمصطلحات العلمية .

الرابع : ارتقاء معانى اللغة بسبب ارتقاء تصورات أهلها .

الخامس : تهذيب ألفاظها وأساليبها معـــاً بتأثير الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ،

السادس : ظهور اللحن بسبب اختلاط العرب بالعجم وبكثرة المستعربين والمولدين .

٢ — الدور العباسى وينتهى بسقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ ، وفى هـذا الدور استمرت اللغة على التقدم والرقى فى الأمور الستة السابقة ، غير أنها لم تستمر على هذا التقدم والرقى إلى آخر العهد ، بل عرض لها التوقف فى أثنائه عندما دخلت الدولة فى طور الشيخوخة والهرم . ولذلك قسم الرصافى الدور العباسى على دورين : دور تقدم ورقى فى اللغة ، ودور توقف . يقول : « ولكونى ناقماً على رجال السياسة فى ذلك العهد أحب أن أحدد دور تقدمها ورقيها برجال الأدب لا برجال السياسة فأقول : إن عهد التقدم والرقى فى الدولة العباسية ينتهى بإمام الحقائق الاجتماعية والآداب العربية معاً أبى العلاء المعرى شاعر البشر من أولهم إلى آخرهم ، وأما ما بعد عهد المعرى فهو دور التوقف فى حياة اللغة العربية إلى انقراض الدولة العباسية الذى يخلفه دور الجمود والانحطاط ، وما بعد التوقف إلا الانحطاط »[1] .

وجميع المميزات التى امتازت بها اللغة فى الدور الأموى هى أيضاً مميزات الدور العباسى ولكنها فى الدور الأموى مصغرة وفى العباسى مكبرة إلا جزالة الألفاظ فإنها زالت وحلّت الرقة محلها فى هذا الدور لأن القوم فيه قد أوغلوا فى الحضارة كل الإيغال واجتمع لديهم من أسباب الترف ما لم يكن لمن قبلهم . وليس معنى هذا أن الجزالة فى هذا الدور مفقودة بل المقصود أن الرقة أصبحت هى الغالبة فى كلامهم .

---

(١) الأدب العربى ص ٤٣

وكثر فى هذا العصر استعمال الكلمات الأعجمية فى كثير من الأشياء ولاسيما ألوان الأطعمة وأنواع الآنية والفرش وأدوات الصناعات والعقاقير الطبية وأسماء الأمراض وآلات الحرب ، واتسع نطاق ما وضعوه من اصطلاحات العلوم والفنون والصناعات وإدارة الحكومة .

٣ — دور الدول الأعجمية وفيه أخذت اللغة بالانحطاط ودخلت فى دور يقال له : « دور الجمود والتقليد » ولولا دخول تلك الأمم المتغلبة الأعجمية فى الاسلام وخدمتها للعلوم الاسلامية بتقريب العلماء لدخلت اللغة العربية فى خبر كان .

وقد استولت العجمة على القوم فى هذا الدور ، وسقط الاعراب فى اللغة ، واستحكم اللحن فعمّ الفساد وأصبح أهل الأدب أسرى التقليد .

٤ — دور العصر الحديث ، وقد ترك الرصافى الحديث عنه ، لأن خصائصه ومميزاته لم تتضح ، ولأنّ أمر شرحه يطول[١] .

ولكى تتقدم اللغة العربية وتتطور لابد أن تأخذ بأصول الاشتقاق والتعريب الذى عرفه العرب فى عصر الازدهار والنور ، ففيها « من قواعد التركيب والتصريف والاشتقاق والتعريب والمزج والنحت ما يحير الألباب ويستوجب الاعجاب »[٢] .

ولابد أن تكون للعرب جامعة علمية عصرية ، يقول وهو يتحدث عن الشعر العربى الحديث : « ومن أسباب قصور الشعر العربى اليوم عن بلوغ غايته العصرية قصور لغته عن تلك الغاية ، ويستحيل على اللغة العربية أن

---

(١) ينظر المصدر السابق ص١٢ — ٤٩

(٢) رسائل التعليقات ص ١٠٨

تقوم لها قائمة فى هذا العصر ما لم تكن للعرب جامعة علمية عصرية بكل معنى الكلمة . فمتى كانت لهم هذه الجامعة تقدمت لغتهم ، ومتى تقدمت اللغة تقدم معها الشعر وجاز لها حينئذ أن يبلغ غايته فى مجراه العصرى[1] » .

ويقول وهو يتحدث عن اللغة فى العصر الحديث : « إنى أقول اليوم : إن اللغة العربية لا تدخل فى مصاف اللغات الراقية الحية إلا إذا أقيمت لها جامعة كجامعة السوربون أو اكسفورد ، تدرس فيها العلوم العصرية باللغة العربية[2] » .

واهتم باللغة فى جريدته « الأمل » ونشر فيها بحثه « جمودنا فى اللغة » ونشر لغيره بعض المقالات اللغوية منها « مباحث لغـــوية — عثرات الأقلام[3] » التى كانت مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق تنشرها على صفحاتها تقويماً للسان وإقالة للأقلام . وكان يشجع البحث والكتابة ويدعو الشبان إلى المساهمة فى الجريدة بما تجود به قرائحهم « تنشيطاً لأقلامهم ، وشحذاً لأذهانهم ، وترغيباً لهم فى الاستمرار على هذه الحركة الطيبة[4] » .

الخط :

تحدث الرصافى عن الخط العربى الذى يجعل القراءة صعبة ولا نكاد نرى رجلا معصوماً من الخطأ فيها ، ولو كان من أعلم الناس بعلوم العربية ؛ لأن رسم الخط عندنا ناقص وطريقة الشكل الموجودة يصعب العمل بها على الكاتب المترسل فى كتابته كما يصعب العمل بها فى المطابع . ويرى

---

(١) مجلة الحرية العدد الأول ص ١٣ (السنة الثانية تموز ١٩٢٥) .

(٢) الأدب العربى ص ٤٩ .

(٣) جريدة الأمل العدد الثانى (٢ تشرين الأول ١٩٢٣ م) وما بعده .

(٤) جريدة الأمل العدد ١٣ (١٥ تشرين الأول ١٩٢٣م) .

أنه لا بد أن نفكر فى إيجاد طريقة للخط تسهـــل علينا بها القراءة بحيث تصبح كأهل الغرب الذين يكتبون بالحرف اللاتينى ، نقرأ لنفهم لا نفهم لنقرأ . ولكنه لا يدعو إلى إلغاء الحرف العربى بل إصلاحه وجعله متطوراً ، ويميل إلى الأخذ بما قام به الدكتور إسماعيل حقى الميلاسى . يقول : « لقد تعرفت بهذا الرجل فهو صديقى وكان لا يفارقنى فى الاستانة وهو رجل ذو علم ودين يحسن اللغة العربية ويتكلم بها كأبنائها ، وقد اشتهر باشتغاله فى مسألة إصلاح الخط وله بها ولوع يكاد يكون من الجنون .

إن هذا الرجل يقول بوجوب فك الحروف العربية لا بتركها وأخذ اللاتينية مكانها ، وذلك بأن نكتبها منفصلة ونضع بعد كل حرف حرفاً آخر دالاً على حركته وبذلك يحصل المراد كما هو فى الحروف اللاتينية . وقد وضع للدلالة على الحركات حروفاً سماها الحروف الصائتة ، وقد شاهدته مراراً يكتب ويقرأ بالحروف المنفصله بكل سرعة ، وقد اشتهرت طريقته وتكوّن لها حزب كبير فى الاستانة وكنت أنا ولا أزال من حزبه ؛ لأنى أرى هذه الطريقة نافعة جداً وافية بالغرض . ولولا خوف الاطالة لسردت لكم ما عندى من الأدلة على ذلك . ثم أن هـــذا الرجل قد عارضه آخرون بطرائق أخرى وضعوها للحروف العربية المنفصلة غير أن طريقته هى المثلى على ما أرى . وقد تألفت فى الاستانة لجنة للنظر فى هذه الطرائق وترجيح واحدة منها فانعقدت هـذه اللجنة تحت رياسة الغازى أحمد مختار باشا وكنت أنا من أعضائها ، وكان من أعضائها أيضاً الشاعر التركى الشهير رجائى زاده أكرم بك وغيره من مشاهير رجال الترك فاجتمعت هذه اللجنة مراراً غير أنها قبل أن تصل إلى غايتها اشتعلت نيران الحرب العامة فأوقفت عملها (١) » .

---

(١) الأدب العربى ص ٣٥ — ٣٦

ولم يعد الرصافى إلى هـذا الموضوع ، بعد أن اتضحت حقيقة الدعوة إلى ترك الخط العربى أو تغييره .

دعوته إلى المجمع اللغوى :

المجامع اللغوية من أسباب تقدم اللغة ونموها، وقد كان الرصافى من المعنيين بهذا الأمر، وانتخب عضواً مراسلا فى المجمع العلمى العربى بدمشق فى جلسته التى عقدت يوم الثانى من حزيران سنة ١٩٢٣ م ، وظل يشغل هذه العضوية حتى وفاته سنة ١٩٤٥ م[١] .

واشترك مع بعض قادة الفكر فى العراق وأعلامه فى إنشاء مجمع ، واختير هو وغيره من الأساتذة أعضاءاً لتهيئة الوسائل والمناهج ومراجعة الحكومة بهـذا الشأن . وتبنى المعهد العلمى فى بغداد الفكرة ودعا جماعة من رجال العلم والأدب إلى اجتماع عقدوه فى داره يوم الجمعة ٢٣ كانون الثانى سنة ١٩٢٥ . قالت جريدة « العراق »[٢]: « وجه المعهد العلمى فى بغـداد دعوة إلى العلماء والأدباء فى العاصمة لعقد اجتماع أدبى، الساعة الرابعة زوالية عصر اليوم للمذاكرة فى تأسيس مجمع لغوى علمى فى العراق، فحبذا الاهتمام باللغة العربية وآدابها .

فاجتمعوا وتداولوا فى الموضوع ثم انتخبوا لجنة مؤلفة من الأستاذ جميل الزهاوى والأستاذ معروف الرصافى وعبد اللطيف ثنيان وتوفيق بك السويدى وثابت بك عبد النور تقوم بوضع منهج للمشروع وتفاوض الحكومة فى أمره وما يؤمل منها من المساعدة لتعضيده ، وكتبوا قرارهم

(١) المعلومات مستقاة من المجمع العلمى العربى بدمشق بوساطة الزميلة الدكتورة عزيزة مريدن المدرسة فى كلية الآداب بجامعة دمشق ، وقد كتبت إلى هذه المعلومات بتأريخ ٥ تشرين الأول ١٩٦٩ م ، فلها منى الشكر والتقدير .

(٢) العدد ١٤٣٦ (السنة الخامسة ـ السبت ٢٤ كانون الثانى ١٩٢٥ م ، ٢٧ جمادى الآخرى ١٣٤٣ هـ) وتنظر مجلة الحرية العدد ٦ من ٣٠٧ ـ ٣٠٨ (السنة الأولى ١٩٢٥م).

هذا ووقعوه ، لحبذا العناية من المعهد العلمى فى إحياء اللغة العربية » .

وجاء فى محضر الجلسة : « نحن المجتمعين فى بناية المعهد العلمى فى ٢٣ كانون الثانى ١٩٢٥ الموقعين أدناه ، بعد المداولة فى موضوع تأسيس مجمع لغوى يقوم بتعريب الكلمات وإيجاد الاصطلاحات العلمية وترجمة الكتب التى يحتاجها العالم العربى ، قررنا أن تأسيس مجمع علمى لتحقيق هذه الأمنية من الضرورات الحيوية للغة العربية ونهضة البلاد فقررنا بإجماع الآراء تأليف لجنة من السادة: جميل الزهاوى ومعروف الرصافى وتوفيق السويدى وعبد اللطيف ثنيان وثابت عبد النور لتهيئة الوسائل والمنهاج ومراجعة الحكومة العراقية بهذا الخصوص»(١) . ووقع القرار السادة : أحمد الداود، أحمد منير القاضى ، أمين المعلوف ، توفيق السويدى ، ثابت عبد النور ، جميل الزهاوى ، رفائيل بطى ، ساطع الحصرى، طه الراوى ، عبد الحسين الأزرى ، عبد الحليم الحافاتى ، عبد اللطيف ثنيان ، عبد المجيد الشاوى ، يوسف غنيمة .

وفى سنة ١٩٢٦ فكرت وزارة المعارف العراقية بإنشاء مجمع لغوى ووضعت له اعتماداً مالياً فى ميزانية سنة (١٩٢٦ — ١٩٢٧ م) ، وفى ٢٨ أيلول سنة ١٩٢٦ م وجه الأستاذ عبد الحسين الجلبى وزير المعارف بكتاب إلى الأستاذ معروف الرصافى والأب أنستاس مارى الكرملى هذا نصه : « لقد قررنا تأليف مجمع لغوى وفقاً للتعليمات المربوطة وانتخبنا كما عضوين لهذا المجمع لما نعهده فيكما من التضلع فى اللغة ، ونرجو أن تجتمعا لانتخاب بقية الأعضاء نظراً للمادة الخامسة من التعليمات المذكوره ونتمنى لكما وللجميع النجاح » .

واجتمع فى ٢٩ أيلول ١٩٢٦ الرصافى والأب الكرملى بوزارة

---

(١) مجلة لغة العرب المجلد الرابع ، الجزء السادس ص ٢٢١ (كانون الأول ١٩٢٦م). وينظر كتاب المباحث اللغوية فى العراق ص ٨٣.

المعارف وانتخبا الأستاذ طه الراوى عضواً ثالثاً ، واجتمع الثلاثة فانتخبوا الأستاذ عز الدين علم الدين التنوخى عضواً رابعاً ، وبعد يومين اجتمع الأربعة وانتخبوا الدكتور أمين المعلوف عضواً خامساً ، واجتمع الخمسة فانتخبوا أمين كسبانى عضواً سادساً لكنه اعتذر فى عدم القبول ، فانتخبوا الأستاذ توفيق السويدى عضواً سادساً ،والستة انتخبوا الأستاذ عبداللطيف الفلاحى عضواً سابعاً ، ولما كان فى أوربة توقف انتخاب الثامن بحسب التعليمات ، لكنهم رشحوا رستم حيدر للعضوية . فلما حضر الأستاذ الفلاحى تم انتخاب رستم حيدر،وبه تم عدد الأعضاء الثمانية المنصوص عليهم فى التعليمات.وقد انتخبت اللجنة فى اجتماعها الأول فى السابع من تشرين الأول ١٩٢٦ الأستاذ رفائيل بطى سكرتيراً للجنة(١).

ووضع الرصافى مع الأعضاء خطة علمية لاتخاذها أساساً فى وضع الكلمات أو المصطلحات ، وهذا نصها :

« تعتبر اللجنة المواد الآتية قواعد ودساتير تتبعها فيما تضعه وتقرره من المصطلحات العلمية والكلمات اللغوية :

١ — إن الاشتقاق قياسى فى اللغة قياساً مطلقاً فى أسماء المعانى التى هى عرضة لطروء التغير على معانيها ، ومقيداً بمسيس الحاجة إلى الجوامد .

٢ — إن وضع الكلمات الحديثة فى اللغة يجرى اما على طريقة الاشتقاق، واما على طريقـــة التعريب ، ولا مانع من الجمع بينهما كما فى « مسرة » و « تلفون » ، ويرجع إلى النحت عند الحاجة .

٣ — لا يذهب إلى الاشتقاق فى وضع كلمة حديثة إلا إذا لم يعثر

---

(١) مجلة العرب المجلد الرابع ، الجزء السابع ص ٣٨٥ وما بعدها (كانون الثانى ١٩٢٧م) . وينظر كتاب المباحث اللغوية فى العراق للمرحوم الدكتور مصطفى جوادس ٨٤ ، والمجمع العلمى العراقى للأستاذ عبد الله الجبورى ص ٣٣ .

فى اللغة على ما تؤدى معناها، بخلاف التعريب فإنه يجوز تعريب كلمة أعجمية مع وجود اسم لها فى العربية كما هو الشأن فى أكثر المعربات الموجودة فى اللغة .

٤ — يشترط فى الكلمات التى تختار من كتب اللغة ليعبر بها عما حدث وتجدد، أن تكون مأنوسة غير متنافرة وإلا وجب تركها والذهاب إلى طريقة الاشتقاق أو التعريب .

٥ — يرجح الشائع المشهور من المولد والدخيل على الوحشى المهجور من الكلمات الكائنة فى معاجم اللغة .

٦ — لا يشترط فى المعرب رده إلى وزن من أوزان الكلمات العربية ، ولكن يستحسن ذلك إن أمكن ، كما يستحسن تغييره بما يجعله قريباً من اللهجة العربية كما فى « شهنشاه » المغيرة من « شاهنشاه » .

٧ — اللغة إنما تتقرر باستعمال العامة أكثر من وضع الخاصة ، لكن هذا فيما عدا المصطلحات العلمية ، أما فى المصطلحات العلمية فالأمر بالعكس »[١].

هذه هى آراء الرصافى التى نادى بها قبل أن تقوم فكرة إنشاء المجمع اللغوى - كما سنرى - وهذا يدل على اهتمامه العظيم باللغة وثقة علماء زمانه والمسؤولين به بعد أن رأوا بحوثه اللغوية وآراءه السديدة .

---

(١) مجلة لغة العرب المجلد الرابع الجزء السابع ص ٣٩٦ (كانون الثانى ١٩٢٧ م) .

الفصل الثاني

الفصحى والعامية

الدعوة إلى العامية :

شغلت العامية والفصحى النقاد في هذا العصر ، وكان المستشرق الألماني « ولهلم سبيتا» من أوائل الداعين إليها، وقد اتهم العربية الفصحى بالصعوبة والتعقيد ، ورأى أن الالتزام بها يعوق التقدم ويشغل الفكر . ودعا « كارلو لندبرج » — عمر السويدي — إلى العامية وأصدر كتاب « اللهجة العامية في مصر » ، وتحمس « ولكوكس » للعامية ، وشاركه في هذا كثير من المستشرقين كالقاضي الانكليزي « سلدن ولمور» مؤلف كتاب « العربية المحلية في مصر » .

ولم تقف الدعوة إلى العامية عند هؤلاء الأجانب المعروفين بعدائهم للقرآن الكريم واللغة العربية وإنما حمل هذه الدعوة بعدهم بعض المصريين كسلامة موسى الذي تتضح في مقالاته وكتابه « البلاغة العصرية » أهدافه ومراميه ، والدكتور لويس عوض الذي أخذ على نفسه موثقاً أن لا يخط كلمة واحدة إلا باللغة المصرية . ونادى بها بعض اللبنانيين والسوريين المغتربين والمقيمين ، ومن أشهر الذين حملوا لواء هذه الدعوة الخوري مارون غصن الذي بدأ نشاطه الأدبي بكتابه « حياة اللغة وموتها — اللغة العامية » ، والدكتور أنيس فريحة — الأستاذ في الجامعة الأمريكية ببيروت — الذي أحيا دعوة سلامة موسى ، وانتهى إلى القول بأن العامية ينبغي أن تكون اللغة السائدة [1] .

---

(١) للتفصيل ينظر كتابنا « النقد الأدبي الحديث في العراق » ص ١٣٠ وما بعدها .

اهتمام الرصافى بالعامية :

سبق الألمان والفرنسيون أبناء العراق فى وضع كتب للغة العامية العراقية ، وكان الرصافى من الذين اهتموا بها ودرسوها دراسة عميقة ، ولكنه لم يَدْعُ إلى الأخذ بها وترك الفصحى ، بل ذكر إن للعامية كثيراً من المزايا والخصائص ، يقول . « ومما لا مرية فيه أن للغة العامية اليوم مزية لا تنكر ، وذلك أنها على علاتها نراها جارية مع الزمان فى مفرداتها ، فهى تنمو كل يوم بالأخذ من غيرها بخلاف العربية الفصحى فان جمودنا فيها واقتصارنا منها على مانراه فى معاجم اللغة قَدْ رماها بالتوقف عن النمو حتى أصبحت متأخرة عن لغات الأمم الحاضرة على رغم ما اختصت به من المزايا التى خلت منها تلك اللغات »(١) .

وله أبيات كتبها إلى صديقه عبود الكرخى الشاعر الزجال حينما رآه يستعمل الفصحى فى شعره العامى ، يقول :

دَعْ هذه اللغة الفصحى فنحن بها ظلْنا نخاطب جيلا غير موجود
فالناس غيّرت الأيامُ لهجتهم بكل لحنٍ على الأفواه معقود
واستعجمت لغة الاعراب بعدهم فليس تنساغ منهم فى اللغاديدَ
وإنّ قرعك بالفصحى مسامعهم أمسى كقرعك جلموداً بجلمودِ(٢)

وما هذه إلاّ غضبة نفسية شديدة على أبناء العربية لإهمالهم لغتهم وتقاعسهم عن دراستها وتعلمها ، وليست دعوة إلى ترك الفصحى والأخذ بالعامية .

لقد تحدث الرصافى عن العوامل المؤثرة فى اللغة ، ويرى أن الزمان

---

(١) مجلة لغة العرب الجزء الثانى ص ٨٦ (السنة الرابعة آب ١٩٢٦) .

(٢) محاضرات عن معروف الرصافى ص ٣٣ .

والمكان يعملان على التأثير فيها ، وإنها من أكثر الأشياء خضوعا لحكم هذين العاملين فى الرقى والانحطاط ، وما اختلاف لغات الأمم إلا نتيجة من نتائج هذين المؤثرين . يقول : « ولقد تعاورت اللغة العربية أزمنة وأمكنة أوصلتها إلى ما هى عليه اليوم من اللهجة المعلومة التى تلوكها أفـــواه العامـة لوكا مختلفاً باختلاف الاصقاع كلهجة أهـل العراق وسورية والحجاز ومصر والمغرب وغير ذلك من البلاد المأهولة بالمتكلمين بالعربية . على أنّ تأثير الزمان والمكان لم ينحصر من اللغة العربية فى تغيــير لهجتها فقط ، بل عم مفرداتها أيضاً . فإن من مفرداتها ماقد اندثر ولم يبق له فى كلام العامة من أثر ، ومنها ماقد تغير لفظه أو معناه أو كلاهما تغيراً مختلفاً باختلاف الأماكن والأزمان ، كما قد تكونت فيها من المفردات ما لم يكن من قبل موجوداً فى متنها . ولما كانت هذه المفردات متكونة بحكم الزمان والمكان كانت مختلفة أيضاً باختلافهما ، ففى كلام العراقى منها ماليس فى كلام السورى ، وفى كلام السورى ماليس فى كلام المصرى وهكذا .

غير أننا نجد لهذين المؤثرين فى اللغـة العربية أثراً واحداً قد عمّ جميع المتـكلمين بها فى جميع الأنحاء ، وهو سقوط الاعراب منها ، فهذا الأثر هو الذى نجده عاماً فى كلام العراقى والسورى والحجازى والمصرى وغيرهم »(١).

الاعراب :

ويرى أن أهم الفوارق التى تفرق بين الفصحى والعامية هى أن الأولى معربة والثانية غير معربة ، وإن سقوط الاعراب من اللغـة العامية لايجوز أن يُعَدّ انحطاطاً فى اللغة بل هو ارتقاء ؛ لأن الإعراب إن كان حاجة فى الـكلام فوجود الحاجة نقص وزوالها كمال ، وإن كان قيداً له فسقوط القيد اطلاق والمطلق أحسن حالا من المقيد ، وهل غاية الـكلام إلا الإفهام؟

---

(١) مجلة لغة العرب الجزء الثانى ص ٨٥ ــ ٨٦ (السنة الرابعة آب ١٩٢٦) .

والمتكلم إذا استطاع أن يفهم المخاطب مرامه من دون إعراب كان من النقص أو من العبث أن يستعمل الإعراب .

ويرى أن أهل النحو قد ادعوا أن الحركات الإعرابية إنما جيء بها فى الكلام للتمييز بين المعانى المختلفة كالفاعلية والمفعولية والاضافة ، فإن صحت دعواهم هذه كان الاعراب ضروريا فى الكلام .

ولا يقبل هذا الرأى ، ويرده قائلا : « وليست هى بصحيحة بدليل اننا نرى العامة يتفاهمون بلغتهم غير المعربة ويميزون تلك المعانى المختلفة من كلامهم وهو خال من حركات الاعراب .

ثانيا : إن فى الكلام قرائن كثيرة تكفى السامع مؤونة التمييز بين المعانى المختلفة بواسطة هذه الحركات الاعرابية .

ثالثا : لو كان التمييز بين المعانى المختلفة لايكون إلا بهذه الحركات للزم أن تكون اللغات كلها معربة كالعربيـة ؛ لأن الكلام تعتوره تلك المعانى المختلفة فى جميع اللغات ، واللازم باطل فكذا الملزوم .

رابعاً : لو كان التمييز بين المعانى المختلفة متوقفاً على وجود هذه الحركات الاعرابية فى الكلام للزم عدم التمييز بينها فى المبنيات وفى الكلمات التى اعرابها تقديرى ؛ لأن الحركات الاعرابية فى كلا القسمين غير موجودة ولا محسوسة عند المخاطب وإنما هى مفروضة فرضا ، واللازم باطل؛ لأننا نفرق بين المعانى المختلفة فى المبنيات وفى المعربات اعرابا تقديريا رغم انتفاء الحركات الاعرابية ، فكذلك الملزوم باطل »[1] .

فالاعراب — عنده — يُعد فى الكلام من كماليات اللغة لا من

---

(١) دروس فى تأريخ آداب اللغة العربية ص ٨٧ ، وتنظر مجلة لغة العرب الجزء الثانى ص ٨٦ (السنة الرابعة آب ١٩٢٦ م) .

ضرورياتها ؛ لأن الحركات الاعرابية تتنوع بها أحوال الكلام وتتغير نبراته بين رفع ونصب وخفض وجزم ويكتسب الكلام منها رنة خاصة تلتذ بها المسامع لاسيما إذا صحبها التنوين الذى هو من خواص المعربات .

وينتهى الى القول بأن الحركات الاعرابية ليست من ضروريات الكلام ولا من كمالياته ، وإنما هى كالثندؤة فى الرجل أثر باقٍ من حروف أو كلمات كانت تستعمل فى الدهر الأول ثم قلّت الحاجة إليها فقلّ استعمالها حتى أدركها الضمور فانضمرت كما ينضمر العضو إذا عطل من عمله وصارت حركات بعد أن كانت حروفا[1] .

وهذه المسألة من القضايا التى تحدث عنها القدماء والمحدثون وقد ذكر سيبويه أن الخليل بن أحمد الفراهيدى قال : « إن الفتحة والكسرة والضمة زوائد وهن يلحقن الحرف ليوصل إلى التكلم به ، والبناء هو الساكن لازيادة فيه »[2] .

ويرى أبو على محمد بن المستنير المشهور بقطرب أن العرب إنما أعربت كلامها ؛ لأن الاسم فى حال يلزمه السكون للوقف ، فلو جعلوا وصله بالسكون وأمكنهم التحريك جعلوا التحريك معاقباً للاسكان ليتبدل الكلام . يقول : « ألا تراهم بنوا كلامهم على متحرك وساكن ولم يجمعوا بين ساكنين فى حشو الكلمة ولا فى حشو بيت ولا بين أحرف متحركة ؛ لأن فى اجتماع الساكنين يبطئون فى كثرة الحروف المتحركة ويستعجلون وتذهب الصلة فى كلامهم ، فجعلوا الحركة عقب الاسكان »[3] .

وذهب هذا المذهب الدكتور ابراهيم أنيس ، يقول : « لم تكن تلك

---

(١) دروس ص ٨٦ م وينظر كتاب رسائل التعليقات ص١٠٩

(٢) كتاب سيبويه ج ٢ ص ٣١٥ .

(٣) الأشباه والنظائر ج ١ ص٧٩

الحركات الاعرابية تحدد المعانى فى أذهان العرب القدماء كما يزعم النحاة ، بل لا تعدو حركات يحتاج إليها فى كثير من الأحيان لوصل الكلمات بعضها ببعض »(١) .

ثم يقول : «نحن إذن نرجح إن تحريك أواخر كل الكلمات لم يكن فى أصل نشأته إلا صورة للتخلص من التقاء الساكنين غير أن النحاة حين أعيتهم قواعـده وشق عليهم استنباطها فصلوا بين عناصر الظاهرة الواحدة ، ولعلهم تأثروا فى نهجهم هذا بما رأوه حولهم من لغات أخرى كاليونانية مثلا ، ففيها يفرق بين حالات الأسماء التى تسمى « Cases » ويرمز لها فى نهاية الأسماء برموز معينة. وكأنما قد عز على النحاة أن لا يكون فى العربية أيضا مثل هذه الـ « Cases » .

فحين وافقت الحركة ماستنبطوه من أصول إعرابيةقالوا عنها إنها حركة إعراب وفى غير ذلك سموها حركة أتى بها للتخلص من التقاء الساكنين .

الأصل إذن فى جميع كلمات اللغة أن لا تحرك أواخرها إلا حين تدعو الحاجة إلى هذا ، أو بعبارة أخرى حين يدعو النظام المقطعى وتواليه إلى هذا التحريك »(٢) .

ويستدل الدكتور أنيس بخلو اللهجات الإقليمية الحديثة من الاعراب على عدم شيوعه فى اللغة العربية فى مراحلها الأولى (٣) وقد ردّ الدكتور على عبد الواحد وافى(٤) هذا الرأى وفنده .

---

(١) من أسرار اللغة ص ٢٢١ .

(٢) من أسرار اللغة ص ٢٣٥ .

(٣) من أسرار اللغة ص١٩٩

(٤) ينظر كتابه فقه اللغة ص ٢٠٤ وما بعدها .

وهذه الآراء القديمة والحديثة تتفق مع ماجاء به الرصافى فى مسألة الإعراب ، وقوله « نعم يجوز أن يعد الاعراب فى الكلام من كماليات اللغة لا من ضرورياتها ، لأن الحركات الاعرابية تتنوع بها أحوال الكلام وتتغير نبراته بين رفع ونصب وخفض وجزم ويكتسب الكلام منها رنة خاصة تلتذ بها المسامع خصوصا إذا صحبها التنوين الذى هو من خواص المعربات »(١) ، قريب من قول الدكتور إبراهيم أنيس الذى تقدم ذكره .

والطريف أنه توصل إلى هذا الرأى من غير أن يدرس علم اللغة دراسة عميقة ، ومن غير أن تكون له معرفة واطلاع على اللغات القديمة والحديثة ومناهج دراستها ، وطرق بحثها القائمة على الرصد الدقيق والملاحظات العلمية المعتمدة على الأجهزة الحديثة . وليس فى بحوثه إشارة إلى المصادر التى اعتمد عليها ، أو اللغات التى أفاد منها وأغلب الظن أنه كان يعتمد على عقله الكبير وفكره الوقاد لأنه لا يعرف من اللغات الأجنبية إلا التركية ، ولم تكن الدراسات اللغوية قد نضجت فى عهده عند العرب . لقد كان كما قال الخليل بن أحمد الفراهيدى حينما سئل عن ابن المقفع أنه : «ما شئت من علم وأدب ، إلا أنّ عقله أكثر من علمه » .

إن هذه الآراء ـ ومنها رأى الرصافى ـ تكاد تسيطر على الدراسات اللغوية غير أن الدارس للغة العربية وأساليبها يعلم أن للاعراب قيمة وأهمية فى الكلام ، وقد ذهب كثير من القدماء والمحدثين إلى أن الحركات دوال على معان إعرابية ، يقول عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجى : « إن الأسماء لما كانت تعتورها المعانى وتكون فاعلة ومفعولة ومضافة ولم يكن فى صورها وأبنيتها أدلة على هذه المعانى ، جعلت حركات الاعراب تبين عن

---

(١) دروس فى تاريخ آداب اللغة العربية ص ٨٧

هذه المعانى وتدل عليها ليتسع لهم فى اللغة ما يريدون من تقديم وتأخير عند الحاجة (١) ».

ويقول عبد القاهر الجرجانى : « إن الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذى يفتحها ، وإن الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها ، وانه المعيار الذى لا يتبين نقصان كلام ورجحانه حتى يعرض عليه ، والمقياس الذى لا يعرف صحيح من سقيم حتى يرجع إليه ، ولا ينكر ذلك إلا من ينكر حسه ، وإلا من غالط فى الحقائق نفسه . وإذا كان الامر كذلك فليت شعرى ما عذر من تهاون به وزهد فيه ولم ير أن يستقيه من مصبه ويأخذه من معدنه ، ورضى لنفسه بالنقص والكمال لها معرض ، وآثر الغبينة وهو يجد إلى الربح سبيلا (٢) » .

ويؤيد ذلك كثير من الباحثين الذين عرفوا بالاصالة وبعد النظر كالأستاذ المرحوم إبراهيم مصطفى الذى قرر أن الحركات الاعرابية دوال على معان بل إن من أصول العربية الدلالة بالحركات على المعانى ، يقول : « وما كان للعرب أن يلتزموا هذه الحركات ويحرصوا عليها ذلك الحرص كله وهى لا تعمل فى تصوير المعنى شيئا ، وأنت تعلم أن العربية لغة الايجاز وأن العرب كانوا يتخففون فى القول ما وجدوا السبيل ، يحذفون الكلمة إذا فهمت ، والجملة إذا ظهر الدليل عليها ، والأداة إذا لم تكن الحاجة ملجئة إليها (٣) » .

وكالدكتور على عبد الواحد وافى الذى يقول بعد أن ذكر الأدلة الكثيرة على أهمية الاعراب ووجوده فى اللغة : « فنظام الاعراب عنصر

---

(١) الأشباه والنظائر ج ١ ص ٧٦ .

(٢) دلائل الاعجاز ص ٢٣ — ٢٤ .

(٣) إحياء النحو ص ٤٨ .

أساسى من عناصر اللغة العربية ، وقد اشتملت عليه منذ أقدم عهودها . وكل ما عمله علماء القواعد حياله هو أنهم استخلصوا مناهجه استخلاصاً من القرآن والحديث وكلام الفصحاء من العرب ورتبوها وصاغوها فى صورة قواعد وقوانين [1] » .

قدم العامية :

تحدث الرصافى عن قدم اللغة العامية وقال بأن بعض أهل الأدب فى زماننا الحاضر يزعمون أن اللغة الفصحى المعربة كانت فى القديم كلام الخاصة دون العامة ، وأن العامة كانوا يتكلمون بلغة غير معربة كلغة العامة اليوم ، وأن الاعراب كان خاصاً بلغة الشعر والخطابة لا بلغة المحادثة ، يقول : « وكل ذلك باطل لم يقم عليه دليل ، ولو صحت هذه الدعوى للزم أن تكون الأمة العربية فى العصر الجاهلى ذات طبقتين : طبقة خاصة وهى الطبقة المتعلمة ، وعامة وهى الطبقة الجاهلة ، مع أن القرآن وغيره من كتب القوم شاهد بأن العرب أجمع كانوا فى ذلك العصر أميين ، فقد جاء فى القرآن قوله : « ليبعث فى الأميين رسولا » ، وكتب التاريخ والأدب أيضا شاهدة بأن الأمية كانت ضاربة أطنابها على جميع طبقات الأمة العربية فى تلك الأعصر .

وإذا قيل : إن المراد بالخاصة هنا هم أهل الرئاسة والشرف لا أهل العلم ، قلنا : إن كتب الأدب طافحة بما نقله إلينا الرواة من كلام العرب المنظوم والمنثور ، فقد نقلوا إلينا كلام جميع طبقات الأمة فى محاوراتها اليومية وفى مواسمها وفى مفاخراتها ومنافراتها من ملوكها وأشرافها إلى رعاة إبلها حتى

---

(١) فقه اللغة ص ٢٠٩

عجائزها وصبيانها وحتى عبيدها ومواليها وكل كلام هؤلاء فصيح معرب ، فمن هم العوام الذين كانوا يتكلمون بلغة غير اللغة المعربة الفصحى ؟

هذا عنترة بن شداد العبسى لم يكن إلا عبداً من عبيد بنى عبس وراعياً من رعاة إبلهم ، وهو مع ذلك أمى لا يعرف القراءة ولا الكتابة ، وناهيك بمعلقته المشهورة مثالا من أحسن الأمثلة للغة الفصحى المعربة ، كذلك كان طرفة بن العبد صاحب المعلقة المشهورة فإن قصته مع المتلمس فى مسألة الصحيفة التى كتبها لهما عمرو بن هند ملك العرب تدل صريحاً على أنهما كانا أميين لايعرفان القراءة والكتابة ، فما لا يستراب فيـــه أن الاعراب كان موجوداً فى كلام جميع طبقات العرب فى العصر الجاهلى [1] » .

وينتهى إلى القول بأن الاعراب كان موجوداً فى كلام جميع طبقات العرب فى العصر الجاهلى ، وأن ما زعمه بعضهم من أن اختلاف لهجات القبائل دليـل على وجود لغتين : معربة وهى للخاصة ، وغير معربة وهى للعامة ، باطل لايؤخذ به ، لأن اختلاف اللهجات باختلاف القبائل أمر لايستلزم سقوط الاعراب من الكلام .

أما أولا فلأنه خاص بكلمات محدودة معدودة .

وأما ثانياً فلأنه فى غير الاعراب ولم يأت منه فى الاعراب إلا شىء قليل كإعراب المثنى بالألف مطلقا وكإعراب الأسماء الخمسة بالألف فى حالتى النصب والجر عند بعض القبائل إلى غير ذلك مما هو خاص بكلمات محدودة كما هو مذكور فى كتب النحو .

على أن ماورد من اختلاف اللهجات فى الإعراب لم يكن إلا اختلافاً فى نوع الاعراب لا فى وجوده وعدمه كاعراب خبر « ما » أخت « ليس »

---

(١) دروس فى تأريخ آداب اللغة العربية ص ٨٨ — ٩٩ ، وينظر الأدب العربى ص ٧ — ٩

بالرفع عند بنى تميم وبالنصب عند الحجازيين ، فكلا الفريقين يعربان خبر « ما » ، وغاية ما هنالك من الاختلاف هو أن فريقاً يعربه بالرفع وفريقا يعربه بالنصب . ولم ينقل لنا قط علماء اللغة أن قبيلة تعرب وقبيلة لا تعرب.

ولكى يبرهن على ذلك ذكر أمثلة من اختلاف لهجات العرب ، وقال بأن طرق اختلاف اللهجات تكاد تنحصر فى الأمور الآتية :

الأول : فى الحركات نحو « نستعين » و « نِستعين » - بفتح النون وكسرها .

الثانى : فى الحركة والسكون نحو « معَكم » و « معْكم » ، فبعض العرب يقولها بالفتح وبعضهم بالسكون .

الثالث فى إبدال الحروف نحو « أولئك» و « أولالك » ، وكابدال الميم باء فى لغة مازن فيقولون « باسمك » فى « ما اسمك » . ومن ذلك الاستنطاء فى لغة سعد بن بكر وهذيل والأزد وقيس والانصار تجعل العين الساكنة نوناً إذا جاورت الطاء نحو « أنطى » فى « أعطى » . ومن ذلك الطمطمانية التى تعرف فى لغة حمير كقولهم « طاب امهواء » أى : « طاب الهواء » . ومن ذلك الشنشنة فى لغة اليمن تجعل الكاف شيناً مطلقاً كـ « لبيش اللهم لبيش» أى : « لبيك » ، ومن العرب من يجعل الكاف جيماً .

ومنها اللغات المذمومة التى ذكرها احمد بن فارس (١) وهى العنعنة ، والكشكشة ، وجعجعة قضاعة وغيرها .

الرابع : فى الهمز والتليين ، فمنهم من يقول : « مستهزؤن » ومنهم من يقول : « مستهزون » .

الخامس : فى التقديم والتأخير نحو : « صاعقة » و « صاقعة » .

---

(١) ينظر الصاحبى ص ٥٣ وما بعدها .

السادس : الاتمام والنقص كحذف نون « من » الجارة عند خثعم وزبيد إذا وليها ساكن وابقائها عند غيرهم فيقولون في « خرجت من البيت » : « خرجت ملبيت » .

السابع : في الادغام والفك مثل فك المثلين في المضارع المجزوم بالسكون في المضعف وأمره عند الحجازيين نحو : « إن يمدد يده فامدد يدك » ، وإدغامهما عند تميم نحو « إن يمدّ يده فمدّ يدك » .

الثامن : في التصحيح والاعلال كاعلال الأفعال الثلاثية التي من باب « علم » كـ « رضِى » و « بقِى » عند تميم بقلب يائها ألفاً وكسرتها فتحة ، فيقولون : « رَضَى » و « بـقَى » ؛ وغيرهم يصححها .

التاسع : في الامالة والتفخيم مثل « قضى » و « رمى » فبعضهم يفخم وبعضهم يميل .

العاشر : في الحرف الساكن يستقبله مثله فمنهم من يكسر الأول ومنهم من يضم نحو « اشتروا الضلالة » .

الحادى عشر : في التذكير والتأنيث فإن من العرب من يقول : « هذه البقر » و « هذه النخل » ، ومنهم من يقول : «هذا البقر» و «هذا النخل» .

الثانى عشر : في صورة الجمع نحو « أسرى » و « أسارى » .

الثالث عشر : في الوقف على هاء التأنيث ، فمنهم من يقف عليها بالهاء ومنهم من يقف عليها بالتاء نحو « هذه أمه » ، و « هذه أمت » .

الرابع عشر : في معانى الكلمات اللغوية ، فإن من العرب من يستعمل «النوى» مثلا بمعنى البعد والفراق ، ومنهم من يستعملها بمعنى الدار وبمعنى النية .

ويقول بعد هذه الأدلة : « إنّ هذا هو معظم الأمور التي يتمسكون بها

اختلاف لهجات القبائل عند العرب . وهذه اللغات كلها مسماة منسوبة إلى أصحابها ، وهى وإن كانت لقوم دون قوم فإنها لما انتشرت تعاورها كل .

وأنتم ترون أنه لا شيء فى اختلاف اللهجات مما يخل بالاعراب فبذلك تعلمون أن لغة العرب كلهم على اختلاف لهجاتهم كانت كلها معربة ولم تكن لهم لغة عامية خاصة بطبقة منهم دون أخرى كلغتنا العامية اليوم» .

ثم يقول : « وخلاصة القول أننا لم نجد فيما ذكره علماء اللغة ولا فيما رواه لنا رواتها معربة ما يدل على أن العرب كانوا يتكلمون فى القديم بلغتين : فصحى معربة وعامية غير معربة ، بل كل ما جاءنا عنهم دليل على أنهم كلهم على اختلاف لهجاتهم كانوا يتكلمون بلغة معربة ، وهى ما نسميه باللغة الفصحى»[1].

إن الأدلة التى ذكرها قوية وتكاد تنفى وجود العامية فى العصر الجاهلى، وهى أدلة تاريخية لا ريب فيها فقد تواترت الروايات على ذلك واتفق الرواة والمؤرخون فى كثير مما ذكره ، وهذه التفاتة حسنة ، ولكن المعروف فى دراسة اللغات أن الأمم مهما ارتقت لا بد أن تكون لها لغة يتكلم بها الناس فى معاملاتهم إلى جانب اللغة التى ينظمون فيها أشعارهم وينمقون عباراتهم ويؤلفون كتبهم . ولا بدّ أن تسبق العاميةُ الفصحى ؛ لأنها لغة الحس بينما الفصحى لغة العقل ، وكلما تطور الإنسان تطورت لغته وزاد الارتباط بين ألفاظها . ان الطفل يبدأ بالأصوات فالكلمات ، ثم ينتقل إلى الربط بينها ، وهذا الربط يمثل الجانب العقلى ، وكذلك المجتمعات البدائية تبدأ بالأصوات فالكلمات حتى إذا ما تطورت وأدركت ما حولها انتقلت إلى المرحلة العقلية أو إلى نظم الألفاظ الذى هو توخى معانى النحو — كما يقول عبد القاهر الجرجانى فى كتابه « دلائل الاعجاز » .

---

(١) دروس فى تأريخ آداب اللغة العربية ص٨٩ـ٩٤ — وينظر الادب العربى ص ٩ـ١٢ .

إن العامية أو اللغة الحسية لا بدّ أن يكون لها وجود فى الجاهلية ولكننا لا نعرف تأريخ هذه الجاهلية ولا الفترة التى مرت بها هذه اللغة، وكل مانعرفه أن العربية تطورت قبل الاسلام وتوحدت فى كثير من المناطق وكادت لغة قريش تطغى على لغات القبائل العربية لما كان لهذه القبيلة من مكانة اجتماعية وسياسية وتجارية ، وحينما نزل القرآن الكريم دفع اللغة الى الأمام وأمدّها بحياة جديدة ، وأصبحت لغته هى اللغة الأدبية والرسمية فى الأمصار .

هذه فكرة عرضت ، وقد يكون لها دليل مما نحسه فى واقعنا الحاضر حينما كانت الأقاليم العربية متفرقة فى السياسة ، مختلفة فى اللهجة ، وقد يصل ذلك الاختلاف الى حد الإغراب ، يقول على عبد الواحد وافى : « قضيتُ بالعراق بضعة أشهر وطفت بكثير من بلاده ، وما كنت لأستطيع التفاهم بسهولة الا مع المتعلمين الذين كنت أستخدم العربية الفصحى فى حديثى معهم »[1].

ولكن اللهجات المحلية بدأت تقترب بتطور الحياة ، وأصبحت لهجات الأقاليم فى هذه الأيام تختلف عما كانت عليه فى عهد الآباء والأجداد ، وهذا أمر طبيعى ؛ لأن الإنسان العربى المعاصر انتقل الى طور جديد ، أصبح العقل فيه المسيطر ، وسادت فكرة الوحدة التى مزقتها فى غفلة من الزمن أيادٍ امتدت فى الظلام .

وقد تحدث كثير من الدارسين عن قدم العامية عند العرب، يقول الأب انستاس مارى الكرملى : « القول بأن العربية كانت فصيحة فى عصر من العصور ثم فسدت بمخالطة أهلها الأعاجم هو مذهب كثير من الأقدمين والمحدثين . أما نحن فلا نرى هذا الرأى ولدينا أدلة بيّنة على أن اللغة العامية قديمة بقدم اللغة الفصحى ، وهى لغة قائمة برأسها الا أنه كلما طال الأمد عليها زادت

---

(١) فقه اللغة هامش ٢ ص ١٤٥ .

رطانة وفساداً وألفاظاً أعجمية وتصحيناً وتحريناً الى آخر أوصاف ومميزات اللغة العامية ، وابتعدت عن العامية الأولى »[1] .

واثبات هذا الرأى ليس سهلا ، وقد حاول كثير من الباحثين أن يجمعوا العبارات المتناثرة والكلمات العابرة ليكوّنوا فكرة عن العامية فى الجاهلية فما استطاعوا ، لأن ما وصل الينا قليل ، وأكثره مروى بعد الاسلام . وما تزال المسألة بين أخذ ورد ، وما تزال الآراء تعرض وتنقض ، وليس فى معظم ما كتب مايصور اللغة فى الجاهلية .

لغة العراق :

كتب الرصافى بحوثاً مستفيضة عن لغة العراق ، نشر قسما منها فى مجلة «لغة العرب» ومجلة « أ . حبزبوز » ، يقول : « إنّ لغة أهل العراق لاتخالف لغة أهل نجد والحجاز إلا قليلا ، ومخالفتها للغة السوريين أظهر من مخالفتها للغة الحجازيين . وقد اجتمعت مرة فى حلب الشهباء برجال من أعيانهـا فى مجلس حاشد فكان أحدهم إذا وجه إلىّ الكلام غيّر لهجته وكلمنى بما يقرب من العربية الفصحى فأفهم كلامه ، ولكنه عندما يكلم غيرى من الحلبيين بلهجتهم الخاصة لم أكن أفهم منه تمام الفهم فكنت أستعيد منه بعض الكلام لأفهمه . وذهبت مرة فى حلب — أيضاً — إلى السوق ولما أردت العودة إلى محلى تشابهت علىّ الطرق فسألت بعض المارين : « من أين الطريق إلى محل كذا ؟ » فقال لى : « سوى » فلم أفهم ما أراد وكرهت أن أقول له : إنى لم أفهم معنى «سوى»[2] .

ووقعت له مثل هذه الحادثة فى العراق يقول: « بينما كنت واقفا مع الواقفين على جسر سامراء تقدم الىّ رجل فقال : أين تريد ؟ قلت : أريد العبور الى سامراء فقال: أأنت قالى ؟ وفخم اللام ، فلم أفطن لما أراد . فقلت :

---

(١) مجلة لغة العرب هامش ص ٣٧٧ الجزء العاشر (السنة الأولى نيسان ١٩٢٢) .

(٢) المصدر السابق الجزء الثانى ص ٨٧ (السنة الرابعة آب ١٩٢٦ م) .

وما تعنى يا هذا ؟ فأعاد عليّ الجملة الاستفهامية وزاد فيها كلمة « هنا » فلم أفهم أيضاً . فقال : أمقيم أنت هنا أم لا ؟ فقلت لا . وحينئذ علمت أن كلمة « قالى » قد أخذها من « قالمق » بمعنى البقاء فى اللغة التركية »(١) .

ويريد بلغة أهل العراق لغة بغداد بصورة خاصة ، لأن الأحكام التى أطلقها لا تنطبق على لهجات أهل العراق المحلية فى مختلف المدن والقرى .

وتكلم فى هذه الفصول أيضا على اللكنة العامية ، ويرى أن العامة فى العراق يرتضخون لكنة فارسية لكثرة اختلاطهم بالفرس ، ولكنهم تقع فى حرف القاف والكاف ، أما القاف فيتحول فيه لسانهم الى الكاف الفارسية والكاف والجيم ، وأما الكاف فيتحول فيه لسانهم إلى الجيم الفارسية فقط(٢) .

وليس هذا جديداً لأن تحول القاف إلى هذه الحروف كان معروفا منذ القديم ولا يختص بالعراقيين وحدهم فان عرب الجاهلية كانت تعرف هذا التحول ، يقول ابن خلدون وهو يتحدث عن لغة أهل جيله : « ومما وقع فى لغة هذا الجيل العربى لهذا العهد حيث كانوا من الأقطار شأنهم فى النطق بالقاف فانهم لاينطقون بها من مخرج القاف عند أهل الأمصار كما هو مذكور فى كتب العربية إنه من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى وما ينطقون بها أيضاً من مخرج الكاف وإن كان أسفل من موضع القاف وما يليه من الحنك الأعلى كما هى بل يجيئون بها متوسطة بين الكاف والقاف وهو موجود للجيل أجمع حيث كانوا من غرب أو شرق حتى صار ذلك علامة عليهم من بين الأمم والأجيال مختصاً بهم لايشاركهم بها غيرهم » .

---

(١) المصدر السابق الجزء الرابع ص ١٥٤ (السنة الأولى تشرين الأول (١٩١١)

(٢) المصدر السابق الجزء الثالث ص ١٤١ (السنة الرابعة أيلول ١٩٢٦) .

ثم يقول : « وهذه اللغة لم يبتدعها هذا الجيل ، بل هى متوارثة فيهم متعاقبة ، ويظهر من ذلك أنها لغة مضر الأولين ، ولعلها لغة النبى — صلى الله عليه وسلم — بعينها ، فقد ادَّعى ذلك فقهاء أهل البيت وزعموا مَنْ قرأ فى أم القرآن « اهدنا الصراط المستقيم » بغير القاف التى لهذا الجيل فقد لحن وأفسد صلاته . ولم أدْرِ من أين جاء هذا ، فإن لغة أهل الأمصار أيضاً لم يستحدثوها وإنما تناقلوها من لدن سلفهم وكان أكثرهم من مضر لما نزلوا الأمصار من لدن الفتح . وأهل الجيل أيضاً لم يستحدثوها إلا أنهم أبعد من مخالطة الأعاجم من أهل الأمصار ، فهذا يرجح فيما يوجد من اللغة لديهم أنه من لغة سلفهم . هذا مع اتفاق أهل الجيل كلهم شرقا وغربا فى النطق بها ، وأنها الخاصية التى يتميز بها العربى من الهجين والحضرى »[1] .

وتحوّلُ العامة من القاف إلى هذه الحروف غير مطرد ولا مقيس فى كلامهم ، وليس لنا من قاعدة نرجع إليها بل العمدة فى ذلك على السماع منهم فإننا نسمعهم ينطقون بالقاف كافاً فارسية فى نحو : قام ويقوم وقائم ، وقعد ويقعد وقعود وقاعد ، وقدر يقدر دون المصدر واسم الفاعل ، فلا يقولون « كدرة » ولا « كادر » بل : قادر .

وهناك أفعال وأسماء لا يحولون قافها كافاً فارسية نحو : قشبه يقشبه قشبا — أى : أصابه بالمكروه من القول — وقل الشىء يقل فهو قليل ، إلا أنهم إذا صغروا كلمة « قليل » حولوا قافها إلى الكاف الفارسية ، فقالوا : « كايل » . وأما مصدر هذا الفعل أى « القلة » فيحولون قافها جيما .

ومن الأسماء التى ينطقون فيها بالقاف من غير تبديل : القندرة والقنديل والقبقاب والقدم والقديم والقرآن والقرش والقش والقسيس والقسم — بمعنى اليمين — والقند — بمعنى السكر — والقانون — آلة الطرب — والقولنج والقطايف والقلم والقزاز .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٥٧ — ٥٥٨

وأما تحويلهم القاف إلى الكاف العربية فذلك فى فعلين واسم واحد ، أما الفعلان فهما : قتل وقفخ — بمعنى صفع — فيقولون فى قتل : كتل ، وفى يقتل : يكتل ، وفى قاتل . كاتل ، وفى مقتول : مكتول ، وفى قفخ : كفخ ، فهو كافخ وذاك مكفوخ .

وأما الاسم فهو الوقت ، يقولون : الوكت ، وفى جمعه : أوكات .

وأما تحويلهم القاف إلى الجيم فذلك فى مادة قسم فيقولون : جسم ، وفى يقسم: يجسم ، وفى القسمة :الجسمةوفى قاسم وقسام:جاسم وجسام ، وفى المقسوم : مجسوم . وكذلك فى قدّم — المشددة — يقولون : جدّم ، وفى تقديم :تجديم. وفى المقباس الجباس ، وربما قالوا : مكباس . وفى قدام : جدام ، وفى قرية : جرية .

وأما حرف الكاف فتحول فيه ألسنتهم إلى الجيم الفارسية المثلثة كقولهم فى كان : جان دون المضارع فلا يقولون : يجون بل : يكون . وفى كب الماء: جب ، وفى يكب : يجب .

وتحويلهم الكاف إلى الجيم المذكورة أكثر وقوعاً فى الأسماء .

وهناك ألفاظ لاتجرى فيها لكنة العامة ولا يحولون كافها إلى الجيم الفارسية .

ومن الأسماء : كتاب وكتب، والكبة —ضرب من الطعام— والكبابة —الغزل الملفوف— والكبر — وزن صرد للشجر المعروف— والكرب والكربة — لأصول سعف النخل — والكروش جمع كرشة والكحل والمكحلة والكرات — للبقلة المعروفة — والكرد والأكراد والكردى والكرسى والكراسى والبكار — لأنبوب النارجيلة — والكر والكرة — للجحش الصغير — والكاره — للحزمة من الحطب وغيره تحمل على الظهر أو على الرأس — والكشمش — لضرب من الزبيب — .

وينصب كلامه على لهجة أهل بغداد من المسلمين ، أما لهجة المنطقتين الشمالية والجنوبية ، ولهجة المسيحيين واليهود فلم يتحدث عنها فى هذا الفصل الممتع ؛ لأن الخوض فيها يحتاج إلى تفصيل فى القول واستقراء للهجات .

أما الفصول الأخرى التى نشرها فى مجلة « لغة العرب » فهى عن الأسماء الثلاثية ، والهمز ، والحركات ، والتنوين ، والوصل ، والضمائر ، والفعل المهموز ، والفعل المعتل ، والمضارع ، وتصريف المضارع السالم ، وتصريف اللفيف المقرون ، والرباعى المجرد ، واسم الفاعل ، والصفة المشبهة — الصفة الثابتة — واسم التفضيل ، وأمثلة المبالغة ، واسم المكان ، واسم الزمان .

وللرصافى فى هذه البحوث آراء طريفة وملاحظات دقيقة تدل على تضلع فى فهم العامية ومعرفة أساليبها ونحوها وصرفها . ويعد هذا العمل من أهم أعماله اللغوية ، لأنه يكاد يكون فى طليعة الذين بحثوا فى اللهجة العراقية وإن سبق الألمان والفرنسيون العراقيين فى وضع كتب للغة العامية العراقية ، غير أنهم لم يجمعوا فيها ماجمع .

ومن ملاحظاته الدقيقة فيما يتعلق بالأسماء الثلاثية قوله : « كل ما كان من الأسماء الثلاثية ساكن الوسط ولم يكن مضافا إلى ضمير المفرد متكلماً كان أو مخاطباً أو غائبا جعلوا وسطه متحركاً فى كلامهم ، غير أن هذه الحركة تختلف باختلاف حركة الحرف الأول من الأسماء . فإن كان الحرف الأول مضموما جعلوا الحرف الثانى مضموماً أيضا كقولهم فى قفل : قفل ، وفى شغل : شغل ، وفى خبز : خبز ، وفى حكم : حكم ، وفى جرم : جرم ، وفى شكر : شكر ، وفى كفر : كفر ، وفى مهر : مهر .

هذا هو الغالب فى كلامهم ، وأما قولهم فى حسن — بكسرتين — وكذلك

فى جبن : جبن ، وفى دهن : دهن ، فشاذ أو هو على توهمهم أن أصله فعل — بكسر فسكون — .

وإن كان الحرف الأول من الاسم مكسوراً جعلوا ثانيه مكسوراً أيضا كقولهم فى حمل : حمل ، وفى جبر : جبر ، وفى حلم : حلم ، وفى فكر : فكر ، وفى ذكر : ذكر ، وفى كذب : جذب ، وفى شبر : شبر ، وفى تبن : تبن .

وإن كان الحرف الأول من الاسم مفتوحاً جروا فى حركة ثانية على ثلاثة وجوه :

الأول : أن يجعلوه مفتوحاً أيضا كقولهم فى بحر : بحر ، وفى دهر : دهر ، وفى مهر : مهر .

الثانى : أن يجعلوه مضموماً كقولهم فى تمر : تمر ، وفى خمر : خمر ، وفى جمر : جمر ، وفى قلب : كلب ، وفى قبر : كبر ، وفى حرف : حرف ، وفى صبر : صبر .

الثالث أن يجعلوه مكسوراً كقولهم فى نجم نجم ، وفى كلب : جلب ، وفى أرض : أرض ، وفى كرد : جرد ، وفى فرد : فرد ، وفى برد : برد ، وفى شمع : شمع ، وفى دمع : دمع ......

وأما إذا كان الاسم الثلاثى متحرك الوسط وكان مفتوح الأول والثانى فإنهم يجرون فيه على ثلاثة أوجه :

الأول : أن يبقوه على حاله بلا تحريف ولا تغيير كالخبر والطرب والكرب والذهب والحطب والعجب وغير ذلك .

الثانى : أن يحرفوه بجعل فتحته الأولى ضمة كقولهم فى القمر : كمر ، وفى الكبر : كبر — لهذا الشجر المعروف — ، وفى الطبر : طبر ، وفى صفر : صفر ،

وفى ثفر : تفر . وفى هذا الأخير تحريفات : ابدالهم الثاء المثلثة تاء مثناة وجعلهم فتحته الأولى ضمة .

الثالث : أن يحرفوه بجعل فتحته الأولى كسرة كقولهم فى الجمل : جمل ، وفى الخشب : خشب ، وفى الكفن : جفن ، وفى الشجر : شجر ، وفى القدح : جدح »(١) .

ويقرر بعض القواعد ، ويعطى بعض الأحكام التى أخذها من متابعته للهجة العامية واستقراء شواهدها ، يقول : « إن قصر الممدود جائز فى العربية الفصحى وواجب فى كلام العامة ، فإن الهمزة معدومة فى كلامهم لا توجد إلا فى أوائل الكلمات فتسمعهم يقولون فى رأس : راس ، وفى جمعه : روس ، وكذلك الفأس يقولون فيها : فاس وفوس ، ويقولون فى مأمور : مامور ، وفى مأخوذ : ماخوذ ، وفى مؤمن : مومن .

والأسماء الممدودة لا ينطقون بها إلا مقصورة ، ثم أنهم بعد قصرها أى بعد حذف همزتها يسقطون منها حرف المد أيضاً لفظاً مكتفين عنه بما قبله من الفتحة الدالة عليه . ولهجتهم فى مثل هذه الأسماء الممدودة بعد قصرها على الوجه المذكور هى أن يجعلوا أولها مكسوراً فيقولوا فى سماء : سما ـ الألف تكتب ولا تلفظ ـ وفى رجاء : رجا ، وفى شفاء : شفا ، وفى جفاء : جفا ، وفى شقاء : شقا ، وفى مساء : مسا ، وفى شراء : شرا ، وفى غراء : غرا ، كل ذلك بالقصر والكسر إلا فى هواء وعطاء فيفتحونهما ويقولون فيهما : هوا وعطا .

وهذا ـ أى الكسر ـ خاص بالأسماء الثلاثية ، أما غير الثلاثية فيقصرونها

(١) مجلة لغة العرب الجزء الرابع ص ٢١١ـ٢١٢ (السنة الرابعة تشرين الأول ١٩٢٦م)

فقط ولا يكسرونها ، فيقولون في حلفاء : حلفا ـ الألف تكتب ولا تلفظ ـ وفي طرفاء : طرفا ، وفي علباء : علبا .

وكذلك يفعلون في ألف التأنيث الممدودة ـ أي يكتفون فيها بالقصر دون الكسر ـ فيقولون في حمراء : حمرا ـ الألف تكتب ولا تلفظ ـ وفي شقراء : شقرا ، وفي بيضاء : بيضا ، وفي سوداء : سودا ، وفي جرباء : جربا ، وفي عرجاء : عرجا ، إلى غير ذلك من الصفات التي على «فعلاء» .

وإذا كانت الهمزة في وسط الكلمة وكانت مكسورة قلبوها ياءاً ، كما يفعلون ذلك في اسم الفاعل من الأجوف ، فيقولون في قائل : كايل ، وفي بائع : بايع ، وفي خائف : خايف ، وكذلك يفعلون في همزة الجموع التي هي على « فعائل » كعجايب وغرايب وصنايع وغير ذلك (١) .

واستخلص أشكال الحركات في العامية وقال إنها ست : ثلاث منها مشتركة بينها وبين اللغة الفصحى وهي الضمة والفتحة والكسرة ، وثلاث خاصة بها ، وهي الفتحة المقبوضة ، والفتحة المبسوطة ، والكسرة الضئيلة .

أما الفتحة المقبوضة فهي فتحة تليها واو ساكنة ويكون صوتها مائلا نحو الضم قليلا ، وأما المبسوطة فهي فتحة تليها ياء ساكنة . ويكون صوتها مائلا إلى الكسرة قليلا ، وأما الضئيلة فهي كسرة غير محسوسة بحيث يظن الحرف معها ساكنا (٢) .

وليس في العامية حركات الاعراب ؛ لأنها لا اعراب فيها ، وليس فيها التنوين كذلك ؛ لأنه من خواص الأسماء المعربة . والاعراب ساقط في

---

(١) مجلة لغة العرب الجزء السادس ص٣٣٣ (السنة الرابعة كانون الأول ١٩٢٦ م) .

(٢) المصدر السابق ص ٣٣٤

كلام العامة إلا نادراً ، وذلك أنهم ربما كسروا آخر الاسم النكرة ونونوه كما فى قولهم : « جوزٍ - بتنوين الكسر - معدود بجراب - بتنوين الكسر - مشدود » . وكقول بعضهم إذا سلّم : « سلام - بتنوين الكسر - عليكم » .

وينتهى إلى أن « التنوين إنما يوجد فى كلامهم نادراً مقترناً بالكسرة فقط ولا يدخل وقوعه تحت ضابط ، بل هو من قبيل السماعى لأن الغالب المطرد فى كلامهم هو أن تكون أواخر الكلم ساكنة خالية من الاعراب»(١)

وقال عن تفخيم اللام : « إن تفخيم اللام فى اللغة الفصحى خاص بلفظة الجلالة ، وأما فى لغة العامة فإنهم يفخمون اللام فى كثير من الأسماء والأفعال، ولم أجد لتفخيم اللام فى كلامهم من ضابط عام تمتاز به مواقع التفخيم عن مواقع الترقيق ، سوى أنى نظرت فى كلامهم فرأيتهم أكثر ما يفخمون اللام فى الأسماء التى اجتمعت فيها الخاء واللام . فمن ذلك الخل - لما حمض من عصير العنب وغيره - والخلخال ، والخلان - جمع خليل - والخال - لأخى الأم - .....

أما الأفعال التى يفخمون فيها اللام فكثيرة أيضاً ، ومنها قولهم : نخل الطحين بالمنخل ، وينخل الطحين ، وربنا خلكنا من التراب ، وفلان مات وما خلّف شى - بكسر الشين - وغلك الباب. والحاكم ظلم الناس ويظلمهم ، والنايم يتكلب على فراشه ، وهو كال ، وهى كالت، وهم كالوا - وهذه الثلاثة خاصة بأهل البادية ، وأما أهل الحضر فلا يفخمون فيها اللام- ونكلنا الطعام، والنكال ينكل الحطب على راسه »(٢).

والرصافى حينما يبحث فى أصول نحو العامة ويقرر القواعد يضع أمامه

---

(١) المصدر السابق ص ٣٣٥

(٢) المصدر السابق الجزء السابع ص ٤٠٥ « السنة الرابعة كانون الثانى ١٩٢٧ م » .

الأبواب النحوية ومسائلها، ويستفيد منها فى التقسيم والعرض وتكاد دراسته تكون نسخة ثانية لكتب النحو المعروفة لولا أمثلته وأحكامه المأخوذة من العامية، فهو حينما يتكلم — مثلا — على الضمائر فى لغة عوام العراق (١) يذكر أن الضمير إما متصل أو منفصل، ويبدأ بالمنفصل ويتحدث عنه، وهو :

١ — الضمائر المرفوعة المنفصلة وهى : ضمائر المتكلم، وضمائر الغائب وضمائر المخاطب.

٢ — الضمائر المنصوبة المنفصلة : ولا تستعملها العامة فى كلامهم إلا فى موضعين :

أحدهما : فى موضع المفعول معه، فيأتون بالضمير بعد واو المعية كقولهم :

« امش ويای » و « تعال ويانا » و « أنا أجى وياكم ».

وثانيهما . موضع التحذير، ومنه قولهم : « بالك وياك تفعل كذا » والواو هنا عاطفة للضمير على « بالك »، وتقدير الكلام : احفظ بالك وحذر نفسك.

وربما استعملوا الضمير المنفصل فى التحذير بلا واو، وهو استعمال نادر جداً فى كلامهم كقولهم للحارس مثلا : « إياك تنام ».

والضمائر المنصوبة المنفصلة هى : ضمير المتكلم والغائب المذكر والغائب

---

(١) المصدر السابق الجزء الثامن ص ٤٦٠ — ٤٦٤ (السنة الرابعة شباط ١٩٢٧ م)

المؤنث والمخاطب المذكر والمخاطب المؤنث .

٣ — الضمائر المتصلة : وهى الضمائر المرفوعة المتصلة ، وضمائر الغائب ، وضمائر المخاطب .

٤ — الضمائر المنصوبة المتصلة وهى : ضمائر المتكلم المنصوبة ، وضمائر الغائب المنصوبة ، وضمائر المخاطب المنصوبة .

٥ — الضمائر المجرورة المتصلة .

والرصافى حينما يتحدث عن الرباعى المجرد فى لغة عوام العراق (١) يقسمه على :

الثلاثى المزيد : وهو إما أن يزاد فيه حرف واحد ، وهو ثلاثة أبواب : فعل وفاعل وافعل . وإما أن يزاد فيه حرفان وهو خمسة أبواب: تفعل وتفاعل وانفعل وافتعل وافعل . وأما أن يزاد فيه ثلاثة أحرف وهو بابان : استفعل وافعوعل .

والرباعى المزيد · وليس فى كلام العامة منه سوى مازيد فيـــه حرف واحد وهو « تفعلل » ويستعملونه لمطاوعة « فعلل » نحو : تـكربس .

والملحق الرباعى : وليس منه فى كلام العامة سوى ثلاثة أبواب هى :

١ — فنعل نحو خنزر ، وعنفص ، وحنجل .

٢ — فعول نحو : هرول .

٣ — فيعل نحو : بيطر

وهذه التقسيمات قريبة من تقسيمات النحاة فى كتبهم المتداولة المعروفة . ويستفيد كثيراً من التعليل اللغوى فى دراسته لأساليب العامية أوصرفها ونحوها ، ونجد ذلك واضحا فى كلامه على الوصل ، يقول : « الوصل فى

---

(١) مجلة لغة العرب الجزء السابع ص ٥٢١ ـ ٥٢٤ (السنة السادسة تموز ١٩٢٨م) .

كلامهم هو عبارة عن وصل آخر حرف من الكلمة بأول حرف من الكلمة التي تليها ، وهو كثير الوقوع في كلام العامة . وهم إذا وصلوا حرفا بحرف جعلوا الثاني منهما ساكنا ، ولا بد أن يكون الأول متحركا وإلا لم يصح الوصل . فإن لم يكن متحركا حركوه بالكسر ثم وصلوه » .

ويوضح ذلك بأمثلة من كلام العامة ، ويقول : « قالوا في أغانيهم :

سلم علي من بعيـــد وحواجبه هلال العيد

ففي هذا الكلام وصلوا ياء « علي » بميم « من » والحرف الأول «الياء المثناة » مفتوح والثاني « الميم » ساكن ، ثم وصلوا نون « من » بباء « بعيد » ، وقد حركوا النون بالكسر وسكنوا الياء من«بعيد » .وأيضا وصلوا الواو العاطفة بالحاء من « حواجب » والواو مكسورة ؛ لأن واو العطف يغلب عليها الكسر في كلامهم . والحاء من « حواجب » ساكنة ثم وصلوا الباء من « حواجب » بالهاء من « هلال » والباء مفتوحة والهاء ساكنة . وأما هاء الضمير في « حواجب » فغير ملحوظ وإن كان مكتوبا ، لأنهم يسقطون من اللفظ كل ضمير مفرد « غائب » [(١)] .

ويستمر في بحث الوصل بهذا الأسلوب الذي نجده في كتب النحاة وتعليلاتهم وتوجيهاتهم اللغوية . وهذا أثر من آثار ثقافته اللغوية والنحوية .

الأمثال العامية :

عرض الرصافي للأمثال العامية في الفصول الستة التي نشرها في جريدة « أ . حبزبوز » وهي جزء من كتابه « دفع المراق في كلام أهل العراق » .

ومنهجه في الحديث عنها يتلخص بما يأتي :

---

(١) مجلة لغة العرب الجزء السابع ص ٤٠٣ (السنة الرابعة كانون الثاني ١٩٢٧م) .

١ — أنه يشرح الألفاظ ويرجعها إلى العربية الفصحى . ومثال ذلك قوله فى شرح ألفاظ المثل «ال مايونى يغرك » : «فقولهم فى المثل المذكور «يونى» معناه : يحفر نؤيا ، والنؤى هو الحفير حول البيت يحفر لمنع السيل ، إلا أنهم حرفوه فقلبوا الهمزة منه واواً وقدموها على النون وكسروها فصار «ونى » وقالوا منه : «ونىّ يونىّ » إذا عمل نؤيا»[1] .

٢ — يذكر استعمال المثل وإطلاقه ، يقول فى المثل السابق : « يضرب للأمر بالحزم والاحتياط ، أى أن الذى لا يحتاط فى أموره ولا يتخذ من الأسباب اللازمة للنجاة يقع فى الهلكة كالذى لا يحفر حول خيمته نؤيا يمنع السيل عنها ، فإنه إذا جاء السيل أغرقه » .

٣ — يشير إلى ما فى المثل من كناية أو مجاز كقوله: « فأبو كلاش كناية عن الفقير ، لأن الكلاش عندهم هو حذاء من خرق يلبسه أهل الأرياف من الفلاحين والرعيان وأمثالهم . وأبو الجزمة كناية عن الغنى ؛ لأن الجزمة هى حذاء ذو رقبة طويلة تغطى الساق يلبسه أهل الترف وسعة العيش» .

٤ — يذكر قصص بعض الأمثال كقوله فى المثل : « ليما يثبت نفسه حصينى يروح جلده للدباغ » : «و أصل هذا المثل هو أن ثعلباً دخل مدينة قد سرق فيها جمل فأمسكه الشرطى على أنه هو سارق الجمل ، فأراد الثعلب أن يحتج بأنه ثعلب . والثعلب الذى هو حيوان صغير لا يستطيع أن يسرق حيواناً كبيراً كالجمل ، إلا أنه قبل أن يتم كلامه ذبحوه ورموا بجلده للدباغ كى يدبغه ويعمل منه فروة .

وهكذا حال الضعيف الذى هو صاحب الحق مع خصمه القــوى الغشوم »[2] .

---

(١) جريدة حبزبوز العدد السادس عشر (١٢ كانون الثاني ١٩٣٢) .

(٢) العدد السابع عشر .

٥ ـ يستطرد أحيانا ويتحدث فى مسائل اجتماعية ، يقول فى المثل : « الحلك إل يبكيك لا تلحك اللى يضحكك » : « وبمناسبة المعنى الذى يتضمنه هذا المثل نذكر للقراء هنا مسألة مهمة من أمهات مسائل التربية الاجتماعية التى هى محل الفرق بين أهل الغرب وأهل الشرق ، وذلك أن أهل الغرب إنما يربون الناشئة من أبنائهم على مبدأ مادى بحت بأن يجهزوهم بكل ما يلزم لمعترك الحياة الاجتماعية ، فإذا بلغ الولد أشده قالوا له : ها نحن قد جهزناك بكل ما يضمن لك الغلب والفوز من سلاح العيش، وهذا معترك الحياة أمامك فادخل فيه وما عليك إلا أن تكون فيه غالباً وهذه الغاية تبرر كل واسطة تتخذها لإحراز الغلبة .

وأما أهل الشرق فإن أساس التربية عندهم أدبى لا مادى، وهو الأخلاق الفاضلة ، فهى المبدأ الذى يجب أن تقوم عليه تربية الناشئة من أبنائهم، فإذا بلغ الوليد أشده قالوا له : هذا معترك الحياة أمامك فادخل فيه ، واعلم أنك فيه إذا غلبت هواك فأنت الغالب وإذا غلبك هواك فأنت الخاسر المغلوب .

فليست الغاية عندهم هى الغلبة المادية مطلقاً بل الغلبة المقرونة بالفضيلة؛ لأن الفضيلة هى الغاية المطلوبة على الإطلاق ، وهذة الغاية لاتبرر كل واسطة كما لا يخفى»(١) .

هذه هى السمات التى اتصف بها بحثه فى الأمثال العامية ، وهذه الدراسة تعتبر من الدراسات الأولى والمهمة فى أدب العامة فى العراق .

أدب العامة :

تحدث الرصافى عن أهمية أدب العامة ، ورأى أنه سبيل إلى معـــرفة ما للسواد الأعظم من الأفكار والعادات ، يقول : « فإذا أردت أن تعرف

---

(١) العدد الحادي والعشرون .

ما هى عواطف السواد الأعظم من كل أمة ، وما هى عاداتهم التى جروا عليها ، وأفكارهم التى يفتكرون فيها ، وأميالهم التى يميلون اليها ، فانظر فى كلام طغامها وأدبيات عوامها .

على أن فى أدبيات العامة مالا يستخف به من الكلام ، ففى قول قائلهم :

لو سقيت الشوك عنبر   قط ما يحمل ورد[1]

من المعنى ما لا يقصر عن أمثال المتنبى وحكمياته ، حتى أنّ ألفاظه أيضاً تعدّ من أول طبقة بالنسبة إلى اللغة العامية .

وعندى أنّ قول النائحة :

ياهلله هالشهر ما قشر لياليــــه   محمد باوله وعمشه بتاليـــه[1]

لا يقصر فى باب الرثاء عن قول أبى تمام : « كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر »[2] .

ولعله يبالغ فى هذا الحكم ، فليس البيت العامى الأول لا يقصر عن أمثال المتنبى وحكمياته ، وليس البيت الثانى لا يقصر عن بيت أبى تمام فى الرثاء ، ولكنه — رحمه الله — أراد أن يعطى لأدب العامة قيمة كبرى وأهميـة عظمى ؛ لأنه يمثل الحياة الاجتماعية للعامة . ومن هنا لا يمكن أن ننكر هذا الأدب ، ولكن ينبغى أن لا نبالغ فيه كما فعل الرصافى فى هذين البيتين .

وتحدث عن فنون الشعر الجارية على ألسنة العامة فى القديم وهى[3] : الزجل ، والمواليا ، والكان وكان ، والقوما ، وقال إن الزجل يعرف فى العراق بالعتابة ، وهو عند العراقيين اليوم من الوافر والزهيرى من البسيط . والشائع

---

(١) هذه القافات تلفظ بالكاف الفارسية أى كحرف (g) الفرنسى فى كلمة (ga) .
(٢) مجلة لغة العرب الجزء الثانى ص ٨٧ — ٨٨ (السنة الرابعة آب ١٩٢٦م) .
(٣) ينظر الأدب الرفيع ص ١١٧ وما بعدها .

فى هذا الفن أن يأتى الشاعر ببيت ذى أربعة مصاريع ، الرابع منها يلزم رويا واحداً فى كل القصيدة ، والثلاثة التى قبله تكون على روى آخر متشابه مختلف فى كل بيت . وعلى هذه الطريقة يجرى الزجل عند العراقيين اليوم ، وكذلك العتابة وهى لا تكون إلا بيتا واحداً ذا أربعة مصاريع الثلاثة الأولى منها على روى والرابع على روى آخر . ولا ينظمونها إلا من الوافر ، ويلتزمون فى قوافيها الثلاث الأولى الجناس ، وكثيراً ما يخرجون الكلام عن مواضعه ليتم لهم التجنيس ، كقول أحدهم :

خدودك شمس وعيونى حربها　　وأوصاف البيك كل كاهن حاربها
ياعينك من تصد تنبت حربها　　بدلالى وتهت عن رد الجواب

ويقول إنها سميت بالعتابة لتضمنها فى الغالب عتاب الأحباب ، أو لأنهم نسجوا فيها على منوال قول جرير :

أقلى اللوم عاذلَ والعتابا　　وقولى إنْ أصبت لقد أصابا

وتبعوه فى هذا الوزن ، وسموها « عتابة » ، لأن العتاب مذكور فى بيت جرير .

والشعر الزجلى المستعمل اليوم فى الأغانى العراقية ـ عدا العتابة ـ أنواع كثيرة تأتى على أوزان مختلفة خارجة عن أوزان الشعر الفصيح .

والمواليا مستعمل عند أهل العراق إلى يومنا هذا إلا أنهم حرفوا اسمه فسموه « الموال » ويسمونه « الزهيرى » أيضاً . فإن تركيب الموال عندهم كتركيب الزهيرى غير أنهم لم يقتصروا فى الزهيرى على أربعة أشطر بل جعلوه سبعة ، فيجعلون الأشطر الثلاثة الأولى على روى والأشطر الثلاثة التى تليها على روى آخر ، ثم يأتون بالشطر السابع الأخير على روى الأشطر الثلاثة الأولى .

وكان البغداديون أول من اخترع « الكان وكان» ونظموا فيه الحكايات والخرافات ، وكذلك اخترعوا « القوما » فى العصر العباسى برسم السحور فى رمضان .

وتحدث عن «الزجل وأدبيات العوام »[1] فى الكلمة التى كتبها عن الشاعر الشعبى الكبير الملا عبود الكرخى ، يقول : « إن للعامة فى كلامها أدباً وشعراً كما للخاصة عند جميع الأمم . ولما كانت العربية الدارجة اليوم غير العربية الفصحى من وجوه كثيرة أصبحت مسافة الفرق بين الشعر العامى والشعر الفصيح بعيدة جداً غير أن هذا البعد لم يكن إلا من جهة اللفظ فقط ، أما المعانى الشعرية فهى واحدة فى اللغتين الفصحى والعامية من دون فرق ولا اختلاف .

وتختص أدبيات العامة بأنها هى الواسطة الوحيدة لمعرفة ما للسواد الأعظم من الأفكار والعادات ، فإن أردت أن تعرف ما هى عواطف السواد الأعظم من كل أمة ، وما هى عاداتهم التى يجرون عليها وأفكارهم التى يفتكرون فيها والمنازع التى ينزعون اليها ، فانظر فى أدبيات عوامها فإنها هى التى تمثل لك حالتهم الاجتماعية تمثيلا صحيحاً لا غبار عليه . فمن هذه الوجهة يكون الزجل أو الشعر الصحيح هو كالمرآة تنعكس فيها حالة السواد الأعظم ظاهرة للعيان بما يتضمنه من ضروب أمثالهم وغيرها ، ولا ريب أن شعراً يتضمن أمثالا مضروبة فى وقائع وقعت فى هذا الزمان أصدق تمثيلا لحالتنا الاجتماعية الحاضرة من شعر يتضمن أمثالا قيلت فى وقائع وقعت قبل عشرة قرون ».

ويتحدث بعد ذلك عن الكرخى فيقول : « وقد انتهت الشهرة فى الشعر العامى اليوم فى العراق إلى حضرة صديقنا المـــلا عبود الكرخى الشاعر المطبوع الذى طالما أحدثت قصائده الرنانة ارتجاجاً فى مجمع العامة ، وابتهاجا

---

(١) ديوان الكرخى ج ١ (ص ث ـ ث) .

فى نفوس الخاصة فى أنحاء القطر العراقى كافة ، فهو جدير بأن يعد نابغة العراق فى الشعر العامى على الإطلاق » .

ويتحدث عن ميزة شعره وأسلوبه فيقول : « إن شاعرنا الكرخى متعلم تعليما بسيطاً بحيث يحسن القراءة والكتابة ، ولذا ترى على شعره مسحة من اللهجة الفصحى، وشعره المسموع إذا هو أنشده أشد تأثيراً فى النفوس من شعره المقروء فى الصحف ، وهو على الهزل أقدر منه على الجد، على أنه فى كلا الفنين أقدر من شعراء الفصحى على إحداث حركة فى أفكار السواد الأعظم ، لأن شعره مفهوم عند العامة أكثر من شعرهم » .

وحياه بأبيات سماها « إلى شاعر الأمة (١) » قال فيها :

لله درّك ياعبود من رجلِ ... يارافعاً فى القوافى راية الزجلِ
جريت جرى قدير فى مزالقه ... لم تخشَ من زلق فيه ولا زللِ
إذا اختشبت من الأزجال قافية ... تركت منها ذوى التنقيح فى خجلِ
وتسكت المتروى حين تسكته ... من شعرك الزجل الراقى بمرتجلِ
فاستقصِ جهدك فيما أنت قائله
فى الشعر من وصف مافى القوم من عللِ
فإن شعرك مرآة يلوح بها ... مافى الطبائع من جود ومن بخلِ
وانشر على الصحف مايشتاقه أبداً ... أهل العراقين من حاف ومنتعلِ

وقال عنه حينما أشيع بأنه مات (٢) :

أعبود إنك ذو فطنة ... تعيش بها عيش حر سعيد
قريحة شعرك فياضة ... لها فى الأناشيد مرمى بعيد
أتيت من الشعر بالمضحكات ... وبالمبكيات التى لا تبيد

(١) ديوان الكرخى ج ١ ص (ع) .
(٢) ديوان الرصافى ص ٥٠٠ قصيدة « الكرخى ومن كذب فى معناه »

فأعربت للناس عن قدرة ... لها قدّعنا كل خصم عنيـــد
تقدمت فيها على السابقين ... فمن ذا زهير ومن ذا لبيد
فكم لك فى المدح أنشودة ... مدحت بها كل شهم مجيد
وكم لكَ فى الهجو أعجوبة ... صفعت بها كل غاو بليد
يباهى بك الكرخ أبناءه ... ويثنى عليك بما لا مزيد
ولكنَّ حسّادك الخاسرين ... يبيتون منك بغيظ شديد
أشاعوا نعيَّك من غيظهم ... يريدون للشعر مالا يريد
ولما تبيّن إخفاقهم ... لدى الناس عادوا بغيظ جديد
فعش وادعاً رغم آنافهم ... بعمر جديد ، وعيش رغيد

وفى هذه الأبيات ما يوضح اهتمامه بأدب العامة الذى يعبر عن أحوالهم ويعكس حياتهم الاجتماعية والثقافية .

العامية التركية :

لم يقف الرصافى عند العامية فى العراق وإنما تحدث عن العامية فى اللغة التركية التى كان يحسنها (١) ، وعرض الآراء المختلفة فيها ، ودعوة أدباء الترك إلى دراستها والوصول إلى لغة سليمة .

ومن الطرق التى أشار إليها الأدباء الأتراك تجريد لسانهم من الكلمات العربية وغيرها ، ولكنهم لم يستطيعوا ، لأن فى ذلك رجوع اللسان العثمانى إلى عجرفة القرون الوسطى . وقد استاء بعض العرب كل الاستياء من هذه الفكرة وحملوا كلام هؤلاء الأدباء على محمل آخر جعلوه منبعثاً من عداوة عنصرية .

---

(١) ينظر كتاب رسائل التعليقات ص ١٢٧

ويقف الرصافى غير هذا الموقف الذى وقفه بعض العرب ويرى أن «الترك لو تيسر لهم تجريد لغتهم عما سوى التركية لخدموا اللغة العربية بذلك خدمة جليلة يجب لهم بها الشكر على العرب . فإننا نرى العرب اليوم حتى كتابهم يرتضخون اللكنة وينطقون بالهجنة فى كلامهم وفى كتاباتهم، ولم يأتهم ذلك إلا من استعمال الترك كثيرا من الكلمات العربية فى اللسان العثمانى استعمالا غير منطبق على اللهجة العربية ، ويستعملون كثيراً منها أيضا بغير معانيها فى لسان العرب . ولا شك أن الترك لكثرة اختلاطهم بالعرب قد أثروا فى لسانهم تأثيراً عمّت به العجمة فشملت منهم الخاصة والعامة . وليس ذلك بعجيب فإن العرب يسمعون فى كل يوم كلامهم ويقرأون كتبهم وجرائدهم فيأخذون الكلمات العربية من لسانهم ويستعملونها من حيث لا يشعرون فى المعانى التى يعنيها الترك منها (١)» .

ومن أمثلة ما وضعوه من عند أنفسهم :

ابتصار : يستعملون هذه الكلمة بمعنى التبصر ، وليست من كلام العرب .

إبذال : يستعملونها بمعنى البذل ، وليست من كلام العرب .

تكلس : يستعملونه بمعنى استحالة الشىء كلساً كقولهم : «أجسام عضويه نك مرور زمان ايله تكلسى» ، وليس بعربى .

تمسخر : يستعملونه بمعنى السخرة والاستهزاء ، وليس بعربى .

ومن أمثلة ما غيروا معناه دون لفظه :

أثر : قد يطلقون هذه الكلمة على الكتاب فيقولون : «بو أثر غايت مفيد بردر أثر» ، ويعنون الكتاب ، وهو استعمال غير عربى .

---

(١) دفع الهجنة ص ٧ .

أحباب : يستعملون هذه الكلمة كالمفرد ويطلقونها على الصديق المحب فيقولون : « فلان آدم أحباب مدر » ، وهى جمع حِب بمعنى محبوب .

أصناف : يطلقونها على أهل الصنائع والحرف من بقال وعطار وحداد وغير ذلك ، ويستوى فيها عندهم الواحد والجمع ، وإنما هى فى العربية جمع « صنف » بمعنى نوع .

تبرد : يستعملونه بمعنى البرودة فيقولون : « تبرد ايتدى » ، ويعنون أنه برد ، وإنما هو الاغتسال بالماء البارد . يقال تبرد فى الماء : استنقع فيه واغتسل به .

ومن أمثلة ماغيروا لفظه دون معناه :

آبلاق : يطلقونه على الشاب الضخم المدور الوجه الذى اشتد بياض وجهه كما اشتد سواد عينيه وشعره . وهو محرف من « أبلق » وهو فى العربية الذى فيه بياض وسواد .

شفره : يطلقون هذه الكلمة على الرسالة المكتوبة بالأرقام الهندية رمزاً بها إلى الحروف رمزاً اصطلاحياً ، فهى محرفة من الجفر ، فإن الجفر هو علم الحروف والرموز الحرفية ، وفيه تستعمل الأرقام الهندية بدل الحروف والكلمات .

صوفه : يطلقونها على باحة الدار المسقوفة التى تحيط بها بيوت الدار ، وهى محرفة « صفّة » والصفة فى العربية اسم لبيت صيفى .

كوفه : بضم الكاف وتخفيف الفاء ، يطلقونها على الزنبيل ، وهى محرفة من « قفّة » ، والقفة هى الزنبيل تتخذ من الخوص ، أو من القصب ، أو نحوهما.

ومن أمثلة ما غيروا لفظه ومعناه :

تلاش : كلمة مأخوذة من التلاشي وهو الاضمحلال ، وهم يستعملونها بمعنى التدله والانذهال .

تميز : لفظ محرف من تمييز مصدر « ميّـز » ، وهم يستعملونه بمعنى طاهر ونظيف .

طابيه : يطلقونها على ما يطلقون عليه كلمة استحكام ، وهى تل يقيمونه من التراب ويجهزونه بالمدافع فى الحرب. وهى محرفة من « تعبية » ، وتعبئة الجيش عبارة عن تهيئته وتجهيزه للحرب .

موسقه : يستعملونها بمعنى التميمة والعوذة ، وهى التى تكتب وتعلق على الانسان من العين والفزع والجنون . وهى محرفة من « نسخة » ولا تستعمل النسخة بمعنى العوذة فى العربية ، وإنما النسخة الكتاب المنقول منه ، يقال : « هذه نسخة عتيقة » . وتطلق على الكتاب المنقول أيضا لأنه قام مقام المنقول منه ، فقد حرفوها لفظاً ومعنى .

ولا يقتصر الأمر على الألفاظ بل يتعداه إلى الأسلوب والتركيب ، يقول : « وهناك أمر آخر أهم مما نحن فيه يجب التنبه له والتنبيه إليه ، وهو الأسلوب والتركيب ، فإنا اليوم نجد فى كلام العرب جملاً مركبة من مفردات عربية على أسلوب تركى . ونجد كثيراً من هذه الجمل فى الجرائد والمكاتبات وفى الكلام المتداول بالألسنة .

ومعلوم أن تركيب الكلام فى التركية يأتى فى الغالب على عكس تركيبه فى العربية ، فإذا قلت فى العربية مثلا : « زرت صديقى أمس » قلت فى التركية « دون دوستمى زيارت ايتدم » فتأتى بها معكوسة من الجملة العربية تمام العكس. وهذا - وإن كان واضحاً فى مثل هذه الجملة البسيطة - قد يخفى فى الجمل المطولة والتراكيب المتسلسلة . ولذا كان أكثر ما نجد الأسلوب التركى فى كلام غير

المهرة من المترجمين الذين يترجمون من التركيـة إلى العربية . وربما نضع رسالة أخرى فى هذا الباب إن شاء الله » (١) .

العامية فى شعره :

والرصافى حينما كتب هذه البحوث المستفيضة لم يرد الدعوة إلى العامية ونبذ الفصيحة ، وإنما درسها لأنها ظاهرة لغوية تستحق الاهتمام والوقوف عندها واشباعها بحثاً وتمحيصاً ، ليستفيد منها دارسو اللغة العربية والمهتمون بلهجاتها المختلفـة . وقد كان ما كتبه عن التركية واستعمال كثير من ألفاظها مفتاحاً لدراسة فقه اللغة المقارن فى اللهجات المختلفة . وليته انصرف إلى مثل هذه الدراسات وأكمل ماوعد به .

ولم تؤثـّر هذه البحوث فى لغته وشعره ، لأنه لم يكن ـ كما قلنا ـ من دعاة الأخذ بالعامية وترك الفصيحة ، بل كان ينتقد الذى تشوب كلامه عجمة أو عامية ، يقول عن المرحوم الشيخ محمد رضا صاحب مجلة المنـــار . « وقد شهدت خطبة له خطبها فى قسطنطينية ، فرأيت فيه من معايب الخطيب أنه ضئيل الصوت ، ولضؤولة صوته كان يتشادق فى كلامه تشادقا بارداً جداً ، وفيه أيضاً لثغة خفيفة فى حرف الراء ، وفيه لـكنة عامية أيضاً ، فإنه إذا قال « كذا » قال « كزا » ، وإذا قال : « ذلك » قال : « زالك » ، وإذا قال : « نظرت » قال « نزرت » (٢)

ولـكن بعض النقاد لمس السهولة فى بعض قصائده والاقتراب من العامية فى بعض أبياته . يقول الدكتور ابراهيم السامرائى : « ولغة الرصافى سهلة واضحة فى أغلب قصائده حتى كأنك تقرأ مقالة فى صحيفة يومية من صحف هذا الزمان » (٣) .

---

(١) دفع الهجنة ص ١١٠ ـ ١١١

(٢) نفح الطيب فى الخطابة والخطيب نقلا عن كتاب الرصافى ـ ملحق به ص ١٠٤ ؛

(٣) لغة الشعر بين جيلين ص ٧١

ويقول الدكتور بدوى طبانه : « وقد يبالغ الرصافى فى مجاراة لغة شعره لطبيعة العصر الذى عاش فيه فيجعل البيان والافصاح أسمى مقاصده ، حتى لينحدر عن الرصانة والجزالة إلى النقيض ، فتراه فى بعض الأحيان يرق ويلين حتى ليكاد ينحدر إلى لغة العامة (١) » .

وتحدث الدكتور جميل سعيد عن الألفاظ العامية فى شعره(٢). وأشار الشيخ جلال الحنفى إلى كثير منها فى نقده(٣) .

ومن أمثلة ذلك قول الرصافى :

أرى عيشنا تأبى المنون امتداده ... كأنا على كيس المنون نعيش (٤)

والشطر الأخير عامى .

وقوله :

قــد أبت هذه السياسة إلا ... أن تكون الغشاشة الدساسه
لو أردنا إفاضــة فى هجاها ... لكتبنا لكم بها كراسه (٥)

وعبارة « كتبنا لكم بها كراسه » من العامى .

وقوله :

فأتوا من الأعمال ما هو صالح ... للناس فيه مصالح وفوائد (٦)

وعبارة « مصالح وفوائد » من الألفاظ التى لاكتها العامة .

---

(١) معروف الرصافى ص ٢٥١
(٢) دروس فى البلاغة وتطورها ص ٢٣٧
(٣) الرصافى فى أوجه وحضيضه ص ٩٢ ، ١٢٥ ، ١٤٢ ، ٢٥٢ وغيرها
(٤) الديوان ص ٥٣٨
(٥) الديوان ص ٣١١
(٦) الديوان ص ١٦٧

وقوله :

تركوا النساء بحالة يرثى لها وقضوا عليها بالحجاب تعصبا
قل للأُلى ضربوا الحجاب على النسا
أفتعلمون بما جرى تحت العبا (١)

وعبارتا « بحالة يرثى لها » و « بما جرى تحت العبا » من العامى .

وقوله :

الشعر مفتقرٌ منى لمبتكر ولست للشعر فى حال بمفتقر (٢)

وكلمة « فى حال » منتزعة من لسان العامة .

وينحدر أحياناً إلى العامية فى قصائد كاملة كقصيدته « إلى صاحبة الحياة الجديدة »(٣) السيدة حبوبة ، وقصيدته « يامحب الشرق » (٤) التى ألقاها فى حفلة تكريم المستر « كراين » الثرى الأمريكى بمناسبة مجيئه إلى بغداد سنة ١٩٢٩ .

وهذه الأبيات وغيرها مما ذكره النقاد عن ابتذاله فى ألفاظ شعره وجنوحه إلى العامية أحياناً ، لا تؤثر على اشتهاره باللغة الجزلة الفصيحة ، ولا تعطى صورة عن تأثير دراساته فى اللغة العامية وأدبها فى شعره وأسلوبه. وليس الرصافى أول من جنح إلى استعمال بعض الألفاظ التى لاكتها العامة، فقد سبقه شعراء كبار كالمتنبى وغيره من القدامى والمحدثين .

---

(١) الديوان ص ٣٤٦
(٢) الديوان ص ٦٤
(٣) الديوان ص ١٥٦
(٤) الديوان ص ٤٣٦

الفصل الثالث

الاشتقاق والتعريب

العربية غير عاجزة :

تحدث الرصافى عن اللغة العربيـة ووسائل تطورها ونموها ، ورأى أن العصر الحاضر يدعونا إلى الاهتمام بهـا لنستطيع مواكبة الحياة العلمية المتطورة .

والعربية اليوم لا تستطيع أن تجارى لغة من لغات الأمم الراقية ، لأنها توقفت عن النمو ولم تجر مع الزمان. ولـكن هذا لا يمنع من الحركة والأخذ بكل ما يؤدى إلى نموها وتطورها ، لأنها غير عاجزة كما يتصور بعض الدارسين . يقول : « اللغة العربية براء من هذا العجز ، أعنى عجزنا عن تسمية أكثر ما نراه من مخترعات القرن الحاضر كيف والعربية بقواعدها المحكمة وتصاريفها المتناسقة ، وأقيستها المطردة جديرة بأن تعد من أطول اللغات باعاً وأبعدها للمعانى انتجاعاً ، وأكثرها للألفاظ توليداً وانتزاعا . وهى مع ذلك فيها من القابلية للتجدد والاتساع ما ليس فى غيرها من لغات البشر ، وإنمـا هو عجز أهلها وجمود الناطقين بها . فهى وأهلها كما قال الشاعر :

تقلدتنى الليالى وهى مدبرةٌ كأننى صارمٌ فى كف منهزم

ألا ترى أن اللغة العربية لم تزل إلى يومنا هـذا محرزة قصب السبق ، فائقة على غيرها من اللغات فى كل ما لم يحدث فيه تجدد أو تبدل من الأشياء كخلق الإنسان مثلا »(١).

---

(١) جريدة الأمل العدد ٦٠ (١١ كانون الأول ١٩٢٣م)، ومجلة الحرية الجزء التاسع ص ٤٩٥ (السنة الثانية مارت ١٩٢٦ م) .

ودعا إلى تنمية اللغة العربية وتطويرها ، وقد وجد أن اللغويين اتخذوا الاشتقاق والتعريب إلى ذلك سبيلا ، فتطورت ونمت ، أما نحن فقد قطعنا على أنفسنا هذين الطريقين وسددناهما ظلماً وعدواناً في وجه من أراد أن يسلكهما اليوم .

الاشتقاق :

والكلام فى الاشتقاق والتعريب كثير قديماً وحديثاً ، وقد نشر الأستاذ المرحوم عبد القادر المغربى كتابه « الاشتقاق والتعريب » سنة ١٩٠٨ م ، وأعجب الرصافى به ، يقول : « وهو كتاب على صغر حجمه قد استوفى الكلام عليهما بما لامزيد عليه . وقد ذهب صاحبه مذهبا حسنا فيهما طالما حاك فى صدرى ودار فى خلدى وحدثت به نفسى . وكنت أعتقد أنه الصواب من قبل أن أقف على الكتاب ، غير أنى لا أوافق مؤلفه الفاضل على ماوافق هو عليه من قول القائلين بأن الاشتقاق سماعى لايجرى فيه القياس » (١) .

وكان الأستاذ المغربى قد تحدث عن الاشتقاق والتعريب فى كتابه ، وقال: إن الأمة تنمو وتتكاثر أفرادها بطريقين : التوالد والتجانس . وهذا ينطبق على نمو اللغة ، فلغة الأمة العربية كانت لأول عهدها مؤلفة من أصول قليلة وكلمات ساذجة ، ثم تهيأت لهـا أسباب الارتقاء فأخذت تنمو وتتكاثر بالطريقين اللذين أثّرا فى نمو الأمة نفسها وتكاثرها، غير أن التوالد فى اللغة يسمى اشتقاقاً ، والتجانس يسمى تعريباً .

فالاشتقاق فى أصول الكلمات العربية بمثابة النتاج والتوليد فى الأفراد المتكلمين بها ، والتعريب فى الكلمات الدخيلة بمثابة تقرّب المنضمين إليها من الأمم الأخرى .

---

(١) المصدران السابقان .

ويرى أن الاشتقاق سماعى فى كل الجوامد والمصادر ، ونحن نقتصر من المشتقات على ما سمعناه من العرب [1] ، فالإسم الجامد الذى سمع أنهم اشتقوا منه صيغاً معدودة لنا أن نستعملها وننطق بها ، فليس لنا أن نشتق من كلمة « الحصا » الجامدة فعلا كـ « استحجر » ، ولا من كلمة « سهم » : سهمه ، و « رجْل » رَجَله ، بمعنى رماه بالسهم وأصاب رجله ، كما قالوا فى « السيف » سَافه ، وفى « الرأس » : رأسه .

ومثل ذلك يقال فى المصادر وأسماء الأحداث،فإننا نقتصر فى المشتقات منها على ما سمع منهم ونقل إلينا عنهم ؛ فلا نشتق من « النحافة » : ناحف كضامر ، وقد قالوا هم : « نحيف » . ولا من « الكشح » : كشيح ، بمعنى مضمر العداوة ، وقد قالوا هم : كاشح . واشتقوا من « الحب » محبوب ، ولم يشتقوا حابّ ، فلا نستعمله .

يقول : « ومحصل القول : إن اشتقاق كلمة من أخرى مما يقصد إليه العرب وله عندهم قياس يعرفونه وأسلوب يجرون عليه ، ولا يجوز لمن جاء بعدهم أن يفتات عليهم فى اشتقاق ما لم يشتقوه هم »(٢).

ولا يوافق الرصافى الأستاذَ المغربى فى أن الاشتقاق سماعى فى كلا القسمين من الجوامد والمصادر ، بل يرى أنه سماعى فى الجوامد فقط ؛ لأن الداعى إلى الاشتقاق إنما هو التغير والتبدل الطارىء فى معنى الكلمة ، فبسبب ذلك التبدل والتغير يتولد منها لفظ آخر يتضمن معناها الأصلى مع زيادة طارئة فيه . ولما كانت الجوامد ذات معانٍ ثابتة غير متبدلة ولا متغيرة لم يكن فيها سبب داعٍ إلى الاشتقاق والتوليد لما فيها من العقم المحض ، بخلاف المصادر وأسماء الأحداث فإنّ معانيها متغيرة لا تستقر على

---

(١) الاشتقاق والتعريب ص ٨ وما بعدها.

(٢) الاشتقاق والتعريب ص ٩ .

حال واحدة كالضرب مثلا فإنه لا يقوم بذاته ، بل يقوم بشخص فتكون في معناه زيادة فنحوله إلى « ضارب » ، ويقع على شخص فنحوله إلى « مضروب » . وقد تكون فيه كثرة فنحوله إلى « تضريب » ونقول منه : « ضرّب » و « مضرّب » . وقد يقع بين إثنين أو أكثر فنحوله إلى «مضاربة» أو « تضارب » ونقول منهما : « ضارَب » و « مضارب » و « تضارَب » و « متضارب » . وقد يقترن بحركة فنحوله إلى اضطراب ونقول منه « اضطرب فهو مضطرب » وهو يحتاج إلى محل فيتولد منه « مضرب » وإلى آلة فيتولد منه « مِضرَب » أو « مِضْراب » .

والاشتقاق في أسماء الأحداث ضروري لا بد منه ، ولا يجوز أن يكون عدم السماع حجة في منع قياسه واطراده من وجوه :

أحدها[١] : إن عدم السماع لا يلزم عدم الوقوع ، إذ يجوز أن يكون قد وقع وأن العرب قد نطقت به ، ولكنه فات الرواة فلم تروه ولم تنقله ؛ لأن اللغة أكثر ما يعتمدون في نقلها على الشعر ، ومن الجائز في الكلمة المحكوم فيها بعدم السماع إنها لم تقع في الشعر بل وقعت في النثر الذي لم تضبطه الرواة ولم تنقل منه ولا عشر معشار ، فعلى القائل بالمنع أن يثبت لنا عدم الوقوع وإلا فدليله مدفوع وكلامه غير مسموع .

ثانيها : إننا إن سلمنا في كلمة من المشتقات إنها غير مسموعة وغير واقعة أيضاً ، اكتفينا في جواز استعمالها بسماع نظائرها المطردة المقيسة . فإن العرب إن لم تقل « حابّ » من « حبّ » فقد قالت : « سابّ » من « سبّ » و « عادّ » من عَدّ » و « رادّ » من « ردّ » إلى غير ذلك من الكلمات التي جرت في كلامهم على وجه الاطراد . فنعُنا استعمال « حابّ » بحجة

---

(١) يقول المرحوم الدكتور مصطفى جواد معلقاً عليها في كتابه « المباحث اللغوية في العراق » ص ٨٦ : الصواب : أولها ، لأن الأحد يقابل الآخر » .

عدم السماع تحكم في اللسان ، وتهكم بسماع نظائرها المطردة ، ورمى للغة بالجمود .

ثالثها : إن الاشتقاق أصل فى أسماء الأحداث لكونه أمراً ضرورياً بسبب ما يقع فى معانيها من التبدل والتغير .

وإذا كان الاشتقاق هو الأصل وقد تعارض عندنا فى بعض المشتقات دليلان :

أحدهما : يقتضى المنع ، وهو عدم السماع .

والآخر : يقتضى الجواز ، وهو القياس المطرد فى نظائره ، وجب أن نرجع به إلى الأصل ، وأن نرجح دليل الجواز على المنع ، لأن الأول مثبت للأصل ، والثانى ناف له(١).

ويعرض بعد ذلك رأى أحمد بن فارس وهو : « ليس لنا اليوم أن نخترع ، ولا أن نقول غير ماقالوه ، ولا أن نقيس قياساً لم يقيسوه ، لأن فى ذلك فساد اللغة وبطلان حقائقها »(٢) .

ويرى أن هذا ليس بشيء ، وأى فساد يحصل فى اللغة إذا قلنا « منفوع » من « نفع » ؟ وأى فساد يحصل فى اللغة إذا قلنا من « الفهم » : « أنفهم » أو قلنا من « السخط » : « سخّط » — بتشديد الخاء — ؟ وأى فساد إذا قلنا من « الحصول » : « استحصل » ومن الحصانة » أو « الحصن » : « استحصن » ؟ بل الفساد كل الفساد فى منع ذلك كله . يقول : « وهل فى اللغة العربية من حقيقة أكبر من اطراد القياس فى مشتقاتها؟ فاذا نحن أبطلنا

---

(١) جريدة الأمل العدد ٦٦ (١٨ كانون الأول ١٩٢٣ م) ، ومجلة الحرية الجزء التاسع ص ٤٩٨ (السنة الثانية مارت ١٩٢٦ م) .

(٢) الصاحبى ص ٦٧ .

هذا القياس وقيّدنا ألسنتنا فى كل كلمة من كلماتها بالسماع فقد أبطلنا أكبر حقيقة من حقائقها . ففساد اللغة وبطلان حقائقها إنما يكون بتقييد أنفسنا بالسماع لا بجرينا مع القياس — كما زعم ابن فارس — . وبهذا يعلم أن ابن فارس ومن ذهب مذهبه قد وقعوا فيما فرّوا منه . وإذا كان قول ابن فارس : « ليس لنا اليوم أن نخترع ، ولا أن نقول غير ما قالوه » حقاً ، فكيف جاز للمولدين أن يقولوا : « تبغدد » أى: انتسب إلى بغداد أو تشبّه بأهلها قياساً على قول العرب « تمعدد » و « تمضّر » و « تنزّر » ، مع أن كلمة « بغداد » ليست من المصادر بل من الجوامد التى يتوقف فيها الاشتقاق على السماع ؟ وقد أثبت علماء اللغة « تبغـــدد » فى معاجمهم ولم ينكروها على المولدين . وكيف جاز للمولدين أيضاً أن يقولوا : « فذلك الحساب فذلكة » نحتاً من قولهم : « فَذْلَكَ العدد كذا وكذا » ، والنحت ضرب من الاشتقاق ، وقد أثبت علماء اللغة « فذْلَكَ » ولم ينكروها »(١) .

وينتهى الى أن القياس فى الاشتقاق فى المصادر وأسماء الأحداث أمر ضرورى لابد منه ، وهو أكبر مزايا اللغة العربية ومن أجلى حقائقها الثابتة ، حتى أننا لو جرينا فى مسألة الاشتقاق مع السليقة العربية المحضة ونفضنا عن أفكارنا غبار الجمود لقلنا إنه جارٍ فى الجوامد أيضاً ، فان العرب قد اشتقت منها عند عروض الحاجة إلى الاشتقاق ، اشتقت من « الحجر » فقالت : « استحجر الطين » ، فلو قلنا نحن من « الطين » : « استطان الماء » ، كان ماذا ؟ وقالت : « استنوق الجمل » فلو قلنا نحن : « استجملت الناقة » ، كان ماذا ؟ فان قال قائل : إذا جاز لنا بالقياس أن نقول : « حابّ » من « حبّ » ، كما ذكرت لزم جواز أن نقول : « كارم »

---

(١) جريدة الأمل العدد ٦٦ (١٨ كانون الأول ١٩٢٣ ، ومجلة الحرية الجزء التاسع ص ٤٩٩ (السنة الثانية مارت ١٩٢٦م) .

من « كرم » و لائم » من « لؤم » ، و « ظارف » من « ظرف » مع أن العرب لم تقل ذلك ولم تعرفه . فاذا قلناه نحن قياساً نكون قد أفسدنا عليهم لغتهم وتكلمنا بما لم يكونوا يعرفون .

ويجيب قائلا : إن هذا القول إن لم يكن من قبيل المغالطة كان من الجهل بمعنى القياس ، وذلك لأن القياس الذى جرت عليه العرب فى أفعال السجايا ومادلّ على اللزوم والثبوت هو أن لا تكون الصفة المشتقة منها على « فاعل » بل على « فعيل » أو « فعل » أو « فعال » إلى غير ذلك مما ذكره أهل الصرف . فالقياس هنا هو أن نقول « كريم » و « لئيم » و « ظريف » ومتى أردنا أن نقول « كارم » أو « لائم » احتجنا فيه إلى السماع فلا نقوله إلا إذا سمعناه من العرب ؛ لأن السماع إنما يحتاج اليه ويحتج به فيما خالف القياس الذى جرت عليه العرب فى كلامها . وكذلك القول فى الأفعال الدالة على العيوب والألوان ، فان القياس فيها عند العرب هو أن لا تجىء الصفة منها على « فاعل » بل على « أفعل » كـ « عور فهو أعور » و « سود فهو أسود » . فاذا أردنا أن نقول غير ذلك احتجنا فيه إلى السماع .

وأما « حبّ » فليست كذلك ، بل القياس فيها وفى نظائرها أن تجىء الصفة منها على « فاعل » ، فلسنا إذا قلنا « حابّ » بمحتاجين إلى السماع ؛ لأنه إنما يحتاج اليه فيما خالف القياس .

ثم يقول : « فقد ظهر لك من هذا أن معنى القياس هو الأعم الأغلب . وشرحُ ذلك أن علماء العربية نظروا فى كلام العرب فرأوهم يأتون بصفة الفاعل مثلا على صيغة « فاعل » فى الأعم الأغلب من كلامهم فحكموا بأن القياس هو أن يقال من « ضرب » « ضارب » ومن « كتب » : « كاتب » وهلم جرّا .

وقالوا : كل ما خالف ذلك من نظائره فهو نادر موقوف على السماع .

ثم نظروا فى أفعال السجايا الدالة على الثبوت فرأوهم — أعنى العرب — يأتون بالصفة منها على « فعيل » فى الأعم الأغلب فحكموا بأن القياس فى مثل هذه الأفعال أن يقال من « كرم » : « كريم » ، ومن « لؤم » : « لئيم » وهلم جرا .

ونظروا فى الأفعال الدالة على العيوب والألوان فرأوهم يأتون بالصفة منها على «أفعل » فى الأعم الأغلب فحكموا بأن القياس فى مثل هذه الأفعال أن يقال من « عور » : « أعور » ومن « سود » : « أسود »: وهلم جرا .

وما خالف ذلك نادر موقوف على السماع .

فالقياس إذن فى « حبّ » ونظائرها غير القياس فى « كرم » ونظائرها ، فلا يلزم من قولنا « حابّ » من « حبّ » جواز أن يقال : « كارم » من « كرم »(١) .

هذا رأى الرصافى فى الاشتقاق ، وهو رأى يعطى اللغة دفعاً جديداً ، ويطورها بعد أن وقفت عند الذى رسمه القدماء فى كتبهم . ويمكن أن نستخلص الأسس التى وضعها ونوجزها بما يأتى :

١ — التمسك بقواعد الصرف ومارسمه الأوائل ، ولا يمكن أن نقيس على مالم تقرره العرب وتضع له قاعدة . ويتضح هذا الأصل فى رده رأى من يذهب إلى أننا نستطيع أن نقيس « فاعل » من كل فعل فنقول مثلا : « كارم » من « كرم » ، و « لائم » من « لؤم » ، و« ظارف » من « ظرف » .

وليس معنى هذا أنه يتمسك كل التمسك بالقواعد التى اشترطها القدماء ، بل كان يأخذ بما يجده مقبولا ويرفض ما لايجده معقولا ، وبذلك انطلق فى آفاق أرحب مما انطلق فيها القدماء .

---

(١) جريدة الأمل العدد٦٦ ، ومجلة الحرية الجزء التاسع ص ٥٠١ .

٢ — عدم الوقوف عند السماع فقط ، وفساد اللغة وبطلان حقائقها إنما يكون بتقييد أنفسنا بالسماع لا بجرينا مع القياس ، لأن مانقل إلينا قليل وماضاع كثير ، ويجوز أن تكون كثير من الصيغ التى نقبلها الآن قد ضاعت ؛ لأنها جاءت فى الشعر الذى لم يصل إلينا ، أو فى النثر الذى لم يهتم به القدماء كاهتمامهم بالشعر .

ونظرة الرصافى إلى الاشتقاق نظرة واسعة يقره عليها الكثيرون من الدارسين والمهتمين باللغة العربية وتطويرها وتقدمها . وكانت مسألة الاشتقاق من القضايا التى شغلت مجمع اللغة العربية فى القاهرة، وقد توسع فيها لم يتوسع به العرب لشدة الحاجة إلى الاشتقاق فى مصطلحات العلوم والفنون . وأجاز الاشتقاق من أسماء الأعيان لأن العرب استخدمته فى مئات الألفاظ كاشتقاقهم من أسماء الذهب والفضة والجص والزفت كلمات : مذهب ومفضض ومجصص ومزفت ، وكاشتقاقهم من أسماء الحجر والناقة والنسر والأسد وبغداد كلمات : « استحجر الطين » ، و «استنوق الجمل» و «استنسر البغاث » و« استأسد الرجل » و « تبغدد » . وقرار المجمع بهذا الصدد هو : «اشتق العرب كثيراً من أسماء الأعيان، والمجمع يجيز هذا الاشتقاق للضرورة فى العلوم » .

وجعل المصدر الصناعى قياسيا ، لشدة الحاجة إلى هذا المصدر فى التعبير عن كثير من حقائق الفلسفة والعلوم والفنون، وقرار المجمع هو : «إذا أريد صنع مصدر من كلمة يزاد عليها ياء النسب والتاء »(١) .

وهذا مادعا إليه الرصافى قبل أن يتخذ مجمع اللغة العربية فى القاهرة قراراته التى كان لها أثر كبير فى تطور اللغة وتقدمها واستيعابها لكثير من حقائق العلوم والفنون .

---

(١) تنظر مجلة المجمع الجزء الأول ص ٣٥ ، ٣٦ ، ٢١١ ، ٢١٥ ، ٢٣٢ ، ٢٦٨ .

التعريب :

أما مسألة المعرب والتعريب ، فيرى أن ماذهب إليه الأستاذ المغربى من أن التعريب قياسى ، صحيح ، وهو يوافقه فيما ذكره فى كتابه «الاشتقاق والتعريب» كل الموافقة . ولذلك لم يفصّل القول فيه ، ولم يتحدث عنه بل ترك الدارس يرجع إلى الكتاب ليرى مافيه من علم غزير .

إن المعرب عند الرصافى قياسى ، لذلك يقول فى المسميات المستحدثة : « لابد أن يكون لكل واحد منها فعل تفعله ؛ لأنها لم تحدث عبثاً . فان استطعنا أن نشتق لها من فعلها اسماً فذلك ، وإلا نظرنا فيها فإن كانت مما شاع على ألسن العامة استعملناها كما استعملتها العامة ، أو أجرينا فيها بعض التغيير إن رأينا فيها بعض النفور والحيود عن اللهجة العربية »(١) .

ويضرب مثلا بما أجراه من التغيير فى كلمة « أوتوموبيل » فقد غيّرها إلى « تومبيل » كـ « زنجبيل » ؛ لأن وزنها غير مألوف عندنا والنطق بها ثقيل على ألسنتنا ، واستعملها فى شعره فقال :

وفدفد قاتم الأعماق متسع طويت أجوازه طيّ المكاتيب
بتَومبيل جرى فى الأرض منسرحاً
كما جرى الماء فى سفح الأهاضيب(٢)

يقول الأستاذ المغربى معلقاً على ذلك : « أما قصيدته فى الأوتومبيل وقد وضع له لفظ « تومبيل » فلم تدل على دقة الوصف فقط ، بل تدل أيضاً على تمكنه من اللغة العربية وحذقه فى استعمال لخصها وشواردها ، مما يذكرنا بأبى العلاء المعرى وحذقه فى ذلك . على أن لقصيدة « التومبيل » دلالة ثانية

(١) جريدة الأمل العدد ٦٧ (١٩ كانون الأول ١٩٢٣ م) ومجلة الحرية ص ٥٠٢ .
(٢) الديوان ص ٢١١ .

على اتساع لغة العرب وصلاحية أساليبها وكلماتها لوصف المخترعات الحديثة وطواعيتها فى تقرير وسائل الفنون العصرية ، إذا أجيد استعمالها إجادة الأستاذ الرصافى لها »[1] .

وإن لم تكن اللفظة مما شاع على ألسن العامة عربناها واستعملناها حتى تشيع . وينبغى أن لانتحاشى عن استعمال ما تداولته ألسنة العوام من هذه الكلمات الحديثة ، فإن اللغة إنما تتقرر بشيوعها واستعمالها فى ألسنة العوام . اللهم إلا فى مصطلحات العلوم والفنون،فإن اللغة تتقرر فيها بألسنة الخواص واستعمالهم إياها .

ويرى أن نشتق من « تومبيل » فعلا فنقول : « تمبل تمبلة » أى : ركب التومبيل أو ساقه أو حركه ، فهو « متمبل » ويستند فى ذلك إلى ماذكره القدماء من اشتقاق « مجنق » من « منجنيق » إذ قالوا : « مجنق القوم » إذا رماهم بالمنجنيق .

وأن نشتق من«تلفون» فعلا رباعيا فنقول : «تلفن» إذا تكلم بالتلفون، فهو « متلفن » ، وأن نستعملها متعدية بأن نقول : « تلفنه » إذا كلمه بالتلفون ، فهو « متلفن » .

يقول الرصافى : « ولنذكر لكم بعض أمثلة من الكلمات المعربة الشائعة فى ألسنة العامة مما جاء فى كتابى المذكور — أى كتاب الآلة والأداة — قلت فى « التومبيل » : هو مايقال له : « أوتوموبيل » فى اللغات الأجنبية . وقد شاع لفظه الأجنبي فى كلام الناس واستعمله كتاب العصر أيضا،غير أنى لم أذكره لأن وزنه غير مألوف عندنا ، والنطق به ثقيل على ألسنتنا ، وليس هناك ضرورة داعية إلى إبقائه على أصله إذ لكل لسان لهجة خاصة به .

---

(١) الديوان ص (ط)

فينبغى لنا أن نرجع بما نأخذه من اللغات الأخرى إلى تلك اللهجة مهما أمكن، فإن أكثر المعربات التى أخذت عن اللغات الأخرى التى جرت فيها العرب على هذا النهج . ولست أريد أن ذلك واجب فى كل كلمة أردنا تعريبها ، بل إنما يجب ذلك فى الكلمة التى تشذ عن اللهجة وتثقل على اللسان كما فى كلمة « أوتوموبيل » فإن وزنها غير مألوف ، ولفظها غير مرصوف بحيث لو أراد شاعر عربى أن يذكرها فى شعره يصعب عليه كل الصعوبة أن يدمجها فى تفاعيل قريضه من أى بحر كان .

فيجب على ما أرى أن نشذّبها بعض التشذيب فنقول فيها : « تومبيل » ك « زنجبيل » ، وتكون حينئذ قد زال شماسها وهان مراسها مع المحافظة على جوهرها الأصلى الذى يدل على المعنى المراد بها . وربما جاز لنا بعد ذلك أن نشتق منها فعلا فنقول : « تمبل تمبلة » أى : ركب التومبيل أو ساقه أو حرّكه فهو « متمبل » وذهب فلان « متمبلا » أى : راكبا التومبيل ، وجاءوا « متمبلين » أى : راكبى التومبيلات .

فإن قال قائل : مَن الذى أجاز لك أن تشتق هذا الاشتقاق العجيب ؟ قلت : الذى أجاز للعرب أن يشتقوا « بجنق » من « منجنيق » ، إذ قالوا : «بجنق القوم» إذا رماهم بالمنجنيق . فإن كنا نحن اليوم خلفاءهم وورثة لغتهم فلم لا يجوز لنا ما جاز لهم ؟ ومن الذى أطلق ألسنتهم وشدّ ألسنتنا بنسعة الوجوم والجمود حتى أصبحنا نرى الأشياء فتضيق صدورنا ولا تنطلق ألسنتنا ؟

إن بعض المولدين من كتاب العصر أطلقوا على «التومبيل» اسم «السيارة» وهو حسن أيضا ، لكنه لا يمنع من التعريب . فإن أكثر المعربات لها أسماء فى اللغة العربية ، ومع ذلك عربتها العرب واستعملتها فى كلامها .

وقلت فى التلفون: وهو بكسرتين أو بفتح التاء وكسر اللام أو بفتحتهما.

هكذا تـكلم به الناس ، وبعد فائه واو تلفظ بين الضمة والفتحة . وهو كلمة يونانية الأصل مركبة ، ومعناها الصوت البعيد ، وحاصلها الإسماع من بعد .

ويطلق اليوم على آلة حديثة تكون بالنسبة إلى الصوت كالتلغراف بالنسبة إلى الكتابة ، فإنها تستخدم لنقل الصوت من مكان إلى آخر .

والذى أراه هو أن نقطع النظر نحن — معاشر العرب — عن كيفية تلفظ هذه الكلمة عند أهلها فننطق بها كما تقتضيه اللهجة العربية ، وذلك بأن نفرغها فى صيغة توافق إحدى صيغ الكلمات المستعملة فى اللغة العربية ، كما هو الشأن فى أكثر الكلمات المعربة . وعليه فنقول فيها تلفون كـ « حلزون » ومن الجائز أن نجمعها على « تلافين » ، كما يجوز أن نشتق منها فعلا رباعيا فنقول : « تلفن » إذا تكلم بالتلفون فهو « متلفن » . وأن نستعملها متعدية بأن نقول : « تلفنه » اذا كلمه بالتليفون فهو « متلفن » .

وما أدرى لماذا لا يجوز لنا ما جاز لأسلافنا ونحن ورثتهم وخلفاؤهم فى اللغة ؟ فكل ما أوجدته ملكاتنا فى اللغة يجب أن يكون عربيا أيضاً لاسيا إذا كان منطبقاً على القواعد المستنبطة مما قررته سليقتهم »(١) .

وقد استعمل كثيراً من الألفاظ والأعلام الأجنبية فى شعره . يقول :

تلفـــون به إلى الغيب نصغى وتلسكوبنا إلى الأرواح(٢)

ويقول :

رقى من أعاليها الفنغراف منبراً محاطاً بأصحاب غطارفة غر(٣)

---

(١) جريدة الأمل العدد ٦٧ (١٩ كانون الأول ١٩٢٣ م)
(٢) ديوان الرصافى ص ١٩١
(٣) الديوان ص ١٠

ويقول :

أيها الناس إن ذا العصر عصر العلم والجدّ فى العلى والجهاد
عصر حكم البخار والكهربائية والماكنات والمنطاد (١)

ويقول :

لقد غال عينىّ البُتاس بناره
فأصبحت ذا قلب من الوجد حرّان (٢)

ويقول :

أو أكرة من ديناميت إذا انفجرت
فنارها تنسف الشبان والشيبا (٣)

ويقول :

رويدك غورو أيهذا الجنيرالُ فقد آلمتنا فى خطابك أقوال
فياعجباً من أمة قدت جيشها تشابه كردينالها والجنيرال (٤)

ويقول :

خذى من نور رَنتَجنٍ شعاعاً به للعين تنكشف الغيوب (٥)

ويقول :

فهرشل ما شفى منّا غليلا ولا غاليل أنبأنا اليقينا
وكِبْلر قد هدى أو كاد لما أبانك يا نجوم تجاذبينا (٦)

---

(١) الديوان ص ١٩
(٢) الرصافى — صلتى به ص ٢٢ .
(٣) الديوان ص ٤٠٣ .
(٤) الديوان ص ٤٣١
(٥) الديوان ص ٥٧
(٦) الديوان ص ٢٦

ويقول :

ما تعاطى غير الخـــداع غلادستون فيها ، كلا ولا دلـكاسه (١)

ويقول :

هو فى الناس قـــدره متعال   لم يطل صرح ايفل انشازه(٢)

ويقول :

لدار شنلر فى القدس فضـــل   به تنسى تيتمها اليتـــامى
أدار شنـــلر لازلت مأوى   لأبناء الأرامـــل واليتامى(٣)

هذه بعض الأمثلة من الألفاظ والأعلام الأجنبية التى استعملها فى شعره ، وهى تدل دلالة واضحة على أنه كان مؤمنا بما دعا اليه .

ولا يخص التعريب الألفاظ وحدها بل يشمل التراكيب والجمل، وقد أشار إلى ذلك فقال : « وكما حدث فى العصر الحاضر أيضا من التراكيب والجمل ما هو معرب من لغات أجنبية ؛ لأن التعريب كما يكون فى مفردات اللغة يكون فى تراكيبها وجملها أيضا كقولهم : « هو كذا بكل معنى الـكلمة » وكقولهم: « ذر الرماد فى العيون » و « عاش فلان ستة عشر ربيعاً »و« وضع المسألة على بساط البحث » و « ساد الأمن فى البلاد » و كقولهم : « لا جديد تحت الشمس »(٤) .

ولم يذكر نصوص هـذه العبارات فى اللغات الأجنبية لأنه لا يعرف الفرنسية أو الإنكليزية ، وكان المرحوم الأستاذ عبد القادر المغربى قـد ذكرها فى كتابه « الاشتقاق والتعريب »(٥) ونقلها الرصافى عنه من غير أن يشير إلى ذلك .

(١) الديوان ص ٣١١
(٢) الديوان ص ٩٠
(٣) الديوان ص ٩٣
(٤) دروس فى تأريخ آداب اللغة العربية ص ١٣ .
(٥) ١٠٦ وما بعدها .

هذه آراء الرصافي في التعريب ، ويمكن أن نستخلص منها بعض القواعد ونجملها بما يأتي :

١ — جواز اشتقاق فعل من الاسم المعرب بقدر المستطاع .
٢ — استعمال مالاكته العامة فى استعمالاتها للألفاظ الأجنبية .
٣ — أحداث بعض التغيير إذا رأينا فى الكلمة نفوراً وحيوداً عن العربية الفصيحة .

وهو بهذا الأصل يحافظ على وزن الألفاظ العربية ويخضع الألفاظ الأجنبية لموسيقى اللغة العربية . وهذا رأى جليل يستحق كل تقدير ؛ لأن لكل لغة جرسا وموسيقى خاصة بها ولا يمكن أن نكسر هذه القاعدة وندخل ألفاظا تنبو عنها الإذن ولا يقبلها الذوق العربى .

وليس هذا بدعا فقد فعل العرب قديما مثل ذلك ، وحاولوا أن يخضعوا الألفاظ الأجنبية لأوزان ألفاظهم وجرسها الموسيقى ، وفعله غيرهم وأخذوا من اللغات الأجنبية ولكنهم أخضعوه لقواعدهم وأصولهم وذوقهم اللغوى .

ومما تجدر الاشارة إليه إننا ينبغى أن نكون حذرين عند استعمال هذه القواعد والأصول خوفا من الالتباس أو الانصراف إلى معانٍ لا نريدها حينما نعرب الكلمات . وقد وضعت المجامع اللغوية العربية كثيراً من القواعد التى يستنير بها المعربون حينما ينقلون الألفاظ إلى العربية. وليست أصول الرصافى بأقل مما فعل أساطين اللغة ، وهذا يدل على نباهته وإحساسه العجيب بقضايا اللغة وتذوقه لألفاظها وعباراتها وأساليبها . وقد كتب هذه الكلمات وأطلق هذه الآراء يوم كانت الدراسات اللغوية فى مهدها ، ويوم كانت الأمصار العربية ما تزال تحلم بإنشاء مجامع لغوية .

الفصل الرابع

لغـــويات

اهتم الرصافى بدراسة المفردات وأولاها عناية كبيرة ، ولـكنه لم يعقد لدراستها فصولا كاملة بل كان يذكر ذلك فى أثناء حديثه عن استعمال الألفاظ أو تعليقه على بعض الـكتّـاب .

وقد تحدث عن تأريخ مفردات اللغة فى كتابه « دروس فى تأريخ آداب اللغة العربية »[1] وضرب لذلك مثلا بلفظة « القرع » . يقول بعد أن ذكر كثيراً من معانيها الحقيقية والمجازية : « لم نتـكلم هنـا عن مادة القرع وعن معناها الأصلى اللغوى وبقية المعانى المتفرعة منه إلا لنأتيكم بمثال لبحث واحد من المباحث المتعلقة بمفردات اللغة . ومنه تعلمون ما فى هذه المباحث من السعة المترامية التى تجعل البحث فى مفردات اللغة جديراً بأن يكون فرعاً مستقلا على حدة من فروع تأريخ اللغة وآدابها . ولا تظنوا أنى استوفيت الـكلام على هذه المادة ، كلا بل أن هناك معانى أخرى تركتها لأننا لسنـا فى صدد ذلك ، وإنما الغرض هو إيراد مثال واحد للبحث عن مفردات اللغة »[2] .

ومن الألفاظ التى تحدث عنها :

الرعاية :

يقول : « كثر استعمال كلمة « دعاية » فى أيامنا فتـــداولتها الألسن

---

(١) ص ١٠ وما بعدها .
(٢) ص ١٢ .

والأقلام ، وهى تستعمل فى كلامهم بمعنى بث الدعوة ونشرها بين الناس بقصد استمالتهم إلى أمر من الأمور أو تنفيرهم منه. غير أن بعض المتنطسين[١] فى اللغة من الكتاب أنكر هذه الكلمة وأخذ يستعمل مكانها « دعاوة » .

وأظن أن الذى حملهم على انكارها أمران :

أحدهما : عدم سماعها ، فلذا لم تذكر فى معاجم اللغة .

والثانى : مخالفتها للقياس ؛ لأنها من « دعا يدعو » الواوى . فاستعمالها بالياء مخالف للقياس ، ولذا صاروا يستعملون بدلها « دعاوة » — بفتح الدال أو بكسرها .

أما أنا فأرى استعمال كلمة « دعاية » هو الصواب لا « دعاوة » :

أولا : لأن الدعاوة اسم من الادعاء كالدعوى ، فمعناها غير المعنى المراد بالدعاية ؛ ذلك لأن المراد بها ـ كما قلنا آنفاً ـ هو نشر الدعوة فى أمر من الأمور لاستمالة الناس إليه أو تنفيرهم منه ، ومعنى الادعاء لا يناسب هذا .

ثانياً : إن كلمة « دعاية » وردت فى الكتاب النبوى الذى أرسل إلى قيصر ، إذ جاء فيه : « ... أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ... » . ولا ريب أن رسول الله أفصح من نطق بالضاد . فدعوى عدم السماع فيها غير صحيحة .

فإن قلت : لماذا أغفلها علماء اللغة فلم يذكروها فى معاجمهم ؟ قلت :

---

(١) يقول الأستاذ كمال ابراهيم فى كتابه « أغلاط الكتاب » ص ١٠ :

« والصحيح : دعاوة بالواو لا بالياء ، ويجوز فى الدال الكسر والفتح » .

أولا : إن هذه المعاجم التى بين أيدينا لم تثبت جميع مفردات اللغة بل فاتها منها شيء كثير .

ثانياً : يجوز أنهم أغفلوها ولم يذكروها فى معاجمهم ؛ لأنهم لم يسمعوها فيما بلغهم من كلام العرب الذى نقلته إليهم الرواة . ولكن عدم السماع لا يلتزم عدم الوقوع ، إذ يجوز أن العرب قد فاهت بكلمة فات الرواة سماعها ففاتهم نقلها وذكرها كما وقع فى كلمة « دعاية » فإن الرسول قد استعملها فى كتابه إلى قيصر ، وقد فات الرواة سماعها فلذا لم تذكر فى معاجم اللغة .

وأما مخالفتها للقياس فإن فى اللغة شواذ كثيرة وهذه منها . ولا يعترض علينا بأن الشاذ غير فصيح ؛ لأن فصاحة الكلمة إنما تثبت باستعمال الفصحاء إياها . وقد استعمل كلمة « دعاية » سيد الفصحاء »[1] .

كفن :

قال المرحوم الدكتور زكى مبارك فى كتابه « النثر الفنى »[2] : « والكتاب يحتلون اليوم مكانة يصعب أن يتسامى إليها الشعراء ؛ لأن النثر هو الأداة الطبيعية لنشر الآراء والمذاهب والعقائد ، وزماننا مجنون بالسرعة فى كل شيء . والشعر كفن دقيق مثقل بالقوافى والأوزان غير خليق بتقديم ما يحتاج إليه العقول صباح مساء من ألوان الغذاء العقلى والوجدانى » .

وقال الرصافى معلقاً على استعمال « كفن » :

---

(١) خواطر ونوادر للرصافى نقلا عن كتاب الرصافى — صلتى به ص ١٩٧ .

(٢) النثر الفنى جـ ١ ص ٢٩ .

، بعد الانتباه إلى أن الكاف فى كلمة « كفن » ليست من بنية الكلمة وإنما هى الكاف الجارة أبقيت كلامى على ما هو عليه ولم أغيره ؛ لأن فى إبقائه تعريضاً بما فى هذه العبارة من عجمة إذ لا يتجه للكاف الجارة هنا أى معنى من المعانى فى العربية ، سواء اعتبرت حرفية أم إسمية . وهذه العبارة قد تداولتها أقلام الكتاب فى أيامنا على غير هدى من قواعد العربية. ويقال : إنهم أخذوها من اللغات الأفرنجية ، ولكنهم ليسوا فى استعمالها على صواب . وإذا كانت هذه الجملة فى كلام الدكتور معترضة لزم أن يعبر عن المعنى المراد منها بواو الاعتراض فيقال هكذا : « والشعر وهو فن ... » أما قوله : « والشعر كفن ... » فكلام تنبو عنه العربية الفصحى إذ لامعنى للكاف الجارة هنا ، فلذا تغافلت عن كونها جارة وأبقيت كلامى وارداً على كونها من بنية الكلمة »(١) .

وكأن — رحمه الله — قد فهمها أنه كفن ، لذلك يقول : « وليس الشعر كفناً كما يقول ، بل هو ثوب سندسى من طراز الفكر والخيال موشى بألوان الوحى والإلهام ، مرصع بجواهر البيان ، لا تلبسه إلا الغوانى فى المعانى ... ...

وكيف يكون الشعر كفناً وهو الذى شق أكفان الموتى وبعثهم من مراقدهم أحياء حياة خالدة يخالطون فيها الخاصة والعامة من الناس..»(٢).

اللبانة :

تحدثت جريدة العراق(٣) لرزوق غنام رزوق عن جريدة « الأمل » قبل صدورها ، وقالت : « لا ريب أن يسمع الناس بعد اليوم الرصافى

---

(١) رسائل التعليقات هامش ص ١٠٢ — ١٠٣

(٢) رسائل التعليقات ص ١٠٣ — ١٠٤

(٣) العراق المسائى العدد ٣٥٤ (٣٠ أيلول ١٩٢٣،١٩ صفر ١٣٤٢ هـ) .

يغرد بعد النوح ويطرب بعـد القنوط ويحمدل بعد اللعنة ، لأنه حظى بأمله وهو القائل :

وما أنا إلا شاعر ذو لبانة أنوح بها حيناً وحيناً أغرد

إنما اللبانة كما يعرفها اللغويون : الغرض والحاجة ، أو « الأمل » وقد حصل عليها اليوم » .

ورد الرصافى قائلا : « لا ريب أن الناس سيسمعوننى بعد اليوم أغرد وأنوح وأطرب وأقنط وأحمدل وألعن فلا أترك النـواح على الحيف ولا اللعنة على الخيانة والتمرد . أغرد إذا رأيت بلادى عامرة ، وأنوح اذا رأيتها غامرة . أطرب كل الطرب اذا رأيت كرام قومى يتعاونون ، ولـكن معاذ الله أن أقنط اذا رأيتهم يتخاذلون ، أحمدل وأسبح بحمد المصلحين ، وأصب صيـّب اللعنات على المفسدين .

وأما تفسيره اللبانة بالغرض والحاجة فتفسير قاصر ؛ لأن اللبانة كما قال عنها اللغويون هى الحاجة من غير فاقة ، بل من همة . فلا تـكون اللبانة الا شريفة بخلاف الحاجة .

وأما قوله : « وقد حصل عليها » فجهل بـّين ؛ لأن « الأمل » واسطة لا غاية ، وقد علم النـاس من خاصة وعامة أنه « لولا الأمل لبطل العمل» . فوجود الأمل دليل على عدم حصول تلك اللبانة .

وقد قال المتنبي :

لم يـُبـْقِ جودُك لى شيئاً أؤمله تركـتنى أصحب الدنيا بلا أملِ

هذا ولا بدَّ أن أذكـّر صاحب ذاك المقال — أعنى ذلك الكاتب المقيد على الإطلاق — بقولى :

وما أنا فى وادى الخيال بهائمٍ وان كنت معدوداً من الشعراء[١]

التذييل :

يقول الرصافى : « ومن كثرة الذيول التى تذيل بها الحكومة العراقية قوانينها نشأت فى العامية الدارجة لغة تداولتها الألسن العامة والخاصة فى العراق ، اذ صاروا يستعملون التذييل فى كلامهم بمعنى الإخراج من الوظيفة ، فيقولون : « فلان مذيل » أى مخرج من الوظيفة ، و « فلان ذيلوه » و « هذا كان من المذيلين فى الوزارة السابقة وهو من الموظفين فى الوزارة القائمة » و « تذيل فلان » اذا أخرج من الوظيفة بالذيل ، الى غير ذلك من كلامهم[٢] » .

وتتضح فى هــــذه الأمثلة نزعته اللغوية واهتمامه بالألفاظ واستعمالاتها .

✡ ✡ ✡

هذه بحوث الرصافى وآراؤه فى اللغة ، وهى — كما مرّ — تتصل بجمود اللغة وكيفية تطورها ، وبالفصحى والعامية ، والاشتقاق والتعريب . وكان مخلصاً للغة العربيـة فى كل ما كتب ؛ لأنه مؤمن بها كل الايمـان ، وقد حزّ فى نفسه أن يرى الجمود يلفها ، ويرى علماء اللغة يقفون عند الذى رسمه القدماء ولا يلتفتون إلى ما استجد من علوم وفنون تحتاج الى مصطلحات .

---

(١) جريدة الأمل العـدد الثانى (٢ تشرين الثانى ١٩٢٣ ، ٢١ صفر الخير ١٣٤٢ هـ) .

(٢) الرسالة العراقية ج ١ ص ٢٦ (نسخة الأستاذ عبد الله الجبورى) ، وينظر كتاب آراء الرصافى فى السياسة والدين والاجتماع ص ٤٤ — ٤٥

لقد وضع أسساً فى الاشتقاق يمكن الأخذ بها لتطوير اللغة ومتابعة الحياة ، وهذه الأسس ليست غريبة بل هى قياس على ما عرفه العرب فى عصورهم الذهبية يوم اتصلوا بالأمم وترجموا علومها ووضعوا مصطلحات سدّت حاجتهم ولبّت متطلبات الحياة الجديدة .

وما أحوجنا فى هذا العصر الى أن نسير على هداهم ونتوسع فيما ذكروه لنلحق بركب الحضارة . ولو انصرف — رحمه الله — الى هذه الجوانب كل الانصراف لأفاد اللغة العربية وأمدها بكثير من الآراء ، ولكنه شغل بالسياسة وألهته الحياة عن البحث والتنقيب فقضى أيامه الأخيرة يصارع الباطل وأعوانه ، والحياة ومصائبها حتى توفاه الله .

وبحوثه وآراؤه فى اللغة صوى تهدى الباحثين فى هذه الأيام ، ولعل الدراسات الحديثة تكمل ما بدأه ، وتفصل القول فى آرائه تفصيلا .

الباب الرابع

آراؤه النقدية

الفصل الأول

النزعة الأدبية

الاهتمام بالشعر :

نظم الرصافي الشعر منذ عهد مبكر مقلداً الشعراء الأقدمين ، حتى إذا ما استوى عوده شق طريقه وصار ذا نزعة خاصة واتجاه واضح فى الشعر .

وقد تحدث عن قوله الشعر وميله اليه واهتمامه بالشعر العربى وشواهد النحو التى دفعته إلى الاهتمام بالنظم والسير فى طريق الشعراء ، فقال : « كنت أدرس العربية على أستاذى المرحوم محمود شكرى الألوسى وأنا إذ ذاك دون العشرين حتى حفظت ألفية بن مالك وقرأت لها عدة شروح . وكنت مولعاً بحفظ الشواهد التى يوردها النحويون فى كتبهم إذا مرَّ بى فى أثناء الدرس بيت من الشعر راجعت فيه الشروح والحواشى فعلمت مَنْ قائله وماذا قبله أو بعده من الأبيات فحفظتها . وكنت قوى الحافظة حتى حفظت شيئاً كثيراً من هذا القبيل بحيث أن أستاذى كان يلقبنى بالشواهد . وكنت أشعر بميل فى نفسى شديد إلى الشعر لشدة تأثيره فىّ .

وبينما أنا فى درس ألفية ابن مالك نظمت فى إحدى الليالى أكثر من عشرة أبيات وجهت الخطاب فيها إلى شيخى وضمنتها شيئاً من مدحه دون أن أذكر إسمه فيها وأتيت بها صباحا ولم أنشده أياها ، بل أعطيته الورقة التى كتبتها فيها وأنا خائف أن لا تكون مقبولة لديه فقرأها جهراً بعد أن سألنى عن ناظمها وعلم أنها من نظمى وكان يقرأها باستحسان وينظر إلىّ فى أثناء قراءتها بتعجب ، ثم قال : ولكن عادة الشعراء أن يتخلصوا فيما ينظمونه من الشعر إلى ذكر الممدوح وأنت قد أهملت ذلك ، فمن تعنى بهذا المدح ؟

فقلت وأنا فى قبضة الخجل : إننى قصدت مدحكم ، وظننت أن تقديم الأبيات كاف لاعلامكم بأنها فى مدحكم ، واعتذرت .

ثم مضى زمن وأنا أنظم البيت والبيتين والثلاثة ، ولم أطلع أحداً حتى جاءنى الحب فنظمت شيئاً كثيراً من الغراميات ، وكان الذى كنت أنظمه لا يزيد على خمسة أبيات أو ستة . وقد جمعت ذلك فى كراسة مع بعض المقاطيع الهجائية التى دعت إلى نظمها إذ ذاك مماحكة بعض الأصحاب غير أنى لما تقدمت قليلا فى الاجادة فى نظم الشعر مزقت تلك الكراسة ولم أبق على شىء منها .

وبعد ذلك أخذت أنظم الشعر فيما أشاهده من الحادثات اليومية التى تحدث بين يدى ، وكانت مشاهد البؤس من أشد الدواعى عندى إلى نظم الشعر ، وكان لنا جارٌ فقير مبتلى بداء المفاصل وكانت له أخت تمرضه وكنا فى فصل الصيف الذى يكون فيه منام الناس فى لياليه فى بلادنا على سطوح الدور ، فكان هذا المريض إذا جنّ عليه الليل والى أنينه ، وكان أنينه يزعجنى طول الليل ، فهذه الحادثة هى التى أوحت إلىّ قصيدة « الفقر والسقام » . واطلعت فى ليلة عيد الأضحى على حالة أرملة بائسة لها يتامى صغار ولا حاجة إلى ذكر قصتها هنا(١) ، فحالة هذه الأرملة أوحت الىّ قصيدة « اليتيم فى العيد » . وكان لى صاحب وكان أبوه صاحب الشرطة إذ ذاك فى بغداد فأخذنى يوماً إلى السجن الكائن فى بغداد فشهدت فيه مشهد البؤس والشقاء حتى أوحى إلىّ قصيدة « السجن فى بغداد » .

وهكذا بقيت أنسج على هذا المنوال حتى أعلن الدستور العثمانى فذهبت إلى الاستانة وهى مركز سياسة الدولة إذ ذاك فاجترفتنى أمواجها المتلاطمة

---

(١) تنظر ص ١٠٥ ـ ١٠٦ من كتابنا هذا ففيها قصة هذه الأرملة .

وحالت فى الأكثر بينى وبين تلك المواضيع السابقة . ويا قاتل الله السياسة أنها مادخلت فى أمر إلا أفسدته »(١) .

لقد بدأ الشعر بتقليد الألفية وشعر الشواهد ولكنه سرعان ماتخطى هذه المرحلة وشق طريقه بسهولة فى عالم الشعر . يقول متحدثا عن ذلك : « بدأت بالنظم بتقليد الألفية فى نظم الأبيات من الرجز وكان عمــرى حينئذ لايتجاوز الـ (١٥ سنة) ، وقد بقيت مدة من الزمن أنظم الشعر لا أتقصد فى إظهاره على الناس ، ولكن بعد سنتين أوثلاث أو أكثر قليلا عندما بلغ عمرى حوالى (١٨ عاماً) صرت أنظم بعض القصائد وكنت أعجب بها فصرت أطلع الناس عليها من أصدقائى ، ولم يكن بينهم من هو أكثر منى فهما للشعر . وكانت هذه القصائد فيها الشيء من المديح للأصدقاء وفيها غزل وفيها مقطوعات أخرى . ويوجد فى ديوانى الأخير بعض هذه المقطوعات وأكثرها فى الغزل ، كالمقطوعة التى تبدأ فى :

اسمعى لى قبل الرحيل كلاما   ودعينى أموت فيك غراما(٢)

وكان فى أول حياته الشعرية قد لازم ديوانين اثنين هما : ديوان المتنبى واللزوميات للمعرى . وكان كثير الاهتمام بهما ، وقد استنسخ الأول بخطه مع أن نسخته المطبوعة كانت لديه(٣) ، وانتقى من الثانى ستمائة بيت وجمعها فى كراسة سماها « ألزم الألزم من لزوم مالايلزم »(٤) .

---

(١) مجلة الحرية العدد الأول ص ٧ وما بعدها (السنة الثانية تموز ١٩٢٥) ، وينظر ذكرى الرصافى للرشودى ص ٢٢٢ وما بعدها .

(٢) مجلة الثقافة الجديدة العدد الأول ص ١٤ (نيسان ١٩٥٤) ، وشعراء العراق فى القرن العشرين جـ ١ ص ٦٦ .

(٣) المصدران السابقان .

(٤) آراء أبى العلاء المعرى ص ٧ — ٨ .

وكان يستعير الكتب من أستاذه الآلوسى ويعكف عليها ويدرسها دراسة واعية حتى إذا ما تقدمت به السن وأصبح شاعراً تتغنى بشعره المحافل ، اتجه إلى التأليف فى الأدب والتأريخ والسياسة ، وترك عدة كتب تشهد له بالتضلع فى الأدب وفنونه .

ومن الموضوعات التى عالجها : الأدب العربى وتأريخه ، التقليد والتجديد ، الشعر وفنونه ، القوافى والأوزان .

الأدب وتأريخه :

تحدث عن الأدب وتأريخه فى كتابيه « الأدب العربى » و « دروس فى تأريخ آداب اللغة العربية ». وهذان الكتابان من أقدم الكتب التى تحدثت عن الأدب العربى فى العراق إن لم نقل فى البلاد العربية ؛ لأن التأليف فى الأدب أوانذاك كان فى بدايته ولم توضع إلا كتب قليلة كان بعضها يتبع طريقة القدماء ، وكان البعض الآخر يستفيد مما استجد فى عالم التأليف الغربى . وقد أشار إلى رأى الذين يذهبون إلى أن هذا الفن حديث النشأة ، فقال : « لقد ادعى بعض الناس أن هذا الفن ـ أعنى تأريخ أدب اللغة العربية ـ فن حديث النشأة فى مصر . وهذه الدعوى صحيحة إذا كان المقصود منها أن المتقدمين لم يفردوا هذا الفن بالتأليف ، أى : لم يضعوا فيه كتابا مصنفا على حدة منطبقا على الطرز الجديد فى تصنيف مباحثه وتبويبها ، وإلا فعلماء العرب لم يغفلوه بالمرة بل ذكروه مبعثراً فى كتبهم المطولة التى لم تغادر صغيرة ولا كبيرة إلا جمعتها ؛ لأن الكتب الأدبية عندهم لا موضوع لها معينا »(١).

ويتحدث بعد ذلك عن الكتب المؤلفة فى هذا الفن فيقول : « أما الكتب التى وضعت أخيراً فى هذا الفن فلم نقف منها إلا على كتاب تأريخ آداب

---

(١) الأدب العربى ص ٥ .

اللغة العربية لجرجي زيدان صاحب الهلال ، وكتاب آخر لمصطفى صادق الرافعي أحد شعراء مصر،وكتاب آخر مختصر اسمه الوسيط . وهذه الكتب كلها غير وافية بالغرض ولو أردنا أن ننتقدها هنا لطال الكلام وخرجنا به عن الصدد »[1].

إن الباحث فى تأريخ اللغة العربية ليركب بحراً عديم الساحل ، عظيم اللجة ، متلاطم الأمواج ، بعيد الغور ، كثير الأخطار ، شديد الأنواء ، لا تصل فيه سفن الفكر إلى مرسى ما ترجوه من غايتها المطلوبة إلا بعد تقلب كثير فى لجج البحث والتنقيب واقتحام أهوال خطيرة من أعاصير الحيرة والضلال ومقاساة عناء طويل من استعمال بوصلة القياس والدليل.

وهو ـ كما يرى ـ : النظر فى مفردات اللغة ، وتراكيبها وأساليبها ، والمنظوم والمنثور ، وأحوال المتكلمين باللغة ، وبيئتهم ، وأحوال من جاورهم ، وحياة العلماء والأدباء والرواة والقصاص ، والكتب التى تركها هؤلاء العلماء والأدباء[2].

ولما كان تأريخ الأدب واسعاً لا مجال للباحث أن يلم به ويسبر غوره ويكشف مجاهله ، يرى أن يجعل له موسوعٌ خاص به . يقول : « أرى الآن أنه يجب أن يجعل لهذا الفن ـ أعنى فن تأريخ آداب اللغة ـ موسوع خاص به ـ دائرة معارف ـ يلغى فى تأليفه الختام كما يلغى فى وضعه عدد السنين والأعوام ، وأن يشترك فى تأليفه من شاء من العلماء على أن لا يكتب كل واحد منهم إلا فى مسألة خاصة من مسائله فتضم هذه الكتب بعضها إلى بعض ، وتجعل موسوعا خاصا بهذا الفن ، ويبقى آخر هذا الموسوع مفتوحا لمن شاء البحث والتنقيب فى العصر الحاضر ولمن يجيء من بعدهم فى الأعصر الآتية ؛ ذلك

---

(١) الأدب العربى ص ٦ .

(٢) ينظر دروس فى تأريخ آداب اللغة العربية ص ٣ وما بعدها .

لأن حياة اللغة مترامية في القدم، ونشأتها متغلغلة في مطاوى ما كرّ من الدهور؛ لأنها وجدت يوم وجد الإنسان وارتقت بارتقائه إلى يومنا هذا »(١).

والفروع التي يمكن تقسيم هذا الفن عليها هي :

١ — تأريخ مفردات اللغة : وهذا الفرع يبحث عن أصل الكلمات ومنشئها وتطورها بحسب الأزمنة وحدوث التغيير فيها بسبب لوك الألسنة إياها ، وهذا البحث من مباحث علم الألسن ، وتندمج في هذا الفرع فلسفة اللغة الباحثة عن عللها وأسبابها وإرجاع المعاني المتشعبة من الكلمة الواحدة منها إلى أصل واحد مع بيان المناسبات الكائنة بين المعنى الأصلي وبقية المعاني التي تفرعت منه .

٢ - تأريخ التراكيب والجمل : ويبحث في هذا الفرع عن الجمل سواء كانت مفيدة أم غير مفيدة ، وسيرها وتطورها باختلاف الزمان والمكان ، وعما حدث وتجدد فيها بسبب التقدم في الحضارة والعمران .

٣ — تأريخ المعاني : ويبحث في هذا الفرع تأريخ المعاني وما يطرأ عليها باختلاف الأزمنة والأمكنة ، فهي تتطور وترتقي بارتقاء الأمة وتنحط بانحطاطها فيكون لها بسبب ذلك تأريخ كتأريخ الألفاظ ، وأجدر بتأريخها أن يعد فرعا مستقلا من فروع تأريخ آداب اللغة .

٤ — تأريخ المنثور : ويبحث فيه المسجوع منه والمرسل . واختلاف أطوار المنثور باختلاف الزمان ، واختلاف ما حصل فيه من الأساليب بعللها وأسبابها ، وعما يمتاز به كل أسلوب عن الآخر .

ويجب أن يقسم المنثور على منثور علمي ومنثور أدبي ، لأن بين هذين الأسلوبين فرقا واضحاً .

---

(١) المصدر السابق ص ٩

٥ — تاريخ المنظوم : يبحث فيه عن الشعر من رجز وقصيد ، ويشار أولا إلى حدّه وتعريفه والفرق بينه وبين الشعر المنثور ، ثم يتحدث عن منشئه والعوامل والأسباب التى أوجدته ، وعن أطواره فى مختلف العصور، وما أصابه من تطور وجمود .

٦ — تاريخ المتكلمين باللغة : ويبحث فى هذا الفرع عن طبائع أهل اللغة وأخلاقهم وعاداتهم وأديانهم وسائر أحوالهم الاجتماعية والسياسية والعلمية . ويدخل فى هذا الفرع البحث عن تاريخ أقليمهم الطبيعى وتاريخ من جاورهم من الأمم .

٧ — تاريخ مشاهير أهل العلم والأدب : ويبحث فيه عن حياة كل واحد من العلماء والشعراء والكتاب .

٨ — تاريخ آثار هؤلاء المشاهير : ويبحث فيه عما خلفه لنا أولئك العلماء والأدباء والشعراء من كتب ودواوين .

وبعد أن يتحدث عن هذه الفروع الثمانية ، يقول : « هذه هى الفروع التى يمكن — على ما أرى — تقسيم تاريخ آداب اللغة إليها . وهذا التقسيم وإن لم يقل به أحد قبلى إلا أنه منطبق على الواقع الذى نشاهده فيما يختص بتاريخ اللغة وآدابها من مؤلفات القوم قديماً وحديثاً . فإن من تلك المؤلفات ماهو خاص بمشاهير العلم والأدب ، ومنها ما هو خاص بنقد آثارهم وتمحيص مخلفاتهم الأدبية ، ومنها مايبحث عن أصول مفردات اللغة إلى غير ذلك من المؤلفات التى يفهم منها أن علماء الأدب قد أفردوا بعض فروعه بالتأليف وإن لم يقسموه إلى الفروع التى ذكرناها » .(١)

والغاية من تقسيمه على هذه الفروع تسهيل الوصول إلى ما هنالك من

---

(١) المصدر السابق ص ١٨ .

الحقائق الخاصة بآداب اللغة ، لأن البحث عنها جملة واحدة صعب ، وأن الإحاطة بها فى مؤلف واحد أصعب ، بخلاف ما إذا قسّم هذا الفن على فروع وأفرد كل فرع منه بالتأليف، فإنه بذلك يتسع المجال للباحث ويستطيع أن يصل إلى حقائق أكثر مما لو بحثها جملة واحدة .

ويتصور الرصافى أن أحدهم يعيب عليه تقسيم تأريخ اللغة على هذه الفروع فيرد رأيه قائلا : « كيف تعيب علينا هذا وأنت تعلم أن التأريخ عام وخاص، وأن تأريخ أدب اللغة هو من القسم الثانى . فكما يسوغ للمؤرخ أن يضع كتابا فى تأريخ بلدة من البلاد أو رجل من الرجال يسوغ للأديب أن يبحث من الوجهة التأريخية عن مسألة خاصة من مسائل اللغة وآدابها ، فيكون بحثه حينئذ من مباحث التأريخ خاص الخاص . وإذا كان الأمر كذلك جاز لنا أن نختص بالبحث وأن نفرد بالتأليف مسألة واحدة من المسائل التى يشتمل عليها كل فرع من الفروع التى ذكرناها إذ كل فرع من هذه الفروع يشتمل على مسائل عديدة » .(١)

وهذه التفاتة حسنة فى ذلك العهد الذى لم تكن الدراسات الأدبية قد وصلت فيه إلى ما نراه اليوم . وهذه النظرة تدل على عبقريته التى لم تتفتح على الشعر فقط ، وإنما ضمت اللغة والنقد والرأى السديد .

تعريف الأدب :

عرض الرصافى رأى الذين يقولون فى تعريف الأدب أنه « علم يحترز به عن جميع أنواع الخطأ فى كلام العرب لفظاً وكتابة » ، وناقشه وأظهر فساده .

يقول : « والذى يستنتج من هذا التعريف أن الأدب هو الاحتراز

(١) المصدر السابق ص ١٩

عن الخطأ لفظاً وكتابة ، وأن علم الأدب أى العلم الموصل إلى هذا الاحتراز هو مجموع مايسمى بعلوم العربية ليس إلا ».(١)

ويقول فى مناقشة هذا التعريف : « إن الغاية المطلوبة فى الأدب منفية بالنظر إلى هذا التعريف ، لأنه تعريف بالغاية . فانتفاء الخطأ فى اللفظ والكتابةهو الأدب، فيلزم وجود الأدب أينما وجدت هذه الغاية . إذن يصح أن يكون أديباً كل من لم يخرج فى كلامه عما تقتضيه قواعد اللغة أى كل من لم يخطىء فى لفظه وكتابته مهما كان كلامه تافها ومهما كانت كتابته سخيفة » .

ويقول : « وإذا كان الأدب مجرد الاحتراز عن الخطأ فى اللفظ والكتابة فبأى حق أم بأية نصفة نعد اليوم هؤلاء من أدباء العرب ولا نعد العرب الأولين كلهم أدباء ؟

بل الحق هو أن أمثال هؤلاء الشعراء والخطباء انما امتازوا على سائر أبناء قومهم بما اختصوا به من حسن البيان وقوة الخيال وبداعة التعبير وشدة التأثير بتفوقهم العظيم على غيرهم فى القدرة على البيان ، تلك القدرة التى كانوا بها يمتلكون المسامع ويختلبون القلوب » .

ويقول : « لقد تبيّن أنّ هذا التعبير فاسد لكونه غير مانع ، نعم أن هذا التعريف يصح أن يكون تعريفا لمجموع علوم العربية باعتبارغايتها المقصودة لا تعريفا للأدب(٢)» .

إن هذا التعريف القديم فاسد ، ويرى « أن الأدب صفة

---

(١) المصدر السابق ص ٢٠ ، والأدب العربى ص٤٩ .

(٢) دروس فى تاريخ آداب اللغة العربية ص ٢٠ وما بعدها ، والأدب العربى ص ٤٩ وما بعدها .

الأديب كما أن البلاغة صفة البليغ والفصاحة صفة الفصيح [١]، ولكي يتوصل إلى معرفة الأدب تحدث عن الأديب وخواصه المميزة له وانتهى إلى أنه ليس كل ما يكتب أدبا، وليس كل من يكتب أديبا، بل الأديب كل من أوتى قدرة على البيان بارعة يستطيع أن يتصرف بها كيفما يشاء فينقل بواسطتها إلى مخاطبه كل ما توحيه إليه قواه العقلية التى لا تقل عن قدرته البيانية براعة». والأدب «قدرة على البيان راسخة مؤيدة بالقوى العقلية تتصرف فى النفوس قبضاً وبسطاً بما تنقله إليها وتصوره لها من وحى تلك القوى العقلية [٢]».

وهذه آراء جديدة كان لها الأثر الكبير فى تطوير الأدب فى عهده، لأن الذين كانوا يدرسون الأدب لا يخرجون عما رسمه السلف وردده الأجيال.

موضوع الأدب وغايته:

وتحدث عن موضوع الأدب وقال إن موضوع الأدب هو الكائنات علويها وسفليها قواها ومادتها بجميع ما انطوت عليه من خير وشر ومن حسن وقبح وخير وشر، أى أن الأدب «لا يخرج فى انبعاثه عن حدود هذه الكائنات كما لا يختص بشيء منها دون شيء، بل كل موجود من قوة ومادة، ومن جوهر وعرض يصح أن يكون منبعثا له ومطافا لخياله، ومسخا لاحساسه، ومسرحاً لبنات أفكاره».

وقال: «وإذا كانت الكائنات موضوعا للأدب صح أن نقول: إن الأدب لا موضوع له، أى ليس له موضوع خاص ينظر فى اثبات

(١) المصدران السابقان ص ٢٣، وص ٥٤

(٢) المصدران السابقان ص ٢٦، و ص ٥٧ — ٥٨

عوارضه أو نفيها ، وانما موضوعه كل موضوع ، والى هذا يؤول قول ابن خلدون فى مقدمته : « هذا العلم — أى علم الأدب — لا موضوع له ينظر فى اثبات عوارضه أو نفيها ، وانما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته وهى الاجادة فى فنى المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم [١]، وأنت تعلم أن الاجادة فى فنى المنظوم والمنثور هى نفس الأدب . فلا يصح أن تكون موضوعا له » [٢].

وتكلم على غاية الأدب ، ورأى أن ما نادى به بعض المتجددين من أدباء الترك من أن «الأدب لا غاية له» ، غير صحيح لأنه ليس من المعقول أن تكون القصيدة نفسها هى الباعث على قولها ، بل لا بد أن تكون هناك غاية من نظمها . يقول : « سمعت بعض المتجددين فى أوربا والترك فى الآستانة يقولون . « إن الأدب لا غاية له » ويتوسعون فى هذا القول حتى يعموا به ما يسمونه بالصناعات النفيسة أو الفنون الجميلة ، وهى الشعر والموسيقى والرسم والنحت . فهذه الصناعات كلها لا غاية لها عندهم ، بل هى الغاية وهى المغيا ، فالرسام اذا رسم صورة كانت غايته تلك الصورة ، والشاعر اذا قال قصيدة كانت غايته تلك القصيدة وهلم جرا .

ولقد تأملت فى هذا القول فلم أجد له محصلا ينطبق على المعقول ، إذ لاريب أن الغاية هى ما يكون لأجله وجود الشىء ، فهى إذن علة الوجود وليس من المعقول أن يكون الشىء علة لنفسه ، فإذا قال الشاعر قصيدة فليس من المعقول أن تكون القصيدة نفسها هى الباعث له على قولها .

سألت عن تحقيق معنى هذا القول بعض من يقولونه فلم يجيبوا بما يشفى الغلة ، ثم إنى اطلعت على كتاب فى علم النفس نقله من الأفرنسية إلى التركية

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٥٣

(٢) دروس فى تاريخ آداب اللغة العربية ص ٢٩ ، والأدب العربى ص ٥٨ — ٥٩ .

نعيم بك البابان مدرس علم النفس فى دار العلوم بالآستانة ، فقرأت فيه بحث قولهم : « الصنعة للصنعة » وعلمت منه أن ليس معنى هذا القول أن الفنون الجميلة لا غاية لها بل معناه أنها لا تحتاج فى وجودها إلى مادة خارجة عن غايتها ، فإن الصناعات عندهم قسمان : ممتهنة وعالية . فالممتهنة هى ما يحتاج فيها الصانع إلى مادة خارجة عن غايتها كالنجارة مثلا فإن النجار يحتاج فيها إلى خشب يصنع منه كرسياً والخشب خارج عن غاية الكرسى بخلاف الصناعات العالية التى هى الفنون الجميلة فإن الصانع فيها لا يحتاج فيه إلاّ إلى استعمال الكلمات وهى غير خارجة عن الغاية المقصودة منه ، بل هى نفس تلك الغاية ، لأن غاية الشاعر من شعره إثارة العواطف والتأثير فى النفوس بوصف مشهد من مشاهد الطبيعة أو بتصوير منظر غرامى أو مدح أو هجاء أو غير ذلك ، والكلمات التى يستعملها فى شعره ليست بخارجة عن هذه الغاية بل هى الغاية نفسها ، لأنه متى تكلم بتلك الكلمات وأنشدها السامعين فقد حصلت غايته المطلوبة التى ذكرناها .

هذا هو معنى قولهم : « الصنعة للصنعة » ، وهو معنى صحيح لا غبار عليه ، ولا يلزم منه أن الأدب ليس له غاية كما يقولون » .

وينتهى إلى أنّ غاية الأدب هى « حمل النفوس على الانفعال بمظاهر الكون قبضاً أو بسطا لغرض ما » أو هى : « تسخير الأسماع واختلاب القلوب وإثارة العواطف وتهييج النفوس بالبيان المؤثر فيها قبضاً أو بسطاً أو حزنا أو سروراً وتلذذاً أو تألما سواء كان ذلك لغرض صالح أو غير صالح ، ولمقصد شريف أو غير شريف » .

وغاية الأدب بعد ذلك « ليست خيراً محضا بل قد تكون شراً أيضاً » . إن الأدب « لهو السحر الحلال الذى إن شاء كسا الحسن ثوب قبح فأظهره قبيحاً ، وإن شاء كسا القبح ثوب حسن فأظهره حسنا وهو السيف الذى

قد يبعث انتضاؤه حربا وقد يحسم داءها فيردها سلما ، وكم أمات من أناس وهم فى الأحياء وأحيا آخرين وهم فى الأموات» .

ثم يقول بعد ذلك : « وقد أخطأ المرمى من قال إن غاية الأدب تهذيب النفوس وتثقيف الأخلاق وتقويم أود الطباع ، فإن الأدب وإن جاز أن يكون واسطة لتهذيب النفوس وتحسين الأخلاق إلا أن ذلك معدود من فوائده المترتبة عليه لا من غايته ، إذ لا ريب أن فى الأدبيات كثيراً من مفسدات الأخلاق .

ولله در أبى العلاء حيث قال :

وما أدب الأقوام فى كل بلدة   إلى الغى إلا معشر أدباء

وإذا كانت غاية الأدب أخلاقية كما يقولون فماذا نصنع بالأهاجى والخمريات وبغزل المذكر والمؤنث ، بل ما نصنع بالمجون وأبى نواسه ، وماذا نقول فى ابن الحجاج الذى أحرز قصب السبق فى مجونه وكان ملحة الأدب فى زمانه» (١).

وقد تترتب على الأدب فوائد كثيرة كعلو المنزلة بين الناس والحفاوة عند الملوك واكتساب الأموال الطائلة ، وقد يدرك الأدب صاحبه فينقذه من مخالب الموت كما وقع لمالك بن طوق مع الخليفة العباسى . يقول الرصافى : « ولكون هذه الفوائد تحصل للأديب عفواً وتأتيه عرضا من غير قصد لا يجوز أن تعتبر للأدب غاية ، إذ قد يقع عكسها ، فكأى من أديب منى بالحرمان وقاسى من أدبه مضض الهوان وبات كاسف البال قليل الرجاء ، وهل أذاق بشار بن برد حتفه إلا أدبه ؟»(٢) .

---

(١) المصدران السابقان ص ٢٩ وما بعدها وص ٥٩ وما بعدها .

(٢) المصدران السابقان ص ٣٢ وص ٦٣ .

وتحدث بعد ذلك عن القوى العقليـــة ومنزلتها فى الأدب ، وأعطى للذكاء والخيال والحس والحافظة والذوق أهمية كبيرة[١] .

وقسم الأدب على منظوم ومنثور ، والمنثور على سجع وترسل، فالكلام عنده ثلاثة : النظم والسجع والترسل . ومدار هذا التقسيم إنما هو على الوزن والقافية وعدمهما، فإن الكلام إما أن يخلو من الوزن والقافية وهو الترسل، وإما أن يقترن بهما وهو المنظوم ، وإما أن يقترن بالقافية دون الوزن وهو السجع . وبذلك مرّ الكلام العربى بثلاثة أدوار ارتقى فيها « من البساطة والسذاجة الى التركيب والصناعة » وأولها دور النثر المرسل ، وثانيها دور السجع وثالثها دور النظم[٢] .

ثورة على القديم :

هذه آراء الرصافى فى الأدب وتقسيمه ، وهى آراء جديدة لم يألفهـــا الأدباء فى عهده . وقد كان ثائراً على القديم داعيا الى التجديد ، يقول فى التقليد : «ان كان التقليد قبيحا فى غير الأدب فهو فى الأدب أقبح» ، ويقول: « إنّ التقليد إن كان فى الأمور العقلية قبيحا فهو فى المسائل الأدبية أقبح ، لأن هذه المسائل لا يكلف المرء فيها بما هو فوق ذوقه وفهمه بخلاف المسائل الدينية فإن منها ما هو تعبدى محض يجوز — على ما قيل — أن يكلف المرء فيه بما هو فوق عقله وفهمه ، وليست كذلك المسائل الأدبية .

قد نستحسن بيتا أو قصيدة من الشعر ونجادل دون بلاغة ذلك البيت أو تلك القصيدة أشد الجدال ، لا لأننا أدركنا حسنهما بأفهامنا بل لمجرد أن صاحب الكتاب الفلانى من كتب الأدب قد استحسنهما أو لمجرد أن

---

(١) المصدران السابقان ص ٣٢ـ٤٢، وص ٦٣ ـ ٧٤ .

(٢) المصدران السابقان ص ٤٢ وما بعدها ، وص ٧٤ .

فلان الأديب قد استجادهما كل الاستجادة وأثنى على قائلها أطيب الثناء، أو لمجرد أنهما قد اتفق فى انتخابهما أكثر أهل المنتجات الشعرية فنكون فيما نقول عندئذ مقلدين لا مجتهدين ، وتابعين لا مستقلين ، وجامدين لا مفكرين ، مع أننا لو حكمنا فيهما أذواقنا ورجعنا فيهما الى أفهامنا لرأينا أنفسنا فى غنى عن المجادلة دون حسنهما(١)) .

ويحاول بعد ذلك أن يبرهن على صحة دعواه فيذكر القصيدة التى مطلعها :

صاح فى العاشقين يا لكنانه　　رشأ فى الجفون منه كنانه

ويذكر اعجاب القدماء بها والتنويه ببلاغتها وفصاحتها والدفاع عنها واتهام من لا يرى رأيهم بفساد الذوق ، ثم يأخذ بنقدها موضحا زيفها وخطل رأى الذين أعجبوا بها. ويعد تحليله لبعض الأبيات نموذجا لنقده الذى يحاول أن يخرج فيه عما استقرت عليه أذهان المتقدمين ، وتتضح فى هذا اللون من النقد رغبته فى التجديد. ويذكر لامية ابن الوردى وينقدها، وقول أبى العتاهية :

أتته الخلافة منقادة　　اليه تجر أذيالها

فلم تك تصلح الا له　　ولم يكُ يصلح الا لها

ويشير الى ما فيه من حسن وما فيه من ابتذال . وقول الأبيوردى الأموى :

قالوا: تركت الشعر، قلت: ضرورة　　باب البواعث والدواعى مغلق

خلت الديار فلا كريم يرتجى　　منه النوال ولا مليح يعشق

---

(١) جريدة الأمل العدد ٣٣ (٨ تشرين الثانى ١٩٢٣م) .

ويبين رأيه فيه .

وهذه الالتفاتات النقدية تعبر أحسن تعبير عن نزعته الى التجديد ، وابتعاده عن التقليد الذى يميت الإحساس ويقتل الشعور ويجعل الأدب هياكل محنطة لا تنفع ولا تؤثر فى النفوس .

وله حديث عن اتجاهات الشعر الحديث أدلى به حينما كان فى القاهرة سنة ١٩٣٦ م للأستاذ أسعد حنا مندوب « المجلة الجديدة »[1]، وفى هذا الحديث يتضح رأيه فى التجديد.ومما قاله : « لا يخفى أن الشعر كان فى القرون الأخيرة نسخة طبق الأصل فى تعابيره وتراكيبه ، اذ كان لا يصور لنا من الحياة الا صوراً محدودة فى ألواح المدح والهجاء والنسيب ونحو ذلك مما هو معلوم . أما فى اتجاهاته الحديثة فقد أخذ يصور لنا أشياء كثيرة من صور الحياة على اختلاف ألوانها ومنازعها مما لا حاجة الى بيانه لمن تتبع الشعر العصرى فى اتجاهاته الحديثة .

إلا أن الشعر الحديث لم يزل فى اتجاهاته محدودا أيضاً ، فهناك من مناحى الحياة ونواحيها ما لم يجرؤ الشعر بعد على تصويره. وأكبر مانع يمنعه عن ذلك هو التقاليد البالية والعادات السقيمة التى تقيده وتقيد الحرية الفكرية بقيود وثيقة،اذ نحن لم نزل فى مجتمع يتعاطى فى السر ما يراه معيباً فى العلانية ويفعل فى طى الخفاء أفعالا يرى الجهر فيها بالقول قبيحاً .

فالشعر الحديث فى اتجاهاته ناقص من هذه الناحية،ولا بد من أن سيأتى عليه يوم يحطم فيه هذه القيود اذا بلغ المجتمع العربى مبلغه من الثقافة العصرية فى العلم والأدب » .

ويتحدث بعد ذلك عن التجديد ويربطه بنهضة العرب فيقول : « كلنا ـ معاشر العرب ـ نعتقد بأننا اليوم فى دور انتباه،وأن لنا فى الوقت الحاضر

(١) العدد الرابع ص ٦١ ـ ٦٥ (السنة الخامسة أبريل ١٩٣٦ م) .

نهضة سياسية علمية أدبية ، وإذا كنا كذلك وكان اعتقادنا هـذا صحيحاً —ولا ريب فى صحته— فكيف يجوز أن لا يكون الشعر فى الوقت الحاضر فى طريقه إلى الازدهار والتقدم . فإذا كنا فى تقدم فالشعر فى تقدم ، وإذا كنا فى تأخر وانحطاط فالشعر فى تأخر وانحطاط .

نعم إن هناك فريقاً من أهل الأدب يدعون إلى التجدد فى الشعر ، وكلما حاولت أن أفهم معنى صحيحاً للتجديد الذى يدعون إليه لم أستطع ولم أفهم ماذا يريدون من التجديد . ثم قرّ رأيى — على ما استنتجته من أقاويلهم — ان التجدد هو تقليد الغربيين فى شعرهم وأدبهم ، مع أن الشعر هو الأمر الوحيد الذى يستحيل فيه التقليد ؛ لأن الشعر عند كل أمة ليس إلا ترجمان ثقافتها العامة فى العقل والعواطف والعادات والدين حتى الخرافات وهذه الأمور كلها تختلف باختلاف الأمم فيها اختلافاً قد يبلغ التناقض ، فكيف يجوز لأمة ترى أمراً من الأمور قبيحاً مثلا أن تقلد أمة فى ذلك الأمر وهى تراه حسناً ؟

قد قلت فى جوابى عن السؤال الأول : إن الشعر كان فى منازعه تابعا لحياة الماضين ، فكان بسبب ذلك نسخة طبق الأصل ، وأما اليوم فقد أخذ يصور لنا صوراً من الحياة الحاضرة وإن كان هذا التصوير منه لم يعم جميع نواحى الحياة للسبب الذى ذكرناه على السؤال الأول .

وهذا هو المعنى الصحيح للتجدد الذى يدعونا إليه فريق من الأدباء المتجددين . إذا صوّر لك الشعر صورا من الحياة أنت فيها فأطربك بأن أقامك وأقعدك وسرك وأساءك وأضحكك أو أبكاك ، وأنهضك أو ثبطك ، فاعلم أنه شعر جديد وأنه ليس من الشعر الذى هو صورة طبق الأصل .

فالدعوة إلى التجديد فى الشعر بالمعنى الذى يعنيه هؤلاء هو الذى أخشى

أن تجر الشعر العربى إلى الضعف والإضمحلال »[١].

لقد كان الرصافى مجددا فى الأسلوب والمعانى والأغراض ، ولـكنه كان تجديدا متزنا ، وكان ثائرا على القديم ولـكنها كانت ثورة هادئة .

واتهم مع هذه الدعوة الواضحة إلى التجديد بالتقليد ، وإنه يسير على خطا الشعراء الأقدمين . وتحدثت الصحف عن ذلك فى حياته وبعد أن ودَّع الدنيا وانقسم الكتاب فكان منهم من يصمه بالتقليد ، ومنهم من يتخذه إماما للمجددين .

يقول الدكتور بدوى طبانه بعد أن تحدث عن تجديده : « وقد كان ولوع الرصافى بالقراءة فى كتب العربية على اختلاف مباحثها مما أدى به إلى أن يتأثر بما قرأ من شعر الأقدمين تأثرا ظاهرا تلمحه فى مواضع متفرقة من بعض قصائده ، وما كان أغناه عن هـذا التتبع وذاك التقليد الظاهر الذى لا يقبل من فحول الشعراء ومبرزيهم »[٢].

ويقول الشيخ جلال الحنفى : « ويلوح أن الرصافى إذ يحسب نفسه مجددا للشعر أو متجددا فيه إنما يحكم لنفسه بذلك من أجل أنه ترك تلك المقدمات الطويلة التى اعتاد الشعراء تقديم قصائدهم بها حيث يتغزلون بمعشوقهم ويتباكون على الأطلال والمنازل ونحو ذلك من المقدمات التى حافظ عليها بعض شعراء العصور الأخيرة . غير أن الرصافى لم يفعل شيئا فإنه لم يزل يضع لقصائده مقدمات طويلة مملة بعيدة عن القصد والغاية . وبهذا يكون للقصيدة عنده أكثر من موضوع ، وهى طريقة العصر الخوالى لا طريقة العصر الحالى »[٣].

---

(١) المجلة الجديدة العدد الرابع ص ٦٣ ــ ٦٤ . وذكرى الرصافى للرشودى ص ٢١٠ وما بعدها .

(٢) معروف الرصافى ص ٢٤٢ .

(٣) الرصافى فى أوجه وحضيضه ص ١٠٨ :

وكان الدكتور طبانه قد تحدث من قبل عن وحدة القصيدة فى شعره وذكر أنه ينتقل أحياناً من موضوع إلى آخر ومن غرض إلى ثان[1]، ورد الأستاذ مصطفى على ذلك قائلا : « هنا لا بدّ لى من أن أوضح حالتين من حالات الرصافى :

الأولى : انه ما كان يشترط فى القصيدة التى تنشد فى حفل أن تكون قاصرة على ما أقيم الحفل من أجله، بل يجيز للشاعر أن يتناول أغراضا شتى، وله أن يشير فيها إلى ما أنشدت فيه أو لا يشير .

والحالة الثانية : هى أن الرصافى كان يوجه اليه فى أحيان مختلفة كثير من الاعتداء والشتم باسم النقد فكان يتلقاه بالصمت ويقابله بالسكوت حتى اذا ما سنحت فرصة فنظم قصيدة عرّض بأولئك أو صرح . وفى ديوانه شواهد يطول بى البحث اذا ما عرضت لها كلها »[2].

ومن شعر الرصافى فى ارتباط الأبيات قوله :

اذا انتظمت أبياته فى قصائدى ترى كل بيت ممسكا بقرينه[3]

واتخذ أعداؤه من بعض قصائده أو أبياته التى ينحو فيها منحى قديما حجة ، وثار النقاش واحتدم بين خصومه ومؤيديه . يقول قاسم بن على الزاهرى : « وقد وصمه أعداؤه بأنه قديم ، وهو عاب فيهم أرادوا التملص منه مع أن للرصافى من القصائد الجميلة ما لا يمكن انكار الروعة فيها ، ولا أخال أديبا عربيا خلت مكتبته من ديوان الرصافى ، ولا أظن أحدا يستطيع أن يحبس دمع عينيه من تلاوة قصائده .

---

(١) معروف الرصافى ص ٢٣٦ .

(٢) أدب الرصافى ص ١٣٧ ، وينظر كتابنا النقد الأدبى الحديث فى العراق ص ١٧٣ — ١٧٤ .

(٣) الديوان ص ١٩٦ ــ ٢٣٩ ــ ٢٣٩ .

وهـذه دواوين أغلب شعراء العراق فليس فيهـا الا المضامين التافهة الخالية من كل معنى جديد ولا يوجـد فيها من الشعر ما يثير الوجد وكوامن الشجون .

يقولون عنه : انه قديم ، وإنه ليس فى شعره ما يسمى جديدا ، وهو الذى يدعون بهذا كان شعرهم ولم يزل سخرية للكتاب والأدباء ، وقد قرأنا لهم من القصائد الباردة ما لا تصلح أن تسمى شعرا »[١].

ويتحدث أحد علماء اللغة العربية وهو المرحوم طه الراوى عن شـعر الرصافى فيقول عنه : « وعلى الجملة فالرصافى الراحل — عليه الرحمة — يعتبر حامل لواء التجديد فى الشعر على ضفاف دجلة من غير منازع ، واليه يرجع الفضل فى تنزيه الشعر أن يكون وسيلة للاستجداء وذريعة للقدح والمدح فى المنع والعطاء على حد قوله :

تركت من الشعر المديح لأهـله
ونزهت شـعرى أن يكون قذاعا
وأنشدته يجـلو الحقيقة بالنهى
ويكشف عن وجه الصواب قناعا
وأرسـلته عفـًّا فجاء كما ترى
قوافىَ تجتاب البـلاد سراعا[٢]

وهذه شهادة عالم يعرف مواطن التقليد والتجديد .

---

(١) جريدة العراق العدد ١٨٨٢ (السنة الرابعة ٨ تموز ١٩٢٦ م ، ٢٧ ذو الحجة سنة ١٣٤٤ هـ) .

(٢) مجلة عالم الغد العدد التاسع ص ٩ (١ نيسان ١٩٤٥) ، وينظر ديوان الرصافى ص ١٢٦ ، وذكرى الرصافى للرشودى ص ١٠ .

ولعل خير ما نذكر فى هذه المسألة قول الرصافى نفسه :

كتبت لنفسى عهد تحريرها شعرا
وأشهدتُ فيها قد كتبتُ لها الدهرا
ومن بعد اتمامى كتابة عهدها
جعلت الثريا فوق عنوانه طغرا(١)

وقوله :

تريد لى الأيام أن أتقيدا   وأطلب فيها أن أكون المجددا
وتقعد بى دون المدى فى خطوبها   وغاية هم النفس أن أبلغ المدى
كفى لصريح العقل قيدا لمطلق   من الناس يبغى أن يكون مقيدا(٢)

---

(١) الديوان ص ٥٠ .
(٢) الديوان ص ٧٦ .

الفصل الثانى

الشعر

للرصافى آراء كثيرة فى الشعر ، ويبدو رأيه واضحاً فى قوله :

طابقت لفظى بالمعنى فطابقه ... خلواً من الحشو مملوءاً من العبر
إنى لأنتزع المعنى الصحيح على ... عرى فأكسوه لفظاً قدّ من درر
وأجوَد الشعر ما يكسوه قائله ... بوشى ذا العصر لا الخالى من العصر
لا يحسن الشعر إلا وهو مبتكر ... وأى حسن لشعر غير مبتكر (١)

وقوله :

ويارب معنى دقّ حتى تخاوصت ... إليه من الألفاظ أعينها الخزر
أرى اللفظ معدوداً فكيف أسومه ... كفاية معنى فاته العدُّ والحصر
وأُفق المعانى فى التصوّر واسعٌ ... يتيه إذا ما طار فى جوه الفكر
ولولا قصور فى اللغا عن مرامنا ... لما كان فى قول المجاز لنا عُذر
ولست أخص الشعر بالكلم التى ... تنظم أبياتاً كما تنظّم الدُّر
وذاك لأن الشعر أوسع من لغا ... يكون على فعل اللسان لها قصر
وما الشعر إلا كل مارنّح الفتى ... كما رنحت أعطاف شاربها الخمر (٢)

وقوله :

الشعر فن لا تزال ضروبه ... تتلو الشعور بألسن الموسيق
ويجيد تقطير العواطف للورى ... فتخاله لقلوبهم أنبيقا (٣)

---

(١) الديوان ص ٦٤
(٢) الديوان ص ١٨٣
(٣) الديوان ص ٨١

هذا مجمل رأيه فى الشعر ، أما آراؤه الواضحة الصريحة فهى كثيرة ، ويمكن أن نحصرها فى بعض المسائل .

تعريف الشعر :

عرّف الشعر وقال : « الشعر كالحسن لايوقف له عند حد . وقصارى ما نقول إذا أردنا أن نعرفه : إنه مرآة من الشعور تنعكس فيه صور الطبيعة بواسطة الألفاظ انعكاسا يؤثر فى النفوس انقباضا أو انبساطا » .

وشرح هذا التعريف بطريقة القدماء الذين يأتون بالتعريف الجامع المانع ثم يبينون مايدخل فى التعريف وما يخرج منه . يقول : « فقولنا : « بواسطة الألفاظ » ، قيد احترازى يخرج به قسماء الشعر من الفنون الجميلة المسماة عند القوم بالآداب الرفيعة كالرسم والنحت والموسيقى ، فإنها تشارك الشعر فى كونها منعكسا لصور الطبيعة ولكن بواسطة الألفاظ لا بواسطة الخطوط والألوان فى الرسم والأشكال البارزة فى النحت والألحان والأنغام فى الموسيقى .

وقولنا : « صور الطبيعة » ، معناه صور ما فى الطبيعة فيشمل المعانى الخفية والخيالات الوهمية والموجودات الصناعية التى صنعتها يد البشر أيضا . وأطلقنا فى التعريف « صور الطبيعة » ولم نقيدها بالحسن ؛ لأنّ الشعر لايصور الحسن فقط بل قد يصور القبيح كما فى الأهاجى ، وربما يصور الشعر ليلة ذات ظلام دامس وبرد قارس ورياح هوج روامس ، أو يصور مشهدا فظيعا من مشاهد الظلم والعسف أو منظرا محزنا من مناظر البؤس . وكل ذلك ليس من محاسن الطبيعة كما لايخفى » (١) .

وهذا التعريف يتناول المنظوم والمنثور من الشعر ؛ لأن الشعر قد يكون

(١) دروس فى تأريخ آداب اللغة العربية ص ٤٩ ، والأدب العربى ص ٨٠ ، وسحر الشعر ص ٨٥

فى المنثور كما يكون فى المنظوم ، ولكن الغالب فى المنظوم أن يتخذ لسانا للعاطفة ، أى واسطة لبيان سانحات الحس والخيال بخلاف المنثور فان الغالب فيه أن يكون واسطة لبيان ماهو ثمار العقل ونتائجه .

ولذلك أكثرت العرب اطلاق اسم الشعر على المنظوم حتى قال المتقدمون من أهل الأدب فى تعريف الشعر إنه « كلام ذو وزن وقافية » . وهو تعريف للمعنى الأعم من الشعر ، أو للفرد الكامل منه وهو الشعر المنظوم ، وإلا فإن الشعر قد يكون منثورا .

ويذكر دليلا لهذا الرأى فيقول : « ومن الدليل على أن العرب لا يخصّون الشعر بالمنظوم ما حكاه لنا كتاب الله عنهم من قولهم فى النبى إنه شاعر ، إذ قالوا فى القرآن إنه قول شاعر ، مع أنهم يرونه غير موزون ولا مقفى . ولم يردّ الله عليهم بأكثر من قوله : « وما هو بقول شاعر » ولو كان الشعر عندهم خاصا بذى الوزن والقافية للزم أن يقال لهم فى الرد عليهم : كيف تقولون إنه قول شاعر وهو عديم الوزن والقافية ؟

ومما يروى عن الأصمعى أنه قال : قلت لبشار بن برد : إنى رأيت رجال الرأى يتعجبون من أبياتك فى المشورة . فقال : أما علمت أنّ المشاور بين إحدى الحسنيين ، بين صواب يفوز بثمرته أو خطأ يشارك فى مكروهه. قال الأصمعى : فقلت له : أنت والله فى كلامك هذا أشعر منك فى أبياتك .

فقد جعل الأصمعى — وناهيك به من إمام فى الأدب — كلام بشار المنثور شعراً ، إذ قال له : «أنت فى هذا الكلام أشعر» واسم التفضيل يقتضى المشاركة والزيادة ، فهذا أيضاً يدل على أنهم لا يخصون الشعر بالمنظوم ، وأن الشعر عندهم قد يكون منثوراً »(١).

---

(١) المصادر السابقة ص ٥٠ ، وص ٨١ ، وص ٨٦ .

وينتهى إلى القول بأن « المنظوم سمى شعراً لا لكونه ذا وزن وقافية ، بل لكونه فى الغالب يتضمن المعانى الشعرية . وإن شئت فقل: لكون العرب فى الغالب لا تنظم الكلام إلا شعراً . فالوزن والقافية غير مأخوذين فى مفهوم الشعر بل فى مفهوم المنظوم ، وإنما أخذ فى مفهومه ليكون الكلام بهما من الأغانى لأنهما ضروريان للغناء » . ويختم رأيه بقوله : « وإذا تدبرت هذا جيداً هان عليك التوفيق بين تعريفنا للشعر وبين تعريف المتقدمين له » .

الشعر من الفنون الجميلة :

والشعر عنده ركن من أركان الفنون الجميلة ، وهو والموسيقى فى منزلة واحدة ، لأنهما متلازمان ، ولأنّ أحدهما متمم للآخر ؛ ولأن الشعر لم يكن موزونا إلاّ لأجل أن يتغنى به ، أى : لأجل أن يكون موسيقى ، ولولا ذلك لما كان للوزن معنى ، فالشعر لا يقال إلا لينشد أى : ليتغنى به . وعليه فالشعر والموسيقى متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر . فإذا رأينا شاعراً يقول الشعر ولا يتغنى به ولا يلحنه ولا يقوله ، قلنا: « إنه نصف شاعر» . وإذا ألصقنا الشخصين : قائل الشعر وملحنه أحدهما بالآخر كان كلاهما شاعرا واحدا بالمعنى الصحيح .

الشعر لا يختص ببلد :

والشعر لا يختص ببلد دون بلد ، ولا بشخص دون شخص ، ولا بأمة دون أمة ، وإنما هو فى كل أمة مظهر من مظاهرها فى الثقافة العامة المشتملة على ما فى تلك الأمة من أخلاق وعادات وتاريخ ودين وأساطير وخرافات. وقد يجوز أن يقوم فى بلد متأخر فى الثقافة شاعر يبذّ الشعراء الناشئين فى بلد متقدم فى الثقافة ، لأن الشعر فى كيانه الأصلى فطرى المصدر غريزى المنبع، وما العلم والثقافة إلاّ من مهذباته ليس إلاّ .

فمن أجل هذا يرى الرصافى أنّ غاية الشعر من السمو والعظمة ليس لها

حدّ معلوم حتى يصح أن يقال بأن الشعر فى بلد كذا قد بلغ غايته من السمو والعظمة ، فقد نرى شعرا سامياً عظيما ولكن الزمان قد يأتينا بأسمى منه وأعظم ، وليس من المعقول أن نجعل المواهب الربانية الأدبية محصورة بين حدود معينة لا تتعداها ولا تتجاوزها .

امارة الشعر :

وليس فى الشعر أمير ولا مأمور ، إذ ليس فيه طاعة لأحد على أحد ، وأذواق الناس فى الشعر لا تتجه إلى جهة واحدة ولا تتفق فيه على مذاق واحد ، بل كل واحد من الناس حر مطلق فى اتجاه ذوقه فى الشعر وفى مذاقه منه . وإذا كان هذا شأنه فكيف تصح فيه الامارة التى تستلزم الطاعة والخضوع لمن هو تحت أمرها .

وينتهى الرصافى إلى القول بأن « الكلام فى إمارة الشعر وأميره سخف ما بعده سخف » .

وقد سأله الأستاذ أسعد حنا مندوب « المجلة الجديدة » يوم الجمعة ٢٠ مارس ١٩٣٦ قائلا : « بعد وفاة شوقى أمير الشعراء ، هل تعتقدون أن أمارة الشعر انتقلت بالتبعية الى بلد غير مصر ، فإن كانت فإلى أين ؟ ولمن؟ » .

وأجابه : « قبل أن أحرك لسانى بالجواب أرسل اليك قهقهة متسلسلة ليس مصدرها الاستهزاء بك ولا السخرية منك ، وانما مصدرها اجلالك عن أن تنحط الى هذه الدركة فى تفكيرك . أما الامارة — ياسيدى — فليست من مواهب الله ، وانما هى من وضع البشر وضعوها لكى تكون لها الطاعة على ما يكون تحت أمرها فهى مادية بحتة لا علاقة لها بالمعنويات التى منها الشعر . فليس فى الشعر أمير ولا مأمور »[1].

---

(١) المجلة الجديدة العدد الرابع ص ٦٥ ، وينظر ذكرى الرصافى للرشودى ص ٢١٥ .

ولكنه كان يرى غير هذا فى قصيدته التى أنشدها فى حفل منتدى التهذيب ببغداد عام ١٩٢٧ م تكريماً لأمير الشعراء أحمد شوقى يقول :

يقولون لى فى مصرَ للعلم نهضة ... تفتق أذهاناً وتجلو بصائرا
وانّ بها للعلم قدرا وحرمة ... وان بها للحق عونا وناصرا
وان لأهل العلم فيها نواديا ... وان لأهل الفضل فيها دساكرا
ألم ترَ أن القوم فى كل محفلٍ ... بها رفعوا للقائلين المنابرا
وقد ضربوا وعداً لتكريم شاعر ... تملك صيتا فى الأقاليم طائرا
هو الشاعر الفحل الذى راح شعره ... بإنشاده فى البر والبحر سائرا
فلو قلت بعض الشعر فى يوم حفلهم ... تشدّ به منا لمصر الأواصرا
فقلت : أجل والشعر ليس بمعجزى ... ولن تعدموا منى على الشعر قادرا
الا انّ شوقى شاعر جدّ شاعر ... يفوق الأوالى بل يبزّ الأواخرا
تملك حر الشعر فهو رقيقه ... وقام عليه بالذى شاء آمرا

إذا رام جزلاً منه أنشد زاخراً ... وإنْ رام سهلاً منه أنشد ساحرا
فلا عجب من أهل مصر وغيرهم ... إذا عقدوا منهم عليه الخناصرا
بنى لهمُ مجداً رفيعاً بشعره ... لذا جعلوا حسن الثناء وكائرا(١)

ويعترف بامارة شوقى فى قصيدته التى رثاه بها ، يقول :

الشعر بعد مصابه بكبيره ... فى مصر جلّ مصابه بأميره

ويقول :

يا نيراً فجع القريضُ بموته ... فبكته عين وزينه وكسيره
وخلت سماء الشعر بعد أفوله ... من مشرقات شموسه وبدوره

---

(١) الديوان ص ١٣٧ — ١٣٨ ، وتنظر جريدة العراق العدد ٢١٤٠ (السنة السابعة ٧ أيار ١٩٢٧م، ٥ ذو القعدة ١٣٤٥هـ) .

ومؤمراً لم تنتقض بوفاته ... فى الشعر بيعته على تأميره
إذْ لن يقوم نظيره من بعده ... هيهات أن تأتى الدنى بنظيره

ويقول :

إنّ المتوج فوق عرش ذكائه ... يعلو المتوج فوق عرش سريره

ويقول :

الشعر كنت أميره وسميره ... فمن المسامر بعد فَقْدِ سميره

ويقول :

يا أهل مصر عزاءكم فمصابكم ... أمرٌ قضاه الله فى تقديره
الشعر قد ثلّت بمصر عروشه ... بوفاة سيده وموت أميره(١)
علمان من أعلامه كانا به ... يتنازعان السبق فى تحبيره
لكليهما الهرمان قد خشعا أسى ... والنيل مدّ أنينه بخريره(٢)

إن الرصافى لا يعترف بامارة الشعر فى حديثه الذى أدلى به لمجلة « المجلة الجديدة » ولكنه أقرّ لأحمد شوقى بالشاعرية واعترف بامارته على الشعراء عام ١٩٢٧م يوم نودى بالامارة ، وعام ١٩٣٢ يوم ودع الحياة . ولعله ذهب هذا المذهب لأنه لا يرى شاعراً بعد شوقى يستحق الامارة .

الشعر الجاهلى والإسلامى :

وللرصافى رأى فى الشعر الجاهلى والاسلامى فى عصوره المختلفة ، يقول : « يمتاز الشعر الجاهلى من جهة المعنى عمّا بعده بقلة الخيال فيه وبغلبة

---

(١) يريد حافظ ابراهيم وأحمد شوقى .

(٢) الديوان ص ٣٣٩ .

الحقيقة على المجاز وببساطة المواضيع التى يطرقها ، ويمتاز من جهة اللفظ بالجزالة وبرصانة التراكيب وفخامة الأسلوب .

ولم يتطور الشعر العربى فى صدر الاسلام تطوراً معنوياً ، بل بقى من جهة المعنى كما هو فى العصر الجاهلى لأنه لم تتوفر له أسباب التطور فى المعنى ، ولكن حصل له بعض التطور اللفظى فقلّ فيه الغريب من اللفظ والحوشى من الكلام ، مع محافظته على رصانة التركيب وفخامة الأسلوب ، وسبب هذا التطور اللفظى هو القرآن لاغير .

أما تطوره المعنوى فقد تمخضت به الأيام فى أواخر العصر الأموى ، ولكنه لم ينضج ولم يبلغ أشده الا فى العصر العباسى ، ونعنى بتطوره المعنوى انه خرج عما كان عليه فى العصر الجاهلى فاتسعت فيه مسارح الخيال وغلب فيه المجاز على الحقيقة كما اتسع نطاق المواضيع التى يطرقها .

أما أسباب هذا التطور المعنوى فهى :

أولا — اتساع المملكة الإسلامية واشتمالها على آثار عدة مدنيات سابقة كمدنية فارس والروم ومصر والهند وغير ذلك .

ثانياً — اتساع الثروة وتوفر أسباب الحضارة والترف .

ثالثاً — تلاحق الأفكار من أمم مختلفة فى المملكة الاسلامية واحتكاك القرائح بعضها ببعض ، واختلاط العرب بالعجم وتبادلهم فى الأخلاق والعادات والأزياء وغيرها من مرافق الحياة .

رابعاً — اتساع الآداب والعلوم بما نقل فيها إلى العربية من اليونانية والفارسية وغيرهما .

ولهذه الأسباب نفسها حصل تطور فى اللفظ أيضاً فغلبت الرقة فى الشعر

العربى على الجزالة ، وبعد أن كانت رصانة التراكيب عامة أصبحت خاصة يمتاز بها شاعر عن شاعر .

واستمر هذا التطور المعنوى واللفظى آخذاً بالاتساع إلى أواخر العهد العباسى فى بغداد ، ثم طـــرأ التوقف ، وما بعد التوقف إلا الانحطاط[1] » .

الشعر العصرى :

وله رأى فى الشعر العصرى صرح به للأستاذ رفائيل بطى ونشره فى مجلة الحرية[2] عام ١٩٢٥ ، وهو أن الشعر لم يبلغ بعد غايته المطلوبة ؛ لأن العرب أنفسهم لم يبلغوا غايتهم المطلوبة لا فى العلم ولا فى غيره من مظاهر العصر الحاضر .

ومن أسباب قصور الشعر عن بلوغ غايته العصرية قصور لغته عن تلك الغاية ، ويستحيل على اللغة العربية أن تقوم لها قائمة فى هذا العصر ما لم تكن للعرب جامعة علمية عصرية بكل معنى الكلمة . فمتى كانت لهم هذه الجامعة تقدمت لغتهم ، ومتى تقدمت اللغة تقدم معها الشعر وجاز له حينئذ أن يبلغ غايته فى مجراه العصرى . أما شعراء هذا الجيل فليس لأحدهم شخصية بارزة حتى يؤثره على غيره مطلقاً ، وإنما يقول عند سماع دعاويهم « فلا أنت من ذاك القبيل ولا أنا » ، على أن أكبرهم أعرفهم بنفسه ، وأصغرهم أكبرهم دعوى فارغة .

وليس معنى هذا أن شعراء الجيل كلهم كأسنان المشط ، بل يفضل الرصافى بعضهم على بعض من وجوه مختلفة كأن يفضل حافظا بنقاوة

(١) مجلة الحرية العدد الأول ص ٩ — ١٠ (السنة الثانية تموز ١٩٢٥) وينظر ذكرى الرصافى للرشودى ص ٢٢٥ — ٢٢٦

(٢) العدد الأول ص ١٠ (السنة الثانية تموز ١٩٢٥) ، وينظر ذكرى الرصافى ص ٢٢٦

ألفاظه وصدق تراكيبه ووضوحها ، وشوقياً ببعض معانيه . ويرى أنه لا بد أن يكون للشعر العربى مستقبل زاهـــر إذا تهيئت له أسباب التقدم والرقى .

وتحدث عن اتجاهات الشعر الحديث فقال بأن الشعر فى القرون الأخيرة « نسخة طبق الأصل » فى تعابيره وتراكيبه ، إذ كان لا يصور فى الحياة إلا صوراً محدودة فى ألواح المدح والهجاء والنسيب ونحو ذلك . أما فى اتجاهاته الحديثة فقد أخذ يصور أشياء كثيرة من صور الحياة على اختلاف ألوانها ومنازعها[1] .

وردّ ما ذهب إليه بعضهم من أن الشعر لم يتطور فى العصر الحاضر ، يقول : « وقد بلغنى أن بعض الكتاب من أدباء مصر فى العصر الحاضر يدعى أن التقدم لم يكن إلا فى النثر ، وإن الشعر لم يزل باقياً على ما كان فى العصور المظلمة .

عجباً ، إن هذا إنكار للواقع واصطدام بالطبيعة وقول بتخلف المسببات عن أسبابها ؛ لأن المؤثرات التى استوجبت تقدم النثر هى بعينها موجودة فى الشعر ، فكيف تقدم النثر دون الشعر ؟

وما أدرى ماذا يعنى بتقدم النثر ؟ إن كان يعنى تقدمه فى الأسلوب فلم يأتنا كاتب عصرى بأسلوب جديد خارج عن هذه الأساليب التى ذكرناها ، وان كان يعنى تقدمه فى الموضوع فقد أخذ الشعر العصرى يماشى النثر جنباً لجنب فى جميع مواضيعه العصرية الأدبية والاجتماعية والسياسية والروائية والتأريخية حتى العلمية وأصبح الشعر كالنثر يمثل لنا فى الجملة الحياة العصرية بجميع وجوهها ، ويطرقها من جميع مناحيها ، ولم يبق « نسخة طبق الأصل كما كان قبل هذه النهضة الأخيرة .

(١) ينظر المجلة الجديدة العدد الرابع ص ٦٢ وذكرى الرصافى للرشودى ص ٢١٠ .

ولو نظر فى شعرنا العصرى ناظر من أهل المستقبل بعد مضى قرنين أو ثلاثة لاستطاع فى الجملة أن يرى فى مرآته صوراً صادقة من حياتنا الحاضرة بجميع تفاريقها »(١) .

الشعر المترجم :

وله رأى فى الشعر المترجم ، يقول : « انّ فيما اطلعت عليه من الشعر الأجنبي المعرب شعراً تروقنى معانيه جداً غير أنى لا أثق بأمانة المترجمين فى تصويرهم تلك المعانى كما هى فى الأصل . ولئن كان النقل من لغة إلى أخرى فى غير الشعر صعباً فهو فى الشعر أصعب ؛ لأن الشعر قد يشير الى المعنى من طرف خفى اشارة يصعب نقلها الا على الماهرين من التراجمة .

هذا من جهة المعنى ، وأما من جهة اللفظ فقلما رأيت شعرا مترجما كساه ناقله ألفاظاً تناسب معانيه بل أكثر ما رأيته سخيف المبنى وان كان شريف المعنى . ولا ريب أن شراب المعانى ليس له غير الألفاظ من أوان، والشراب مهما كان مرموقاً فإنه يمجه الذوق إذا كان فى إناء وسخ غير نظيف .

ولم أر مترجما للشعر الأجنبي نثرا أمهر من فيلكس فارس الخطيب المصقع الشهير فى بيروت ،فقد قرأت له كثيرا من الشعر المترجم عن الفرنسية فكان حسنا جيدا . ولكنى لم أر قط شاعرا أجاد فى ترجمة الشعر الأجنبي نظما ، على أنى لا أنكر أن أكثر شعراء العصر ترجمة للشعر الأجنبي نظما هو حليم دموس الشاعر الشهير فى سورية ، ففى ديوانه شىء كثير من هذا القبيل .

فالمبرزون ممن عرفتهم من تراجمة الشعر الأجنبى إثنان هما : فيلكس فارس فى النثر وحليم دموس فى الشعر » .(٢)

---

(١) دروس فى تأريخ آداب اللغة العربية ص ٨٤

(٢) مجلة الحرية العدد الأول ص ١٧ (السنة الثانية تموز ١٩٢٥ م) ، وينظر ذكرى الرصافى للرشودى ص ٢٣١

بين المنظوم والمنثور :

للمنظوم مزايا خاصة يمتاز بها على المنثور ، منها أن الغالب فيه أنه يتخذ فى الكلام لسانا للعاطفة أى واسطة لبيان المعانى الشعرية من سانحات الحس والخيال ، بخلاف المنثور فإن الغالب فيه أن يتخذ واسطة للتعبير عما هو من ثمار العقل ونتائجه .

ومن مزايا المنظوم على المنثور أنه يكتسب بالوزن والقافية رونقا وحسنا يعلو بهما قدرا على المنثور الذى هو من طبقته فى البلاغة .

ومن مزايا المنظوم أن القابلية الشعرية فيه أكثر من المنثور، وهذا أمر يدركه كل من خاض عباب الشعر وعانى فيه نظم الكلام . وربما ظن البعض أن الناثر أوسع مجالا فى الكلام من الناظم لأنه مطلق العنان بخلاف الناظم فإنه مقيد بقيد الوزن والقافية ، ولكن الرصافى لا يرى هذا الرأى، يقول : «وليس هذا الظن بصحيح على إطلاقه لأن الوزن والقافية لا يقيدان الناظم إلا من جهة اللفظ تقييداً ما ولكنهما يطلقان سراح أفكاره من جهة المعنى ويهيئان له من المعانى الشعرية ما لا يتهيأ له بدونهما ، وذلك لعظم ما فيهما من القابلية الشعرية فيتسع بهما للناظم مجال كبير فى حومة العاطفة بحيث يعوضانه أضعاف ماخسره من السعة فى جهة اللفظ ».

وضرب مثلا بشعر أبى العلاء المعرى فقال : « جلست مرة إلى أحد الأفاضل من معارفى وأخذنا نتحدث فى شأن شاعر البشر أبى العلاء المعرى وما انطوت عليه لزومياته من آرائه الفلسفية العالية ، فقال جليسى متعجباً من فضل أبى العلاء : لو أن هذا الشاعر الحكيم لم يتقيد فى كلامه بالوزن والقافية ، أو لم يلتزم فيهما ما لا يلزم ، لجاءنا من فلسفته بما هو أكثر من هذا وأعظم ، ولأعرب لنا عن كثير من تلك الآراء العالية التى فاتنا منها الشىء الكثير بسبب تقيده بالوزن وبهذه القافية الشرود .

أما أنا فأنكرت على صاحبي هذا القول ، وقلت : إن أبا العـــلاء قد أعرب لنا فى لزومياته عن جميع آرائه الفلسفية فى الحياة الدنيا والآخرى ، ولو أنه كتب ما كتب نثراً لما جاءنا بأكثر من هذا . ألا ترى رسالة الغفران المنثورة فإنه لم يأتنا فيها إلا بجزء يسير من فلسفته التى انطوت عليها لزومياته المنظومة ، حتى أنه لو لم يتقيد بما تقيد به فى لزومياته من الوزن وتلك القافية لـما استطاع أن يأتينا فيها بتلك الحقائق الناصعة على ذلك النمط البديع الذى اكتست به عن تلك الحقائق برودا من الخيـــال قشيبة ، وتحلت بحلى من المحاسن الشعرية عجيبة بحيث تمتلك المسامع وتختلب القلوب ، وما ذلك إلا بفضل الوزن والقافية » . (١)

ويعترف أن الوزن والقافية قد أديا إلى أن تكون آراء أبى العلاء مبعثرة فى لزومياته ، ولو كتبها نثرا لمـا كانت كذلك ، ولـكنها حينئذ لا تـكون بهذا الجمال والإشراق والتأثير فى النفوس .

ويضرب مثلا آخر بقصيدة ابن زيدون التى مطلعها :

أضحى التنائى بديلا من تدانينا   وناب عن طيب لقيانا تجافينا

وقصيدة ابن زريق البغدادى التى مطلعها :

لا تعذليه فإن العذل يوجعه   قد قلت حقاً ولـكن ليس يسمعه

وقصيدة أبى العلاء التى مطلعها :

ألا فى سبيل المجد ما أنا فاعل   عفاف وإقدام وحزم ونائل

ويقول بعد ذلك : « هل يستطيع أصحابها أو غيرهم من البلغاء أن يأتوا بتلك القصائد منثورة نثرا لا يقل عن درجتها فى الشعر ؟ كلا ثم كلا . نعم

---

(١) دروس فى تأريخ آداب اللغة العربية ص ٤٥ ، وينظر الأدب العربى ص٧٦ ومابعدها

يمكن للناثر البليغ أن يأتينا بنثر أعلى من هذه القصائد فى غير المعانى الشعرية أما فيها فلا ، وما ذلك إلا لأن القابلية الشعرية فى النظم أكثر من القابلية الشعرية فى النثر » .(١)

ويلخص ما بين المنظوم والمنثور بقوله : « وخلاصة ما تقدم أن للمنظوم ثلاث مزايا امتاز بها على المنثور واختص بها من دونه :

الأولى : إنه لا يستعمل فى الغالب الا لبيان المعانى الشعرية .

والثانية : ان الكلام فيه يكتسب بالوزن والقافية رونقاً وحسنا يعلو بهما على المنثور .

والثالثة : ان القابلية الشعرية فيه أكثر من القابلية الشعرية فى المنثور(٢)» .

وهذا غير ما ذهب اليه كثير من النقاد والبلاغيين ، فقد فضلوا النثر على الشعر ، لأن القرآن الكريم نثر ولأنه فسيح الخطو يسهل على الكاتب التعبير به عن آرائه . ولكن الرصافى الشاعر لابد أن يقف هـــذا الموقف ويعطى للشعر ميزة كبيرة على النثر ، فقد شغف به حبا وقضى حياته من أجله واشتهر به وصار علما من أعلام العرب فى القرن العشرين .

بين المنظوم والشعر :

وتحدث عن النسبة بين المنظوم والشعر فقال : « ليس كل منظوم بشعر ولا كل شعر بمنظوم ، فالنسبة اذن بين المنظوم والشعر كالنسبة بين الحيوان والأبيض مثلا ، أى : بينهما عموم وخصوص من وجه ، فيجتمعان فى مادة ويفترق كل منهما فى مادة أخرى » .(٣)

---

(١) المصدران السابقان ص ٤٦ ، و ص ٧٨
(٢) المصدران السابقان ص ٤٧ و ص ٧٨
(٣) المصدران السابقان ص ٤٧ و ص ٧٨

أما اجتماعهما فى مادة فأمثلته كثيرة فى دواوين الشعراء ، وأما افتراق الشعر عن المنظوم بوجوده فى المنثور فأحسن مثال له من القديم خطبة قس ابن ساعدة الايادى ، والشعر المنثور الذى كتب فيه أمين الريحانى وجبران خليل جبران فى عصرنا الحديث .

وأما افتراق المنظوم عن الشعر فمثاله ما قاله رجل زار صاحباً فلم يجده فى قصره فسأل خادمه : أين مضى ؟ فقال الخادم : لا أدرى . فترك له عند الخادم بطاقة فيها :

جئتـــك للقصر ضحى زائراً ولم تكن مذ جئت فى القصر
فقلت للخـــادم : أنّى مضى فقـــال لى : واللهِ لا أدرى

فهذان البيتان مجردان من كل معنى شعرى ، وليس فيهما زيادة على الكلام الاعتيادى سوى الوزن والقافية ، فهما خير مثال لما لم يكن شعراً من الكلام المنظوم . ومن نظر فى كلام المتشاعرين رأى شيئاً كثيراً من هذا النوع .

طبقات الشعراء :

هذه آراء الرصافى فى الشعر بصورة عامة . أما رأيه فى طبقات الشعراء فقد كتب عنها بحثاً فى جريدته « الأمل »(١) ، ونشره فى كتابه « دروس فى تأريخ آداب اللغة العربية »(٢) . وفى هذا البحث تحدث عن رأى القدماء فى الطبقات وطرق تقسيمهم ، وعرض رأيه بادىء ذى بدء فقال : « نرى المتقدمين من أهل الأدب قد قسموا ، لا بل حاولوا أن يقسموا الشعراء

---

(١) الأعداد ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ الصادرة فى ٣ ، ٤ ، ٥ كانون الأول ١٩٢٣ م .

(٢) ص ٥٧ ــ ٦٨

إلى طبقات متعددة ، فهل علينا أن نقبل ما قالوه فى هذا الباب وإن لم نحصل منه على طائل ؟

أما أنا فلم أهتد إلى نتيجة معقولة مما كتبه القوم فى مسألة طبقات الشعراء ولذا أريد أن أبدى لكم رأيى فى هذه المسألة ، وأذكر لكم ما قاله القوم فيها ، وبعد ذلك فاحكموا أنتم بما شئتم»(١) .

وأخذ يذكر آراء القدماء ويعلق عليها ، والظاهر المتبادر إلى الذهن هو أن الغرض من تقسيم الشعراء على طبقات مختلفة ، تصنيفهم بحسب درجاتهم فى الاجادة وفيما جروا عليه من أساليب الفصاحة والبلاغة ليتعين بذلك ما لكل صنف منهم من المنزلة فى الأدب .

ويرى أنه من الصعب جداً إيجاد طريقة للتقسيم موصلة إلى هذا الغرض؛ لأن الشعر كالحسن لا يوقف له عند حد ، بل كلاهما من الأمور التى تختلف فيها الأذواق اختلافاً كبيراً ، ولذلك يصعب تصنيف الحسن الى درجات، وتقسيم الشعراء على طبقات متفاضلة .

ويرى أن ما كتبه القوم فى هذا الباب وتقسيماتهم التى وضعوها لبيان طبقات الشعراء مبهمة كل الابهام ، ومنها ماهو ناقص ، ومنها ماهو اعتبارى محض ، وإن جميع الذين قسموا الشعراء على طبقات مختلفة جعلوا مورد القسمة فى تقسيمهم أحد ثلاثة أمور: الزمان ، أو الإجادة فى الشعر والبراعة فيه ، أو ما للشعراء من القصائد المشهورة .

أما الذين نظروا إلى الزمان فاتخذوه مورد القسمة فى تقسيم الشعراء على طبقات مختلفة فقد جعلوهم خمس طبقات : الجاهليين ، والمخضرمين ، والاسلاميين ، والمولدين ، والمحدثين . يقول عن هذا المورد : «وما أدرى

---

(١) جريدة الأمل العدد ٥٣ ، ودروس فى تأريخ آداب اللغة العربية ص ٥٨ .

أى فائدة فى هذا التقسيم فإن الغرض المقصود من تقسيم الشعراء إلى طبقات غير حاصل إذ بمجرد قولنا : إن فلاناً الشاعر هو من الجاهليين أو من المولدين لا تتعين منزلته فى الأدب ولا مكانته فى الشعر ، إذ من الجائز بل من الواقع أن يكون فى المولدين من هو أشعر من بعض شعراء الطبقة التى فوقه، وكذلك القول فى الاسلاميين وكذلك فى المخضرمين حتى أن شعراء الطبقة الواحدة من طبقات الشعراء الخمس مختلفون أيضاً فى المنزلة فليسوا كلهم فى منزلة واحدة فى الشعر حتى يكونوا كلهم من طبقة واحدة »(١) .

وأما الذين نظروا إلى جودة الشعر ودرجة إجادة الشاعر فيه فقد قسموا الشعراء على أربع طبقات فصلوا بعضها عن بعض بصفات اعتبارية مبهمة غير كافية لتمييز كل طبقة من أختها فضلا عن تمييز كل شاعر عن أخيه . وهذه الطبقات هى :

الأولى : وهى كل شاعر خنذيذ .

والثانية : هى كل شاعر مفلق .

والثالثة : هى الشاعر مطلقا .

والرابعة : الشعرور .

وقد نظم بعضهم هذه الطبقات بقوله :

الشعــراء فاعلمنّ أربعــه فشاعر يجرى ولا يجرى معــه
وشاعر ينشد وسط المعمعه وشــاعر لاتشتهى أن تسمعه
وشاعر لاتستحى أن تصفعه

والذى يفهم من هـذا التقسيم هو أن مدار الأمر فيه على الإجادة والرواية ، فإن وجدا معاً فى شاعر كان من الطبقة الأولى ، وإن وجد فيه

(١) جريدة الأمل العدد ٥٤ ، ودروس فى تأريخ آداب اللغة العربية ص ٦٠

الأول دون الثانى كان من الطبقة الثانية ، وإن فقد فيه كلا الشرطين وبقى المشروط له فقط وهو مطاق الشاعرية كان من الطبقة الثالثة ، وإن فقد منه المشروط له أيضا بأن لم يكن شاعراً بل شعروراً متشاعراً كان من الطبقة الرابعة .

ولا يرى هذا التقسيم وافيا بالغرض من وجوه ، يقول :

أولا : لأنه إنما يعين تلك المنازل تعيينا مبهما ويحدها بحدود غير واضحة ولا متفق عليها عند الناس وهى جودة الشعر ورواية الجيد منه إذ لاريب أن الناس مختلفو الأذواق فى جيد الشعر ومضطربو الرأى فيه ، فقد يستجيد أحدهم شعراً يسترذله الآخر كما يستحسن أحدهم صورة لايستحسنها الآخرون . وإذا كانت معرفة جيد الشعر من رديئه ذوقية صعب علينا تمييز الشاعر الجيد من غيره تمييزاً حقيقيا وإذا كان الأمر كذلك كان القول بأن فلانا يعد فى شعره من الطبقة الأولى أو من الطبقة الثانية قولا مجرداً غير مقطوع به ولا متفق عليه . هبنى قلت فى المتنبى مثلا إنه من الطبقة الأولى ، فهل من المستبعد أن يقول غيره بأنه من الطبقة الثانية أو الثالثة ، كلا بل هذا واقع فى حق المتنبى . فإن من الناس من قال إنه أكبر شاعر ، ومنهم من قال إنه ليس بشاعر .

ثانيا : إن هذا التقسيم مبنى على أمور اعتبارية اعتبرها المقسم وبنى عليها تقسيمه ، فلم لايجوز لغيره أن يعتبر أموراً غيرها فيقسم الشعراء إلى أكثر من أربع طبقات أو أقل ، فإنى رأيت من علماء الأدب من يرى أنه لايجوز اطلاق كلمة شاعر الا على من كان مجيداً مفلقا من الشعراء وان لم يكن كذلك لم يستحق هذا الاسم بل يجب أن يسمى شعروراً . وممن يرى هذا الرأى الشيخ سعيد الشرتونى صاحب كتاب « أقرب الموارد فى اللغة » فقد اجتمعت به — رحمه الله — فى بيروت فأهدى إلىّ نسخة من كتاب له

كان قد ألفه فى بعض المسائل الأدبيـة وقال لى : قد استشهدت فى هذا الكتاب بأبيات لك فى وصف الساعة أنا معجب بها. قال : وقدقلت فى أولها. «هى للشاعر فلان»ولم ألقبك بأكثر من شاعر ؛ لأن كلمةشاعر عندى لايجوز أن تطلق إلا على من كان مجيداً مبرزاً فى الشعر وإن لم يكن كذلك فلا يجوز أن يسمى عندى إلا متشاعراً . قال : وهذا الرأى مشهور عنى ، فسل به من شئت من أهل هذا البلد .

فعلى رأى الشرتونى هذا يكون الشعراء اثنين لا ثالث لهما : شاعراً ومتشاعراً .

ثالثـا : ان هذا التقسيم قد جعل الحد الفاصل بين الطبقتين : الأولى والثانية ، رواية جيد الشعر أى اشترط فى الشاعر من الطبقة الأولى أن يكون راوية أيضاً ، وهذا تحكم محض وتعسف بحت ؛ لأن رواية الشعر أمر خارج عن شاعرية الشاعر فجعلها شرطاً يمتاز به شعراء الطبقة الأولى على شعراء الطبقة الثانية مع تساوى الطبقتين فى الإجادة تحكم على الشعر وتعسف لشعراء الطبقة الثانية ، إذ قد يجوز أن يكون الشاعر مجيداً كل الإجادة فى شعره وهو لا يروى من شعر غيره شيئاً ، ونحن اذا فضلنا شاعرا مجيدا على شاعر مجيد مثله بسبب كون الأول راوية والثـانى غير راوية كان تفضيلنا بعيدا عن الانصاف لأن الموازنة بين شاعرين يجب أن تنحصر فى شعرهما أنفسهما دون شعر غيرهما . فبهذا يتبين أن الحدود الفاصلة بين طبقة وأخرى انما هو حدود اعتبارية محضة لاظل لها من الحقيقة .

رابعاً : ان هذا التقسيم قد اعتدى على الشعر وأسرف فى القسمة بإدخاله الشعرور فى عداد الشعراء وجعله من الطبقة الرابعة . وكيف يدخل فى عداد الشعراء من إذا قال الشعر لا تستحى أن تصفعه ؟ فالطبقة الرابعة التى جاءت فى هذا التقسيم لغو لا محل لها من الشعر والشعراء، فكان ينبغى حذفها وجعل

الطبقات ثلاثاً أو كان ينبغى على الأقل أن تحد بحدود تجعل لها بعض المكانة بين الشعراء ولو مرذولة ، كما جاء فى قولى الذى عارضت به الأبيات المتقدمة فى نظم هذه الطبقات الأربع ، إذ قلت :

الشعراء فى الزمان أربعه   فشاعر أفكاره مبتدعه
وشاعر أشعاره متبعه   وشاعر أقواله منتزعه
وشاعر فى الشعراء امّعه

فالشاعر الذى يغلب على شعره أن يأتى بمعان مبتدعة وأفكار مبتكرة يكون من الطبقة الأولى ، والشاعر الذى لا يفتض أبكار المعانى ولكنه مع ذلك يجيد الشعر بحيث تكون أشعاره متبعة يتبعها الشعراء ويحتذون مثالها يكون فى الطبقة الثانية ، والشاعر الذى يجيد الشعر ولكنه مع ذلك يأتى بأشعار متنوعة أى مأخوذة من شعر غيره يكون من الطبقة الثالثة ، والشاعر الذى يكون فى الشعر دون الإجادة وهو مع ذلك « إمعة » ولا رأى له فى شعره بل يأتى بأشعار يسلخها سلخاً من أقوال الشعراء يكون من الطبقة الرابعة . فبهذا يكون للطبقة الرابعة بعض المكانة بين الشعراء ، ولو مكانة مرذولة . وعلى هذا الرأى يكون مدار التقسيم على ثلاثة أمور : الابتكار ، والإجاده ، والأخذ . فالابتكار مع الاجادة يكون من مميزات الطبقة الأولى ، والاجادة دون الابتكار ودون الأخذ من مميزات الطبقة الثانية ، والاجادة مع الأخذ من مميزات الطبقة الثالثة ، وعدم الاجادة مع الأخذ من مميزات الطبقة الرابعة .

وأما الذين نظروا إلى جملة من القصائد المشهورة وبنوا عليها تقسيمهم الشعراء إلى طبقات مختلفة ، فقد جمعوا زهاء تسع وأربعين قصيدة من قصائد بعض مشاهير الشعراء ، وجعلوا كل سبع قصائد منها على حدة فكانت سبعة أقسام سموا كل قسم منها باسم خاص ، فانقسم أصحاب تلك القصائد إلى سبع طبقات هى :

الأولى : أصحاب المعلقات وهم : امرؤ القيس ، وزهير بن أبي سلمى ، والنابغة الذبياني ، والأعشى ، ولبيـــد ، وعمرو بن كلثوم ، وطرفة بن العبد ، وعنترة .

الثانية : أصحاب المجمهرات وهم : عبيد بن الأبرص ، وعدى بن زيد ، وبشر بن أبي خازم ، وأمية بن أبي الصلت ، والخداش بن زهير ، والنمر بن تولب .

الثالثة : أصحاب المنتقيات وهم :المسيب بن علس ، والمرقش الأصغر ، والمتلمس ، وعروة بن الورد ، ومهلهل بن ربيعـــة ، ودريد بن الصمة ، والمتنخل الهذلى .

الرابعة : أصحاب المذهبات وهم ؛ حسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة ، ومالك بن عجلان ، وقيس بن الخطيم ، وأحيحة بن الجلاح ، وأبو قيس بن الأسلت ، وعمرو بن امرىء القيس .

الخامسة : أصحاب المراثى وهم : أبو ذؤيب الهذلى ، ومحمد بن كعب الغنوى ، وأعشى باهلة ، وعلقمة الحميرى . وأبو زبيد الطائى ، ومتمم بن نويرة ، ومالك بن الريب .

السادسة : أصحاب المشوبات وهم : النابغة الجعدى ، وكعب بن زهير ، والقطامى، والحطيئة ، والشماخ ، وعمرو بن أحمر ، وتميم بن مقبل .

السابعة : أصحاب الملحمات وهم : الفرزدق ، وجرير ، والأخطل ، والراعى ، وذو الرمة ، والكميت ، والطرماح .

وجمع هذه القصائد ورتبها هذا الترتيب أبو زيد القرشى فى كتابه « جمهرة أشعار العرب » ،ويرى الرصافى أننا لم نستفد من هذا التقسيم سوى

مجموعة شعر تحتوى تسعاً وأربعين قصيدة ، ولم نعرف سوى منزلة تسعة وأربعين شاعرا انقسموا على سبع طبقات مترتبين فى علو المنزلة من الطبقة الأولى إلى السابعة . وليس كونهم كذلك بحقيقى ، بل هو اعتبارى محض ؛ لأنهم لم يكونوا كذلك إلا عند من انتخب هذه القصائد ورتبها هـذا الترتيب ، ومنحها هذه الألقاب ، وأنزل أصحابها هذه المنازل ، وجعلهم فى هذه الدرجات .

يقول الرصافى : « وهل هذه الدعوى مسلمة له عند الناس؟ كلا ، وكيف تكون مسلمة ولم يأتنا فى تقسيمه بفصول بينة نميز بها كل طبقة من التى تليها . ولماذا جعل أصحاب المعلقات من الطبقة الأولى وأصحاب الجمهرات من الطبقة الثانية وأصحاب المنتقيات من الطبقة الثالثـة ، وهؤلاء كلهم جاهليون ؟ فهل تسمية قصائدهم بهذه الأسماء وتلقيبها بهذه الألقاب هى التى اقتضت جعلهم على هذا الترتيب ؟ فإن كانت هى التى اقتضت ذلك فإن هى إلا أسماء سماها ، وهو وضعها ، وليس له بها فيما يدعيه من سلطان .

ثم ماذا نقول فيمن لم يذكرهم من الشعراء الذين عاشوا فى تلك العصور المتقدمة من جاهليين ومخضرمين وإسلاميين؟ أننكر وجودهم بتاتاً أم ننسخ أسماءهم من ديوان الشعر والأدب ؟ وماذا نقول فيمن جاء بعدهم من الشعراء إلى يومنا هذا ؟ فإن قيل : افعل مثلما فعل هذا بأن تنظر فى شعر من بقى من الشعراء فتنتخب من شعر كل شاعر قصيدة ، ثم اجمع هـذه القصائد واقسمها إلى أقسام واعط أصحاب كل قسم منها منازلهم من الطبقة الثامنة فصاعدا . قلت : وهل يكون ذلك منى إذا فعلته إلا تحكما كما كان منه كذلك ؟ ومن الذى يتابعنى على ما أقول ؟ وكيف أصنع إذا رأيت فى الشعراء الذين أغفلهم وأهملهم من يستحق أن يكون من الطبقة الأولى .

وهو قد اغتصبها واحتكرها لأصحاب المعلقات فقط ؟ » (١) .

هذه هى التقسيمات التى ذكرها القدماء ، وهذا رد الرصافى ، وإذا كان الأمر كذلك فما الرأى فى تقسيم الشعراء ؟

يقول فى خاتمة بحثه : « وخلاصة القول أن تقسيم الشعراء إلى طبقات متفاوتة فى رفعة الدرجة وعلو المنزلة تقسيما صحيحا ينزل كل شاعر منزلته التى يستحقها صعب جدا يحتاج إلى ذوق سليم ، وأدب غزير ، ونظر بعيد ، وتأمل طويل ، وأنا مع ذلك لا أرى فائدة فى تقسيم الشعراء إلى طبقات متفاوتة ، لأن الإجادة لا تنتهى إلى حد معلوم ولأننا نستطيع فى كل وقت أن نوازن بين شاعر وآخر . ولكننا لا نستطيع أن نوجد حدودا واضحة بحيث تشمل جميع الشعراء الأولين والآخرين وتقسمهم إلى طبقات ينفصل بعضها عن بعض بفصول بينة ، فلنضرب عن هذه المسألة صفحا وإن جنح إليها المتقدمون وتكلموا عنها بما لم يجد نفعاً .

أما اذا كان الغرض من تقسيم الشعراء الى طبقات هو ترتيبهم فى الزمان لا فى الإجادة ، فلا ريب أن المعول عليه هو التقسيم الأول من التقاسيم الثلاثة (٢) » .

وبذلك حاول أن ينهى النزاع بين النقاد الذين شغلهم تقسيم الشعراء زمناً طويلا .

وكان قد ذهب الى غير هذا الرأى ، فرأى ان التقسيم الثانى — وهو الاجادة فى الشعر والبراعة فيه — هو المقبول ، يقول : «وان هذه التقاسيم

---

(١) جريدة الأمل العدد ٥٥ ، ودروس فى تاريخ آداب اللغة العربية ص ٦٧

(٢) دروس فى تاريخ آداب اللغة العربية ص ٦٨

الثلاثة التى ذكرناها أصحها وأقربها الى الغرض المطلوب التقسيم الثانى ، فهو على علاته هو المقبول عندى حتى أجد أصح منه [1] » .

ولكنه حينما أعاد نشر بحثه فى كتابه « دروس فى تاريخ آداب اللغة العربية » استقر رأيه على أن المسألة صعبة ، ولكن اذا كان لا بد من ترجيح فيرى أن تقسيمهم حسب الزمان هو المعول عليه .

(١) جريدة الأمل العدد ٥٥

الفصل الثالث

القوافى والأوزان

ومما يتصل بالشعر الكلام على القوافى والأوزان ، وقد تحدث عنها الرصافى فى مقالاته وكتابه « الأدب الرفيع فى ميزان الشعر وقوافيه » ، وقرر فى مطلعه أن المتأدب الذى يعنى بالأدب ويشتغل به محتاج الى علم العروض والقوافى ، وعليه أن يدرسه لا ليكون شاعرا ، بل ليكون كاملا فى أدبه ، وليستعين بمعرفة قواعده ومصطلحاته على فهم ما يعرض له منها فى أقوال الأدباء من منظوم ومنثور (١)

القافية :

ذكر رأيه فى تعريف القافية ، فقال : « ان القافية كما تكون فى اللغة بمعنى مؤخر العنق ، تكون بمعنى التابعة أيضا ، اذ هى من قولهم : « قفا أثره » اذا اتبعه .

ولما كانت القافية تشتمل على حرف الروى الذى يتبع به كل بيت ماقبله كان الغرض الأول منها هو التقفية ، أى : الاتباع بتكرار الروى. فالقافية إنما سميت قافية ؛ لأنها فى كل بيت تقفو أى تتبع البيت الذى سبقها بأن تأتى بروى مثل رويه .

وبالنظر إلى هذا يكون الغرض الأول من القافية هو حرف الروى الذى به تصير القافية قافية ، وأما ماعداه من الأغراض كحرف التأسيس والرديف والمجرى وغير دلك فإنما هى أغراض ثانوية تتم بها التقفية .

---

(١) ينظر الأدب الرفيع ص ١٤ — ١٥

فإن قلت : إذا كان الغرض من القافية هو التقفية ، أى الاتباع بالروى فلماذا نرى الأخفش والخليل كليهما لم يأخذا فى تعريفها معنى الاتباع بل قال الأول : « هى آخر كلمة فى البيت » ، وقال الثانى : « هى من آخر حرف ساكن فى البيت إلى أول ساكن يليه مع المتحرك الذى قبله » . وليس فى هذين التعريفين مايدل على أن الغرض الأول منها هو التقفية أى الاتباع كما تقول .

قلت : انهما لو أخذا فى تعريفها معنى الاتباع لكان التعريف غير جامع ؛ لأنه لا يشمل قافية البيت الأول من القصيدة ، وكذلك لا يشمل قافية البيت المفرد إذ يجوز أن يقول الشاعر بيتاً مفردا . ولاريب ان هذا البيت المفرد فيه قافية وليس فيه اتباع ، فلهذا لم يأخذا فى تعريفها معنى الاتباع ، وإن كان ذلك هو الغرض الأول منها » (١) .

ويرى أنه لابد فى الكلام الموزون من قواف تمثل بتكررها تلك النغمات المتكررة فى الأغانى ، وعليه فالكلام الموزون بلا قافية مخالف للغاية المطلوبة التى لأجلها وجد الشعر وهى الغناء . يقول : « لاريب إن الكلام الموزون إنما وجد لينشد فى الأغانى ، ولا بد فى الأغانى من نغمات متكررة كما نشاهده فى أغانى جميع الأمم . وذلك مايسمى فى كلام الموسيقيين اليوم بالنقرات . وإذا كان لابد فى الأغانى من نغمات متكررة فلا بد فى الكلام الموزون من قواف تمثل بتكررها تلك النغمات المتكررة . فوجود القافية فى الشعر ضرورى لابد منه كوجود النغمات المتكررة فى الأغانى . وعليه فالكلام الموزون ، وإن شئت فقل الشعر بلا قافية مخالف للغاية المطلوبة التى لأجلها وجد الشعر وهى الغناء .

ولا صحة لما يقال من أن الشعر الأفرنجى لا قوافى له وإنما نعلم أن بعض

---

(١) الأدب الرفيع ص ٨٨

الشعوب الأفرنجية تفننوا فى قوافى شعرهم فنوعوها وباعدوا ما بينها ، لا أنهم أخلوا شعرهم من القافية بالمرة. على أن هذا التفنن والتنوع فى القوافى موجود عند الأمة العربية أيضا ، كما نراه فى الموشحات والمسمطات ونحوها من الشعر العربى »[1] .

ويقول عن الذين عابوا على الشعر قوافيه بأنها تكرار ممل : « ومن الغريب أن بعض الناس عابوا على الشعر بأنها تكرار ممل ، وذلك وهمٌ منهم، فإن القافية لا تتكرر فى الشعر بل تكرارها عيب عند العرب يسمى بالإيطاء، وإنما يتكرر منها حرف واحد هو الحرف المسمى بالروى .

فالمعنى فى كل قافية غير المعنى فى سواها من أخواتها ، فمن أين جاء هذا التكرار الممل ؟ على أن تكرار بعض النغمات فى الموسيقى أمر لا محيد عنه وهو مسموع ومألوف . وما تكرار حرف الروى فى الشعر إلا بمنزلة تكرار بعض النغمات فى الموسيقى »[2] .

الوزن :

والوزن فى الشعر ضرورى ؛ لأنه وليد الغناء وقرينه ، ولما كان للغناء وزن وجب أن يكون الشعر مطابقاً لما فيه من ألحان وإيقاع ، وهذا هو الوزن الذى لا يخلو منه الشعر . أما انه قد يكون غير موزون كما فى الشعر المنثور فإنما هو إطلاق بالمعنى العام،أى من حيث أنه يؤثر فى النفوس تأثيرا شعريا ، وإلا فالشعر بمعناه الخاص لا يجوز أن يكون غير موزون لأنه وليد الغناء وقرينه الذى لا ينفك عنه(٣) .

---

(١) الأدب الرفيع ص ٨٩ .
(٢) مجلة الحرية العدد الأول ص ١٥ (السنة الثانية تموز ١٩٢٥ م) .
(٣) الأدب الرفيع ص ١١

يقول فى رسالة وجهها إلى الأستاذ سعيد البدرى بتأريخ (٢٥ آذار ١٩٤١ م) : « والذى أراه أن حقيقة الشعر قائمة بالوزن ، لأنه بالوزن وحده يصلح للغناء . والشعر لم يكن إلا ليتغنى به ، فهو وليد الغناء وربيبه ، ولولا الغناء لم يكن للوزن فى الكلام معنى معقول »[1] .

ويرى أن الوزن فى الكلام قد تولد من السجع ، وله فى تولده منه نواتج وقوابل ودايات ، فمن نواتجه الاتفاق والمصادفة ، ومن قوابله الأغانى ، ومن داياته الرقص ، لأنه يذهب إلى أن كلام العرب مرّ بثلاثة أدوار انتقل فيها بمر الزمان من طور إلى طور ، وتدرج من حال إلى حال .

يقول : «لقد مرّ على كلام العرب ثلاثة أدوار انتقل فيها على مرّ الزمان من طور إلى طور وتدرج من حال الى حال .

فأولها : دور البساطة ، وهو الدور الذى كان الكلام فيه بسيطاً ساذجا خالياً من كل تفنن فى أسلوبه وتصنع فى ألفاظه بحيث لا يكاد يعرب عما فى ضمير المتكلم تمام الإعراب ، ثم ارتقى بطول الزمان تدريجياً حتى وجدت فيه القافية فانتقل بها إلى دوره الثانى وهو دور السجع ، والسجع هو الكلام المقفى أو موالاة الكلام على روى واحد . . . . ثم أن الكلام بعد ما دخل فى دور السجع أى القافية واستمر فيه قروناً عديدة ارتقى منه الى دوره الثالث وهو دور الوزن . ومما لايستراب فيه أن الوزن فى الكلام قد تولد من السجع وله فى تولده نواتج وقوابل ودايات ، فمن نواتجه الاتفاق والمصادفة ، ومن قوابله الأغانى ، ومن داياته الرقص » .

ويوضح ذلك فيقول : « من الجائز المحتمل أن يأتى الكلام موزونا من دون قصد كما نراه واقعا فى كلام الناس ومحاوراتهم فى كل يوم، وقد وقع

---

(١) آراء الرصافى فى السياسة والدين والاجتماع ص (د) .

ذلك فى القرآن أيضا . وهذا الاحتمال يزداد فى الكلام المسجع ؛ لأن الكلام بواسطة السجع ينقسم الى جمل ذات فواصل متواطئة على حرف واحد وبذلك تقصر مسافة البعد بين الكلام والوزن خصوصا فى السجع الموازى ، وهو ما تطابقت قرائنه فى الطول والقصر ، وذلك هو السجع المقبول عندهم . ففى مثل هذا السجع يكون الكلام قد أخذ القافية ولم يبق بينه وبين الوزن مسافة قصيرة يسهل على التصادف أن يطويها فتأتى قرينتان من الكلام المسجع متطابقتين فى الحركات والسكنات وذلك هو الوزن .

ثم ان العرب كانوا فى الدور الثانى من أدوار كلامهم يتغنون بالسجع فكانت أغانيهم مسجعة لا محالة إذ لم يكن لهم شعر غير الكلام المسجع . على أنهم كانوا يتغنون قبل دور السجع أيضا ؛ لأن الغناء وجد عند البشر مع الكلام ، فهما — الغناء والكلام — توأمان ولدا معا ، وكلاهما من الأمور الغريزية فى الانسان ، ولكنهم قبل دور السجع كانوا يتغنون غناء بسيطا ساذجا مثل كلامهم حتى إذا ارتقى كلامهم إلى السجع ارتقى غناؤهم أيضا . ومن هنا نعلم أن الكلام والغناء قد مشيا فى البشر جنبا إلى جنب فى جميع أدوار رقيهما .

قلنا آنفا ان مسافة ما بين الكلام والوزن قد قصرت بالسجع ، ونقول الآن ان تلك المسافة تزداد قصراً عندما يقترن السجع بالغناء ، وعليه فاقتران السجع بالغناء يزيد احتمال وقوع الوزن فيه بطريق المصادفة زيادة أكثر مما كان غير مقترن به ؛ ذلك لأن الغناء يكسب الكلام المتغنى به لحنا خاصا ويجريه على تقاطيع وتواقيع خاصة تجتذب الشخص المتغنى الى اخراج كلامه منطبقا عليها من حيث لايشعر . ولهذا السبب يكون احتمال وقوع الوزن بالتصادف فى كلام المتغنى أكثر من احتماله فى كلام غير المتغنى .

أما إذا اقترن الغناء بالرقص فقد انقضى العجب من وقوع الوزن فى كلام الراقص المتغنى » .

ويخلص بعد ذلك إلى القول بأن « السجع حلقة اتصال بين النثر والنظم وأن الوزن متولد من السجع ، وأن أول مولود من أوزان الشعر هو الرجز وأن هذا الولد البكر أبوه المصادفة ، وأمه الغناء ، ودايته الرقص ، وأما القافية فهى واسطة التعارف بين أبيه وأمه(١) » .

وقد دعاه هذا إلى أن يهتم بموسيقى الشعر ويدرسها دراسة تقوم على النظرة العميقة والرأى السديد ، وله فى ذلك آراء توضح وجهة نظره فى الأوزان الشعرية ، من ذلك رأيه فى الرجز .

الرجز :

الرجز من أبسط أوزان الشعر ، وأسهلها على القريحة ، وأخفها على الطبع ، وأقربها إلى النثر . وليس بينه وبين الكلام المسجوع سوى وزن قريب المأخذ سهل التناول ، وهو أول مولود فى الشعر وأقدمه ، ولم يكن للعرب إلا لونان من الشعر : الرجز والقصيد .

يقول الأغلب العجلى :

أرجزاً تريد أم قصيدا لقد سألت هيناً موجودا

ويبدى الرصافى رأيه فى أصل الرجز فيقول : « ومن قال إن الرجز مأخوذ من توقيع سير الجمال فى الصحراء بحجة أنه أول ما استعمله العرب لسوق الجمال فى الحداء فقد أخطأ المرمى (٢) . وكل من تأمل فى الرجز

(١) ينظر دروس فى تاريخ آداب اللغة العربية ص ٥١ ومابعدها، والأدب العربى ص ٨٣ وما بعدها ، وسحر الشعر ص ٨٩ وما بعدها .

(٢) يذهب إلى هذا الأستاذ جرجى زيدان فى كتابه آداب اللغة العربية ج ١ ص ٦١ ، والسيد توفيق البكرى فى مقدمة كتابه أراجيز العرب

منهوكه ومشطوره ، وفى سير الإبل رأى بينهما بوناً بعيداً جدا لشدة تتابع أجزاء الرجز فى اللفظ وسرعة انحدارها وتسردها فى الفم عند الانشاد . وذلك ينافى سير الابل الوئيدبسبب جسامتها وكونهافسيحة الخطى . ولا يلزم من استعمال الرجز لسوق الجمال فى بعض الأحيان كونهمأخوذاً من توقيع سيرها . ومن الغريب أنّ صاحب هذا الرأى قد ادّعى أن تقطيع الرجز يوافق وقع خطى الجمال مع أن فى تقطيعه من سرعة الانحـــداروالتسرد ، وتدارك المقاطع ما ينافى كل المنافاة وقع خطى الجمال لما فى تلك الخطى من التؤدة والرزانة بسبب انفساح موقعها وطول القوائم المرتمية من تحت تلك الجثة العالية الضخمة .

ولو سلمنا أن تقطيع الرجز يوافق وقع خطى الابل لمـا سلمناه أنه يلزم من ذلك كون الرجز مأخوذاً من وقع تلك الخطى ، إذ لو لزم منه ذلك للزم أن يكون وزن الكامل ولا سيما مجزوءه مأخوذاً أيضاً من وقع خطى الجمال بطريق الأولى ، لأنه يوافق وقع تلك الخطى أكثر من الرجز ويطابقها تمـام المطابقة حتى أنك لو امتطيت جملا وجعلت وهو سائر بك سيراً وئيداً تنشد عليه شعرا من الكامل أو مجزوئه لرأيت عند تمـام كل جزء من تفاعيله وقع يد من يدى جملك كما هو ظاهر للمتأمل .

ولو أردنا أن نناقش صاحب هذا الرأى الحساب لطال الكلام ، ولكننا نترك ذلك لأولى الذوق السليم والنظر الصحيح [١] » .

وإذا آمنا بمـا ذهب إليه الدكتور إبراهيم أنيس من أن بحر الرجز تطور للبحر الكامل ، لأن « المقاطع العربية بوجه عام قدتطورت من النوع المتحرك إلى النوع الساكن ،ولذلك يقل حتى فى الكلام العادى توالى المقاطع

---

(١) دروس فى تاريخ آداب اللغة العربية ص ٥٥ ، والأدب العربى ص ٨٨ ، وسحر الشعر ص ٩٥

المتحركة التى هى أقصر أنواع المقاطع فى العربـــية ، ولأن تفعيلة البحر الـكامل « متفاعلن » تتحول إلى « مستفعلن » فى غالب الأحيان، ومستفعلن، هذه تفعيلة بحر الرجز ، (١) إذا آمنا بهذا كان رأى من ذهب إلى أن الرجز مأخوذ من توقيع سير الجمال صحيحا ، وقد اعترف الرصافى نفسه بأن البحر الـكامل يوافق وقع خطى البعير .

ويرى أن بحـر الرجز أقرب الأبحر الشعرية من الـكلام المنثور ، ولذلك سموه « حمار الشعراء » وأجازوا فيـه الخبن « مفاعلن » فى حشوه وفى عروضـــه الثـانية وفى العروضين الاخريين ، والطى فى « مستفعلن » فتصير « مفتعلن » فى كل أجزائه ، والخبل — وهو مركب من الخبن والطى — فتصير « فَعـلتن » .

ومن خواصه أن الشعراء أجازوا تغيير قافية كل بيت من أبياته ، لـكنه يعوض عن ذلك بالتصريع أى المطابقة بين الشطرين (٢) .

هذه آراؤه فى القافية والوزن ويتصل بها الحديث عن الشعر المنثور والشعر المرسل .

الشعر المنثور :

أما الشعر المنثور(٣) فله رأى فيه ، يقول : « وقد اشتهر بالشعر المنثور فى هذا العصر رجل من بلاد الشام اسمه جبران خليل جبران ، فقد رأيت

---

(١) موسيقى الشعر ص ١٢٩ ، ومجلة العربى الـكويتية العدد ١٣٢ ص ٤٨ (شعبان ١٣٨٩ هـ ، نوفبر — تشرين الثانى ـ ١٩٦٩) . مقالة (مطية الشعراء) للدكتور إبراهيم أنيس .

(٢) الأدب الرفيع ص ٦٦

(٣) ينظر فصل الشعر المنثور فى كتابنا النقد الأدبى الحديث فى العراق ص ١٩٩ـ٢١٩ .

له عدة رسائل من الشعر المنثور العربى نحا فيه منحى أهل الغرب فى الشعر الأفرنجى . وأعرف رجلا آخر من لبنان اسمه أمين الريحانى اجتمعت به مرة فى داره فأنشدنى له من الشـــعر المنثور ما يزرى بعقود النحور وابتسام الثغور(١) » .

وتحدث عنه وسماه « الشعر الصامت » واستحسنه يقول : « وأما الشعر المنثور العارى من الوزن والقافية فهو شعر بالمعنى الأعم ، أى هو شعر بمعانيه التى تفعل فى النفس ما يفعـــله الانشاد المقترن بالنغم والايقاع ، إلا أنه لا يتغنى به فعلا ، فهو إذن تقليد للشعر المنظوم من جهة الغاية المقصودة به . وحبذا لو سمى الشعر المنثور بالشعر الصامت لعـــدم اقترانه بالغناء والرقص ، وسمى المنظوم بالنـاطق لاقترانه بذلك .

أما أنا فأستحسن الشعر المنثور وأقول به من حيث أنه خير واسطة لانباط القرائح واثارة العواطف لاغير، إلا أنى لا أفضله على الشعر المنظوم؛ لأن هذا شعر منثور وزيادة ، إذ هو لاقترانه بالغناء يبلغ غاية الشعر المنثور من طريق أقصر ويتناول بيد أطول » . (٢)

وتحدث عنه — أيضاً — فقال : « وقد اشتهر بالشعر المنثور فى عصرنا هذا رجال منهم أمين الريحانى وجبران خليل جبران . وهذان الشاعران وإن كانا مجيدين فى صناعتهما إلا أنهما ليسا من المبتدعين فيه على ما أرى ،

---

(١) الأدب العربى ص ٧٨ — ٧٩ ، وتنظر مجلة الأديب ج ٥ ص ٣٨(مايس ١٩٤٥) وذكرى الرصافى للرشودى ص ٢٥ — ٢٦

(٢) مجلة الحريه العدد الأول ص ١٦ (السنة الثـانية تموز ١٩٢٥ م) ، وينظر ذكرى الرصافى ص ٢٣٠

بل من المتبعين لأهل الغرب والمقتبسين من آدابهم . وهما مع اجادتهما من الوجهة الشعرية كثيراً ما يتساهلان فى استعمال مفردات الألفاظ وتراكيب الجمل على نمط ينبو عنه سمع العربية الفصحى كما يقوله النقاد لشعرهما .

أما أنا فلا ألومهما على هذا التساهل ؛ لأننا اليوم فى عصر ارتقى فيه طرز التفكير ، واختلفت فيه وجهة النظر مما كانت عليه فى الأيام الخالية . فليس من الموافق لروح هذا العصر أن لاننشد الشعر فيه إلا بلغة امرىء القيس . ولا بد للشعر وللغة — قبل الشعر — من تقمصهما روح العصر وسيرهما مع الزمان وتطورهما بأطواره . وليست اللغة سوى واسطة نعرب بها عن أفكارنا ونترجم عن حياتنا ونعبر عن حاجتنا . ولاريب أن أفكارناوحياتنا وحاجاتنا اليوم غيرها فى زمن امرىء القيس فكيف نتقيد بلغته وهى قاصرة عن هذه الأفكار وهذه الحياة وسد الحاجات ؟

فيجب أن ننتفض من هذا الجمود ، وأن ننهض باللغة إلى مستوى تكون فيه صالحة لأفكارنا ، منطبقة على حياتنا العصرية ، كافية لحاجاتنا اليومية ، وإلا فعلى اللغة السلام .

وكثيراً ما يرى الشعراء عبارة منثورة شعرية فيعقدونها شعراً دون أن يزيدوا عليها شيئاً سوى الوزن ، كقول بعضهم وقد رأى هـــذه العبارة : « إن زرتنا فبفضلك أو زرناك فلفضلك ، فلك الفضل زائراً ومزورا » : فعقدهما فى هذين البيتين :

قالوا : يزورك أحمد وتزوره   قلت : الفضائل لا تفارق منزله
إن زارنى فبفضله ، أو زرته   فلفضله ، فالفضل فى الحالين له

وقد قيل عن الحكم فى شعر المتنبي: إن أكثرها معقود من أقوال مأثورة للحكماء .

فبهذا تبين لكم أن الشعر المنثور كثير فى كلام العرب » . (١)

ويقول فى بحث آخر : « أما مايدعيه بعضهم من الشعر المنثور فى هذا العصر فتوسع منهم فى معنى الشعر وخروج عن معناه الصحيح ؛ لأن الشعر لايكون شعراً إلا بالانشاد ، والانشاد لا يكون إلا بالوزن ، وليس الوزن إلا توازناً وتقابلا فى الحركات والسكنات التى تنطبق على توقيع الألحان فى الغناء » . (٢)

ويقول فى بحث آخر : « إن الشعر لايمتاز عن أخيه النثر إلا بالوزن ، ذلك لأنه إنما يصاغ لينشد ، أى : ليتغنى به لا ليقرأ كما يقرأ النثر . وهذا هو سر تخصيصه بالوزن دون النثر .

فإن قيل : ماتقول فى الشعر المنثور ؟ قلت : يجوز أن يكون النثر شعراً ولكن بالمعنى العام للشعر لابمعناه الخاص ، أى أنه شعر بمعنى أنه يؤثر فى النفس تأثير الشعر وإلا فالنثر مهما أثر فى النفوس تأثيرا شعريا فإنه لايجوز اعتباره شعرا بالمعنى الخاص للشعر ، لأنه لايقترن بالغناء لعدم الوزن فيه »(٣)

فالرصافى يؤيد هذا اللون من الشعر ، ويرى فيما كتبه الريحانى وجبران فناً يقتضيه تطور الحياة ، ولكنه يعود فيقول فى « رسائل التعليقات » ان تسميته بالشعر توسع فى معنى الشعر وخروج عن معناه الصحيح . ولا بد أن يقف هذا الموقف من الشعر المنثور وهو الشاعر الذى التزم بالوزن والقافية ، وهو الذى يقول فى مزايا المنظوم على المنثور : « إن للمنظوم ثلاث مزايا امتاز بها على المنثور واختص به من دونه :

---

(١) دروس فى تأريخ آداب اللغة العربية ص ٤٧ ، والأدب العربى ٧٨ ـ ٧٩

(٢) رسائل التعليقات ص ١٠١

(٣) على باب سجن أبى العلاء ص ٦٨

الأولى : انه لايستعمل فى الغالب الا لبيان المعانى الشعرية .

الثانية : ان الكلام فيه يكتسب بالوزن والقافية رونقاً وحسناً يعلو بهما على المنثور .

والثالثة : ان القابلية الشعرية فيه أكثر من القابلية الشعرية فى المنثور.(١)

وللرصافى قصيدة من الشعر المنثور كتبها فى باب مجال النقد والمناظرة تقريظاً لكتاب « الشيطان » لمراد ميخائيل . يقول :

كتاب كريم
من شيطان غير رجيم
من انسان فى صورة رحمان
من رحمان فى مسلاح انسان
من انسان هو شيطان
من شيطان أنس ليس من الجان
ينقش صورة اليقين فى ألواح الشك
ويزج فى مهاوى الشك
بألواح اليقين
تراه ساخطاً على الدين وهو به راض
ومحتقرا للعقل وهو به قاض
يريد أن يجمع سلسلة النور الممتدة بين طلقى الأزل
والأبد ليجعلها قلادة فى عنق الإنسانية
بل يروم أن يصقل بمصقلة الهدى مرآة الحيرة
ليقدمها هدية

---

(١) دروس فى تأريخ آداب اللغة العربية ص٤٧ ، والأدب العربى ص ٧٨

الى عروس الهوية الناسونية
لترى فى صورتها الأولى بجانبها من المحاسن المصنوعة
والمعايب المطبوعة
رقيم خطير
لشاعر حقير
نظيم وهو نثير
صغير وهو كبير
فيه خطاب مستطاب
ولكن لا يستطاب
ولا ريب فيه ولكن فيه يستراب
شعر لشاعر
يقول بما يشعر ويشعر بما يقول
يريد أن يصوغ من شعوره الحى
تاجاً لجمجمة الحق البالية
وأن ينسج من نيران ذكائه المتوقد
ازاراً يستر به سوأة الأباطيل البادية
وهيهات ثم هيهات لما يريد
لقد آمنت بك أيها الشيطان
اذ لم أرَ قبلك انساناً قال بأنه شيطان
ولكن كم فى الناس من شيطان يزعم
انه من ملائكة الرحمان
أما أنت فجازع
أما غيرك فخادع

أما أنا فأقول :

لو كان للشيطان معنى غير ما الانسان
ما آمنت بالشيطان يامراد ميخائيل
أنا أول انسان
يؤمن بأنك شيطان
وآخر شيطان يكفر بأنك انسان (١)

يقول الدكتو يوسف عز الدين عن هذه القصيدة المنثورة : « ولعل من الطريف أن أذكر أن الرصافى قد نظم فى هذا الشعر ساخراً »(٢). ويقول: « وقد سار الشاعر فى تيار العصر ونظم فى الطريقة ، وان لم يقدر أن يتابع مثل هذا الشعر فقد خلط بين النثر (وبين) الشعر المرسل وكان فى الذى نظم كثير من الوزن والقافية » (٣) .

وليس الأمر كما ذهب اليه الدكتور ، لأن الرصافى كان مؤمناً بهذا اللون من الشعر حينما نشر قصيدته عام ١٩٢٤ م ، ولأن هذه القصيدة من الشعر المنثور لا من الشعر المرسل،وفرق كبير بين هذين اللونين.ولو أراد الرصافى أن يستمر فى هذا الشعر لأجاد ، ولكنه — كما مرّ — مؤمن بالقافية والوزن لا يحيد عنهما فى قصائده ولا يفضل على الشعر الموزون المقفى غيره وان حبّذ الشعر المنثور فى مطلع هذا القرن حينما كان أمين الريحانى وجبران خليل جبران ينشران فصولا منه .

وكان موقف الزهاوى من الشعر المنثور غير هذا الموقف ، فهو يعتبره

---

(١) مجلة الحرية العدد الثامن والتاسع ص ٤٣٦ (السنة الأولى شباط ١٩٢٤ م)

(٢) جريدة الحرية العدد ١٥٧٧ (١٢ أيار ١٩٦٠ م)

(٣) فى الأدب العربى الحديث — بحوث ومقالات — ص ٢٥٤

تطوراً فى النثر لا فى النظم ، يقول : « أما ما يسمونه بالشعر المنثور فهو تطور فى النثر لا فى النظم وليس من الشعر المصطلح عليه عند الأدباء فى شيء ، بل هو رجوع إلى النثر المسجع الذى دالت دولته منذ أبد بعيد ، وأرى أن القافية سوف تزول من الشعر كما زال السجع من النثر بعد نزاع شديد بين المحافظين والأحرار[1] » .

ويقول : « المنثور ليس من الشعر فى شيء مهما كانت صورته ومهما سموه شعراً ، وذلك لخلوه من الموسيقى التى يضمنها الوزن وحده ، اللهم إلا إذا قصدنا من الشعر ما يعرّفه المنطقيون بقولهم : « كلام تنبسط منه النفس أو تنقبض » .

وأنا لم أطعن فى منثورهم إلاّ من ناحية تسميته بالشعر مع فقدان الوزن ، فهذا ما لا أرضاه ولا يرضاه الأدب[2] » .

الشعر المرسل :

وأما الشعر المرسل[3] فقد أنكر الرصافى وجوده حينما قسم الكلام على النظم والسجع والترسل ، يقول : « لنا فى الكلام ثلاث طرائق : النظم والسجع والترسل. ومدار هذا التقسيم إنما هو على الوزن والقافية وعدمهما ، فإن الكلام إما أن يخلو من الوزن والقافية وهو الترسل ، وإما أن يقترن بهما وهو المنظوم ، وإما أن يقترن بالقافية دون الوزن وهو السجع ، وإما أن

---

(١) جريدة العالم العربى العدد ٣٧٥ (١٢ حزيران ١٩٢٥ م) .

(٢) المصدر السابق . وينظر الزهاوى والشعر المنثور فى كتابنا النقد الأدبى الحديث فى العراق ص ٢٠٣ ــ ٢٠٦ .

(٣) ينظر فصل الشعر المرسل فى كتابنا النقد الأدبى الحديث فى العراق ص ٢٢٠ ــ ٢٣١ .

يقترن بالوزن دون القافية ، وهذا القسم غير موجود فى كلام العرب[١] » .

ويعلل عدم وجوده بقوله : « أما القسم الرابع وهو اقتران الكلام بالوزن دون القافية ، فقد قلنا إنه غير موجود فى كلام العرب، وعدم وجوده أمر طبيعى ؛ لأنّ القافية متقدمة على الوزن وجوداً بدليل وجود الكلام المسجوع قبل وجود الكلام الموزون . وعليه يكون وجود الوزن واقتران الكلام به بعد القافية تكاملا طبيعياً منطبقاً على ما يقتضيه قانون النشوء والارتقاء . فلو اقترن الكلام بعد ذلك بالوزن دون القافية كأن اقترانه به دونها ارتداداً وارتكاساً فى الطبيعة،لأن فى ذلك رجوعاً إلى الوراء وانحطاطاً من أوج التركيب إلى حضيض البساطة .

إنّ وجود الوزن من دون قافية فى الكلام يصادم الأسباب والعوامل التى ولدت الوزن ، إذ لا ريب أنّ من أهم تلك العوامل والأسباب الغناء ، فالكلام الموزن إنما وجد لينشد فى الأغانى ، ولا بدّ فى الأغانى من نغمات متكررة كما نشاهده فى أغانى جميع الأمم ، وذلك ما يسمى فى لغة اليوم بالنقرات . وإذا كان لا بد فى الأغانى من نغمات متكررة فلا بد فى الكلام الموزون من قوافٍ تمثل بتكررها تكرر تلك النغمات .

فوجود القافية فى الشعر ضرورى لا بدّ منه كوجود تلك النغمات المتكررة فى الأغانى .

وعليه فالكلام الموزون — وإن شئت فقل الشعر — بلا قافية مخالف للغاية المطلوبة التى لأجلها وجد الشعر وهى الغناء . ولذلك كان القسم الرابع — أعنى الكلام الموزون بدون قافية — غير موجود فى كلام العرب،

---

(١) دروس فى تأريخ آداب اللغة العربية ص ٤٧ .

بل فى كلام غيرهم أيضاً من جميع الأمم.إذ لا نعهد فى القديم ولا فى الحديث أمة تغنت بشعر لا قافية له ، وإنما نعلم أن بعض الأمم تغنت فى قوافى شعرها فنوّعتها وباعدت ما بينها كما نراه فى الشعر الافرنجى . على أنّ هذا التفنن والتنوع فى القوافى موجود عند الأمة العربية أيضاً كما نراه فى الموشحات والمسمطات ونحوها من الشعر العربى .

نعم قد شذّ عن ذلك بعض شعراء الغرب فى القرن الأخير شذوذاً لم يتم له النصر ، ولم ينطبق على ما يقتضيه الغناء الشرقى عندنا(١) » .

وأوضح ذلك — أيضاً — فى حديثه الذى نشرته مجلة الحرية(٢) ، فقال : « إن الغناء والرقص غريزتان من غرائز الإنسان كما أن النطق غريزة فيه . وما الشعر إلا وليد هاتين الغريزتين ، فإن النطق وهو أسنى مظهر من مظاهر الشعور لمّا اقترن بالغناء تولد الشعر . فالشعر لا يقال إلا لينشد ، وبعبارة أخرى ليتغنى به ، فلا بد فيه من الوزن والقافية ؛ لأن الغناء نغم وإيقاع وهما لا يكونان إلا على تقاطيع متوازية من الكلام . ولم نعهد أمة من الأمم الغابرة ولا الحاضرة تغنت بشعر لا وزن فيه ، وغاية ما نراه من شعراء أوربة اليوم هو أنهم يبعدون فى القوافى ويتجوزون فيها إلا أنهم لا يهملونها بتاتاً . وكما هم يتجوزون فى القوافى يتجوزون فى الوزن أيضاً فلا يلتزمون فى القصيدة الواحدة وزناً واحداً . وقصارى القول فى طريقتهم هذه أنها تشبه طريقة الموشحات عند العرب . وأنا وإن كنت لم أطلع على الشعر الفرنجى لعدم معرفتى لغة أجنبية ، فقد اطلعت على المتفرنجين من شعراء الأتراك الذين قلدوا شعراء الافرنج تقليداً مطلقاً ومشوا فى أشعارهم على

---

(١) دروس فى تأريخ آداب اللغة العربية ص ٤٢ — ٤٣ .

(٢) العدد الأول ص ١٥ (السنة الثانية تموز ١٩٢٥) .

آثارهم واتبعوهم فيها حذوك القذة بالقذة ، فلم أرَ شعرهم خالياً من الوزن ولا من القافية ، وإنما هم — كما قلت آنفاً — يعدون فيها ويتجوزون .

وجلّ ما يتجلى لى من هذا الشعر الذى يسميه صاحبه بالمرسل إنما هو اقتران الرعونة بالشعور، وخلط السخافة بالظرافة، وإدغام التفاهة بالنباهة ، وطلب السمعة من وراء البدعة » .

والرصافى فى ذلك يخالف معاصره الزهاوى الذى دعا إلى الشعر المرسل ونظم بعض القصائد من غير أن يلتزم بالقافية أو الروى[1] . ولعله يعرض به حينما قال : « وجل ما يتجلى لى من هذا الشعر الذى يسميه صاحبه بالمرسل إنما هو اقتران الرعونة بالشعور ... » .

أما أن هذا اللون من الشعر غير موجود قديماً فأمر لا نقر الرصافى عليه لأن القدماء ذكروا أمثلة له وإنْ لم يسموه ، كقول بعضهم :

ألا هل ترى إنْ لم تكن أمُّ مالك   بملك يدى أن الكفاء قليلُ
رأى من رفيقيه جفاءاً وغلظةً   إذا قام يبتاع القلوص ذميم
فقال : أقلاّ واتركا الرحل إننى   بمهلكة والعاقبات تدور
فبيناه يشرى رحلة قال قائل :   لمن جمل رَخوُ الملاط نجيب

وقول الآخر :

فما ليث عرين ذو أظافير وأقدام
كحِبّى إذ تلاقوا ووجوه القوم أقران
وأنت الطاعن النجلاء منها مزبد آن

---

(١) ينظر الزهاوى والشعر المرسل فى كتابنا النقد الأدبى الحديث فى العراق ص ٢٢٣ — ٢٢٩ .

وبالكف حسام صارم أبيض خذّام
وقد نرحل بالركب وما نحن بصحبان[١]

ويبدو أن العرب لم يرتاحوا لهذا اللون من الشعر واعتبروه عيباً وسموه « الأكفاء » تارة و « الاجازة » تارة أخرى ، ولكن المحدثين بدأوا يدعون إليه وعلى رأسهم توفيق البكرى وعبد الرحمن شكرى ومحمد أبو فريد وجميل صدقى الزهاوى[٢] ، ونظموا فيه قصائد لم يكتب لها الخلود .

---

(١) الموشح للمرزبانى ص ١٣ .

(٢) للتفصيل ومعرفة أقدم الذين نظموا الشعر المرسل فى هذا العصر ينظر كتاب « حركات التجديد فى موسيقى الشعر العربى الحديث » ص ٣ — ٦٥ ، تأليف س. موريه ، ترجمة سعد مصلوح (القاهرة ١٣٨٩ هـ — ١٩٦٩ م) .

الفصل الرابع

الأسلوب

الأسلوب وأنواعه :

عرّف الرصافى الأسلوب بقوله : «هو الطراز الذى ينسج فيه برد الكلام ، والطابع الذى تنطبع فيه جمله وتراكيبه »[1] .

ولا بد لكل كاتب أو شاعر نهج ينتهجه لتأليف الكلام ونمط يتوخاه لأداء المعانى سواء كان مبتدعاً أم متبعاً ، ولذلك كثرت أساليب الكلام وتعدد طرق القول .

وقسّم الأساليب على ثلاثة أنواع : أسلوب المنظوم ،وأسلوب المنثور العلمى،وأسلوب المنثور الأدبى. ولم يتحدث عن أسلوب المنظوم لأنه متشعب كثير المسالك يحتاج إلى دراسة مستقلة واكتفى بالكلام على أسلوب المنثور العلمى وأسلوب المنثور الأدبى .

أما الأسلوب العلمى فالهدف الذى يرمى اليه الكاتب بيان المسائل العلمية من طريق الحقيقة فلا يلجأ فى بيانها إلى المجاز ولا إلى الاستعارة ولا إلى الكناية ولا إلى الخيال إلا نادراً ، ولذلك لا تكاد كتب العلم تختلف فى الأسلوب بخلاف كتب الأدب فإنها مختلفة الأساليب متنوعة التراكيب .

ويجوز أن تكتب البحوث العلمية بأسلوب أدبى ترغيباً للناس فى قراءتها

---

(١) دروس فى تأريخ آداب اللغة العربية ص ٦٩ .

بقصد نشر العلم كما فعل كتاب الأفرنج ، وكما نظم بعض كتاب العرب كثيرا من الحقائق العلمية تسهيلا لضبطها وحفظها .

أما الأسلوب الأدبى فقد ذكر أن للمنثور عند العرب أسلوبين عامين هما : السجع والترسل . وأساوب السجع أسلوب لفظى أكثر من كونه معنوياً ، لأنه يضطر الكاتب إلى ابتذال المعنى صيانة للألفاظ وإلى ترك شيء من المعانى تعزيزاً لجانب اللفظ . وأقبح ما يكون السجع إذا استعمل فى الموضوعات العلمية ، ولكنه قد يصلح فى الخطابة لأنها كالشعر تستند إلى العاطفة أكثر من العقل ، والسجع ضرب من الشعر . يقول الرصافى : « والذى أراه أن السجع إذا جاز استعماله فى الخطب فلا يجوز إلا فى الخطب القصار على شرط أن لا يكون متكلفاً وإلاّ فهو فى الخطب الطوال مملول ومع التكلف مرذول »(١).

وتحدث عن مقامات الحريرى ورأى أنها سجع يدل على مهارة فليس فيها « سجعة قلقة افتدى فيها اللفظ بشيء من المعنى ، وذلك يدل على أن الحريرى قد مهر فى صناعة السجع مهارة عظمى كان فيها خاتم الساجعين » ، ولكن أكبر ما يؤاخذ به الحريرى فى مقاماته موضوعاتها التى تتحدث عن الاحتيال والاستجداء ، ولو أنه جاءنا فيها بغير ذلك من الموضوعات العالية لكان لها فى الأدب العربى شأن أعلى .

وهذه المقامات على حقارة موضوعاتها تمثل لنا كثيراً من أحوال الناس فى زمانها ، وتقدم لدارسها ثروة لغوية كبيرة . وهى لذلك مهمة من هاتين الناحيتين(٢).

---

(١) المصدر السابق ص ٧١ — ٧٢ .

(٢) المصدر السابق ص ٧٢ .

وتكلم على أنواع السجع وهى أربعة: المطرف، والموازى،والمتوازن، والمرصع ، وأشار إلى أنّ العرب تفضل السجع الذى تتساوى قراءته بعدد الألفاظ ، وهو السجع المتوازى ، وإن لم تتساوَ كما فى السجع المطرف فالأحسن ما كانت قرينته الثانية أطول من الأولى .

والسجع بأنواعه الأربعة أسلوب واحد عام ، ومن الجائزأن يستعملها كلها كاتب واحد فى موضوع واحد فى رسالة واحدة .

أما الأساليب الخاصة بالترسل فهى كثيرة جداً لا يمكن إحصاؤها ، لأن لكل كاتب أسلوباً خاصاً به سواء كان مبتدعاً أم متبعا .

ولما كانت الأساليب الخاصة لا تعد ولا تحصى وضع الرصافى لها خطوطاً عامة ، وتحدث عن ثلاث صور هى : الصورة المستقلة ، والصورة المستديرة ، والصورة المتوسطة .

أما الصورة المستقلة فهى أن يكون الكلام مؤلفاً من جمل قصيرة مدللة كل واحدة منها قائمة بنفسها من جهة السبك ، مستقلة عن غيرها من جهة المعنى بحيث أننا إذا حذفنا بعضها لم يختل معنى غيرها ولا يشعر القارىء أو السامع بنقص طرأ على الموضوع .

ولا يريد باستقلال الجمل عدم وجود التناسب والترابط بينها ، بل هى فى معانيها متناسبة وفى مقاصدها متلاحمة ، ويعنى باستقلالها كون كل واحدة منها تامة المعنى مفهومة بنفسها بحيث لا يتوقف فهمها على فهم غيرها .

ويرى أن هذه الصورة المستقلة أو الأسلوب المستقل أرقى وأعلى ما يتصور من الأساليب الخاصة فى الكلام المنثور، وخير مثال له أسلوب القرآن الذى فصلت آياته واستقلت جمله وتراكيبه ، وهو أسلوب مبتكر ، لأننا لم نعهد قبل القرآن مثله فى الكلام العربى المنثور ،ولكونه مبتكراً عند العرب عجزوا عن الإتيان بمثله . ولذلك فإعجازه — كما يرى الرصافى —

بأسلوبه لا بإخباره بالمغيبات أو الصرفة كما ذهب اليه القدماء [١].

ويرد رأى من يذهب إلى أنّ القرآن مسجوع فيقول : « وإذا قيل كيف يكون القرآن مثالا للأسلوب المستقل من الأساليب الخاصة للترسل وهو مسجوع ؟ قلنا : إذا تأملنا فى أسلوب القرآن جيدا حكمنا بأنه ليس من السجع ، وإنما هو مفصل الآيات ومستقل الجمل ، واذا تواطئت أحيانا بعض فواصله على روى واحد فليس ذلك آتياً فيه عن طريق القصد بل عن طريق الاتفاق . وليس القصد فيه موجها إلا إلى المعنى بدليل أنه لا يراعى الروى فى كثير من فواصله» [٢].

وأما الصورة المستديرة فهى أن يكون الكلام مؤلفاً من جمل مطولة متتالية مرتبط بعضها ببعض لا تستقل إحداها عن الأخرى ولا يحصل القارىء على تمام المعنى إلا عند ختامها بحيث إذا أسقطت منها جملة اختل معنى الباقى منها . فهى على العكس مما ذكره فى الصورة المستقلة ، يتوقف فهم تمام المعنى فيها على الإحاطة بمعانى الجمل كلها منها .

ومعظم الكتاب — فى القديم والحديث — جارون فيما كتبوه على أسلوب الاستدارة . وقد يقع هذا الأسلوب فى الشعر كما جاء فى قول قس بن ساعدة الأيادى :

فى الذاهبين الأولين ... من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارداً ... للقوم ليس لها مصادر
ورأيت قومى نحوها ... تمضى الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضى إلىّ ... ولا من الباقين غابر
أيقنت أنى لا محالة ... حيث صار القوم صائر

(١) تحدث الرصافى عن إعجاز القرآن فى كتابه « الشخصية المحمدية » .

(٢) دروس فى تأريخ آداب اللغة العربية ص ٧٦ — ٧٧ .

وكما جاء فى شعر النابغة الذبيانى يمدح النعمان بن المنذر، وهو مما يسميه البديعيون « التفريع » . قال :

فما الفرات اذا هبّ الرياح لهُ ترمى غواربه العبرين بالزبدِ
يمدّه كل واد مترع لجب فيه ركام من الينبوت والخضدِ
يظل من خوفه الملاح معتصماً بالخيزرانة بعد الأين والنجدِ
يوماً بأجود منه سيبُ نافلةٍ ولا يحول عطاء اليوم دون غدِ

ومن هذا القبيل قول أبى على تميم بن المعز :

وما أم خشف ضلّ يوماً وليلة ببلقعة بيداء ظمآن صاديا
تهيم فلا تدرى إلى أين ينتهى مولهة حيرى تجوب الفيافيا
أضرّ بها حرّ الهجير فلم تجد لغلتها من بارد الماء شافيا
فلما دنت من خشفها انعطفت له فألفته ملهوف الجوانح طاويا
بأوجع منى يوم شدّت حمولهم ونادى منادى الحى أن لاتلاقيا

يقول الرصافى معلقاً على هذه المقطوعات : « فكل واحدة من هذه المقاطيع الثلاث استدارة كلامية كما لا يخفى » ثم يقول بعد ذلك : « قلنا إنّ أسلوب الاستدارة قد يقع فى الشعر أيضاً ، ولكنه يقع فى أثناء القصيدة ثم ينقطع ولا يستمر إلى الآخر ولم نجد قصيدة عربية تنطبق على أسلوب الاستدارة من أولها إلى آخرها . وقد أنشدنى مرة أحد أصدقائى فى فلسطين قصيدة باللغة الانكليزية تزيد على عشرين بيتاً وهى لشاعر انكليزى لا أذكر اسمه الآن ، وقد ترجمها إلىّ منشدها ودعانى إلى تعريبها شعراً ، وهى تبتدىء بـ « إذا» فى كل بيت من أبياتها ولا يأتى الجواب إلا فى آخرها . فهى إذن تنطبق على أسلوب الاستدارة من مطلعها إلى مقطعها »[1] .

---

(١) المصدر السابق ص ٨٢ .

واستعمل الرصافى هذا الأسلوب فى شعره ، ولكنه لا يستمر فى القصيدة كلها ، بل يقطعه ويأتى بصورة جديدة أو أسلوب آخر[١] .

وأما الصورة المتوسطة فهى أن يكون الكلام مؤلفاً من الأسلوبين السابقين فيحتوى على الجمل المستقلة والجمل المستديرة معا ، فهى أسلوب بين بين . وخير مثال للصورة المتوسطة الأسلوب الذى جرى عليه الجاحظ فى « البيان والتبيين » ، وهذا الأسلوب وسط بين الأسلوب المستقل وأسلوب الاستدارة .

ويضع الرصافى قاعدة للتفاضل بين هذه الأساليب فيقول : « فالتفاضل بين صورة وأخرى من جنسها إنما يكون بواسطة سحنتها وملامحها الخاصة، فكما أننا نفضل صورة إنسان أبيض على صورة إنسان آخر مثله فى البياض بكون الأول أدعج العينين أسيل الخدين هريت الشدقين، وكون الثانى غائر العينين ناتىء الوجنتين ، كذلك نفضل أسلوبا متوسطا على أسلوب متوسط مثله بكون الأول موجزاً صريحا منسجما وكون الثانى مسهبا معقداً غير صريح ولا منسجم إلى غير ذلك من الصفات .

أما التفاضل بين الصور الثلاث المستقلة والمتوسطة والمستديرة فيكون تواً بلا واسطة ، فإذا رأينا أسلوبا مستقلا وآخر متوسطا فضلنا المستقل على المتوسط والمتوسط على المستدير »[٢] .

ويضيف قاعدة أخرى إلى ذلك فيقول : « ولكن هناك واسطة أخرى هى الواسطة العظمى للتفاضل بين الأساليب عامة وخاصة ، وهى أن يكون الكلام ممثلا للحياة بجميع وجوهها ومنطبقا عليها من جميع مناحيها، فالكلام

---

(١) ينظر ديوانه ص ٥٦ . وما أدماء ترتم... الخ وص ١٠٥ : وماثلة قد أهملتها .. الخ

(٢) المصدر السابق ص ٨٣ .

إذا لم يكن متصفاً بهذه الصفة لم يكن شيئا مذكوراً مهما كان أسلوبه راقيا فيلزم إذا أردنا أن نفاضل بين أسلوب وأسلوب من أساليب الكلام أن ننظر إلى هذه الجهة من قبل النظر إلى غيرها من وسائط التفاضل ثم نحكم بما نريد ».

إن هذه الدراسة التي كتبها عن الأسلوب من أقدم ما كتب في الأدب والنقد في العراق ، وهي دراسة جديدة فيها آراء لم يسبق اليها ، وتقسيمات لم نعهدها في كتب القدماء أو المحدثين . وبذلك تكون له فضيلة السبق في هذا المضمار .

ويتعلق بالأسلوب الصور البيانية التي تتصل بالخيال أو المجاز أو التشبيه أو المحسنات البديعية .

الصور البيانية :

تحدث الرصافي عن بعض الصور البيانية ، ومن ذلك قوله في الخيال : « لا ريب أنّ الخيال من أكبر أسباب النجاح في الأدب ، إذ هو الذي يحلي ما يرد على العقل من المعاني بصورة بديعة حتى يخيل للسامع معانيها وربما شخص المعنى المجرد عن الحس حتى جعله كالمحسوس ، كما شخص المتنبي الموت بقوله :

وما الموت الا سارق دقّ شخصه ... يصول بلا كف ويسعى بلا رجل

ولولا الخيال بطل المجاز وبطلت الاستعارة في الكلام ، إذ لا شك أنهما مبنيان على تخيل المشبه به وتنزيله منزلته في أمر من الأمور . واذا بطل المجاز لم يبق لأداء المعنى سوى طريقة الحقيقة وبذلك يضيق مجال البيان الذي كان متسعا بسبب أداء المعنى الواحد بطرق مختلفة في العبارة . وبهذا تعرف ما للخيال في الأدب من المنزلة السامية التي لولاها لقصرت

الألفاظ عن تمثيل المعانى وتصويرها للسامع حق التصوير ؛ لأن الألفاظ محدودة والمعانى غير محدودة ، ولا يمكن — لولا الخيـــال الذى هو أس المجاز — تصوير مالا يتناهى بما هو محدود متناه » .

ويتحدث عن المجاز فيقول : « فالمجاز لايلجأ إليه الأديب فى كلامه إلا لما يراه من قصور الألفاظ عن تصوير المعانى من طريق الحقيقة فقط ، ولى فى هذا الباب من قصيدة قلت فيها :

وما كل مشعور به فى نفوسنا   قدير على إيضاحه المنطق الحر
فنى النفس ما أعيا العبارة كشفه   وقصر عن تبيانه النظم والشعر
ويارب معنى دقّ حتى تخاوصت   إليه من الألفاظ أعينُها الخزرُ
ويا رب معنى حاك فى صدر ناطق
فضاق من النطق الفسيح به الصّدرُ
أرى اللفظ محدوداً فكيف أسومه
كفاية معنى فاته العدُّ والحصرُ
وأفْقُ المعانى فى التصوّر واسع   يتيه إذا ما طار فى جوه الفِكرُ
ولولا قصورٌ فى اللغا عن مرامنا
لما كان فى قول المجاز لنا عـذرُ (١)

ثم إن الفائدة من الخيال لا تنحصر فى اتساع مجال البيان ، بل هو مع ذلك واسطة لتزيين الكلام بالصور البديعة الخيالية ، فالحقيقة المجردة تكون جافة إذا لم يكسها الخيال ثوباً من الطراوة والطلاوة .

ومن صنائع الخيال المشكورة فى الأدب ما يسمى بالتمثيل الخيالى المستعمل فى باب التشبيه ، وهو عبارة عن صورة خيالية معدومة فى الخارج

(١) تنظر الأبيات فى ديوان الرصافى ص ١٨٢

اخترعتها القوة المخيلة وركبتها من أمور محسوسة مدركة بالحواس الظاهرة، كما فى قول الشاعر :

وكأنّ محمّر الشـــقيق إذا تصوّب أو تصعد
أعلام ياقـــوت نشرن على رماح من زبرجد

فإن صورة الأعلام الياقوتية المنشورة على الرماح الزبرجدية مما لا يدركه الحس لأنها غير موجودة فى الخارج ، ولـكن مادتها الـــتى تركبت منها كالأعلام والياقوت والرماح والزبرجد كل منهـا موجود فى الخارج
ومن هذا القبيل قول بشار بن برد فى هجاء بعضهم :

أرفق بعمرو إذا حركت نسبته فإنه عربى من قوارير

فإن هذه الصورة الخيالية أعنى صورة عربى مصنوع من قوارير مما لا يدركه الحس ، لأنها غير موجودة فى الخارج ولـكن مادتها وهى العربى والقوارير كل منها موجود مدرك بالبصر »(١) .

وتـكلم على التشبيه فقال تعليقاً على بيت الشاعر :

صاح فى العاشقين يالـكنانه رشأ فى الجفون منه كنانه

« من التشابيه المرذولة والاستعارات المبتذلة التى جرى عليها الأولون وتبعهم الآخرون من الشعراء استعارتهم لعيون الملاح أو للنظرات الواردة منها الآلات الجارحة القاتلة كالسهام والسيوف . والوجه الجامع فى هـذه الاستعارة هو التأثير الـكائن فى كل من المستعار والمستعار له . فـكما أن السهم بنفوذه أو السيف بضربته يؤثر فى جسم المضروب به كذلك النظرة

---

(١) دروس فى تاريخ آداب اللغة العربية ص ٣٤ — ٣٦ .

الموجهة من عيون الحسان تستفز قلوب الناظرين إليها وتؤثر فيها بالحب تأثير السهم أو السيف فى الجسم ، فستعار السهم أو السيف لتلك النظرة تشبيه لها بهما .

ولعمرى أن هذا التشبيه فاسد بالنظر إلى الحقيقة ونفس الأمر ، لأن المليحة الحسناء إذا رمتنى بعينها الفاترة رمتنى منها بنظرة ساحرة لم أشعر بألم يؤلمنى ، بل أشعر بلذة ما فوقها لذة ، فكيف أشبهها بالسهم أوالسيف وهما يؤثران فىّ بألم لا بلذة وهى تؤثر بلذة لا بألم . . . .

ولو أن هذا الشاعر الذى ادعى قصيدته سبعون شاعراً جرى على الطريقة المألوفة فى تشبيه العين بالسهم لعذرناه وقبلنا منه هذا التشبيه على علاته وإن كان تشبيها فاسداً مبتذلا قدمجته الأذواق وملته الأسماع ، ولكنه جاء فزاد الطين بلة حيث أخذ كنانة ملأى بالسهام فأدخلها فى أجفان الرشأ الغرير إذ قال . « رشأ فى الجفون منه كنانة »

فياللشعراء من رأى منكم ظبياً يحمل جعبته فى عينيه ، ويا للعجب كيف لم يخش هذا الشاعر أن يفقأ عينى غزاله حين دس بين أجفانه هذه الكنانة ؟ وما أقبح هذه العين التى صارت مخزنا تدخر فيه السهام .

نعم إنى أعترف بأن هذا الشاعر مغرم بالجناس ، فالجناس هو الذى حمله على أن يعذب هذا الرشأ بإدخال الكنانة فى عينيه ولا بأس فى ذلك ، إذ لأجل الجناس يجوز أن يهان ظبي الكناس »(١) .

فالرصافى يمقت التكلف أشد المقت ولا يقبل الصور المتداعية التى رددتها الأقلام ولاكتها الألسن زمنا طويلا . إن المجاز والتشبيه وصور البديع المختلفة ينبغى أن لا تثقل الأدب وتحيله هياكل لاروح فيها ، ولذلك يقول عن نفسه :

---

(١) جريدة الأمل العدد ٣٥ (١١ تشرين الثانى ١٩٢٣ م) .

لست بالشاعر الذى يرسل اللفظ جزافاً لكى يصيبَ جناسه
أنا لا أبتغى من الشعر إلا ما جرى فى سهولة وسلاسه
إنما غايتى من الشعر معنى واضح يأمن اللبيب التباسه(١)

ويقول عن الصناعة اللفظية : «إن الصناعات اللفظية لا تحسن إلا إذا جاءت عفواً بلا قصد ، ومتى التزمت فى الكلام استثقلت ومجها الذوق إلا إذا كان صاحبها بارعا فى البيان كل البراعة كأبى العلاء ، فإن شعره المقيد بهذه الصناعة اللفظية فى اللزوميات لا ينبو عنه الذوق وإن نبا عنه الفهم أحيانا بعض النبو ، وما ذلك إلا لأن أبا العلاء بارع فى فن البيان ، آخذ بناصيته من جميع الجهات »(٢). ويقول فى لزوم ما لا يلزم : « ولا ريب أن ذلك قيد شاق فى نظم القوافى ؛ لأنه يضيق على الشاعر مجاله فى استعمال الكلمات فلا يأتى فى القافية إلا بكلمة يكون ما قبل الحرف الأخير منها مماثلا لما قبل الحرف الأخير من القافية التى تقدمتها فيكون الشاعر مقيداً فى القافية بقيدين : أحدهما الروى ، والثانى ما قبل الروى »(٣).

ولكن هل سلم شعره من هذه الصور التى نفر منها ونقدها ؟ إن الباحث فى شعره ليجد بعض هذه الصور التى كانت امتداداً لصلته بالشعر العربى فى عصوره المتأخرة .

ومن ذلك قوله :

يقينى شرٌّ فريتكم يقينى بأن الله مطلع رقيب(٤)

---

(١) الديوان ص ٣١١ .
(٢) على باب سجن أبى العلاء ص ٥٤ ـ ٥٥ .
(٣) المصدر السابق ص ٤٤ ـ ٤٥ .
(٤) الديوان ص ٢٥٩ .

وقوله :

قف بالديار الدارسات وحيها　　وأقرا السلام على جآذر حيها(١)

وقوله :

جاء الكتاب إلىَّ منك به شفيت غُليلَ صَدْرِى
فإليك يا « شكرى » على هذا الصنيع عظيم شكرى(٢)

أليس فى هذه الأبيات جناس ؟

ومن ذلك قوله :

ولو شئت أرسلت الخديعة خلفه
تطارده حتى تضيق مذاهبه
ولكن أبى منى الخداع مهذّبٌ
تعوّد فعل الخير مذ طرّ شاربه(٣)

أليس هذا هو التجريد عند البديعيين ؟ لقد جرد من نفسه مهذباً تعود فعل الخير ، وبلغ مبلغاً صحّ معه أن ينتزع منه آخر مثله فى تلك الصفات .

ومن ذلك قوله :

فهى إن أقبلت رأيت ابتساماً　　وهى إن أدبرت رأيت قطوبا(٤)

وقد أشار إلى وقوع الرصافى فى المحسنات الشيخ عبد القادر المغربى الذى يقول فى مقدمة الديوان : « ومهما تجنب الرصافى الصنعة البديعية ومحسناتها فى شعره فقد وقع له منها الكثير المستملح الذى جاء عفواً فى غير تكلف وطوعاً من دون استكراه »(٥) .

---

(١) الديوان ص ٢٦٦ .
(٢) الديوان ص ٥٣٤ .
(٣) الديوان ص ٧٠ .
(٤) الديوان ص ٢٠١ .
(٥) الديوان ص (ل)

وتحدث الدكتور بدوى طبانه عن هذه الصنعة والتمس العذر له فقال : « على أنه برغم ذلك الحكم واجد له شيئاً قليـــلا من ذلك ، ولا بأس على الشاعر من استخدام محاسن الكلام مادام شعره قدبرىء من مظنة التكلف وسلم من التعسف الذى يستهلك المعانى أو يسترما فيها من ضعف ورخاوة ، ولأن الذى وقع للرصافى من البديعيات زاد معانيه بهاء ، وأساليبه إشراقا لا أثر فيه لما ينفر من الصنعة المستكرهة »[٢] .

وهذه الأمثلة القليلة صورة من صور تأثره بالشعر الذى حفل بفنون البديع .

وآراؤه فى البلاغة وفنونها قليلة ؛ لأنه لم يؤلف فيها كتاباً أو يلق محاضرة ، وإنما جاءت متناثرة فى بعض كتبه ومقالاته، وهذه النتف القليلة تعطى فكرة واضحة عن اتجاهه ونفوره من التصنع والإغراق فى المحسنات البديعية التى تذهب بجمال الكلام.

---

(١) معروف الرصافى ص ٢٥٣

الفصل الخامس

آراء شتى

نظرة عامة :

معظم آراء الرصافى نظرية ؛ لأنه لم يمارس النقد كغيره من نقاد عصره ، وإنما كان يلقى الرأى فى مجالسه الخاصة أو كتبه أو أحاديثه التى يجريها الصحفيون . وكان ينقد نفسه قبل أن ينقده غيره آخر ، وفى اختياره للألفاظ وانتقائها والعناية بها مثال على هذا النقد الذى يلتزم به الشاعر نفسه قبل غيره كما كان الشعراء فى الجاهلية يفعلون ، فينقحون قصائدهم ويجودونها قبل أن يعرضوها أو يلقوها فى أسواق العرب . يقول الأستاذ محيي الدين الخياط : « الرصافى صيرفى حاذق ينقد دنانير الألفاظ فيختار منها الجيد ويطرح الزائف ، ويندر أن ترى له لفظة تقبل أن يسكن غيرها فى المكان الذى يختاره لها من بيوت أشعاره ، ولو كان أسلوبه كلفظه وشعره كوصفه لما علا عليه شاعر فى هذا العصر[1] » .

وللرصافى بعض المقالات النقدية التى يحاول فيها أن يطبق ما يؤمن به على النصوص الأدبية ، ومن ذلك بحثه « نظرة انتقادية فى الأدب » الذى نشره فى جريدته « الأمل » . وقد مر بنا بعض هذا البحث حينما تكلمنا على التشبيه ورأينا طريقته فى العرض والتحليل والنقد . ولكى نزيد الصورة وضوحاً ننقل نصاً آخر من هذا البحث ، يقول : « ومما استحسنه أهل الأدب فى كتبهم قول أبى العتاهية من قصيدة يمدح بها المنصور ويهنيه بالخلافة :

---

(١) ديوان الرصافى الطبعة الأولى (بيروت ١٩١٠) ص ١٢ .

أتتـه الخلافةُ منقادةً ... إليه تجـــرر أذيالهـا
فـلم تكُ تصلح إلا له ... ولم يكُ يصلح إلا لها

وقد ذكروا أن بشار بن برد الشاعر المفلق كان حاضرا عند إنشاد هذه القصيدة ، وأنه لما وصل إلى هذين البيتين قال بشار لرجل معه : « ويلك أنظر إلى الخليفة هل طار من مكانه طرباً ؟ » .

وأغلب ظنى أن هذه الرواية عن بشار ملفقة لا أصل لها ، لأنّ بشاراً بصير بمواقع الـكلام وإن كان أعمى . وأنت ترى مافى شطرى البيت الأول من الارتباك والتصادم فى المعنى حيث قال : « أتته الخلافة منقادة إليه » ، والانقياد يستلزم الخضوع والخنوع . ثم قال : « تجرر أذيالها » وجر الذيل من لوازم الـكبرياء ، قال الشاعر :

خرجت أجر الذيل تيهاً كأننى ... عليك أميرَ المؤمنين أمير

فإذا كانت الخلافة قد أتته منقادة إليه خاضعة له فـكيف تختال أمامه سادلة ثوب الخيلاء ، ساحبة ذيل الـكبرياء ؟ وهل هذا إلا تناقض فى ظاهر الـكلام ؟ ولـكن غفلة أبى العتاهية عن موقع استعمال تجريد الذيول هى التى أوقعته فى هذه الورطة .

ثم إنه قال فى البيت الثانى : « فـلم تك تصلح إلا له » ، وهذا حسن جداً فى مدح الخليفة ، ولـكن ليس فى قوله بعد ذلك : « ولم يك يصلح إلا لها » كبير مدح ، إذ لاشك أن فى قصر الخلافة على المنصور مدحاً له بليغا بخلاف قصره على الخلافة فإنه يتضمن نقصه ؛ لأن من الـكمالات ما هو خارج عن معنى الخلافة، فجعل المنصور لايصلح إلا لها خروج به عن تلك الـكمالات وتجريد له منها .

وما أدرى ما ضرَّ المنصور لو كان كصلاحيته للخلافة صالحاً أيضاً لأن

يكون مثلا شاعراً مجيداً أو أديباً كبيراً أو عالماً رياضياً أو فلكياً أو طبيباً حاذقاً أو غير ذلك مما لا يعد ولا يحصى . فهذه الأمور كلها خارجة عن معنى الخلافة ، والمنصور لا يصلح لهـــا على ما يقتضيه قول مادح أبى العتاهية .

نعم يجوز أن يخرج قول أبى العتاهية هذا على وجوه أخرى من المعنى بعيدة عن الظاهر المتبادر منه ، ولكننا لو تمحلنا له بتخريجه على تلك الوجوه لما زدناه بلاغة ، بل كان ذلك منا دليلا على أنه سقط القول ورذل الكلام(١) » .

ومن ذلك بحثه « نظرة إجمالية فى حياة المتنبي » الذى نشره فى جريدة « الأمل » ونشر بعد وفاته فى كتاب . وفى هذا البحث يبدو رأيه فى المتنبي وشعره . يقول : « وعندى أن المتنبي على علاته أرقى شاعرية من غيره فهو فى الشعر العربى الأول والآخر ، وهو وإن كان أرقى شاعرية من أبى العلاء إلا أنه أحط منزلة منه فى نظرى ، أى أنى أجل أبا العلاء أكثر منه لتعاليه عما تنازل إليه المتنبي(٢) » .

إنه يلوم المتنبي لأنه لم يبق مرفوع الجبين دائماً ، ولو وقف كما وقف أبو العلاء لفاق الأولين والآخرين . وهذه نظرة لا يعتد بها كثيراً فى الدراسات النقدية ، لأن الناقد يلتفت إلى العمل الأدبى أكثر من من التفاتته إلى شخصية الأديب أو حياته الخاصة التى قد لا يكون لها أثر فى إنتاجه ومنزلته الأدبية .

وقد جرت للرصافى حادثة طريفة تؤيد بأن الناقد ينبغى أن ينظر إلى

---

(١) جريدة الأمل العدد ٣٦ (١٢ تشرين الثانى ١٩٢٣ م) .

(٢) جريدة الأمل العدد ٢٤ (٢٩ تشرين الأول ١٩٢٣) ، وكتاب نظرة إجمالية فى حياة المتنبي ص ٦٧ .

العمل الأدبى لا إلى صاحبه ، يقول : « وهنا أود أن أذكر لكم حادثة طريفة وقعت لى مع مسعود أفندى أخ شكرى أفندى الآلوسى ، فكنت أتصل به دائماً لأنه كان يسكن الجامع مثلى . وفى يوم من الأيام قرأت عليه بيتاً من الشعر فأعجب به وكتبه ، وبعد كتابته سألنى عن قائله فلما قلت له : « أنا الذى نظمته » ازدراه ومزق الورقة ورماها فى الأرض ، فتأثرت كثيراً من هذا الحادث ، ولكن لم أظهر له تأثرى . وبعد أيام نظمت بعض الأبيات فقرأتها عليه ، وقلت له : « هذا من شعر المتنبى » ، فأعجب بها وكتبها . وبعد ذلك أخبرته أنها لى فلم يقل شيئاً . فقلت له هذه الجملة التى لا أنساها مطلقاً : « أنت ممن يعرفون الحق بالرجال لا الرجال بالحق(١) » .

وما أشبه هذه الحادثة بما ذكره القدماء عن ابن الأعرابى وموقفه من شعر أبى تمام ، فقد قرأ له بعضهم من أشعار هذيل ، ثم قرأ أرجوزة أبى تمام على أنها لبعض شعراء هذيل :

وعاذل عذلته فى عذله ... فظن أنى جاهل من جهله

حتى أتمها . فقال له ابن الأعرابى : اكتب لى هذه ، فكتبها ، ثم قال له : أحسنة هى ؟ قال : ما سمعت بأحسن منها . فقال له : إنها لأبى تمام . فقال ابن الأعرابى : خرق خرق(٢) » .

وللرصافى تحليل للشعر تبدو فيه قدرته وموهبته الأدبية ، ويتجلى ذوقه الرفيع ، من ذلك تعليقه على أبيات جليلة أخت جساس التى تقول فيها :

يا ابنة الأقوام إن لمت فلا ... تعجلى باللوم حتى تسألى
فإذا أنت تبينت الذى ... يوجب اللوم فلومى واعذلى

---

(١) مجلة الثقافة الجديدة العدد الأول ص ١٥ (نيسان ١٩٥٤ م) ، وكتاب شعراء العراق فى القرن العشرين ج ١ ص ٦٧

(٢) أخبار أبى تمام للصولى ص ١٧٥

إن تكن أخت امرىء ليمت على ... شغف منها عليها فافعلي
جل عندى فعل جساس فيا ... حسرتا عما انجلى أو ينجلي
فعل جسّاس على وجدى به ... قاصم ظهرى ومدن أجلي
يا قتيلا قوّض الدهر به ... سقف بيتىَّ جميعاً من عل
هدم البيت الذى استحدثته ... وانثنى فى هدم بيتى الأولِ
لو بعين فقئت عين سوى ... أختها فانفقأت لم أحفلِ
إننى قاتلة مقتولة ... فلعل الله أن يرتاح لى

يقول : « إن هذه الأبيات لبسيطة جداً من جهة المعنى ولكنها من جهة الحس فى المقام الأعلى الذى لا يطمع شاعر أن يناله اللهم إلا إذا حلّ محل جليلة من هذا المصاب الجليل ، ووقف موقفها الحرج من هذا الرزء العظيم . ومن الذى لا يرحم جليلة ولا يرثى لها بعدما رأى بيتها الحديث قد تهدم بقتل زوجها وقد قام الثائرون يريدون هدم بيتها القديم بقتل أبناء أبيها . فهى مصابة بمصيبتين لا يدرى أيهما أعظم ، ومقذوفة بنارين لا يعلم أيهما أشد لذعاً وحرقة فى فؤادها . أليست جليلة معذورة إذا هى أرادت تهوين الخطب عليها بالدفاع عن أبناء أبيها ، ولكن حماتها أخت كليب لم تعذرها فى ذلك ، بل أخذت تلومها . ويحق لها أن تلومها ؛ لأنها لم تشعر بما تشعر به جليلة من الرزء العظيم فى قتل جساس أخيها . ولذا قالت جليلة هذه الأبيات التى لا يمكن لأحد أن يصور عجز الإنسان وهو فى هذا الموقف المؤلم مثلما صورته ، إلا إذا كان مكان جليلة(١) » .

والرصافى حينما يستحسن هذه الأبيات ويتحدث عنها هذا الحديث ، إنما يستحسنها لأنها من جهة الحس فى المقام الأعلى ، ولن يقدر الأديب أن يشعر بهذا الاحساس ويستاف عبير هذا الجمال إلا إذا وهب ذوقاً سليما صقلته

---

(١) دروس فى تاريخ آداب اللغة العربية ص ٣٧ — ٣٨ .

التجربة ، وأذناً مرهفة تعى ما تسمع . ولذلك نراه يحدد الذوق بقوله: « إن ملكة الذوق إنما تحصل للمرء بممارسة كلام العرب . ولا يخفى عليك أن هذا الذوق قل أو كثر موجود فى كل إنسان عربى وإنما يقوى ويكون ملكة راسخة بممارسة كلام العرب ، ومتى صار ملكة راسخة بالممارسة جاز أن يوصف بالسلامة ، فيقال : ذوق سليم . وهـــذا هو الوصف الذى لا يقبل حكم الذوق إلا به[١] » .

ويضع للزمان والمكان أهمية فى النقد ، لأنه لا ينبغى أن نهمل هذين المؤثرين حينما نصدر حكما على الأدباء ، يقول : « ولاريب أن مناحى الحياة ومظاهرها تختلف باختلاف الزمان والمكان فيجب أن نعتبر هذا الاختلاف الزمانى والمكانى عند الحكم بتفضيل كاتب على كاتب أو شاعر على شاعر فى أسلوبهما وإلا كان حكمنا جائراً ، وكنا فيه مخطئين وجه الصواب . فمن الجور والخطأ أن نطالب الجاحظ أو المتنبى بأن يمثل لنا الأول فى كتابته أو الثانى فى شعره حياتنا العصرية ، ومن الجور والخطأ أن نطالب الكاتب الشرقى أو الشاعر الشرقى اليوم بأن يمثلا لنا الحياة الغربية فيما يكتبان من نثر ونظم . كما أنه من الجمود الممقوت أن نرى الكاتب أو الشاعر فى هذا العصر يمثلان لنا فى كلامهما الحياة فى عصر الجاحظ أو المتنبى[٢] » .

ويقف بوجه التعصب فى تفضيل أدب على أدب ، ولا يقبل أن يكون للمكان أو البيئة أثر فى النقد ، ويهاجم بعض الذين كانوا يفضلون أدباء قطر على قطر بالعصبية الاقليمية . وقد شاع فى زمنه التعصب لشعراء مصر وكتابها وحمل هذه الدعوة أصحاب الاقليمية فى الأدب أو فى السياسة . وصور هذا فى قصيدته « التعصب الوطنى للأدب »[٣] التى يقول فيها :

---

(١) المصدر السابق ص ٤١ .
(٢) المصدر السابق ص ٨٤ .
(٣) الديوان ص ١٧١ .

من جور مصر عن العروبة أنها ... تتعمد التمصير فى آدابها
وتحيد عن آداب كل قبيلة ... لم تنتحلها مصر فى أنسابها
فترى بمصر تعصباً لأديبها ... متوالى النزغات فى أعصابها
فاذكر أولى الآداب من غير الألى ... فى مصر يغضب منك أهل جنابها
وأشدْ بمن فى غير مصر منوهاً ... ما إن ترى فيها لقولك آبها
تخفى بمنشدها القريب وتدعى ... أن لن يكون له البعيد مشابها
فالشاعر المصرى فيها فاضل ... وسواه مفضول وإن يك نابها
وكأنما أمست مواهب ربنا ... مقصورة فيها على كتابها

هذا تصوير للدعوة الإقليمية التى شاعت فى عهده وتنديد بمقاييس النقد التى ارتبطت بهذه النزعة وبالتعصب الوطنى للأدب .

والرصافى ـ مع دعوته إلى الحرية والتجديد ـ كان يخشى النقد ويثور أحياناً ، فقد كتب الأستاذ صلاح الأسير فى مجلة الأديب(١) البيروتية مقالا عن الأدباء ، ومما قاله عن الرصافى : « فيه تمرد غير متصل الحلقات ، وعنده طبيعة متقطعة ، فإذا تمرد جاء شعره فى الذروة ، وإذا هدأ واستكان فى وظيفة أو ديوان خنقت الدعة شعلة الشاعرية عنده . استهوته السياسة فعمل فيها وطالع علينا بنماذج مختلفة الألوان ، متصادمة الآراء ، حائرة التوجيه . واليوم يخفت صوت الرصافى ، أتراه عاوده حنينه الأول فهو عاكف اليوم على الشعر الوجدانى . وعندى أن للرصافى بيتاً رائعاً أحفظه إلى جانب ما أحفظ له ، فى هذا البيت أم توقظ ابنتها للقاء الصبيحة :

يا ابنتى يا ابنتى شقيقتك الشمس ... استفاقت من نومها فاستفيق

(١) الجزء الثانى ص ٢٦ (السنة الثالثة شباط ١٩٤٤ م) .

واطلعه الأستاذ نعمان ماهر الكنعانى على هذا النقـــد فتأثر وغضب وثارت ثائرته ، وكادت القطيعة تقع بينهما[1] .

وله الحق فى أن يثور على ما كتب الأسير ، لأنه كان فى أواخر أيامه ، وماذا يُراد منه بعد أن قضى حياته كلها من أجل أمته ووطنه ؟ أيستطيع أن يعيد إليه شبابه وقوته ليظل مترنماً بقصائد السياسة ، متغنياً بكلمات الثورة والنضال ؟

وله آراء شتى فى الشعراء والأدباء والخطباء والكتب ، نذكر منها ما وصلنا إليه ، لعل فيه استكمالا للحديث الذى بدأنا به .

الشعراء :

الرصافى شاعر يهتز للشعر الجيد ويطرب له طرباً عظيما ، وقد يهزه بيت من الشعر يكون عنده خيراً من ديوان . يقول الأستاذ محمود العبطة : « وقد أنشد بعض الأصحاب قصيدة ليلى بنت طريف الشارى فى رثاء أخيها الوليد ، فلما انتهى إلى قولها :

أيا شجر الخابور مالك مورقا   كأنك لم تجزع على ابن طريف

قال — الرصافى — : « إن هذا البيت خير من ديوان من الشعر[2] » .

وهذا قريب مما كان يقوله العرب عن أمدح أو أغزل أو أهجى بيت قاله الشعراء .

وكان إذا لم تعجبه قصيدة مما يقرأه فى الصحف تحدث لأصحابه فى

---

(١) أخبرنى الأستاذ الكنعانى بهذه الحادثة مساء يوم الثلاثاء ٩ أيلول ١٩٦٩ فى حديقة داره بينما كنا نتجاذب أطراف الحديث عن الأدباء .

(٢) مجلة الجزيرة العدد ١٢ ص ١٧ (السنة الأولى أول نيسان ١٩٤٧م)

استغراب عن سخافة الناظم ومشوه الصور التى يحاول ذلك الشاعر تصويرها فى نظمه ، وركيك العبارات المسبوكة سبكا سقيما من غير أن تؤدى المعنى المفهوم[١] .

ويرى - رحمه الله — أن شعر الخوارج وأدبهم من الأدب المطبوع الذى يستوجب الدراسة والوقفة الطويلة والتأمل العميق ، يقول الأستاذ العبطة « تناقلت الصحف وفاة الأستاذ بندلى جوزى مدرس الأدب العربى فى إحدى جامعات روسية ، وقد نقلت هذا الخبر للرصافى فقال : لقد زارنى المشار إليه واستمع إلى محاضرة لى عن أدب الخوارج عندما كنت أستاذاً فى دار المعلمين العالية فى بغداد ، وبعد إنهاء المحاضرة صافحنى بحرارة وقال لى : لم أجد من عرف أدب الخوارج مثل معرفتك .

ثم قال الرصافى : « لو لم أكرس حياتى لدراسة النبي العربى لدرست أدب الخوارج أثبت الناس على العقيدة والمبدأ ، وأصدق العرب فى الشعر المطبوع[٢] » .

وللرصافى آراء فى المتنبي وأبى العلاء المعرى وأحمد شوقى وحافظ ابراهيم وخليل مطران وجميل صدقى الزهاوى وعبد الغفار الأخرس والشبيبي ومحمد مهدى الجواهرى وعبد القادر بن شنون وغيرهم .

والمتنبي - عنده - شاعر العرب كلهم ، وقد حفظ ديوانه ونقله بخط يده ، يقول : « مع أن ديوان المتنبي المطبوع كان لدى ، أخذت أستنسخه بخطى » (٣) . وكتب عنه دراسة نشرها فى جريدته « الأمل » وطبعت بعد

---

(١) تنظر جريدة الاستقلال العدد ١٧٦٠ (٧ كانون الأول ١٩٣٢م ، ٨ شعبان ١٣٥١هـ)

(٢) مجلة الجزيرة العدد ١٢ ص ١٧ (السنة الأولى ١ نيسان ١٩٤٧) .

(٣) مجلة الثقافة الجديدة العدد الأول ص ١٤ (نيسان ١٩٥٤) ، وشعراء العراق فى القرن العشرين ج ١ ص ٦٦ ، ومجلة الجزيرة العدد ١٢ ص ١٧ (السنة الأولى ١ نيسان ١٩٤٧ م) ، والأدب العربى ص ٤٦

وفاته في كتاب ، وأشار في هذه الدراسة إلى أن المتنبي ـ على علاته ـ أرق شاعرية من غيره ، فهو في الشعر العربي الأول والآخر ، وهو ـ وإن كان أرق شاعرية من أبي العلاء ــ إلا أنه أحط منزلة منه لأنه تنازل إلى أمور لم يتنازل إليها أبو العلاء (١) .

ويرى أنه امتاز على غيره من الشعراء ، وكان من أقدرهم على جمع المعانى الكثيرة فى اللفظ القليل ، وله قدرة على أن يأتى بالمعانى الدقيقة الغامضة ، ويشير إليها أحياناً من طرف خفي ، وله أسلوب خاص به يعرفه من قرأ شعره من بين الشعراء ، والمتنبي مبتدع فى صناعته لا متبع ، وموجد فى شعره لا محتذ . (٢)

وأوضح رأيه فى المتنبي بقصيدته « أبو الطيب المتنبي » (٣) ، التى يقول فيها :

كان أبو الطيب امرءاً قوله ... يبتكر الشعر مذكيا شعله
صاحب نفس كبيرة شرفت ... فشرفت حله ومرتحله
كان هو الشاعر الذى انتشرت ... أشعاره فى البلاد منتقله
أوجد للشعر دولة عظمت ... به فعزّت من قبله دوله
من كل معنى أغر مؤتلق ... فى لفظة كالعروس فى الحجله

ويقول :

فى شعره حكمة مهذبة ... وروعة بالذكاء مشتعله

---

(١) جريدة الأمل العدد ٢٤ (٢٩ تشرين الأول ١٩٢٣) ، ونظرة اجمالية في حياة المتنبي ص ٦٧

(٢) المصدران السابقان العدد ٢٦ ، و ص ٦٥ وما بعدها .

(٣) الديوان ص ٢٧٥ — ٢٧٦

ونغمة بالشعور صادحة   وصنعة بالفنون متصله
قدرته فى البيان واسعة   يتيه فيها السؤال والسأله
إذا المعانى بشعره ازدحمت   ما ربكت فى انتقائها حيله
كم شاعر قد قفى له أثراً   وناقد راح يبتغى زلله
فاخفقوا عاجزين عن درك   لبعض ما كلّه تيسر له

وأبو العلاء المعرى - عنده - شاعر البشر ، ويسميه « امام الحقائق الاجتماعية والآداب العربية معاً » (١) ، ويسميه - أيضاً - : « شاعر الخلق كافة » ، يقول : « لقد قلت مرة فى أبى العلاء إنه شاعر البشر ، أما الآن فأقول : إنه شاعر الخلق كافة . إذ لم تكن نظراته الحكيمة مقصورة على بنى آدم ، بل قد تجاوزهم إلى غيرهم من سابح فى الماء ، وطائر فى الهواء ، ونابت فى الأرض ، وطالع فى السماء ، وهذه لزومياته طافحة بالشواهد على ما أقول . فما أجدره بأن يدعى « شاعر الخلق » ، أو « شاعر الدنيا والآخرة » (٢) .

وكتب عن أبى العلاء كتابين هما « آراء أبى العلاء المعرى » ، و « على باب سجن أبى العلاء » ، وله قصيدة فيه سماها «شاعر البشر»(٣) ، يقول فيها :

حيّهل يا أخا مضر   نذّكر خير مدّكر
دونه كل من مضى   دونه كل من غبر

. . .

عبقرى بشعره   عالمى بفكره

(١) الأدب العربى ص ٤٣ ، وينظر دروس فى تأريخ آداب اللغة العربية ص ٤٥
(٢) آراء أبى العلاء المعرى ص ٧٠
(٣) الديوان ص ٢٦٩ — ٢٧٣

يعــــربى بنجـــره تشرف العرب إن ذكر

. . .

شاعر الأرض والسما هو بالفكر مذ سما
أبصر الحق بالعمى لم يضره عمى البصر

وأحمد شوقى ـ عنده ـ أميرالشعراء وقد تحدث عنه فى قصيدتيه «فى حفلة شوقى» (١) و «رثاء شوقى شاعر مصر الأكبر(٢)»، وأطراه وبكى الشعر لأنه فقد أميره وشاعره الكبير. ولكنه قال عنه فى بعض المناسبات: «كل ماقرأته من شعر أحمد شوقى حتى الآن قد حملنى على أن أصوره هكذا: صوّر القرن السابع أو الثامن للهجرة بصورة غرفة ، ثم ضع فيها شاعراً من شعراء ذلك القرن ، ولكن افتح له نافذة تطل على العصر الحاضر ، فهو ينظر أحياناً من تلك النافذة إلى آثار المدنية الحاضرة من دون أن يؤثر نظره إليها أثراً فى عقليته . فهذا هو أحمد شوقى الملقب بأمير الشعراء» (٣) وهذا غير ما ذكره فى قصيدة تكريمه حينما بويع بامارة الشعر ، أو حينما رثاه عام ١٩٣٢ م .

وحافظ إبراهيم —عنده— أفضل من أحمد شوقى ، يقول : «إن حافظ إبراهيم الشاعر المصرى المعروف هو أشعر من شوقى ، ولم يفضل إلا لأغراض سياسية ، قاتل الله السياسة»(٤) .

وسأل جبران مسوح الرصافى : «هل تضع الأستاذ المطران فى مصاف حافظ وشوقى ؟» . وأجاب مبدياً رأيه فى شاعر القطرين خليل مطران

(١) الديوان ص ١٣٦

(٢) الديوان ص ٢٣٩

(٣) مجلة الحرية العدد الخامس ص ٢٥٠ (السنة الأولى تشرين الثانى ١٩٢٤ م)

(٤) مجلة الجزيرة العدد ١٢ ص ١٨ (السنة الأولى ١ نيسان ١٩٤٧ م)

بقوله «وضع المطران بمصاف حافظ وشوقي كوضع البحتري بمصاف المتنبي وأبي تمام . وأي نوع من ضعف الحكم بلي به القارئون في عصرنا هذا ولا نسبة أبداً بين طبقة حافظ وشوقي وطبقة المطران ، كما لا نسبة بين المتنبي وأبي تمام ، وبين البحتري ؛ لأن هذا الأخير ليس أكثر من منمق ألفاظ»(١) .

أما جميل صدقي الزهاوي فقد قال عنه : «لم أتأثر بشعر الزهاوي مطلقاً ؛ لأني لم أكن أرتضيه ، وكنت أجد في شعره بعض الأغلاط النحوية واللغوية ، وكنت أنبهه إلى ذلك»(٢) .

وقال : «وبمناسبة ذكر الزهاوي وحالته معي أذكر لكم واقعة وإن كانت متأخرة ، أي أنها لم تحدث في ذلك الوقت، وكانت الواقعة حوالي سنة ١٩٢٥ م أخذ يتكلم عني الزهاوي في كثير من المجالس بأني أجهل العلوم العصرية وهذا الكلام كان ينقل إليّ فكنت أقول لهؤلاء الناس: أنا والزهاوي قد تخرجنا في مدرسة واحدة ، وهي المدارس العلمية الدينية التي كانت موجودة في بغداد ، ولم يكن غيرها وقتئذ . فإذا كان هو قد تعلم العلوم العصرية من المجلات كالمقتطف وغيرها فأنا أيضاً أطالع هذه المجلات ، فما الفرق بيني وبينه .

ثم لما تمادى على هذا الكلام في مجالسه ، أجبته بهذه الأبيات :

قل للزهاوي اني كنت لاقيه مقالة كان منها بادي الحذر
لقد بلعت علوم العصر قاطبة بلعا تضيق به بلوعة القذر (٣)

---

(١) مجلة الحرية العددان ٨ و ٩ ص ٤٦٥ — ٤٦٦ (السنة الأولى ١٩٢٥ م) .

(٢) مجلة الثقافة الجديدة العدد الأول ص ١٦ (نيسان ١٩٥٤) وشعراء العراق في القرن العشرين ج ١ ص ٦٩ .

(٣) حذفنا ثلاثة أبيات بعد هذا البيت لما فيها من هجر

فصرت علامة الدنيا وواحدها   وصرت فى كل علم جد مقتدر
وتلك معجزة فى طى مخزية   لم يعطها قط إلا أنت من بشر
فإن أتيت بدعوى العلم فارغة   فما أتيت بشيء غير منتظر (١)

ويقول عنه إنه ذكى ، وإن لم يدرس من النحو أعلى من كتاب « قطر الندى » لابن هشام ، ولم يطالع من العلوم إلا القليل (٢) .

وقد سأله الأستاذ محمود العبطة عن الشاعر الأخرس ، فقال : « يكفيك من شعر الأخرس أن تقرأ قصيدة واحدة من شعره فتكفيك عن مطالعة ديوانه الضخم »

وسأله عن الشبيبى فقال : « إن البناء أشعر منه » .

وعن الجواهرى فقال : « وهو يكرر مراراً ، على أن الجواهرى شاعر الجيـــــل » .

وعن عبد القادر بن شنون فقال : « إن ثالثنا فى بغداد ممن عالج الشعر بعدى وبعد الزهاوى هو المرحوم الشيخ عبد القادر بن شنون (٣) الشاعر الكرخى المطبوع . ولم يكن أقذع منه فى الهجاء وفى الجودة بكل الفنون.

ولقد لاقى عنت الأيام ، وشرب الآلام حتى الثمالة ، ومات غريباً فى العشار بعد توظيفه بشهر » (٤)

وله آراء فى بشارة الخورى « الأخطل الصغير » فهو شاعر خرج عن المألوف وتفرنج فأضاع المشيتين .

---

(١) ينظر المصدران السابقان .
(٢) مجلة الجزيرة العدد ١٢ ص ١٧ (السنة الأولى ١ نيسان ١٩٤٧ م)
(٣) تنظر ترجمته فى كتاب من شعرائنا المنسيين للاستاذ عبدالله الجبورى ص ٢٧ — ٣٩
(٤) مجلة الجزيرة العدد ١٢ ص ١٨ (السنة الاولى ١ نيسان ١٩٤٧ م)

وفى جبران خليل جبران الذى لو أفصح لكان من أقدر شعراء الشرق (١) .

الأدباء :

يقول الأستاذ العبطة إن الرصافى « شديد الاعجاب بكل ما يكتبه الدكتور طه حسين وما يكتبه المازنى . وقد شبه بيان الأخير بشراب التوت لرقته ولطفه . ويعجبه أسلوب العقاد ، ويقول « إنه ليس بشاعر ، لكنه كاتب عظيم (٢) » .

وقال عن الأستاذ فهمى المدرس : « إنه أديب العراق ، وقد درس العربية كما درسناها فى الجوامع ، وقد أتقن بالاضافة إليها الفارسية والتركية والفرنسية ، واستفاد من كل هذه اللغات إنْ من ناحية الأدب أو العلم . ولكن المدرس لم يبق أثراً أدبيا عالياً يليق بعلمه ومواهبه ، وسبب ذلك أن المدرس لم يتمرد فى حياته (٣) » .

وقال عن المازنى والعقاد إنهما متحاملان فى كتابهما النقدى « الديوان » ولكنهما مصيبان فى أكثر المآخذ التى أخذاها على شوقى .

وقال فى قسطاكى الحمصى : « وجدت قسطاكى الحمصى فى كتابه « منهل الوراد فى علم الانتقاد » أشبه بكومة القطن المندوف أمامى ، ضغطت عليها بيدى فلم تبق إلا فى ثخن أصبعين فقط » (٤)

---

(١) ذكرى الرصافى للرشودى ص ٨٦

(٢) مجلة الجزيرة العدد ١٢ ص ١٨ (السنة الأولى ١ نيسان ١٩٤٧ م)

(٣) المصدر السابق :

(٤) ذكرى الرصافى ص ٨٦

الخطباء :

وله آراء فى خطباء العصر ، يقول : « فمن خطباء العصر الذين عرفناهم : « عبد العزيز التونسى » (١) ، وقد اجتمعت به فى قسطنطينية قبل بضع سنين فرأيته من أبين الناس . وكنت معجباً بحسن بيانه جداً . وهو يتكلم بالعربية الفصحى دون تلجلج ولا تلعثم . وقد أخبرونى أنه يخطب بالفرنساوية كما يخطب بالعربية .

ومنهم : « الشيخ عبد العزيز شاويش » العالم النحرير والكاتب الشهير صاحب مجلة الهداية . وله كتب ورسائل مشهورة ، وله تفسير للقرآن بديع جداً . وهو من زعماء الحزب الوطنى فى مصر . وقد أثار بكتاباته حرباً عوانا على الإنكليز بمصر . وكان قد ناوأ فى مجرى السياسة خديوى مصر « عباس حلمى باشا » الذى كان من ديدنه الخنوع للانكليز . وضايقته الحكومة المصرية حتى اضطر أن بارح القاهرة وقدم القسطنطينية فانضم إلى حزب الاتحاديين فيها . وهناك تعرفت به ، وكثيراً مازرته وجلست إليه . ثم أن الحكومة المصرية طلبته مرة من حكومة القسطنطينية ولم يكن الحكم إذ ذاك للاتحاديين بل كان رئيس الوزارة يومئذ « أحمد مختار باشا » الملقب بالغازى فأسلمه « أحمد مختار باشا » إلى الحكومة المصرية فشق ذلك على الاتحاديين واستاءوا منه وابتأسوا . وقد قلت فى ذلك قصيدة أخاطبه بها ، قلت فيها بعد ذكر ما جرى :

إن العلا همست اليك بسرها ولقد فهمت كلامها المهموسا (٢)

---

(١) المعروف بالثعالبى .

(٢) تنظر قصيدة « إخفار الذمم أو عبد العزيز شاويش » فى ديوان الرصافى ص ٤٥٧ ، ومطلعها :

إنى عهدتك لاتكون يئوسا مهما لقيت مصائباً ونحوسا

ومن خطباء العصر : « الأمير شكيب أرسلان » وهو عربى قح من ذوى الفصاحة واللسن . يتكلم بكلام الأعراب الأقحاح ، وقد برز فى صناعتى المنظوم والمنثور ، وهو فى كليهما ينسج نسيج البداوة على منوال الحضارة فترى فى شعره وكتاباته جزالة البدوى ورقة الحضرى . وهل هو فى كتابته أبرع منه فى شعره أو الأمر بالعكس ؟ هذا ما أتردد فى الجواب عليه الآن؛ لأن الذى قرأته من رسائله وأشعاره فى الصحف السيارة قليل جداً بالنسبة إلى ما فاتنى ولم أره . والحكم البات متوقف على استقراء ذلك واستقصائه .

والأمير شكيب من بيت رفيع العماد من أمراء لبنان ، ويقال إن نسبه ينتهى إلى النعمان بن المنذر .

ومن الخطباء : « الشيخ صالح الشريف التونسى » ، وهو من العلماء الفضلاء ، وقد شهدت له خطبة خطبها مرة فى قسطنطينية ، تكلم فيها على العصبية القومية بكلام أحسن فيه ، إلا أننى رأيته يتشادق فى القول .

ومن الخطباء : « الشيخ أسعد شقير » وهو ذو بداهة فاق فيها على خطباء عصره ، فتراه إذا خطب مثجا يقتضب الكلام اقتضابا ، إلا أنه من جهة ألفاظه لا يعد من المبرزين فى الفصاحة ، وهو مع ذلك مكثار يكاد فى كثرة كلامه يجنح إلى الثرثرة . وقد شهدت بعض خطبه فى قسطنطينية وهو يحسن الخطابة بالتركية أيضا كالعربية .

ومن الخطباء : « محمد كردعلى » صاحب مجلة المقتبس ، وهو عالم فاضل ، ذو بحث وتنقيب فى العلم لا يجاريه فيه أحد . وهو من مشاهير الكتاب فى هذا العصر ، بارع جداً فى ترسله ، إلا أنك تحس فى كتابته بشىء من الجفاف ووحدة السياق ، وذلك مغتفر فى جنب ما ترى فيها من السهولة وحسن الاتساق .

ومحمد كرد على أول صديق صادقته على الغياب ، إذ كنت أكاتبه وهو بمصر حيث كان ينشر مجلته المقتبس ، ثم انه عاد إلى وطنه دمشق الشام وأخذ ينشر فيها مجلته مع صحيفة يومية باسم المقتبس أيضاً . وقد اجتمعت به هناك لما عجت على دمشق فى طريق إلى قسطنطينية وهو اليوم فى دمشق .

ومن الخطباء : « الشيخ رضا » صاحب مجلة المنار بمصر ، وهو عالم فاضل ومعدود فى الكتاب ، إلا أن أسلوبه فى الكتابة هزيل معروق لا يسمن ولا يغنى من جوع . وهو إلى العلم أقرب منه إلى الفصاحة واللسن . وقد شهدت خطبة له خطبها فى قسطنطينية فرأيت فيه من معايب الخطيب أنه ضئيل الصوت ، ولضؤولة صوته كان يتشادق فى كل كلامه تشادقاً بارداً جداً ، وفيه أيضاً لثغة خفيفة فى حرف الراء ، وفيه لكنة عامية أيضاً فإنه إذا قال : « كذا » قال : « كزا » وإذا قال : « ذلك » قال : « زالك » ، وإذا قال : « « نظرت » قال : « نزرت » . إلا أنه مكثار جداً لا يعجز عن الاطالة ، وربما خرج عن أول الكلام إلى ما لا يقتضيه المقام ، ولولا ذلك لحمدت منه الاطالة .

ومن الخطباء : « الشيخ مصطفى الغلاييني » صاحب مجلة « النبراس » ببيروت وهو معدود فى العلماء والكتاب والشعراء أيضاً ، إلا أنه لا يجيد فى شعره كما يجيد فى كتابته . وله كتب ورسائل غير قليلة . وقد اجتمعت به فى بيروت إلا أنى لم أشهد شيئاً من خطبه . وقد أخبرت عنه أنه مفوه يسيل غرباً فى الخطابة .

ومن خطباء العصر : « فيلكس فارس » صاحب جريدة « الاتحاد » ببيروت وهو ذو قدم راسخة فى الأدب ، وهو خطيب وكاتب وشاعر ، لكنه فى كتابته أعلى منه فى شعره . وهو أيضاً يجيد الترجمة من الفرنساوية إلى العربية . وقد اجتمعت به مرة فى حلب فقرأ لى شعراً منثوراً للشاعر

الفرنساوى فكتور هوجو كان قد ترجمه إلى العربية فأحسن فيه كل الإحسان، وهو معدود فى الخطباء المبرزين .

ومن الخطباء المبرزين فى الخطابة : « الأديب الفاضل اسكندر العازار » وقد اجتمعت به فى بيروت ، وهو من الخطباء المشهورين فى تلك الديار ، وهو إذا خطب يشوب كلامه ببعض الظرف والهزل ، وهو شاعر أيضاً .

ومن خطباء تلك الديار : « إلياس طراد » ، العالم الفاضل ، وكذلك « إبراهيم الحورانى » ، و « انطوان شحيبر » و « أمين الريحانى » و « بشارة الخورى » صاحب جريدة « البرق » و « داود مجاعص » صاحب مجلة « الحرية » ، وغيرهم ممن لا أتذكر أسماءهم الآن .

وهؤلاء كلهم من لبنان ، وكلهم خطباء ، وفيهم الشاعر المجيد كبشارة الخورى ، والفيلسوف الحكيم كأمين الريحانى ، والكاتب البارع كداود مجاعص[1] .

الكتب :

وله آراء فى بعض الكتب منها رأيه فى كتاب « النثر الفنى » و« التصوف الإسلامى » للدكتور زكى مبارك و « التاريخ الإسلامى » للمستشرق الايطالى كايتانى ، وكتاب « مع أبى العــــلاء فى سجنه » للدكتور طه حسين . وقد تحدثنا عن ذلك فى التعليقات ، أما آراؤه فى غيرها فأهمها قوله فى البيان والتبيين للجاحظ ، يقول : « فقد قرأت كتاب « البيان والتبيين للجاحظ ونظرت فيه بإمعان ، فوجدت فيه من فنون البيان ما يفتق اللسان ويخلب

---

(١) نفح الطيب فى الخطابة والخطيب، نقلا عن الرصافى ـ ملحق به ص ١٠٢ ـ ١٠٦، وذكرى الرصافى للرشودى ص ٢٧ وما بعدها ، ومجلة الأديب الجزء الخامس ص ٣٩ (مايس ١٩٤٥ م) .

الجنان ، إلا أنه احتوى على الغث والسمين ، وجاء بالبخس والثمين . فكم وجدت فيه من درة إلى جنبها خزفة ومن جمانة مقرونة بحصاة ، ومن شذور ذهب يتخللها مخشلب . وكثيراً ما يخرج فى كلامه عن الصدد ، فبيناه يتكلم عن شيء إذ تركه قبل التمام وخرج منه إلى شيء آخر لايقتضيه المقام . وطالما وعد بذكر أشياء ثم لم يذكرها ، وذكر أشياء وهو لم يعد بها » . ثم يقول : « ولا يظنن القارىء أنى أريد بكلامى هذا أن أبخس الجاحظ كتابه أو أنقصه حقه وفضله ، فإن الجاحظ إمام من أئمة الأدب وجهبذ من جهابذة العرب . فما أنا من نظرائه ولا من أكفائه ، ولئن قصر فى كتابه هذا بعض التقصير فله فيه من الحسن والاحسان والفضل والأفضال ما لا يعفو أثره كر الزمان ولا تنوشه أيدى الفضلاء من ذوى البراعة والبيان . فهو على علاته درة يتيمة وطرفة كريمة »[1].

ويقول فى لزوميات أبى العلاء المعرى : «ان كتاب اللزوميات إذا نظرت فيه رأيت نظيمه منثوراً فهو مختلط الأبيات غير متماسكها ، إذ تجد فى الغالب كل بيت منه قائماً بنفسه من جهة معناه غير مرتبط بما قبله ولا بما بعده . ففى الصفحة الواحدة منه تراه يتكلم فى مواضيع شتى فتقرأ منه البيت فى السماء والذى يليه فى الأرض والآخر مما يليه فى الحيوان وما بعده فى شيء آخر ، وهكذا إلى آخره . ويندر أن ترى بيتين أو ثلاثة أبيات منه متواليات فى موضوع واحد ، مرتبطات المعانى بعضها ببعض . وسبب ذلك أنه لزم فى شعره ما لا يلزم فى قوافيه ، فاضطرته هذه الصناعة اللفظية عند نظم كل بيت إلى أن يفتكر فى قافيته قبل نظمه ، وذلك يقتضى فى الغالب أن يكون المعنى تابعاً للقافية ومبنياً عليها فيأتى البيت منقطعاً عما قبله فى معناه وتكون القافية فى كل بيت هى العامل الوحيد فى تعيين موضوعه الخاص كما لا يخفى على من مارس صناعة قرض الشعر من الناس .

---

(١) نفح الطيب فى الخطابة والخطيب نقلا عن الرصافى — ملحق به ص ٩٩ .

ولما كان شعر اللزوميات كله على هذا النحو غير مبوب بحسب مواضيعه ولا مفصل، صعب على القارىء أن يحيط بآراء ناظمه الفلسفية ومذاهبه الاجتماعية إلا بعد تمحيصه وجمع متفرقاته ورد كل بيت منه إلى قرينه وتنقيح متناقضاته التى كان أبو العلاء يتعمدها مراعاة لأهل زمانه ورداً للتهم عنه. فبعد ذلك تتجلى غياهب الغموض عن آرائه وتظهر للعيان مذاهبه ومناحيه»[1].

• • •

هذه آراء الرصافى فى النقد، ويلاحظ أنه شارك فى حركة النقد التى بدأت تتبلور فى النصف الأول من هذا القرن. ولو انصرف ـ رحمه الله ـ إلى الكتابة والنقد لجاء بكل طريف، ولكنه شغل بالحياة السياسية التى كانت تلف العراق يومذاك لفاً كاد يقضى على معالم البلد، ومضى يدافع عن الحق والحرية ويقارع الطغاة والمستعمرين بآرائه الحرة وقصائده الملتهبة.

ولو أراد أن ينصرف إلى النقد والتأليف لكان له ما أراد، ولكنه ضحّى من أجل أمته ووطنه، ولم يترك إلا هذه الآراء التى نثرها فى كتبه ومقالاته، وهى ـ مع قلتها ـ تصور عقليته المبدعة وذوقه الرفيع وإحساسه الصادق.

أسس النقد :

ويمكن أن نستخلص بعض أسسه فى النقد وهى :

١ — انه يعطى أهمية وقيمة عظيمتين للوزن والقافية، ويبنى فى ضوء هذه الحقيقة آراءه الأخرى فى الشعر المنثور والشعر المرسل.

---

(١) آراء أبى العلاء المعرى ص ٨، وجريدة المفيد العدد ١٠٩ (السنة الثانية ٢٦ مايس ١٩٢٤، ٢٢ شوال ١٣٤٢ هـ)

٢ — انه ينفر من التشبيهات والاستعارات المرذولة ، وقد رأينا ذلك واضحا فى كلامه على القصيدة التى مطلعها :

صاح فى العاشقين يالكنانه   رشأ فى الجفون منه كنانه

٣ — انه ينفر من المعانى المبتذلة المكررة ، ويتضح ذلك فى نقده للبيت :

وأرانا وقد تبسم برقاً   فأريناه ديمة هتانه

يقول : « وحقيقة هذا الكلام : انه تبسم فبكينا ، وما أدرى لماذا كان ابتسامه داعياً إلى بكائهم ، ولعلهم لما رأوا برق ثغره خافوا أن يرميهم بصاعقة من صواعقه المحرقة فضجوا بالبكاء حتى عارضوا بأدمعهم ديم السماء ، وإلا فابتسامة المحبوب مما يسر القلوب وينفى ما بها من همّ ولغوب »[1] .

٤ — انه لايقيم الموازنة والتفضيل على شرف الموضوع بل على الجودة والقيمة الفنية الرفيعة يقول : « ومن منتخبات الأشعار لامية ابن الوردى ، هذه القصيدة إذا نظرنا إلى مجموعها رأيناها من الشعر الوسط ولم ينتخبها القوم لكونها من طبقة عليا فى البلاغة والفصاحة بل لكونها فى النصائح والحكم .

وعندى أنهم مخطئون فى انتخابها ؛ لأن شرف الموضوع وحده غير كاف لاستجادة الشعر وانتخابه من حيث أنه شعر ؛ ولأن النصائح والحكم لا تجدى نفعاً ولا تحيك فى قلوب السامعين إلا إذا كانت مفرغة فى أعلى ما يتصور من قوالب البلاغة والفصاحة ، فلا طائل فى انتخاب هذه القصيدة

---

(١) جريدة الأمل العدد ٣٥ (١١ تشرين الثانى ١٩٢٣ م) .

وإن كان موضوعها شريفا مادامت من الشعر الوسط »[1] .

ويقول عن غاية الأدب : « وقد أخطأ المرمى من قال إن غاية الأدب تهذيب النفوس وتثقيف الأخلاق وتقويم أود الطباع ، فإن الأدب وإن جاز أن يكون واسطة لتهذيب النفوس وتحسين الأخلاق ، إلا أن ذلك معدود من فوائده المترتبة عليه لا من غايته ، إذ لاريب أن فى الأدبيات كثيراً من مفسدات الأخلاق .

ولله در أبى العلاء حيث قال :

وما أدب الأقوام فى كل بلدة   إلى الغى إلا معشر أدباء

وإذا كانت غاية الأدب أخلاقية كما يقولون ، فماذا نصنع بالأهاجى والخمريات وبغزل المذكر والمؤنث ؟ بل مانصنع بالمجون وأبى نواسه ؟ وماذا نقول فى ابن الحجاج الذى أحرز قصب السبق فى مجونه ، وكان ملحة الأدب فى زمانه ؟ »[2] .

٥ — انه لايقيم آراءه وأحكامه على الدراسة والتعليل المقنع ، وإنما يطلق الرأى كما كان القدماء يطلقون آراءهم فى الشعراء فيقولون إن البيت الفلانى أهجى بيت أو أغزل أو أمدح ، أو كما كان الشعراء فى القديم يقوّمون الشعراء وقصائدهم فى جلساتهم الخاصة من غير دراسة أو تعليل .

٦ — انه يعطى الجانب العقلى فى بعض الأحيان أهمية كبيرة فى إطلاق أحكامه أو فى نقده وهذا لايصح دائما فى النقد الذى يعتمد على الذوق المهذب والأدب الرفيع قبل كل شىء .

---

(١) جريدة الأمل العدد ٣٦ (١٢ تشرين الثانى ١٩٢٣ م) .

(٢) دروس فى تأريخ آداب اللغة العربية ص ٣١ — ٣٢

٧ — انه يبدى سخرية لاذعة وتهكماً فى نقده ، ويبدو ذلك جلياً فى مقالته « نظرة انتقادية فى الأدب » . والنصوص التى نقلنا عن هـذه المقالة توضح ذلك .

هذه بعض الأسس التى لمسناها فى حديثنا عن آراء الرصافى النقدية ، ولعـل ماذكرناه يوضح جانباً من جوانب حياته الفـكرية ، ويعطى صورة عن النقد فى أيامه .

الباب الخامس

مقالاته اللغوية والأدبية

الفصل الأول

مقالاته اللغوية

جمودنا في اللغة*

لغة كل أمة مقياس رقيها :

هذه قضية لا يمتري فيها عاقل ، وهي تصدق في مؤداها على لغات جميع الأمم الحاضرة والغابرة ، فإذا أردت أن تعرف مبلغ كل أمة من العلم والصناعة والتجارة والسياسة وغير ذلك من أحوالها الاجتماعية فانظر في لغتها فإنك تعرف بها مبلغها من ذلك كله ؛ وذلك لأن اللغة تابعة في أطوارها إلى أطوار أهلها المتكلمين بها ، فإذا ارتقى أهلها في العلوم والفنون كانت لغتهم بالضرورة مشتملة على مصطلحات تلك العلوم وإذا كان أهلها راقين في الصنائع كانت لغتهم مشتملة على كل ما يتعلق بتلك الصنائع من الكلمات . وبالجملة فهي تلو حالتهم الاجتماعية وتبيع ارتقائهم في مدارج المدنية ، فأينما تقدموا تقدمت معهم وحيثما تأخروا تأخرت معهم . وقد مضى على اللغة زمان كانت فيه سيدة اللغات إذ كان أهلها سادة الناس وقادتهم إلى المعالي ، وكانت بيدهم أزمة النهضة الاسلامية وكان الملك ملكهم والحكم حكمهم حيث قاموا بأعباء تلك النهضة ففتحوا البلاد ووطدوا المهاد فاندمج فيهم خلق كثير من الأمم الأخرى فانتحلوا نحلتهم ، أو تكلموا بلغتهم وتقمصوا جنسيتهم

---

* نشره في جريدة الأمل الأعداد ٦٠ ، ٦١ ، ٦٦ ، ٦٧ ، الصادرة بين ١١ كانون الأول سنة ١٩٢٣ ، والتاسع عشر منه . ونشره في مجلة الحرية (العدد التاسع ص ٤٩٣ ـ ٥٠٣ ، السنة الثانية مارت ١٩٢٦) بعنوان « اللغة العربية ـ رأي جديد في الاشتقاق والتعريب » .

ولم ينتحلوا نحلتهم ، فاتسع بذلك نطاق الأفكار وراجت العلوم وكثرت الصنائع وتوفرت أسباب الحضارة والعمران . وكان ذلك كله من أسباب ارتقاء لغتهم أيضاً حتى أصبحت فى ذلك العهد من أغنى لغات البشر وأغزرها مادة فكان يلجأ إليها فى بيانه كل كاتب وشاعر،ويعـوِّل عليها فيما يصنفه كل عالم متبحر، ويفزع إليها فيما يدعيه كل فيلسوف متفـكر .

ولـما قلب الزمان للعرب ظهر المجن غلبوا على أمرهم وأديل منهم عدوهم ، فزال ملـكهم وسكنت ريحهم فتوقفوا عن التقدم ، وما بعد التوقف إلا الانحطاط ، فتوقفت معهم لغتهم أيضاً غير أنها لم تكن تابعة لهم فى انحطاطهم لأنها مدوّنة فى كتبهم ومحفوظة فى آثارهم المخلدة ، فتقهقروا هم ولم تتقهقر هى معهم ، بل بقيت متوقفة لا تقدّم رجلا ولا تؤخر أخرى ، وهذا هو الجمود الذى نئن اليوم تحت أثقاله ، ونرزح من شدة وطأته وأغلاله .

ولـما توقفت اللغة ولم تجر مع الزمان ولم تشاركه فيما أحدثه وجدده كل يوم انجر بها توقفها إلى التأخر عن غيرها من لغات الأمم المستمرة على التقدم فى طريق المدنية ، وذلك لأنها قد مرّ عليها بضعة قرون وهى فى جمود وركود لاتجارى غيرها من اللغات فيما تقدم فيه أهلها من الصنائع والعلوم حتى أصبحت وهى اليوم لاتستطيع أن تجارى لغة من لغات الأمم الراقية ، فلو أخذنا اليوم بيـــد أعلم رجل باللغة العربية ودخلنا به فى سفينة حربية وقلنا له : سمّ لنا كل مادقّ وجل مـما اشتملت عليه هذه السفينة من الأشياء لوجدناه عاجزاً عن تسمية أكثر مايراه فى تلك السفينة،وكذلك لو دخلنا به فى معمل كبير من معامل الصنائع الحديثة فى الغرب ، دع عنك مصطلحات العلوم والفنون الحديثة التى بلغت فى هذا القرن مبلغاً لم يصل إليه الأولون ، وهو لعمرى معذور فى عجزه عن تسمية أكثر ما يراه ؛ لأن لغتـــه ـ وبالأحرى لأن أهل لغته ـ لم يجاروا الزمان فيما أحدثه وجدده ، بل وقفوا والناس يجدون ، وناموا والناس مستيقظون ، وحدثت بين البشر خطوب

وهم فى غمرة ساهون ، فخلت لغتهم من كل ما حدث وتجدد مما كانوا لا يعلمون .

إن اللغة العربية براء من هذا العجز ، أعنى عجزنا عن تسمية أكثر ما نراه من مخترعات القرن الحاضر . كيف والعربية بقواعدها المحكمة وتصاريفها المتناسقة وأقيستها المطردة جديرة بأن تعد من أطول اللغات باعاً وأبعدها للمعانى انتجاعاً وأكثرها للألفاظ توليداً وانتزاعا . وهى مع ذلك فيها من القابلية للتجدد والاتساع ما ليس فى غيرها من لغات البشر ، وإنما هو عجز أهلها وجمود الناطقين بها ، فهى وأهلها اليوم كما قال الشاعر :

تقلدتنى الليالى وهى مدبرة   كأننى صارم فى كف منهزم

ألا ترى أن اللغة العربية لم تزل إلى يومنا هذا محرزة قصب السبق ، فائقة على غيرها من اللغات فى كل ما لم يحدث فيه تجدد أو تبدل من الأشياء كخلق الانسان مثلا فإنك إذا تتبعت فى معاجم اللغة العربية ما يتعلق بخلق الانسان من الكلمات رأيت ثَمّ عجبا وقولا رغيبا حيث تجد لكل عضو ظاهر أو باطن فى جسم الانسان ، ولكل جزء دقيق أو جليل فى تركيبه اسما يعرب عنه أوصفة تكشف لك القناع عن حكمته ، حتى لاتشك فى أن العربية اليوم هى مجلى حلبة اللغات فى مثل خلق الانسان وأضرابه ؟ وذلك لأن الانسان لم يتجدد فيه شىء ولم يتبدل منه خلق ، بل الانسان اليوم كما هو فى عهد الأولين .

لقد تبين أن داء لغتنا اليوم هو توقفها عن النمو لكونها لم تجر مع الزمان فيما أحدث وجدد منذ قرون فسبقتها اللغات التى جرت مع الزمان نامية . فإن قلت : قد علمنا أن داء لغتنا هو ماذكرت ، ولكن هل من طريق يوصلنا اليوم إلى جعلها نامية متجددة ؟ قلت : اللهم نعم . إن الأولين من أسلافنا كانوا يجرون لتنمية لغتهم وتجديدها فى طريقين مهيعين :

أحدهما : الاشتقاق .

والثانى : التعريب :

غير أننا قطعنا على أنفسنا هذين الطريقين وسددناهما ظلماً وعدوانا فى وجه من أراد أن يسلكهما اليوم منا .

الاشتقاق :

أما الكلام فى الاشتقاق والتعريب فشىء مفروغ منه إذ قد تكلم فيهما الأولون والآخرون فى كتبهم ، وأحسن ما رأيت فيهما « كتاب الاشتقاق والتعريب » للعالم النحرير والكاتب الشهير السيد عبد القادر المغربى وهو كتاب على صغر حجمه قد استوفى الكلام عليهما بما لامزيد عليه . وقدذهب صاحبه مذهبا حسنا فيهما طالما حاك فى صدرى ودار فى خلدى وحدثت به نفسى ، وكنت أعتقد أنه الصواب من قبل أن أقف على الكتاب ، غير أنى لا أوافق مؤلفه الفاضل على ما وافق هو عليه من قول القائلين بأن الاشتقاق سماعى لايجرى فيه القياس كما سيجىء .

ولنذكر لكم بعض ماقاله تمهيداً للمطلوب ، قال فى أول كتابه ماحاصله: « إن الأمة تنمو وتتكاثر أفرادها بطريقين : التوالد والتجانس . أما الأول فظاهر فى أن الأمة ترجع بفروعها إلى جـــد واحد كيعقوب جد الأمة الاسرائيلية ، وقحطان جد عرب اليمن ، وعدنان جد عرب الحجاز ، إذ كل واحد من هؤلاء قد نسل أولاداً ونسل أولاده أولاداً ، وهكذا حتى تكونت الأمة وكثر أفرادها .

وأما الثانى فبأن ينضم إلى الأمة أناس من غيرها فيتقمصوا جنسيتها ويكونوا منها كالعرب المستعربة من سلالة اسماعيل — عليه السلام — ، وكالذين تقمصوا جنسية العرب من الفرس والروم والسريان والبربر وغيرهم فنمت بها الأمة العربية وتكاثر أفرادها .

قال : « وهذان طريقان منطبقان تمام الانطباق على نمو لغة العرب أيضا ، فإنها قد نمت وتكاثرت بالتوالد والتجانس غير أن التوالد فى اللغة يسمى اشتقاقا والتجانس يسمى تعريبا . فالاشتقاق فى أصول الكلمات العربية بمثابة النتاج والتوليد فى الأفراد المتكلمين بها ، والتعريب فى الكلمات الدخيلة بمثابة تعرّب المنضمين إليها من الأمم الأخرى » .

ثم أخذ المؤلف يذكر الاشتقاق وتعريفه وقال : «إن الاشتقاق سماعى بالجملة فى كل من الجوامد والمصادر فإننا نقتصر فى المشتقات منها على ما سمعناه من العرب » .

ونقل فى هذا الباب قول ابن فارس الذى قال فى آخر كلامه : « وليس لنا اليوم أن نخترع ولا أن نقول غير ماقالوه ، ولا أن نقيس قياساً لم يقيسوه ؛ لأن فى ذلك فساد اللغة وبطلان حقائقها » .

هذه زبدة ماقاله الفاضل المغربى ، وأنا لا أوافقه فى أن الاشتقاق سماعى فى كلا القسمين من الجوامد والمصادر ، بل أرى أنه سماعى فى الجوامد فقط ؛ وذلك لأن الداعى إلى الاشتقاق إنما هو التغير والتبدل الطارىء فى معنى الكلمة ، فبسبب ذلك التبدل والتغير يتولد منها لفظ آخر يتضمن معناها الأصلى مع زيادة طارئة فيه . ولما كانت الجوامد ذات معانٍ ثابتة غير متبدلة ولا متغيرة لم يكن فيها سبب داعٍ إلى الاشتقاق والتوليد لما فيها من العقم المحض بخلاف المصادر وأسماء الأحداث فإن معانيها متغيرة لا تستقر على حال واحدة كالضرب مثلا فإنه حَدَثٌ لا يقوم بذاته بل يقوم بشخص فتكون فى معناه زيادة فنحوله إلى « ضارب » . ويقع على شخص فنحوله إلا «مضروب» . وقد تكون فيه كثرة فنحوله إلى « تضريب » ونقول منه : «ضرَّبَ» و «مضرّب» . وقد يقع بين اثنين أو أكثر فنحوله إلى «مضاربة» أو « تضارب » ونقول منهما : « ضاربَ » و « مُضارب » و « تضاربَ »

و « متضارب » . وقد يقترن بحركة وارتعاج[1] فنحوله إلى « اضطراب » ونقول منه : « اضطرب فهو مضطرب » . وهو يحتاج إلى محل فيتولد منه « مَضْرَب » وإلى آلة فيتولد منه « مِضْرَب » أو « مضراب » . وهكذا يتبدل ويتغير بحسب أحواله إلى أشكال متعددة وصيغ مختلفة ، وهذا هو الاشتقاق .

فالاشتقاق فى أسماء الأحداث ضرورى لابد منه ، ولا يجوز أن يكون عدم السماع حجة فى منع قياسه واطراده من وجوه :

أحدها[2] : إن عدم السماع لا يستلزم عدم الوقوع إذ يجوز أن يكون قد وقع وأن العرب قد نطقت به ، ولكنه فات الرواة فلم تروه ولم تنقله ؛ لأن نقاد اللغة أكثر ما يعتمدون فى نقلها على الشعر ومن الجائز فى الكلمة المحكوم فيها بعدم السماع انها لم تقع فى الشعر بل وقعت فى النثر الذى لم تضبطه الرواة ولم تنقل منه ولا عشر معشار . فعلى القائل بالمنع أن يثبت لنا عدم الوقوع وإلا فدليله مدفوع ، وكلامه غير مسموع .

ثانيها : إننا إن سلمنا فى كلمة من المشتقات إنها غير مسموعة وغير واقعة أيضاً اكتفينا فى جواز استعمالها بسماع نظائرها المطردة المقيسة ، فإن العرب إن لم تقل : « حابّ » من « حبّ » فقد قالت : « سابّ » من « سبّ » و « عادّ » من «عدّ» و « رادّ » من « ردّ » الى غير ذلك من الكلمات التى جرت فى كلامهم على وجه الاطراد ، فمنعنا استعمال « حابّ » بحجة عدم السماع تحكم فى اللسان وتهكم بسماع نظائرها المطردة ، ورمى للغة بالجمود .

ثالثها : إن الاشتقاق أصل فى أسماء الأحداث لكونه أمراً ضرورياً بسبب ما يقع فى معانيها من التبدل والتغير — كما ذكرنا آنفاً — وإذا كان الاشتقاق هو الأصل وقد تعارض عندنا فى بعض المشتقات دليلان :

---

(١) ارتعج : ارتعد وارتعش .

(٢) يقول المرحوم الدكتور مصطفى جواد معلقاً عليها فى كتابه « المباحث اللغوية فى العراق » ص ٨٦ : « الصواب : أولها ؛ لان الأحد يقابل الآخر » .

أحدهما : يقتضى المنع وهو عدم السماع .

والآخر : يقتضى الجواز وهو القياس المطرد فى نظائره . ـ وجب أن نرجع به إلى الأصل وأن نرجح دليل الجواز على دليل المنع،لأن الأول مثبت للأصل ، والثانى نافٍ له .

وأما ما قاله ابن فارس من أنه « ليس لنا اليوم أن نخترع ولا أن نقول غير ما قالوه،ولا أن نقيس قياساً لم يقيسوه،لأن فى ذلك فساد اللغة وبطلان حقائقها » ، فليس بشىء . وياليت شعرى أى فسادٍ يحصل على اللغة إذا قلنا: « منفوع » من « نفع » ؟ وقد صرح أبو حيان أنه لا يقال : « منفوع » من « نفع » لأنه غير مسموع . وأى فسادٍ يحصل فى اللغة إذا قلنا من « الفهم » : « أنفهم » ، أو قلنا من « السخط » : « سخّط » — بتشديد الخاء — ؟ وقد ذكروا فى كتب اللغة أن ذلك لا يقال ؛ لأنه غير مسموع . وأى فساد يحصل فى اللغة إذا قلنا من « الحصول » : « استحصل » ومن « الحصانة » أو « الحصن » : « استحصن » ؟ ولم أر فى كتب اللغة مَن ذكرهما لأنهما غير مسموعين . بل الفساد كل الفساد فى منع ذلك كله ؛ لأنه بمنعه يختل القياس،واختلال قياس اللغة فى توليد كلماتها أجدر أن يعد من الفساد فيها . وهل فى اللغة العربية من حقيقة أكبر من اطراد القياس فى مشتقاتها ؟ فإذا نحن أبطلنا هذا القياس وقيدنا ألسنتنا فى كل كلمة من كلماتها بالسماع فقد أبطلنا أكبر حقيقة من حقائقها . ففساد اللغة وبطلان حقائقها إنما يكون بتقييد أنفسنا بالسماع لا بجرينا مع القياس ـ كما زعم ابن فارس ـ وبهذا يعلم أن ابن فارس ومن ذهب مذهبه قد وقعوا فيما فرّوا منه .

وإذا كان قول ابن فارس : « ليس لنا اليوم أن نخترع ولا أن نقول غير ما قالوه » حقاً فكيف جاز للمولدين أن يقولوا : « تبغدد » أى انتسب إلى بغداد أو تشبه بأهلها قياساً على قول العرب : « تمعدد » و « تمضر » و « تنزر » مع أن كلمة « بغداد » ليست من المصادر بل من الجوامد التى يتوقف

فيها الاشتقاق على السماع ؟ وقد أثبت علماء اللغة « تبغدد » فى معاجمهم ولم ينكروها على المولدين ، وكيف جاز للمولدين أيضاً أن يقولوا : « فذلك الحساب فذلكة » نحتاً من قولهم : « فذلك العدد كذا وكذا » ، والنحت ضرب من الاشتقاق وقد أثبت علماء اللغة « فذلك » ولم ينكروها .

وقصارى القول أن كون الاشتقاق قياساً فى المصادر وأسماء الأحداث أمر ضرورى لا بدّ منه وهو من أكبر مزايا اللغة العربية ومن أجلى حقائقها الثابتة ، حتى أننا لو جرينا فى مسألة الاشتقاق مع السليقة العربية المحضة ونفضنا عن أفكارنا غبار الجمود لقلنا : إنه جارٍ فى الجوامد أيضاً ، فإن العرب قد اشتقت منها عند عروض الحاجة إلى الاشتقاق . فقد اشتقت العرب من الحجر فقالت : « استحجر الطين » فلو قلنا نحن من الطين : « استطان الماء » كان ماذا ؟ وقالت العرب : « استنوق الجمل » فلو قلنا نحن : « استجملت الناقة » كان ماذا ؟

فإن قال قائل : إذا جاز لنا بالقياس أن نقول : « حابّ » من « حبّ » - كما ذكرت - لزم جواز أن نقول : « كارم » من « كرم » و« لائم » من « لؤم » و « ظارف » من « ظرف » مع أن العرب لم تقل ذلك ولم تعرفه . فإذا قلناه نحن قياساً نكون قد أفسدنا عليهم لغتهم وتكلمنا بما لم يكونوا يعرفون .

قلت : إن هذا القول إن لم يكن من قبيل المغالطة كان من الجهل بمعنى القياس ، وذلك لأن القياس الذى جرت عليه العرب فى أفعال السجايا وما دلّ على اللزوم والثبوت هو ألا تكون الصفة المشتقة منها على « فاعل » بل على « فعيل » أو « فعل » أو « فعال » إلى غير ذلك مما ذكره أهل الصرف . فالقياس هنا هو أن نقول : « كريم » و « لئيم » و « ظريف » . ومتى أردنا أن نقول : « كارم » أو « لائم » احتجنا فيه إلى السماع فلا نقوله إلا إذا سمعناه من العرب ، لأن السماع إنما يحتاج إليه ويحتج

به فيما خالف القياس الذى جرت عليه العرب فى كلامها . وكذلك القول فى الأفعال الدالة على العيوب و الألوان فإن القياس فيها عند العرب هو ألا تجىء الصفة منها على « فاعل » بل على « أفعل » كـ « عور » فهو « أعور » و « سود » فهو « أسود » . فإذا أردنا أن نقول غير ذلك احتجنا فيه إلى السماع . وأما « حبّ » فليست كذلك بل القياس فيها وفى نظائرها أن تجىء الصفة منها على « فاعل » . فلسنا إذا قلنا : « حابّ » بمحتاجين إلى السماع لأنه إنما يحتاج إليه فيما خالف القياس .

فقد ظهر لك من هذا أن معنى القياس هو الأعم الأغلب ، وشرح ذلك أن علماء العربية نظروا فى كلام العرب فرأوهم يأتون بصفة الفاعل مثلا على صيغة « فاعل » فى الأعم الأغلب من كلامهم فحكموا بأن القياس هو أن يقال من « ضرب » : « ضارب » ومن « كتب » : « كاتب » وهلم جرا .

وقالوا : كل ما خالف ذلك من نظائره فهو نادر موقوف على السماع ، ثم نظروا فى أفعال السجايا الدالة على الثبوت فرأوهم — أعنى العرب — يأتون بالصفة منها على « فعيل » فى الأعم الأغلب فحكموا بأن القياس فى مثل هذه الأفعال أن يقال من « كرم » : « كريم » ومن « لؤم » : « لئيم » وهلم جرا . ونظروا فى الأفعال الدالة على العيوب والألوان فرأوهم يأتون بالصفة منها على « أفعل » فى الأعم الأغلب فحكموا بأن القياس فى مثل هذه الأفعال أن يقال : « أعور » من « عور » و « أسود » من « سود » وهلم جرا . وما خالف ذلك عدوه نادراً موقوفاً على السماع . فالقياس إذن فى « حبّ » ونظائرها غير القياس فى « كرم » ونظائرها فلا يلزم من قولنا : « حاب » من « حب » أن يقال : « كارم » من « كرم » .

التعريب :

هذه مسألة الاشتقاق وأما التعريب فأترك القول فيه لما قاله الفاضل المغربى فى كتابه الذى ذكرناه آنفاً فإنه قد استوفى الكلام فيه بما لا مزيد

عليه وأثبت أن التعريب قياسي. وأنا أوافقه على ذلك تمام الموافقة، والكتاب المذكور مطبوع متداول فليرجع إليه من شاء.

قلت فيما تقدم: إن اللغة العربية قد توقفت عن التقدم ولم تجر مع الزمان وإن توقفها قد انجرّ بها إلى تأخرها اليوم عن لغات الأمم الراقية فأصبح المتكلم بها عاجزاً عن التعبير عن كل ما يراه من آثار المدنية الحاضرة. نعم وأكثر ما يظهر هذا العجز فى أسماء الآلة والأداة لأننا محظور علينا أن نشتق من كل مصدر إسم آلة ينطبق معناه على ما نراه من الآلات، كما أننا محظور علينا أن نعبر عما نراه باسمه الأعجمى على طريقة التعريب.

أناشدكم الله أيها السادة ماذا عندنا من أسماء آلات الجراحة غير المبضع والمشرط والمسبار وما أشبهها من كلمات محدودة مع ما أصبح عليه فن الجراحة من التقدم العظيم فى هذا العصر حتى أصبحت الآلات التى تستعمل فى العمليات الجراحية اليوم تعد بالمئات.

كلنا نعلم ما للصناعة فى هذا العصر من التقدم العجيب وإن هذا التقدم لم يكن إلا عندما أصبح البخار والكهربائية نائبين عن الأيدى البشرية فى عمل جميع هذه المصنوعات التى لم يحلم بها الأولون فنحن اليوم إذا دخلنا المعامل التى تخرج لنا هذه المصنوعات رأينا كل العمل فيها لغير يد البشر من ماكنات عظيمة ذات أجهزة عجيبة تشتمل على ما لا يحصى من الآلات والأدوات بين دقيقة وجليلة ودقيقة وغليظة لا نستطيع أن نعبر عن شيء منها بل نقف أمامها وقفة الحيوان الأعجم نرى ولا نتكلم[1].

وهذا هو الذى دعانى أن أضع لأسماء الآلة وما يتبعها كتاباً جمعت فيه

---

(١) من قوله: « أناشدكم الله أيها السادة . . . . إلى هنا غير مذكور فى مجلة الحرية.

ما استطعت أن أجمعه من أسماء الآلة والأداة لشدة الحاجة اليوم إلى مثل هذه الأسماء بكثرة المسميات التي حدثت فى العصر الحاضر . ولكن الذى جمعته منها غير واف بالمراد إذ ليس الغرض من وضع ذلك الكتاب سدّ ما ذكرت من الخلل فإن ذلك ما لا أستطيعه أنا وحدى وإنما الغرض منه تنبيه الأفكار إلى ردم الثلمة وإنهاض الهمم إلى كشف الغمة . فيجب علينا أن ننظر فى هذه المسميات المستحدثة ، ولا بدّ أن يكون لكل واحدة منها فعل تفعله ؛ لأنها لم تحدث عبثاً . فإن استطعنا أن نشتق لها من فعلها إسما فذاك وإلا نظرنا فيها فإن كانت مما شاع على ألسنة العامة عندنا استعملناها كما استعملتها العامة أو أجرينا فيها بعض التغيير إذا رأينا فيها شيئاً من النفور والحيود عن اللهجة العربية كما فعلت ذلك فى كلمة «أتوموبيل» فإنى غيّرتها إلى «تومبيل» كزنجبيل لأسباب سأذكرها[1]. وإن لم تكن مما شاع على ألسنة العامة عربناها واستعملناها حتى تشيع . وينبغى ألا نتحاشى عن استعمال ما تداولته العامة من الكلمات الحديثة فإن اللغة إنما تتقرر بشيوعها واستعمالها فى ألسنة العامة . اللهم إلا فى مصطلحات العلوم فإن اللغة تتقرر فيها بألسنة الخاصة واستعمالهم إياها .

ولنذكر لكم بعض أمثلة من الكلمات المعربة الشائعة فى ألسنة العامة مما جاء فى كتابى المذكور .

قلت فى التومبيل : هو ما يقال له « أتوموبيل » فى اللغات الأجنبية

---

(١) فى مجلة الحرية الجزء الثانى ص٥٠٣ (السنة الثانية مارت ١٩٢٦) أضاف الرصافى ما يأتى . « وقد استعملتها فى قصيدة قلتها فى وصف التومبيل ، قلت فى أولها . .

وفدفد قاتم الأعماق متسع ... طويت أجوازه طى المكاتيب

بتومبيل جرى فى الأرض منسرحاً ... كما جرى الماء من سفح الأهاضيب

والقصيدة طويلة تتضمن وصف التومبيل .

وقد شاع لفظه الأجنبي فى كلام الناس واستعمله كتاب العصر أيضاً غير أنى لم أذكره لأن وزنه غير مألوف عندنا والنطق به ثقيل على ألسنتنا وليس هناك ضرورة داعية إلى إبقائه على أصله إذ لكل لسان لهجة خاصة به فينبغي لنا أن نرجع بما نأخذه عن اللغات الأخرى إلى تلك اللهجة مهما أمكن . فإن أكثر المعربات التي أخذت عن اللغات الأخرى جرت فيها العرب على هذا النهج . ولست أريد أن ذلك واجب فى كل كلمة أردنا تعريبها بل إنما يجب ذلك فى الكلمة التي تشذ عن اللهجة وتثقل على اللسان كما فى كلمة « أتوموبيل » فإن وزنها غير مألوف ولفظها غير مرصوف بحيث لو أراد شاعر عربي أن يذكرها فى شعره يصعب عليه كل الصعوبة أن يدمجها فى تفاعيل قريضه من أى بحر كان . فيجب على ما أرى أن نشذّبها بعض التشذيب فنقول فيها : « تومبيل » كزنجبيل وتكون حينئذ قد زال شماسها وهان مراسها مع المحافظة على جوهرها الأصلي الذى يدل على المعنى المراد بها . وربما جاز لنا بعد ذلك أن نشتق منها فعلا فنقول : « تمبل تمبلة » أى ركب التومبيل أو ساقه أو حركه فهو « متمبل » و « ذهب فلان متمبلا » أى راكباً التومبيل ، و « جاءوا متمبلين » أى راكبي التومبيلات. فإن قال قائل : من الذى أجاز لك أن تشتق هذا الاشتقاق العجيب ؟ قلت : الذى أجاز للعرب أن يشتقوا : « مجنق » من« منجنيق » إذ قالوا : « مجنق القوم » إذا رماهم بالمنجنيق . فإن كنا نحن اليوم خلفاءهم وورثة لغتهم فلم لا يجوز لنا ماجاز لهم ومن الذى أطلق ألسنتهم وشدّ ألسنتنا بنسعة الوجوم والجمود حتى أصبحنا نرى الأشياء فتضيق صدورنا ولا تنطلق ألسنتنا .

إن بعض المولدين من كتاب العصر أطلقوا على التومبيل اسم السيارة وهو حسن أيضاً لكنه لا يمنع من التعريب فإن أكثر المعربات لها أسماء فى اللغة العربية ومع ذلك عرّبتها العرب واستعملتها فى كلامها .

وقلت فى « التلفون » : هو بكسرتين أو بفتح التاء وكسر اللام أو

بفتحهما ـ هكذا تتكلم به الناس ـ وبعد فائه واو تلفظ بين الضمة والفتحة أو هو كلمة يونانية الأصل مركبة ومعناها الصوت البعيد وحاصلها الاسماع من بعد ويطلق اليوم على آلة حديثة تكون بالنسبة إلى الكتابة فإنها تستخدم لنقل الصوت من مكان إلى آخر .

والذى أراه هو أن نقطع النظر — نحن معاشر العرب — عن كيفية تلفظ هذه الكلمة عند أهلها فننطق بها كما تقتضيه اللهجه العربية ، وذلك بأن نفرغها فى صيغة توافق إحدى صيغ الكلمات المستعملة فى اللغة العربية كما هو الشأن فى أكثر الكلمات المعربة . وعليه فنقول فيها : « تلفون » كحلزون ، ومن الجائز أن نجمعها على « تلافين » كما يجوز أن نشتق منها فعلا رباعياً فنقول : « تلفن » إذا تكلم بالتلفون ، فهو متلفن . وأن نستعملها متعدية بأن نقول « تلفنه » إذا كلمه بالتلفون فهو متلفن .

وما أدرى لماذا لا يجوز لنا ما جاز لأسلافنا ونحن ورثتهم وخلفاؤهم فى اللغة ، فكل ما أوجدته ملكاتنا فى اللغة يجب أن يكون عربياً أيضاً لا سيما إذا كان منطبقاً على القواعد المستنبطة مما قررته سليقتهم .

اللكنة العامية(*)

إذا تحول لسان المتكلم من حرف إلى حرف آخر وكان ذلك لعارض خلقى فيه سمى « ألثغ » وقيل : « به لثغة » كالذى يتحول لسانه من السين إلى الثاء ومن الراء إلى الغين أو غير ذلك . وإذا لم يكن ذلك لعارض خلقى بل كان لكونه أعجمياً أو لكونه كثر اختلاطه بالعجم سمى « ألكن » وقيل : « به لكنة » .

وتنسب لكنة الألكن إلى القوم الذين هو منهم أو إلى القوم الذين حصلت فيه اللكنة بمخالطتهم ، فيقال : هو يرتضخ لكنة فارسية أو يرتضخ لكنة رومية أو غير ذلك .

والعامة فى العراق اليوم يرتضخون لكنة فارسية لكثرة اختلاطهم بالفرس بسبب القرب والمجاورة ، ولكنتهم تقع فى حرفى القاف والكاف . أما القاف فيتحول فيه لسانهم إلى ثلاثة حروف : الكاف الفارسية والكاف والجيم . وأما الكاف فيتحول فيه لسانهم إلى الجيم الفارسية فقط . ولنذكر لك من المظان التى تتحول فيه ألسنتهم من القاف إلى الحروف الثلاثة المذكورة .

استطراد :

قد اصطلحت هنا أن أكتب القاف المتحولة إلى الكاف الفارسية هكذا « گ » والمتحولة إلى الكاف هكذا « ك » والمتحولة إلى الجيم هكذا « ج » بأن أضع فوق الحرف المتحولة إليه قافاً صغيرة لتدل على أن أصل الحرف هو القاف ، وكذلك أفعل فى الكاف التى يتحول فيها لسانهم

(*) نشر فى مجلة لغة العرب الجزء الثالث ص ١٤٠ — ١٤٦ ،(السنة الرابعة أيلول — سبتمبر ١٩٢٦) .

إلى الجيم الفارسية فأكتبها هكذ « ﭼ » بأن أضع فوقها شكل همزة لتدل على أن أصلها هو الكاف .

* * *

اعلم أن تحولهم من القاف إلى الحروف المذكورة غير مطرد ولا مقيس فى كلامهم،وليس لنا من قاعدة نرجع إليها فى تحول القاف إلى أحد الحروف المذكورة بل العمدة فى ذلك على السماع منهم،فإننا نسمعهم ينطقون بالقاف كافاً فارسية فى نحو : قام ويقوم وقائم ، وفى قعد ويقعد وقعود وقاعد ، وفى قدر ويقدر دون المصدر واسم الفاعل ، فلا يقولون فيهما : كدرة(١) بل قدرة ، ولا يقولون : كادر(١) بل قادر . وفى قلب ويقلب وقلب وقالب — بالكسر — . وأما القالب — بفتح اللام — فلا يقولون فيه : كالب(١) بل يقولونه بالقاف الصريحة ويقولون فى جمعه قوالب،ولم يقولوا : كوالب(١) وفى قشر ويقشر وتقشر ، وفى قصع القملة يقصعها قصعاًفهو قاصع والقملة مقصوعة ، وفى قرب يقرب قرباً وقرابة فهو قريب ، وفى قلى — المشددة — اللحم يقليه تقلية فهو مقلى واللحم مقلى،وفى قمر يقمر قمراً فهو قامر ، وفى قطع يقطع قطعا فهو قاطع وذاك مقطوع وكذلك انقطع ينقطع فهو منقطع ، وفى قمطت الأم الصبي تقمطه فهو مقمط فى القماط ، وفى قمط الديك الدجاجة يقمطها قمطاً فهو قامـــط وهى مقموطة ، وفى قضى يقضى فهو قاضى وانقضى ينقضى فهو منقضى ، وفى قبض يقبض قبضاً فهو قابض وذلك مقبوض ، وفى قضب — مقلوب قبض وهو مستعمل فى كلامهم — يقضب قضبا وقضبه فهو قاضب وذاك مقضوب ، وفى قبل يقبل فهو قابل ومقبول ، وكذلك أقبل يقبل فهو مقبـل ، وفى قبّن — بالتشديد — الشيء بالقبان يقبنه فهو مقبن — بالكسر — وذاك مقبَن — بالشد المفتوح — وفى قحم يقحم فهو قاحم ، وفى قرض يقرض قرضا فهو قارض وذاك مقروض ، وقال يقول قولا فهو قائل ، وقصد يقصد قصدا فهو قاصد وذاك مقصود ، وفى قرطف الشعر -أى أخذ منه بالمقص- يقرطفه فهو مقرطف- بالكسر-

---

(١) بالكاف الفارسية .

والشعر مقرطف — بالفتح — إلى غير ذلك من الأفعال والأسماء التى تتحول فيها ألسنتهم من القاف إلى الكاف الفارسية .

وهناك أفعال وأسماء لايحولون قافها كافاً فارسية نحو قشبه يقشبه قشبا — أى أصابه بالمكروه من القول — وقل الشيء يقل فهو قليل ، إلا أنهم إذا صغروا كلمة «قليل» حولوا قافها إلى الكاف الفارسية فقالوا : كليّل(١) ، وأما مصدر هذا الفعل أعنى القلة فيحولون قافها جيما . وقنع يقنع قناعة فهو قانع وقنّعه — بالتشديد — يقنعه تقنيعاً فهو مقنع ، وقهره يقهره قهراً فهو قاهر وذاك مقهور ، وقرقر بطنه يقرقر قرقرة . فهذه الأفعال مما نسمعهم يبقون فيها القاف على حالها ولا يبدلونها كافاً فارسية .

ومن الأسماء التى ينطقون فيها بالقاف من غير تبديل : القندرة والقنديل والقبقاب والقدم والقديم والقرآن والقرش - وربما حولوا قاف هذا إلى الجيم —والقش والقسيس والقسم — بمعنى اليمين — والقند - بمعنى السكر - والقانون - لآلة الطرب - والقولنج والقطايف والقلم والقزاز.

وأما تحويلهم القاف إلى الكاف العربية فذلك فى فعلين واسم واحد ولم أجد لها رابعا ، أما الفعلان فهما قتل وقفخ بمعنى صفع ، فيقولون فى قتل : كتل ، وفى يقتل : يكتل ، وفى قاتل : كاتل ، وفى مقتول : مكتول ، وكذلك فى قفخ : كفخ يكفخ فهو كافخ وذاك مكفوخ . وأما الاسم فهو الوقت ، فيقولون : الوكت ، وفى جمعه : أوكات .

وأما تحويلهم القاف إلى الجيم فذلك فى مادة قسم ، فيقولون : جسم ، وفى يقسم : يجسم، وفى القسمة : الجسمة ، وفى قاسم وقسّام: جاسم وجسّام، وفى المقسوم : مجسوم . ومنه قول شاعرهم فى شعرهم المسمى عندهم بالزهيرى:

---

(١) بالكاف الفارسية وتشديد الياء .

يا جاره الدهر ما أنصف تعالى   نخلط همومنـــا ونجسم سويه

وكذلك فى قدّم — المشددة — يقولون : جدّم ، وفى يقوم : يجوم ، وفى تقديم : تجديم ، وفى مقدم : مجدم ، وكذلك فى قنى المال يقنيه : جناه يجنيه ، وفى القنبة : الجنبة ، هذا من الأفعال وأما من الأسماء فيقولون فى المقباس : المجباس وربما قالوا . مكباس(١) أيضا . وفى قدح : جدح ، وفى قدر وقدور : جدر وجدور ، وفى قدام : جدام ، وفى قدم : جدم ـ وهذه خاصة بأهل البادية ـ . وفى قرية : جرية ، وفى قريب : جريب ، وربما قالوا كريب(١) أيضا ، وفى القارح : جارح ، وفى القسب ـ بمعنى التمر اليابس ـ : الجسب، وفى قاسم : جاسم ، وفى صديق :صديج ، وربما قالوا : صديك(١) أيضا ، وفى قليل : جليل ـ بكسر الجيم ـ ومنه قولهم : « لاجليل » يريدون: لاقليل . وفى قلة : جلة ، ومنه قولهم : « من جلة التتن » وقول شاعرهم :

من جـــلة الخيـل شدوا   على الجلاب(٢) سروج

وفى قنب : جنب ، وفى قناع : جناع ، وفى مقنعة : مجنعة ، وفى عاقل: عاجل ، ومنه قول شاعرتهم :

واش زهفج(٢) ياعاجله(١)   شيطان لو سحـــر كوى(١)

وأما حرف الكاف فتتحول فيه ألسنتهم إلى الجيم الفارسية المثلثة كقولهم فى كان : جان دون المضارع فلا يقولون : يجون بل يكون . وفى كب الماء : جب ، وفى يكب : يجب ، وفى كاب : جاب ، وفى مكبوب : مجبوب ، وفى كتفه يكتفه تكتيفا فهو مكتِف وذاك مكتَف ، وفى كثر يكثر تكثيرا ـ دون الثلاثى المجرد منه ، وفى كذب يكذب كذبا فهو كاذب وكذّاب وكذلك كذّب يكذّب تكذيبا فهو مكذِب ، وفى كرّع فى الماء يكرع تكريعا

---

(١) بالكاف الفارسية .

(٢) بالجيم الفارسية المثلثة .

دون - الثلاثى المجرد منه ـ وفى كسب يكسب فهو كاسب وكذلك كسّب ـ المشدد ـ فهو مكسّب ، وفى كشّف ـ المشدد ـ يكشف فهو مكشف ، وفى انكلب ينكلب فهو منكلب ـ يستعملون هذا الفعل بمعنى كلب ـ ومنه قولهم : « ماعضنى جاب إلا انجاب » ، وفى كل يكل فهو كال ، وفى كال يكيل كيلا فهو كايل . فنى هذا كله يتحول لسانهم من الكاف إلى الجيم الفارسية المثلثة النقط .

وتحويلهم الكاف إلى الجيم المذكورة أكثر وقوعا فى الأسماء ولا حاجة إلى التطويل بذكر جملة من تلك الأسماء هنا بل نذكر لك جملة مما لا يجرى فيه لكنتهم ولا يحولون كافه إلى الجيم الفارسية ، ومن الأسماء ، فن ذلك : كتاب وكتب وكذلك الكبة ـ لضرب من الطعام يعملونه ـ والكبابة للغزل الملفوف ، والكبر ـ وزان صرد ـ لهذا الشجر المعروف، والكرب والكربة لأصول سعف النخل، والكروش جمع كرش ، والكحل والمكحلة، والكراث لهذه البقلة المعروفة ، والكرد والأكراد والكردى ، والكرسى والكراسى ، والبكار لأنبوب النارجيلة والكروة والكر والكرّة لهذا الجحش الصغير ، والكارة للحزمة من الحطب وغيره التى تحمل على الظهر أو على الرأس ، والكشمش لضرب من الزبيب .

الوصل فى لغة عوام العراق(*)

الوصل فى كلامهم هو عبارة عن وصل آخر حرف من الكلمة بأول حرف من الكلمة التى تليها ، وهو كثير الوقوع فى كلام العامة . وهم إذا وصلوا حرفا بحرف جعلوا الثانى منهما ساكناً ، ولابد أن يكون الأول متحركاً وإلاّ لم يصح الوصل ، فان لم يكن متحركاً حركوه بالكسر ثم وصلوه . ولنوضح لك ذلك بأمثلة من كلامهم :

قالوا فى أغانيهم :

سلم علىّ من بعيد   وحواجبه هلال العيد

فنى هذا الكلام وصلوا ياء « علىّ » بميم « من » ، والحرف الأول « الياء المثناة » مفتوح والثانى « الميم » ساكن ، ثم وصلوا نون « من » بباء « بعيد » وقد حركوا النون بالكسر وسكنوا الباء من « بعيد » وأيضاً وصلوا الواو العاطفة بالحاء من « حواجب » والواو مكسورة لأن واو العطف يغلب عليها الكسر فى كلامهم ، والحاء من « حواجب » ساكنة ثم وصلوا الباء من « حواجب » بالهاء من « هلال » والباء مفتوحة والهاء ساكنة . وأما هاء الضمير فى « حواجبه » فغير ملحوظ وإن كان مكتوبا لأنهم يسقطون من اللفظ كل ضمير مفرد غائب .

وقالوا فى أغانيهم :

كلهم عكلهم(١) سود   ومن أين أعرفه
حتى السمج(٢) بالماى   يبجى(٢) على ولفه(٣)

(*) نشر فى مجلة لغة العرب الجزء ٧ ص ٤٠٣ — ٤٠٥ (السنة الرابعة كانون الثانى سنة ١٩٢٧) .

(١) بالكاف الفارسية .

(٢) بالجيم الفارسية المثلثة .

(٣) عكل : جمع عكال ، وهو العقال . الولف هو الإلف بكسر فسكون ، بمعنى العشير المؤانس ، قلب ألفه واوا .

ففي هذا الكلام وصلوا واو العطف بميم « من » والواو مكسورة والميم ساكنة ثم وصلوا نون « من » بياء « أين » والنون مفتوحة والياء ساكنة ، وأيضاً الكاف من « يبجي — يبكي » موصولة بالعين من « على » والكاف مكسورة والعين ساكنة ، وأما الياء في آخر « يبكي » فسقطت من اللفظ لالتقاء الساكنين .

وقد يتوسط بين الحرفين الموصولين حرف ثالث فيسقط من اللفظ ؛ لأن اللسان ينتقل من الحرف الذي قبله إلى الحرف الذي بعده . وسقوط هذا الحرف الثالث المتوسط أما لأجل الوصل كما في قوله المذكور آنفا « ومن أين أعرفه » فانألف « أين » لماتوسطت بين النون والياء الموصولتين سقطت من اللفظ لأجل الوصل ، واما لأجل التقاء الساكنين كما في قوله المتقدم « يبجي على ولفه » ، فان الياء من « يبكي » لما توسطت بين الكاف والعين الموصولتين سقطت من اللفظ لأنها ساكنة والعين بعدها ساكنة أيضاً بسبب الوصل ، وأما لكونه ساقطاً في كلامهم وان لم يكن هناك وصل كما في قول الشاعر المتقدم : « وحواجبه هلال العيد » فان الباء من « حواجبه » موصولة بالهاء من « هلال » ولسان المتكلم ينتقل عند النطق من الباء إلى الهاء . فضمير الغائب الذي بينهما ساقط من اللفظ عندهم سواء وصلت الباء بالهاء أو لم توصل .

واعلم أن هذا الوصل قديكون لازماً متحتماً وقد يكون غير لازم ، أما كونه غير لازم فكما في قوله « سلم عليّ من بعيد » فلو قال : « سلم عليّ من بعيد » — أي بكسر ميم « من » وإسكان نونها — بلا وصل لجاز أيضا . واما كونه لازماً ففي واو العطف كالواو الموصولة في الأمثلة المتقدمة فان وصلها متحتم عندهم .

ومما يتحتم فيه الوصل « ما » و « لا » النافيتان إذا دخلتا على الفعل المضارع من الثلاثي المجرد الأجوف كـ « يقول » و « يخاف » و « يبيع »

أو المضاعف كـ « يمدّ » و « يشدّ » . أو من الثلاثى المزيد الذى هو من باب التفعيل كـ « يخوّف » و « يهيّج » و « يغنّى » . أو من الرباعى المجرد كـ « يعكنش » و« يخرمش » و« يطبطب » وغيرذلك . فهذه الأفعال كلها إذا دخلت عليها « ما » أو « لا » النافيتان ، أو « لا » الناهية وجب وصل الميم من « ما » أوالالام من « لا » بحرف المضارعة من الأفعال المذكورة إذا لم يكن حرف المضارعة همزة . تقول : « ما يكول[1] » فتصل ميم « ما» بياء « يقول » وتسقط ألف « ما » من اللفظ لأجل التقاء الساكنين . وتقول : « ما يصلى ولا يصوم » ... باسكان ياء يصلى ويصوم — أى تصل ميم « ما » بياء « يصلى » ولام « لا » بياء « يصوم » . وتقول : « فلان مايهب ولا يدب » — باسكان الياءين — وتقول فى الرباعى : « اترك البزونه لا تخرمشك » فتصل لام « لا » بتاء « تخرمش » . ومن أمثالهم « لاينام ولايخلى الناس تنام » — باسكان حرف المضارعة — أما إذا كان حرف المضارعة فى هذه الأفعال هو الهمزة فالوصل غير لازم بل غير جائز .

وقد جعلنا علامة الوصل هكذا « — » وهى خط صغير يوضع بين الحرفين الموصولين .

---

(١) بالكاف الفارسية .

تفخيم اللام

إنّ تفخيم اللام في اللغة الفصحى خاص بلفظة الجلالة ، وأما في لغة العامة فانهم يفخمون اللام في كثير من الأسماء والأفعال . ولم أجد لتفخيم اللام في كلامهم من ضابط عام تمتاز به مواقع التفخيم عن مواقع الترقيق سوى أني نظرت في كلامهم فرأيتهم أكثرما يفخمون اللام في الأسماءالتي اجتمعت فيها الخاء واللام فمن ذلك: « الخل » ـ لما حمض من عصير العنب وغيره ـ والخلخال والخلان ـ جمع خليل ـ والخال ـ لأخي الأم ـ والخالة والخلة ـ للقفر الذي ليس فيه أحد ـ والمنخل والنخالة والخلال ـ للبسر وهو التمر قبل ارطابه ـ والخلالة والمخلل ـ لضرب من الكامخ ـ والخلك(١) ـ بفتحتين للبالي من الثياب ـ والخلكان ـ جمع الخلق ـ والنخل والنخلة ـ وخلف ـ من أعلامهم ـ والخلك ـ بكسر اللام أي الخلق أو المخلوق ـ والسخل والسخلة . وقلما يفخمون اللام من الأسماء التي لم تجتمع فيها الخاء واللام ، ومن ذلك الغلك والظلمة والظلام والكلب ـ القلب ـ والمكلوب ـ المقلوب ـ والكول ـ مصدر قال ، والكمل ـ القمل ـ والكملة ـ القملة ـ والبكال ـ البقال ـ وكبل ـ قبل ، والبغل ـ الحيوان المعهود ـ والبغلة ، وغير ذلك من الأسماء .

أما الأفعال التي يفخمون فيها اللام فكثيرة أيضاً ومنها قولهم : « نخل الطحين بالمنخل » و ينخل الطحين »، و« ربنا خلكنا » من التراب ، و« فلان مات وماخلف شيء » ـ بكسر الشين ، و « غلك الباب » ، و « الحاكم ظلم الناس يظلمهم » ، والنايم يتكلب على فراشه » و« هو كال (٢) » و « هي كالت » و « هم كالوا » ـ وهذه الثلاثة خاصة بأهل البادية وأما أهل الحضر فلا يفخمون فيها اللام ـ و« نكلنا الطعام » و « النكال ينكل الحطب على راسه » ، إلى غير ذلك من الأفعال . وإنما أكثرنا من الأمثلة لمزيد الايضاح وإلاّ فالعمدة في تفخيم اللام على السماع .

---

(١) هذه الكاف والتي بعده بالكاف الفارسية .

(٢) بالكاف الفارسية .

الأمثال العامية(*)

١

١ — « إلْ ما يونى يغرك » .

يضرب للأمر بالحزم والاحتياط ، أى أن الذى لا يحتاط فى أموره ولا يتخذ الأسباب اللازمة للنجاة يقع فى الهلكة كالذى لا يحفر حول خيمته نؤيا يمنع السيل عنها ، فإنه إذا جاء السيل أغرقه . فقولهم فى المثل المذكور « يونى » معناه يحفر نؤيا ، والنؤى هو الحفير حول البيت يحفر لمنع السيل، إلا أنهم حرفوه فقلبوا الهمزة منه واواً وقدموها على النون وكسروها فصار « وِنى » وقالوا منه « ونّى يونى » إذا عمل نؤيا .

٢ — « إلْ ما يعرف تدابيره حنطته تاكل شعيره » :

هذا المثل قريب فى المعنى من الذى قبله . أى أن الذى لا يعرف تدبير أمور نفسه لا يفلح .

٣ — كل مَنْ يحود النار الكرصته » :

« من » هنا اسم نكرة بمعنى « أحد » أى : كل أحد يجلب النار إلى قرصته أى إلى رغيفه . ومعناه أن كل واحد من الناس يطلب النفع لنفسه دون غيره. وهم لا يوردون هذا المثل إلا عند ذم الاستئثار بالمنفعة . وقولهم : « يحود النار » أى يردها ويجلبها نحو قرصته . يقولون: حاد الدابة: إذا ردها عن وجهها ، وهو بهذا المعنى مولد .

(*) نشرت فى جريدة أ . حبزبوز للأستاذ نورى ثابت فى الأعداد : ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢١، ٢٢ ، الصادرة بين ١٢ كانون الثانى و ٢٣ شباط سنة ١٩٣٢ ، وتراجم هذه الأمثلة فى كتاب الأمثال البغدادية المقارنة للعميد عبد الرحمن التكريتى والأمثال البغدادية لجلال الحنفى .

٤ — « أبجد أبو كلاش ويا كل أبو جزمه » :

يضرب للغنى يعيش من كد الفقير ولكل من يعيش من كد غيره الذى هو أرق منه حالا وأكسف بالا. فأبو كلاش كناية عن الفقير لأن الكلاش عندهم هو حذاء من خرق يلبسه أهل الأرياف من الفلاحين والرعيان وأمثالهم . وأبو الجزمة كناية عن الغنى لأن الجزمة هى حذاء ذو رقبة طويلة تغطى الساق يلبسه أهل الترف وسعة العيش . وهذا المثل العامى ينطبق تمام الانطباق على مبدأ الاشتراكية لأن العامة إنما تقوله فى ذم الأقوياء الذين يعيشون من كد الضعفاء .

٥ — « لحية إل تفارجها لا تستحى منها » :

يقولونه للأمر بالإساءة إلى من تجاوزت إساءته الحد بحيث استوجبت مفارقته أى أنك إذا عزمت على مفارقة من اشتط فى فعله عليك وأفرط فى إساءته إليك فقابله بما يلزم من القول والفعل ولا تستحى منه . والمراد باللحية هنا الشخص ذو اللحية . وإنما خصوه بالذكر لأن صاحب اللحية يستحيا منه عادة ويجب توقيره واحترامه إما لكونه كبيراً فى السن أو لكون اللحية عندهم من علامات الوقار .

٦ — « ما يبول على أيد مجروح » :

يضرب للشحيح الذى لا يرتجى منه فعل الخير ويبخل بكل ما عنده حتى بوله ، بحيث أن أحد الناس لو كان مجروح اليد وقد اقتضت مداواته أن يبال على جرحه يبخل ببوله أن يبوله على يد ذلك المجروح .

٧ — « الدجاجة تموت وعينها بالمزبلة » :

يضرب لمن لا يترك ما اعتاد من عادة السوء أو لا يترك ما طلب من الأمور الحقيرة الدالة على سفول طبعه ، فهو كالدجاجة التى لا تترك ما جبلت عليه من البحث فى المزابل .

٢

٨ — « شليلة وضايع راسها » :

يضرب للأمر المختلط الذى لايهتدى فيه إلى وجه الصواب . ومعنى الشليلة فى كلامهم الوشيعة وهو مايلف من الغزل أو الخيوط ، فإن الخيوط الملفوفة إذا ضاع رأسها باشتباك بعضها ببعض صعب حلها وتفريقها . وهاء التأنيث فى « شليلة » غير ملفوظة .

٩ — « ليما يثبت نفسه حصينى يروح جلده للدباغ » :

يضرب لصاحب الحق الذى لا يمهله خصمه حتى يقيم حجته فيضطر إلى ترك حقه أو إلى الفرار من بين يدى خصمه . والحصينى بصيغة التصغير فى كلام العامة هو الثعلب ، وكنيته أبو الحُصين ، فالعامة أخذت هذا الاسم من كنيته . وأصل هذا المثل هو أن ثعلباً دخل مدينة قد سرق فيها جمل فأمسكه الشرطى على أنه هو سارق الجمل فأراد الثعلب أن يحتج بأنه ثعلب والثعلب الذى هو حيوان صغير لايستطيع أن يسرق حيواناً كبيراً كالجمل ، إلا أنه قبل أن يتم كلامه ذبحوه ورموا بجلده للدباغ لكى يدبغه ويعمل منه فروة . وهكذا حال الضعيف الذى هو صاحب الحق مع خصمه القوى الغشوم .

١٠ — « زَعيب خرّاب اللعيب » :

يضرب للمفسد الذى لايدخل فى أمر إلا أفسده . والزعيب هو الكعب الذى يركز مستطيلا بين الكعاب . وشرح ذلك أن للصبيان لعبة يلعبونها بالكعاب تسمى « النصبة » ، والكعاب هى العظام التى يستخرجونها من أرجل الغنم . ومن المعلوم أن شكل الكعب الواحد منها مستطيل ذو أربعة أضلاع ، ضلعان منها طويلان وضلعان قصيران . فاللعبة المسماة بالنصبة هى أن يصفوا مقداراً من الكعاب كسطر فوق الأرض بأن يقيموا كل كعب منها على أحد ضلعيه المستطيلين حتى تنتظم الكعاب صفاً واحداً على الأرض ويركزوا

فى وسط هـذا الصف كعباً واحداً مستطيلا بأن يقيموه على ضلعه القصير فيقف فى الصف مرتفعاً عن الكعاب التى فى جانبيه ويسمى هذا الكعب عندهم «الزعيب» بصيغة التصغير فإذا تم ذلك أخذ كل واحد منهم بيده كعباً يسمونه « الصول » وصاروا يرمون الكعاب المنصوبة بالصول من مسافة عشرة أقدام أو خمسة عشر قدماً أو أكثر حسبما يصطلحون عليه . فإذا أصاب أحدهم بعض الكعاب المنصوبة فأوقعها على الأرض أو أخرجها من الصف كانت له تلك الكعاب فقط . وإذا أصاب الزعيب أخـــذ كعاب النصبة كلها وتم له الدست على أصحابه وحينئذ يفسد اللعب فيستأنفونه بإقامة نصبة أخرى .

فبهذا يتبين لك معنى المثل المذكور حيث يضربونه للمفسد الذى إذا دخل فى أمر أفسده ، فهو كالزعيب الذى يفسد اللعب باصابته ولا يجوز الاستمرار على الرمى بعد سقوطه بل يجب استئناف اللعب من أوله .

واللعيب فى المثل المذكور تصغير اللعب .

١١ — « كالو للبزونة خراج شموم صارت تخرا وتطم » :

يضرب لمن يبذل للناس ما لا يطلبونه ولا يرغبون فيه فإذا طلبوه منه ضن به عليهم وكتمه عنهم . فهو فى هذا الحال كالبزونة أى الهرة التى قيل لها هذا القول على طريق الهزل فحسبته جداً فصارت تطم أى تدفن رجيعها فى التراب .

١٢ — « العصفور يتفلى والصياد يتكلى » :

يضرب لرجلين أحدهما يتجرع المر ويقاسى الأحزان لأجل صاحبه وصاحبه لاه عنه مشغول بحال نفسه فهو كالصياد الذى يريد أن يصيد العصفور فيتقلى أى يتململ ويتحرق ناظراً إلى العصفور والعصفور لاه عنه نافش ريشه يتفلى ويحتك بنقر منقاره بين ريشه .

٣

١٣ — « يناطح بكرون طين » :

يضرب لمن يدعي الحق وحجته باطلة أو للضعيف يخاصم القوى كالكبش الذى يناطح الكباش وقرونه ضعيفة تشبه القرون المعمولة من الطين .

١٤ — إمام ال ما يشوّر ما حدّ يزوره » :

يضرب لمن تتركه الناس ولا تحترمه لخلوه من البأس والشدة ، ومرادهم بالامام هنا هو القبر الذى يعتقد بصاحبه أنه من أولياء الله . ومعنى «يشور» أى يظهر شارته وهى علامة الشدة والبأس كأن يقتل من يحلف به كاذباً مثلا أو يعميه أو غير ذلك حسب اعتقادهم . فمعنى المثل : أن الولى الذى لم يكن ذا بأس وشدة لا تزوره الناس لأنهم طبعوا على الخضوع للقوة واحترام صاحبها فقط .

١٥ — « كل أصابعك مُو سُوى » :

يضرب لبيان عدم التساوى فى الأخلاق بين الناس وإن كانوا كلهم من أصل واحد ، أى : لا يجوز قياس إنسان على إنسان آخر فى أخلاقه بحجة أنه إنسان مثله . ألا ترى أن أصابع اليد الواحدة لا يشبه بعضها بعضاً فى الطول والقصر مع أنها كلها من جنس واحد وكذلك الناس . و « مو » لغة عامية فى « ما » النافية .

١٦ — « كل ما ياكل العنز يطلعه الدباغ » :

يضرب للمتمادى فى غيّه الذى لا يفتكر فيما سيلاقيه من سوء الجزاء ، فهو كالعنز يأكل ويشرب لاهياً ثم يذبح ويسلخ ويأخذ جلده الدباغ فيعانيه بكل أفعال الدبغ فيكون ذلك العنز قد لقى جزاء ما أكل وشرب من قبل . والعنز أنثى المعز ، تطلقه على الأنثى والذكر كما هنا .

١٧ - « يودّيك للشط ويجيبك عطشان » :

يُضرب للذكى الذى يخدع ولا ينخدع فانه لفرط ذكائه يأخذ الرجل وهو عطشان فيذهب به إلى المـاء ويحتال عليه بما يمنعه من الشرب من حيث لا يشعر ثم يعود به إلى محله وهو عطشان أيضاً لم يشرب من ماء النهـــر مايزيل عطشه .

١٨ - « كل نعجة تتعلك من كراعها » :

أى كل واحد من الناس إنما يؤخذ بذنبه ولا يؤخذ بذنب غيره كما أن النعجة المذبوحة إنما يعلـّقها القصاب من كراعها لامن كراع غيرها .

١٩ - « طبيعة إل بالبدن مايغيرّها غير الجفن » :

معنى هذا المثل ظاهر ، أى أن الإنسان على ماطبع عليه من خير أو شر فلا يزول طبعه إلا بالموت . وفى هذه المسألة خلاف بين علماء الأخلاق ليس هذا محل ذكره .

٢٠ - « مِد رجلك على كـد غطاك » :

يُـضرب لمن يجاوز حدّه فى الأمور . والغالب أنهم يقولونه لمن يجاوز حدّه فى الانفاق فقط . ومعناه أن الانسان يجب أن لا يجاوز حده فى كل شىء فهو كالنائم الذى يجب أن يمد رجليه على مقدار غطائه ، لأنه إنْ مدهما أكثر منه بقيتا مكشوفتين . وقولهم فى هذا المثل : « على كـَد » أى على قدر. والقدر فى الفصحى مستعمل بهذا المعنى أيضاً يقال : « هذا على قدّ ذاك » أى على مقداره . غير أن للعامة فيه لغة أخرى خاصة بهم وهى « قدّاة » يقولون مثلا : « هذا بكداة هذا » أى هذا بقدر هذا .

٢١ - « كفرنا كلنا للسقاجب صار جيرة ولزك بالحب » :

يضرب لمن يؤمر بترك عمل قد طلب منه أولا فلم يتركه . وجب فى كلام العـامة بمعنى « صبّ » يقولون : « لاتجب الماى » أى : لاتصبه .

٤

٢٢ — « سجين وملح » :

كلام تقوله العامة عند سماع صوت البومة لأنهم يتشاءمون بصوتها فيقولون هذا القول دفعاً لشآمته . وربما قالوه عند سماع كل صوت قبيح اجراءاً له على مجرى صوت البومة فى الشآمة والقبح .

٢٣ — « سوّى الشط مرك والزور خواشيك » :

يضرب لمن يبالغ فى كلامه مبالغة تجاوز حد المعقول فهو كمن جعل النهر الكبير مرقاً وأشجار الغابة كلها ملاعق للآكلين . والخواشيك فى كلام العامة جمع « خاشوكة » بمعنى الملعقة وربما قالوا فى الجمع : « خواشك » أيضاً .

٢٤ — « إل جوّى أبطه عنز يغمّج » :

يضرب لمن يأخذه الخوف اذا تحدّث الناس بالتهم، أى أن البرىء لا يخاف من قول الناس أنه فعل كذا أو كان كذا ، وإنما يخاف من يعلم نفسه أنه غير برىء كالذى سرق عنزاً صغيراً فوضعه تحت أبطه فهو يخاف أن يصوّت ذلك العنز فتسمع الناس صوته فيفتضح به . ومعنى « يغمّج » : يصوّت . وهذا المثل فى المعنى كالقول المشهور . « الخائن خائف » .

٢٥ — « جاب أبو أهلين ما ينجنى » :

يُضرب لمن تعددت ملاجئه وكثرت مآويه فلا يثبت فى محل واحد فهو كالكلب الذى له أهلان فلا يمكن اقتناؤه ؛ لأنه تارة يكون عند هؤلاء وتارة عند هؤلاء بخلاف ما إذا كان له أهل واحد فإنه لا يذهب منهم وإنْ طردوه إذ ليس له ملجأ سواهم .

٢٦ — « العب بالمكصكص ليما يجيك الطيار » :

معناه أن الاشتغال باليسير التافه خير من البطالة وترك الشغل . أى : إذا لم يكن عندك طائر وافر الجناح طيار فالعب بالطائر المقصوص الجناح حتى تحصل على طائر طيار فتلعب به .

٢٧ — « ضربنى واشتجى وغلبنى بالبجا » .

هذا المثل يضرب للمجرم ليحتال على خصمه فيجعل نفسه بريئاً وخصمه مجرما . ومعناه : انه بعدما ضربنى سبقنى إلى الحاكم فاشتكى قبلى وجعل يبكى حتى حسب الحاكم أننى الضارب وأنه هو المضروب .

٢٨ — « الصيت للنورة والفعل للزرنيخ » :

يضرب لمن يشتهر بفعل خير لم يكن هو فاعله كالنورة المشهورة بانها تزيل الشعر عند التنوّر بها مع أنها لا تأثير لها فى إزالة الشعر وإنما التأثير فى ذلك للزرنيخ الذى لم تذكره الناس فى كلامها عن إزالة الشعر .

٢٩ — « عصفور كفل زرزور والثنين طياره » :

يضرب للكفيل الذى لايكون أدعى إلى الثقة به من المكفول .

٣٠ — « ظلما ودليلها الله » :

يضرب للأمر المبهم الذى لاتعرف الحقيقة منه فهو كالظلماء التى يضل فيها الطريق : والألف من « الظلما » ساقطة من اللفظ .

٣١ — « القاضى راضى المفتى شعليه » :

يضرب للداخل بين المتخاصمين فضولا فيرضى أحدهما بقول الآخر والداخل بينهما فضولا لايرضى .

٣٢ — « الميت رجلينه طوال » :

معناه أن الانسان بعد موته يكون عزيزاً محترماً عند أهله وان كان فى حياته محقراً عندهم . وهذا المثل يضرب لمن يمدح ميتاً كان فى حياته محقراً عندهم . وهذا المثل يضرب لمن يمدح ميتاً كان فى حياته مذموماً عنده . فطول الرجلين كناية عن الاعتزاز .

٣٣ — « ألف رجال بالسوك ولا خط بالصندوق » :

قالته امرأة كثر أزواجها فكانت كلما طلقها واحد تزوجت آخر فعابوها بذلك فقالت المثل المذكور . أى لأن يكون لى ألف زوج فى السوق خير من أن أحفظ كتاباً واحداً للطلاق فى الصندوق وأبق بلا زوج . فحفظ كتاب الطلاق فى الصندوق كناية عن عدم التزوّج وهذا المثل فى المعنى كالمثل القديم « زوج من عود خير من قعود » .

٣٤ — « طواله وحبالها جنّب » .

يضرب للمطنب فى كلامه عن شىء لا يستحق الإطناب أو لمن يعظّم شيئاً حقيراً ويبالغ فيه أكثر من اللازم .

٥

٣٥ — «مثل بول البعير لى ورا » :

يضرب لمن كلما كبر سناً زاد شراً أو زاد جهلا وحمقاً فهو فى حياته يتقهقر إلى الوراء فأشبه بذلك بول البعير الذى هو يرمى ببوله إلى الوراء . و«لى» هنا بمعنى « إلى » .

٣٦ — « انطى الخبز بيد خبازته » .

هذا المثل بمعنى ما يقال فى الأمثال القديمة « اعطِ القوس باريها » .

٣٧ — « إل ما ينطى زنبيله ما حد يعبى له » !

يضرب للمرأة الفاجرة ، أى لولا أنها سلكت مسالك الفجور لما تعرض لها الناس بالسوء . وربما ضربوا هذا المثل لمن أراد حصول المطلوب بلا طلب ، أى أن الذى لا يسأل الناس مطلوبه لا يعطوه إياه كما أن الذى لا يعطى زنبيله لم يقل له أحد هات زنبيلك فأملأه لك . والتعبية فى كلام العامة هى وضع

شيء ، يقولون مثلا : « عبِّ الحنطة بالزنبيل » أى ضعها فيه . وهو قريب من معناها فى اللغة الفصحى .

٣٨ — « الحك ال يبجيك لا تلحك اللى يضحكك » :

« الحق » هنا بمعنى اتبع ، أى : أن الذى يبكيك إنما يريد لك الخير لأنه ينهاك عن المفاسد وعن هوى النفس الذى يشق عليك تركه فهو أحق بأن تتبعه وتنقاد اليه بخلاف الذى يضحكك فإنه يدعوك إلى ما يوافق هواك فى المفاسد فلا تكن تابعاً له .

وبمناسبة المعنى الذى يتضمنه هذا المثل نذكر للقراء هنا مسألة مهمة من أمهات مسائل التربية الاجتماعية التى هى محل الفرق بين أهل الغرب وأهل الشرق ، وذلك أن أهل الغرب إنما يربون الناشئة من أبنائهم على مبدأ مادى بحت بأن يجهزوهم بكل ما يلزم لمعترك الحياة الاجتماعية فإذا بلغ الولد أشده قالوا له : « ها نحن قد جهزناك بكل ما يضمن لك الغلب والفوز من سلاح العيش وهذا معترك الحياة أمامك فادخل فيه وما عليك الا أن تكون فيه غالباً بأية واسطة كانت ، وعلى أى وجه كان ؛ لأن غايتك هى أن تكون غالباً وهذه الغاية تبرر كل واسطة تتخذها لإحراز الغلبة » .

وأما أهل الشرق فإن أساس التربية عندهم أدبى لا مادى وهو الأخلاق الفاضلة فهى هى المبدأ الذى يجب أن تقوم عليه تربية الناشئة من أبنائهم ، فإذا بلغ الوليد أشده قالوا له : « هذا معترك الحياة أمامك فادخل فيه ، واعلم أنك فيه إذا غلبت هواك فأنت الغالب وإذا غلبك هواك فأنت الخاسر المغلوب » .

فليست الغاية عندهم هى الغلبة المادية مطلقاً بل الغلبة المقرونة بالفضيلة ، لأن الفضيلة هى الغاية المطلوبة على الإطلاق ، وهذه الغاية لا تبرر كل واسطة كما لا يخفى .

٣٩ — « اشتغل ببارة وحاسب البطاله » :

معناه أن كسب المال وإن كان قليلا خير من البطالة وهي التعطل والتفرغ من العمل . أي أنك إذا اشتغلت ولو ببارة كنت خيرا من البطال الذي لم يشتغل بشيء لأنك إن حاسبته وجدته لم يكسب شيئا وأنت قد كسبت بارة . والبارة كلمة فارسية معربة وهي قطعة من المسكوكات تساوي خمس ثمن القرش ، وجمعها بارات . والعامة في العراق تطلق البارة على ربع المتليك وتستعملها بمعنى الفلس « والبطالة » في المثل المذكور جمع بطال، وهو المتعطل الذي لا شغل له .

٤٠ — « ما يعرف فص الجثي من خرا الذيب » :

يضرب للجاهل الأبله . والجثي هو الأقط ولعلّ أصله « الكثو » فأبدلوا واوه ياءاً . ففي اللغة الفصحى : الكثو هو القليل من اللبن ، وكثوة اللبن وكثأته : الخاثر المجتمع عليه . والمراد بالفص هنا القطعة الواحدة من الأقط . والمعنى أنه لا يفرق بين القطعة من الأقط وبين رجيع الذئب . والغالب في رجيع الذئب أنه يكون بلون الأقط إذا يبس .

٤١ — « تساوت الكرعه وأم الشعر » :

يضرب للتساوي بين الفاضل والمفضول . والقرعاء مؤنث الأقرع ، وهو الذي ذهب شعر رأسه من علة . وأم الشعر أي ذات الشعر .

٤٢ — « إل يدري يدري وال ما يدري كضبة عدس » :

يضرب للأمر الذي خفي على الناس باطنه فحكموا فيه بالظاهر مع أن باطنه عظيم وظاهره حقير . ولو أنهم اطلعوا على باطنه لأكبروه .

« والكضبة » في كلام العامة مقلوبة من القبضة وهي ما يقبض عليه بالكف وأصل المثل أن رجلا جنى جناية وهرب وفي يده قبضة عدس فأدركه الطالب وجعل يضربه فظن الناس أنه يضربه لكونه سرق منه قبضة عدس وصاروا يلومونه على ضربه فقال المثل المذكور .

٦

٤٣ — « ضرط وزانها وضاع الحساب » :

يضرب للأمر الذى يحصل فيه تشوش واختلاط فتستبهم فيه الحقيقة . وأصله أن وزانا كان يزن الطعام فسمع منه صوت ريح ضحك له الحاضرون فأغرقوا فى الضحك حتى ضاع عليهم ماكانوا يحسبونه من عدد الوزن ففسد بذلك عملهم .

٤٤ — « كاعد بالسفينة ويطلّع عين الملاّح » :

يضرب لمن يخاصم قوما وهو نزيلهم فى أرضهم أو يتطاول على أحد هو فى كنفه وحماه فهو فى هذا الحال كالذى يكون فى السفينة ويستطيل على ملاحها ويعتدى عليه حتى يفقأ عينه .

٤٥ — « عين الشمس ما تتغطى بالمنخل » :

يضرب للأمر الجلى يراد كتمانه أو لمن ينكر شيئاً ظاهراً فى العيان وذلك عما لا يستطاع كتمانه أو إنكاره ، لأنه كالشمس التى لا يمكن تغطيتها بالمنخل .

٤٦ — « العين تستحى من العين » :

أى أن الحياء إنما يكون عند المواجهة وأن الإنسان لا يستحى من الإنسان إلا إذا قابله وجها لوجه . وإنما خصوا العين بالذكر لأنها هى محل الحياء .

٤٧ — « كل مَنْ ذنبه على جنبه » :

هذا المثل بمعنى المثل المتقدم : « كل نعجة تتعلك من كراعها » و« مَن » هنا نكرة ، أى كل أحد ، أو كل إنسان .

٤٨ — « الزور ما يخلى من واوى » :

الزور ـ بفتح الزاء فتحة مقبوضة ـ بمعنى الغابة . والواوى فى كلامهم

هو ابن آوى . وهـــذا المثل يضربونه لمظان الشر فيقولونه إذا أرادوا أن يبينوا أن هذا الشيء أو هذا المحـل مظنة للشر فهو لا يخلو منـه كما أن الغابة لاتخلو من ابن آوى .

٤٩ — « شرّك على مَنْ ضرّك » ،

كلام تقوله العامة عند سماع صارخ يجأر بالدعاء على أحـد ، وإنما تقوله إظهاراً للتبرى من ظلامته . وكذلك تقوله أيضا عند سماع هرير كلب.

٥٠ — « خير خير يابو خضير » :

كلام تقوله العامة عند سماع صوت الغراب لأنهم يتشاءمون به .

٥١ — « بايدى جويت ايدى » :

يضرب للجانى على نفسه فلا يلومنّ إلا نفسه . فهذا المثل فى المعنى كالمثل القديم(١) .

٥٢ — « بعد روحى لا حلا » :

هذا المثل فى المعنى كقول الشاعر : « إذا مت عطشانا فلا نزل القطر » .

٥٣ — « الحـلوك تريد حلوك » :

معناه أن الحقوق لاتحصل بالهيّن بل تحتاج فى تحصيلها إلى أفواه ناطقة وألسنة ذليقة تعرف كيف تقيم الحجة . فالمراد بالحلوق هنا المنطق البليغ الذى به يتم بيان الحجة . وهـذا من إطلاق الشيء على مايحصل فيه ؛ لأن الحلوق فى كلام العامة هى الأفواه التى هى محل النطق .

٥٤ — « ألف صديج ولا عدو » :

يضرب لوجوب تكثير الأصدقاء دون الأعداء أى أن الإنسان يجب

(١) لم يذكر المثل القديم . وفى مجمع الأمثال للميدانى ج ٢ ص ٤١٤ : « يداك أوكتا وفوك نفخ » .

عليه أن يجهد لتكثير أصدقائه حتى يكون له ألف صديق ولا يكون له عدو واحد .

٥٥ — « ابن آدم طير ويحسد الطير » :

يضرب للمتجول الذى هو كل يوم بأرض فهو كالطير فى تنقله من مكان إلى مكان بسرعة وتراه مع ذلك يحسد الطير على طيرانه .

٥٦ — « أخوف من الططوه » :

يضرب للجبان . و « الططوه » فى كلام العامة طائر صغير كالعصفور شديد الخوف والحذر من الناس يفزعه أدنى صوت ويطير عندما يرى أقل حركة . وهى محرفة من « الطيطوى » .

الفصل الثاني

مقالاته الأدبية

حديث مع الرصافي(*)

كانت الساعة قد أشرفت على منتصف السابعة من مساء يوم الجمعة (٢٠ مارس) حينما يممت فندق الكونتنتال لأحظى بمقابلة شاعر العراق الكبير الأستاذ معروف الرصافي . وفي البهو الوسيع الذي كان يموج بوفود المهنئين والمرحبين ، بالضيوف العراقيين ، ويضج بالجموع الكثيرة من السائحين الوافدين على مصر من مختلف أنحاء العالم . رأيت نفسي قبالة رجل يضع العقال على رأسه ويلبس الملابس العربية ، وكان هذا هو الرصافي . تقدمت إليه أحييه باسم « المجلة الجديدة » فرحب بي بلطف وإيناس وافترّ ثغره عن بشاشة لا أثر فيها للتكلف لأنها طبيعة في نفسه . وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث فيما يتصل بالأدب وفيما يتصل بالسياسة وفيما يتصل بالاجتماع والوحدة بين الأقطار الشرقية . فأحسست بعد دقائق كأني أجلس إلى أديب من أدباء مصر ، أعرفه ويعرفني منذ سنوات عديدة ، لا إلى رجل أقابله للمرة الأولى وتباعد المسافات الشاسعة بيني وبينه . ذلك لأن الأستاذ الرصافي شاعر يؤمن في قلبه بأن رسالة الأدب الصحيح والشعر الأصيل ليست لبلد دون بلد ، وأناس دون أناس ، بل هي للإنسانية جميعاً ، ولهذا فهو حريص أشد الحرص على أن يؤدي رسالته وفاقاً لهذه النزعة السامية . وعلى أن

---

* أجراه الأستاذ أسعد حنا في القاهرة عام ١٩٣٦ مع الرصافي ونشر في مجلة « المجلة الجديدة » لسلامة موسى . (العدد الرابع ابريل « نيسان » ١٩٣٦) . ونشره الأستاذ عبد الحميد الرشودي في كتابه « ذكرى الرصافي » ص ٢٠٨ ـ ٢١٥

تكون مبادىء هذه الفكرة شعاره الأبدى فى حياته الخاصة مع الناس كلهم على تباين مراكزهم واختلاف وجهات نظرهم وأفكارهم وميولهم أيضاً .

والواقع أن الإنسان عندما يجلس إلى الرصافى يرى التواضع الوقور يكاد يفيض على لسانه فى ثنايا حديثه حتى ليشعر أنه قد أصبح قريباً إلى قلبه ونفسه دقيقة بعد أخرى . فأنت إذا تأملت فى عينيه الواسعتين ترى الصفاء كله، والطيبة والوداعة، تنساب إليك فى سكون ، وإنك لتعجب للرجل كيف برع فى ميدان السياسة التى تتطلب ممن يزاولها النفاق والخداع والتلون. وهو على هذه الأخلاق الكريمة . ذلك لأن الرصافى عضو فى البرلمان العراقى ، وقد اقتعد أريكته فى مجلس النواب عن اللواء الثانى ببغداد للمرة الثالثة فى هذا العهد الحديث ، كما كان نائباً فى أيام حكم الأتراك فى العهد الماضى .

والرصافى شاعر وناثر ، ورجل اجتماعى ، فهو لا يرصد مواهبه للشعر أو الأدب فقط ، بل هو دائب البحث فى مختلف مشاكل الحياة الاجتماعية والاقتصادية . وله علاوة على كتبه الشعرية والأدبية مؤلفات تعاونية وفلسفية ، منها ما هو مطبوع ومنها ما هو مهيأ للطبع ككتاب « سر اللغز المقدس[١] » الذى تناول فيه الحديث عن أصل الكائنات وما وراء الكون .

ولعل من الفائدة أن نذكر للقراء شيئاً عن نشأة الرصافى وتكوينه ففيها أمثلة حية على الجد والكفاح والمثابرة . فقد تلقى علومه الأولى بمكتب القرية[٢] ثم انخرط فى سلك المدرسة الحربية وظل بها زهاء أربع سنوات وتركها إلى المدارس الرشدية وفيها تلقى بعض الأصول الدينية وشيئاً من العلوم والمعارف. على أن الأستاذ الرصافى يعتبر فى الحقيقة معلم نفسه ؛ ذلك لأن هذه الفترة

---

(١) هو كتاب « الشخصية المحمدية » أو « حل اللغز المقدس » ، وهو عن السيرة النبوية لا كما ذكر أسعد حنا .

(٢) ولد الرصافى ببغداد ودرس فيها .

التى قضاها فى دور العلم لم تغنه فتيلا ، ولم تفده شيئاً يعتد به ، ولعل قراءته الخاصة للمتنبي ودرسه لفلسفة المعرى هى التى جعلت منه شاعراً فحلا وباحثا عميق الفكرة ، عميق النظرة إلى الحياة والأشخاص .

ولقد حرصت فى حديثى معه على أن لانخرج عن محيط الشعر والشعراء وأبنت له هذا الرأى فى صراحة . فسر الأستاذ لذلك ، وذكر لى أنه شاعر وليس أحب إلى الشاعر من الحديث عن الشعر ؛ لأن كل الصحافيين الذين تحدثوا إليه أو تحدث إليهم كانوا فى الأكثر يباعدون فى أسئلتهم بين الشاعر وما يحب .

ثم بدأ الحديث بيننا على الوجه الآتى :

. . .

— ماذا ترى فى اتجاهات الشعر الحديث ؟

— لا يخفى أن الشعر كان فى القرون الأخيرة « نسخه طبق الأصل » فى تعابيره وتراكيبه ، إذ كان لا يصور لنا من الحياة إلا صوراً محدودة فى ألواح من المدح والهجاء والنسيب ونحو ذلك مما هو معلوم . أما فى اتجاهاته الحديثة فقد أخذ يصور لنا أشياء كثيرة من صور الحياة على اختلاف ألوانها ومنازعها مما لا حاجة إلى بيانه لمن تتبع الشعر العصرى فى اتجاهاته الحديثة إلا أن الشعر الحديث لم يزل فى اتجاهاته محدوداً أيضا فهنا من مناحى الحياة ونواحيها مالم يجرؤ الشعر بعد على تصويره . وأكبر مانع يمنعه عن ذلك هو التقاليد البالية والعادات السقيمة التى تقيده وتقيد الحرية الفكرية بقيود وثيقة . إذ نحن لم نزل فى مجتمع يتعاطى فى السر مايراه معيباً فى العلانية ، ويفعل فى طى الخفاء أفعالا يرى الجهر فيها بالقول قبيحا . فالشعر الحديث فى اتجاهاته ناقص من هذه الناحية ، ولا بد من أن سيأتى عليه يوم يحطم فيه هذه القيود إذا بلغ المجتمع العربى مبلغه من الثقافة العصرية فى العلم والأدب .

— هل الشعر فى الوقت الحاضر فى طريقه إلى الازدهار والتقدم ، أو ترى فيه جوانب ضعف واضمحلال ؟

— كلنا معاشر العرب نعتقد بأننا اليوم فى طور الانتباه ، وأن لنا فى الوقت الحاضر نهضة سياسية علمية أدبية . وإذا كنا كذلك وكان اعتقادنا هذا صحيحاً - ولا ريب فى صحته - فكيف يجوز أن لا يكون الشعر فى الوقت الحاضر فى طريقه إلى الازدهار والتقدم ؟ وهل الشعر فى كل أمة إلا مظهر من مظاهرها فى الثقافة والطبائع والعادات والسياسة والاجتماع ؟ فإذا كنا فى تقدم فالشعر فى تقدم ، وإذا كنا فى تأخر وانحطاط فالشعر فى تأخر وانحطاط . نعم ان هناك فريقاً من أهل الأدب يدعون إلى التجدد فى الشعر ، وكلما حالت أن أفهم معنى صحيحاً للتجدد الذى يدعون إليه لم أستطع ولم أفهم ماذا يريدون من التجدد . ثم قرّ رأيى - على ما استنتجته من أقاويلهم - إن التجدد هو تقليد الغربيين فى شعرهم وأدبهم ، مع أن الشعر هو الأمر الوحيد الذى يستحيل فيه التقليد ، لأن الشعر عند كل أمة ليس إلا ترجمان ثقافتها العامة فى التعقل والعواطف والعادات والدين حتى الخرافات . وهذه الأمور كلها تختلف باختلاف الأمم فيها اختلافاً قد يبلغ التناقض . فكيف يجوز لأمة ترى أمراً من الأمور قبيحاً مثلا أن تقلد أمة فى ذلك الأمر وهى تراه حسناً ؟ قد قلت فى جوابى على السؤال الأول إنّ الشعر كان فى منازعه تابعاً لحياة الماضين فكان بسبب ذلك « نسخة طبق الأصل » ، وأما اليوم فقد أخذ يصور لنا صوراً من الحياة الحاضرة ، وإن كان هذا التصوير منه لم يعم جميع نواحى الحياة للسبب الذى ذكرناه فى الجواب على السؤال الأول .
وهذا هو المعنى الصحيح للتجدد الذى يدعونا إليه فريق من الأدباء المتجددين. إذا صور لك الشعر صوراً من الحياة التى أنت فيها فأطربك بأن أقامك وأقعدك ، وسرك أو ساءك وأضحكك وأبكاك ، وأنهضك أو ثبطك ، فاعلم أنه شعر جديد ، وأنه ليس من الشعر الذى هو « نسخة طبق الأصل » .

فالدعوة إلى التجديد فى الشعر بالمعنى الذى يعنيه هؤلاء هى التى أخشى أن تجر الشعر العربى إلى الضعف والاضمحلال .

— ما مقام الشعر ومكانه من الفنون الجميلة ؟

— إن هذا السؤال عجيب ،إن الشعر - يا سيدى - هو ركن من أركان الفنون الجميلة المسماة بالآداب الرفيعة . وإذا أردنا أن نضعه فى منزلته الخاصة من الآداب الرفيعة قلنا : إنه هو والموسيقى كلاهما فى منزلة واحدة لأنهما متلازمان، ولأن أحدهما متمم للآخر، ذلك لأن الشعر لم يكن موزوناً إلا لأجل أن يتغنى به ، أى لأجل أن يكون موسيقى ، ولولا ذلك لما كان للوزن معنى ، فالشعر لا يقال إلا لينشد ، أى ليتغنى به ، وعليه فالشعر والموسيقى متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر ، فاذا رأينا شاعراً يقول الشعر ولا ينشده ، أى لا يتغنى به ويلحنه ولا يقوله قلنا : إنه نصف شاعر وإذا ألصقنا الشخصين: قائل الشعر وملحنه أحدهما بالآخر كان كلاهما شاعراً واحداً بالمعنى الصحيح .

وأظن أنى بما قلته لك هنا قد أجبتك على سؤالك ما مقام الشعر ومكانه من الفنون الجميلة ؟

— فى أى بلد من البلاد العربية تعتقد أن الشعر بالغ غايته من السمو والعظمة ؟

— إن سؤالك هذا أعجب من سؤالك المتقدم . إن الشعر يا سيدى ليس من الماديات التى يتفق الناس على تقرير قيمتها وانما هو كالحسن الذى لا يوقف له عند حد ، والذى تختلف فيه أذواق الناس اختلافاً كبيراً . فكما أننا قد نرى أحد الناس يستحسن صورة يستقبحها الآخر كذلك قد نرى أحدهم يستجيد شعراً يسترذله الآخر. فالشعر ليس من شأنه أن يختص

ببلد دون بلد ولا بشخص دون شخص ولا بأمة دون أمة ، وانما هو فى كل أمة مظهر من مظاهرها فى الثقافة العامة المشتملة على ما فى تلك الأمة من أخلاق وعادات وتأريخ ودين وأساطير وخرافات ، وقد يجوز أن يقوم فى بلد متأخر فى الثقافة شاعر بين الشعراء الناشئين فى بلد متقدم فى الثقافة ، ذلك لأن الشعر فى كيانه الأصلى فطرى المصدر غريزى المنبع ، وما العلم والثقافة إلا من مهذباته ليس إلا . فمن أجل هذا أستطيع أن أقول لك جواباً على سؤالك المتقدم إن غاية الشعر من السمو والعظمة ليس لها حد معلوم حتى يصح أن نقول بأن الشعر فى بلد كذا قد بلغ غايته من السمو والعظمة ، فكلما رأيت شعراً سامياً عظيماً فلا تنكر بأن يأتيك الزمان بأسمى منه وأعظم . وليس من المعقول أن تجعل المواهب الربانية الأدبية محصورة بين حدود معينة لا تتعداها ولا تتجاوزها .

ـــ بعد وفاة شوقى «أمير الشعراء» هل تعتقدون أن امارة الشعر انتقلت بالتبعية إلى بلد غير مصر ؟ فان كانت فالى أين ؟ ولمن ؟

ـــ قبل أن أحرك لسانى بالجواب أرسل إليك قهقهة متسلسلة ليس مصدرها الاستهزاء بك ولا السخرية منك ، وإنما مصدرها اجلالك عن أن تنحط إلى هذه الدركة فى تفكيرك . إن الامارة ـ يا سيدى ـ ليست من مواهب الله وإنما هى من وضع البشر ، وضعوها لكى تكون لها الطاعة على من يكون تحت أمرها ، فهى مادية بحتة لا علاقة لها بالمعنويات الروحانية التى منها الشعر ، فليس فى الشعر أمير ولا مأمور إذ ليس فيه طاعة لأحد على أحد ، وأذواق الناس فى الشعر لا تتجه إلى جهة واحدة ولا تتفق فيــــه على مذاق واحد بل كل واحد من الناس حر مطلق فى اتجـاه ذوقه فى الشعر وفى مذاقه منه . وإذا كان هذا شأنه فكيف تصح فيه الامارة التى تستلزم الطاعة والخضوع لمن هو تحت أمرها .

وخلاصة للقول : أن الكلام فى إمارة الشعر وأميره سخف ما بعده من سخف على ما اعتقد .

. . .

وإلى هنا كنت قد انتهيت من مهمتى فكررت الشكر للأستاذ الرصافى باسم قراء « المجلة الجديدة » الذين أتاح لهم بحديثه الطلى فرصة الاطلاع على هذه الآراء النيرة الطريفة .

نظرة انتقادية فى الأدب(*)

إن كان التقليد قبيحا فى غير الأدب فهو فى الأدب أقبح . التقليد ممقوت فى كل شيء حتى الدين ولذا شك العلماء فى صحة إيمان المقلد . ولئن تسوهل فأجيز التقليد فى بعض الأحكام الدينية لمن لا يستطيع استنباطها بالنظر من أدلتها الشرعية فلن يجوز ولن يجاز ذلك فى المسائل الأدبية التى لا يكلف المرء فيها بما فوق ذوقه وفهمه .

كل ما يجرى فى الكون من الأمور الطبيعية حسن وهو مع ذلك عدل لا جور فيه ، لأنه ناتج عن أسباب وعلل خلقها الله — تعالى — فى طبيعة الكائنات . ولا ريب أن النتائج الحاصلة من أسباب وعلل طبيعية يكون حصولها ضروريا لا بد منه فكيف إذن توصف بأنها جائرة، وكونها كذلك ضرورى لا بد منه . وهل يسوغ لعاقل أن يصف النار مثلا بأنها ظالمة لأنها محرقة وهو يعلم أن الاحراق أمر أودعه الله فى طبيعة النار فهو ضرورى لا بد منه . كلا بل إذا افتكر اللبيب فيما يجرى من الأمور الطبيعية لم يجد بدأ من أن يقول : «ليس فى الامكان أبدع مما كان» .

خلق الله السباع بأنياب وبراثين لتتخذها فى حياتها آلة للافتراس فافتراسها ضرورى لا بد منه وتعطيلها عنه ظلم لأنه خروج عن القصد الذى أوجدها الله فيه وجبلها عليه . قال ذو الفكر الحر المطلق أبو العلاء المعرى :

ولو لم يرد جورَ البزاة على القطا   مكوِّنها ما صاغها بمناسر

نحن لا نستحسن الصقور ولا نقتنيها إلا لافتراسها ولو لم تفترس لكان خلقها بمخالب ومناسر عبثاً . وكذلك الانسان ما خلق عاقلا إلا ليفتكر

(*) نشر فى جريدة الأمل الاعداد ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، الصادر بين ٨ تشرين الثانى سنة ١٩٢٣ والثالث عشر منه .

ولو لم يرد الله — تعالى — منه أن يفتكر ويعتبر فى كل ما يقع تحت حسه لما خلقه مجهزاً بقوة عاقلة مفكرة . فتعطيله هذه القوة وخروجه بها عما خلقت لأجله لا يكون إلا ظلماً صريحاً وحوبا قبيحا .

فبهذا تعلم أن من الظلم أن يعطل الانسان عقله وفكره ولا سيما فى الأمور الحسية التى يرجع فيها إلى ذوقه وحسه الوجدانى كالمسائل الأدبية .

قد يظن أن هذا الكلام خارج عما نحن بصدده ولكنى أريد أن أتوصل به إلى أن التقليد إن كان فى الأمور العقلية قبيحا فهو فى المسائل الأدبية أقبح[١] لأن هذه المسائل — كما قلنا آنفا — لا يكلف المرء فيها بما هو فوق ذوقه وفهمه بخلاف المسائل الدينية فإن منها ما هو تعبدى محض يجوز — على ما قيل — أن يكلف المرء فيه بما هو فوق عقله وفهمه وليست كذلك المسائل الأدبية .

قد نستحسن بيتا أو قصيدة من الشعر ونجادل دون بلاغة ذلك البيت أو تلك القصيدة أشد الجدال لا لأننا أدركنا حسنهما بأفهامنا بل لمجرد أن فلان صاحب الكتاب الفلانى من كتب الأدب قد استحسنهما أو لمجرد أن فلان الشاعر أو فلان الأديب قد استجادهما كل الاستجادة وأثنى على قائلهما أطيب الثناء ، أو لمجرد أنهما قد اتفق فى انتخابهما أكثر أهل المنتخبات الشعرية فنكون فيما نقول عندئذ مقلدين لا مجتهدين وتابعين لا مستقلين وجامدين لا مفكرين مع أننا لو حكمنا فيهما أذواقنا ورجعنا فيهما إلى أفهامنا لرأينا أنفسنا فى غنى عن المجادلة دون حسنهما .

إنّ فى كتب الأدب قصيدة لم تخل مجموعة من المجاميع الشعرية من

---

(١) نشر الرصافى الفقرات السابقة مقدمة لبحثه « طبقات الشعراء » المنشور فى كتابه «دروس فى تاريخ آداب اللغة العربية» ص ٥٧ — ٥٨

التنويه ببلاغتها وفصاحتها حتى لقد اتفق الرواة على الاعجاب بها وذكروا أنها ادعاها سبعون شاعراً من شعراء العرب وصار المتأدبون يحفظونها معجبين بها لمجرد أنهم رأوها كذلك فى كتب الأدب فإذا أنكرت على أحدهم بلاغتها جادلك فيها جدالا عنيفا واتهمك بفساد الذوق وإذا طالبته بالحجة قال لك : إن جميع الأدباء قد انتخبوها فى مجاميعهم وأنها لبلاغتها قد ادعاها سبعون شاعراً إلى غير ذلك من الكلام الفارغ الذى لا طائل تحته . أما مطلع هذه القصيدة فهو :

صاح فى العاشقين يالكنانه رشأ فى الجفون منه كنانه

« كنانة » فى الشطر الأول قبيلة تسمى باسم أبيها « كنانة بن خزيمة » وفى الشطر الأخير جعبة تجعل فيها السهام تتخذ من جلود لا خشب فيها أو من خشب لا جلود فيها . وهى فى الأصل ما يغطى به الشيء من الكن كالستارة من الستر . ففى البيت تجنيس تام وستعلمون ماذا ارتكب الشاعر من الفضيحة وراء هذا التجنيس .

أما اللام فى قوله : « يالكنانة » فللاستغاثة ولا يخفى عليكم أن العرب إذا وتر أحدهم أو أصيب بمصيبة تعزى إلى قومه واستغاثهم وهم يعبرون عن هذا المعنى فى كلامهم بحرف النداء مع لامين تكون الأولى منهما مفتوحة - لام المستغاث - والثانية مكسورة - وهى لام المستغاث له - كما فى قول شاعرهم :

يالقومى ويالأبناء قومى لأناس عتوهم فى ازدياد

وقد يحذف المستغاث له إذا كان معلوما أما المستغاث هنا فهو كنانة واللام الداخلة عليـــه مفتوحة ، وأما المستغاث فمحذوف والذى يقتضيه السياق إنه ضمير الرشأ الذى صاح مستغيثا بقبيلته كنانة بدليل أن الرشأ بدوى كما صرح به فى البيت الذى بعده . فتقدير الكلام فى البيت هكذا : « صاح

فى العاشقين يالكنانة لى » فحذف الشاعر المستغاث له لاقامة الوزن ولأجل كونه معلوماً من فحوى الكلام .

ونحن إذا تصورنا رشأ معشوقاً قد وجد بين عاشقيه وهو مجهز بكنانة مملوءة بالسهام موضوعة فى أجفانه وجب أن نتصوره فاتكاً بعاشقيه فتكاً ذريعاً متحكما عليهم بما يشاء من ادلال وإذلال . وإذاكان كذلك فما معنى هذه الاستغاثة منه وما الداعى إليها إذ المقام بالنسبة إليه ليس بمقام استغاثة بل مقام تحكم وإدلال . فالكلام فى هذا البيت غير مطابق لمقتضى الحال فأين هو من البلاغة وأين البلاغة منه ؟

ولأجل أن يكون الكلام فى هذا البيت بليغاً مطابقاً لمقتضى الحال يجب أن نتصور إن هؤلاء العاشقين قد أرادوا بهذا الرشأ السوءة السوآء ، وأنه لما رآهم كذلك صاح فيهم هذه الصيحة المنكرة مستغيثاً بقبيلته كنانة مستنجداً بها لتخلصه من شر هؤلاء العاشقين الذين أرادوا به سوءاً . وحينئذ تكون هذه الاستغاثة منه واقعة فى موقها ويكون الكلام مطابقاً لمقتضى الحال ولكن يكون المقام بالنسبة إلى العاشقين عندئذ مقام فسق لا عشق مع أن مقام العاشقين تجاه المعشوق يجب أن يكون مقام تذلل وخضوع ، وقد قيل : « فما عاشق من لا يذل ويخضع » .

قد ظهر لكم مافى الشطر الأول من هذا البيت من الفساد ولننظر الآن فى الشطر الثانى منه فنقول : من التشابيه المرذولة والاستعارات المبتذلة التى جرى عليها الأولون وتبعهم الآخرون من الشعراء استعارتهم لعيون الملاح أو للنظرات الواردة منها الآلات الجارحة القاتلة كالسهام والسيوف ، والوجه الجامع فى هذه الاستعارة هو التأثير الكائن فى كل من المستعار والمستعار له ، فكما أن السهم بنفوذه أو السيف بضربته يؤثر فى جسم المضروب به كذلك النظرة الموجهة من عيون الحسان تستفز قلوب الناظرين إليها وتؤثر فيها

بالحب تأثير السهم أو السيف فى الجسم ، فستعار السهم أو السيف لتلك النظرة تشبيهاً لها بهما .

ولعمرى أن هذا التشبيه فاسد بالنظر إلى الحقيقة ونفس الأمر ، لأن المليحة الحسناء إذا رمقتنى بعينها الفاترة ورمتنى منها بنظرة ساحرة لم أشعر بألم يؤلمنى بل أشعر بلذة ما فوقها لذة ، فكيف أشبهها بالسهم أو بالسيف وهما يؤثران فىّ بألم لا بلذة وهى تؤثر فىّ بلذة لا بألم . اللهم إلا إذا قلنا إن وجه التشبيه هو مطلق التأثير بقطع النظر عن كونه بلذة أو بألم ، وهذا غير جائز ولا كاف للتشبيه ؛ لأن مطلق التأثير موجود فى كثير من الأشياء فالعصا إذا ضرب بها المرء تؤثر فيه أثراً ، والماء البارد أو الحار إذا رش على أحد يؤثر فيه أثراً والنار تؤثر فى الجسم بالإحراق إلى غير ذلك من الأمور . فهل يصح أن نشبه عيون الملاح بالعصى أو بالمياه أو بالنيران بجامع مطلق التأثير ؟ كلا بل إذا أردنا أن نأتى لنظرة المليحة الحسناء بتشبيه مطابق للواقع وموافق لما فى نفس الأمر لزم أن نشبهها بما نستلذه مما يبهج أنفسنا وينعش أرواحنا كأن نقول مثلا : سقتنى من عينيها كأس الحب أو السرور كما قال المتنبي :

وطرف إن سقى العشاق كأساً   بها نقص سقانيها دهاقا

ولم أرَ فى الشعراء من شبّه العين بالسهم أو بالسيف فجاء تشبيهه صحيحاً إلا امرء القيس فى قوله :

وما ذرفت عيناك إلا لتضربى   بسهميك فى أعشار قلب مقتّل

فإن عينيها وهما فى حالة البكاء قد أثرتا فيه تأثيراً مؤلماً فصح تشبيهها بالسهمين لإيلامهما فكأنه يقول : إن عينيك بدمعهما الذروف قد آلمانى إيلاماً شديداً فكأنهما سهمان نفذا فى أعشار قلبي .

ولو أن هذا الشاعر الذى ادعى قصيدته سبعون شاعراً جرى على الطريقة المألوفة فى تشبيه العين بالسهم لعذرناه وقبلنا منه هذا التشبيه على علاته وإن كان تشبيها فاسداً مبتذلا قد مجّته الأذواق وملته الأسماع ولكنه جاء فزاد الطين بلة حيث أخذ كنانة ملأى بالسهام فأدخلها فى أجفان الرشأ الغرير إذ قال : « رشأ فى الجفون منه كنانه » .

فيا للشعراء من رأى منكم ظبياً يحمل جعبة فى عينيه ، ويا للعجب كيف لم يخش هذا الشاعر أن يفقأ عينى غزاله حين دس بين أجفانه هذه الكنانة ؟ وما أقبح هذه العين التى صارت مخزناً تدخر فيه السهام . نعم إنى اعترف بأن هذا الشاعر مغرم بالجناس ، فالجناس هو الذى حمله على ان يعذب هذا الرشأ بإدخال الكنانة فى عينيه ولا بأس فى ذلك إذ لأجل الجناس يجوز ان يهان ظبى الكناس .

هذا هو مطلع هذه القصيدة الفريدة ، وأما ما بعد المطلع من أبياتها فمن الكلام الذى تداولته الشعراء ولاكته ألسنتهم ومضغته أفواههم وفيها من سخيف القول مافيها كقوله :

وأرانا وقد تبسم برقاً　　　فأريناه ديمـــة هتانه

وحقيقة هذا الكلام أنه تبسم فبكينا ، وما أدرى لماذا كان ابتسامه داعياً إلى بكائهم، ولعلهم لما رأوا برق ثغره خافوا أن يرميهم بصاعقة من صواعقه المحرقة فضجوا بالبكاء حتى عارضوا بأدمعهم ديم السماء ، وإلا فابتسامة المحبوب مما يسر القلوب وينفى مابها من هم ولغوب .

ومما جاء فى القصيدة قوله :

فهـــو يقضى على النفـوس ولم تقـ
ض من الوصل فى هـــواه لبانه

« يقضى على النفوس » أى : يميتها ، فقد جعل هذا الرشأ موكلا بقبض الأرواح كملك الموت سوى أن الفرق بينه وبين عزرائيل هو أن هذا الرشأ مجهز بكنانة يحملها فى جفونه وعزرائيل لا كنانة عنده ولا سهام ، ولو أنه كان أسداً هصوراً لعرفنا كيف يقضى على النفوس ، لكن كيف وهو رشأ غرير ينبغى أن يحيي السرور بنظراته ويميت الهموم بابتسامه .

وأحسن ما فى هذه القصيدة قوله :

خطرات النسيم تجرح خدّيه ولمس الحـــرير يدمى بنانه

وفى هذا من المبالغة والاغراق ما يمجه الذوق، ومن ذا الذى يستحسن أو يتصور خداً يخدده النسيم الذى هو أضعف ما يتصور من هبوب الريح ؟ اللهم إلا إذا كان من الثلج فانه يذوب ويخدد إذا مرّ عليه نسيم الريح . وإذا كان لمس الحرير يدمى بنان هذا الرشأ فبأى يد يأكل ويلبس ويمسك الأشياء ؟

وأيمن الله لا رون عليهم قولهم : « إن هذه القصيدة قد ادعاها سبعون شاعراً » إذ من البعيد أن يوجد فى الأمة سبعون شاعراً كلهم من الحمقى .

* * *

ومن منتخبات الأشعار لامية ابن الوردى ، هذه القصيدة إذا نظرنا إلى مجموعها رأيناها من الشعر الوسط ولم ينتخبها القوم لكونها من طبقة عليا فى البلاغة والفصاحة ، بل لكونها فى النصائح والحكم. وعندى أنهم مخطئون فى انتخابها ، لأن شرف الموضوع وحده غير كاف لاستجادة الشعر وانتخابه من حيث أنه شعر، ولأنّ النصائح والحكم لاتجدى نفعاً ولا تحيك فى قلوب السامعين إلا إذا كانت مفرغة فى أعلى ما يتصور من قوالب البلاغة والفصاحة . فلا طائل إذن فى انتخاب هذه القصيدة وإن كان موضوعها شريفاً ما دامت من الشعر الوسط . ومن أمثلة كونها كذلك قوله :

ودع الذكر لأيام الصبا فلأيام الصبا نجم أفل

لا شك أن قوله : «فلأيام الصبا نجم أفل» واقع فى موقع التعليل لقوله: «ودع الذكر لأيام الصبا» ، أى : لا تذكر أيام صباك لأنها قد زالت . هذا هو نص عبارته ، وأنت تعلم أن زوال أيام الصبا هو من دواعى ذكرها لا من دواعى ترك ذكرها ، إذ لا يذكر الإنسان أيام صباه وهو فى أيام الصبا ، وإنما يذكرها ويتلهف عليها بعد زوالها . وليس من المعقول أن تذكر صاحبك مثلا وهو حاضر لديك تراه ويراك ، وإنما تذكره إذا غاب عنك ونأى . وإذا كان الأمر كذلك فكيف يأمر ابن الوردى مخاطبه بأن يترك أيام الصبا ويحمله على ترك ذكره بدواعى الذكر ؟ ثم إن كل إنسان مجبول على ذكر أيام صباه بعد أفول نجمها تحسراً عليها أو تلذذاً بذكراها. وقد قيل : «ذكر العيش نصف العيش» . وليس فى ذلك إثم عليه ولا حرج فما معنى هذه النصيحة الباردة من ابن الوردى ؟

ثم انظر ماذا يقول هذا الشاعر بعد :

وَالْـهُ عن آلة لهو أطربت وعن الأمرد مرتج الكفل

نرى أن مقام هذا الشاعر فى هذا البيت بل فى القصيدة كلها مقام وعظ وزجر إذ ينهى مخاطبه عن الأمرد ، فالمقام يقتضى أن يصفه بما يكرهه للسامع ويرغب الناس عنه لا فيه ، ولكن ابن الوردى لم يفعل كذلك بل وصفه بأنه مرتج الكفل فانقلب النهى إلى إغراء ، ولم يكتف بهذا الوصف حتى أخذ كأبى نواس يتغزل غزل المذكر حيث قال بعده :

إن تبدى تنكسفْ شمس الضحى وإذا ما ماسَ أزرى بالأسَل
زاد أن قسناه بالبـدر سنى وعدلناه برمح فاعتدل

سبحان الله ، أهكذا يكون كلام من يأمرنا بأن نلهو عن الأمرد وما ندرى أيقصد بهذا الكلام نهياً أم إغراء ؟ وما موقع هذا الكلام من البلاغة

الجاعلة لكل مقام مقالا ؟ وهل هذا إلا هجر هاجر لاشعر شاعر؟ ولعمرى إن مثل ابن الوردى فى هذا الشعر مثل رجل رأى رجلا عاتياً فتاكاً فأراد أن يعظه وينهاه عن الشر فأركبه فرساً جواداً وقلده أسياخاً حداداً وقال له : « إياك إياك أن تفتك بالناس ، ولكن اعلم أن فى الفتك بهم لذة ما فوقها لذة » .

* * *

ومما استحسنه أهل الأدب فى كتبهم قول أبى العتاهية من قصيدة يمدح بها المنصور ويهنيه بالخلافة :

أتتـــه الخلافة منقادة   إليـــه تجرر أذيالها
فلم تك تصلح إلا لـــه   ولم يك يصلح إلا لها

وقد ذكروا أن بشار بن برد الشاعر المفلق كان حاضراً عند إنشاد هذه القصيدة وأنه لما وصل إلى هذين البيتين قال بشار لرجل معه : « ويلك انظر إلى الخليفة هل طار من مكانه طرباً ؟ » .

وأغلب ظنى أن هذه الرواية عن بشار ملفقة لا أصل لها لأن بشاراً بصير بمواقع الكلام وإن كان أعمى . وأنت ترى مافى شطرى البيت الأول من الارتباك والتصادم فى المعنى حيث قال : « أتته الخلافة منقادة إليه » ، والانقياد يستلزم الخضوع والخنوع . ثم قال : « تجرر أذيالها » ، وجر الذيل من لوازم الكبرياء ، قال الشاعر :

خرجت أجر الذيل تيهاً كأننى   عليك أمير المؤمنين أمير

فإذا كانت الخلافة قد أتته منقادة إليه خاضعة له فكيف تختال أمامه سادلة ثوب الخيلاء ، ساحبة ذيل الكبرياء ؟ وهل هذا إلا تناقض فى ظاهر الكلام ؟ ولكن غفلة أبى العتاهية عن موقع استعمال تجرير الذيول هى التى أوقعته فى هذه الورطة .

ثم أنه قال فى البيت الثانى : « فلم تك تصلح إلا له » ، وهذا حسن جداً فى مدح الخليفة ولكن ليس فى قوله بعد ذلك : « ولم يك يصلح إلا لها » كبير مدح ، إذ لا شك أن فى قصر الخلافة على المنصور مدحاً له بليغاً بخلاف قصره على الخلافة فإنه يتضمن نقصه ؛ لأن من الكمالات ما هو خارج عن معنى الخلافة فجعل المنصور لا يصلح إلا لها خروج به عن تلك الكمالات وتجريد له منها .

وما أدرى ما ضر المنصور لو كان كصلاحيته للخلافة صالحاً أيضاً لأن يكون مثلا شاعراً مجيداً أو أديباً كبيراً أو عالماً رياضياً أو فلكياً أو طبيباً حاذقاً أو غير ذلك مما لا يعد ولا يحصى . فهذه الأمور كلها خارجة عن معنى الخلافة ، والمنصور لا يصلح لها على ما يقتضيه قول مادح أبى العتاهية .

نعم يجوز أن يخرج قول أبى العتاهية هذا على وجوه أخرى من المعنى بعيدة عن الظاهر المتبادر منه ، ولكنا لو تمحلنا له بتخريجه على تلك الوجوه لما زدناه بلاغة ، بل كان ذلك منا دليلا على أنه من سقط القول ورذل الكلام .

٭ ٭ ٭

ومما شاع بين المتأدبين قول الشاعر الأبيوردى الأموى :

قالوا : تركت الشعر ، قلت : ضرورة
باب البواعث والدواعى مغلقُ
خلت الديار فلا كريم يرتجى
منه النوالُ ولا مليح يعشَقُ

اعتذر هذا الشاعر فى البيت الأول عن تركه قول الشعر بفقد الأسباب الداعية إليه ولو أنه اكتفى بهذا البيت لعذرناه وإن بقى وجه العذر مبهماً ، ولكنه بيّن تلك الأسباب والدواعى فى البيت الثانى فقال : إنها مدح الكرام طلباً للأنعام ، والتغزل بالملاح فى معرض الحب والهيام ، وكلا الفريقين قد خلت الديار منهما فلا أرى كريماً يمدح ولا مليحاً يعشق فيشبب به فى الشعر ، وإذا انقطعت أسباب المدح والتشبيب فقد انقطعت أسباب قول الشعر ولم يبق من داع إليه ولا باعث عليه .

وفى هذا العذر ما يحمر منه وجه الكائنات خجلا أو غضباً ، لأنها بكلا قسميها العلوى والسفلى مملوءة بالبواعث والدواعى إلى قول الشعر. ولعمرى أن شاعراً لا يرى فى الخليقة صامتها وناطقها ما يدعو إلى قول الشعر لهو غير شاعر ، وتباً للشعر وبعداً لقائليه إن كان لا يقال إلا فى كريم يرتجى نواله أو مليح يشتهى وصاله .

ولكنى مع هذا أرى الأموى معذوراً فيما قال ، لأن الشعر فى عصرهم لم يكن إلا آلة للسؤال ، ولم يكن للشعراء إذ ذاك من همّ سوى مدح ذوى الثراء طمعاً فى العطاء غير أنهم اعتادوا فى ذلك العهد أن يصدروا مديحهم بالنسيب وإن لم يذوقوا وصلا من مليح أو هجراً من حبيب ، ولذا انتقدهم المتنبي بقوله :

إذا كان مدح فالنسيب المقدمُ
أكلُّ بليغ قال شعراً متيّمُ

فبيتا الأموى هذان على علاتهما قد استفدنا منهما شاهداً على حقيقة تاريخية من تاريخ الأدب ، وهى ما كان عليه الشعر والشعراء فى تلك الأعصر الغابرة .

ومما رأيته للأموى من هذا القبيل قوله :

استودع الشعر إحساناً تجده إذا
تجاذب الناس ما يروون من نتفه
فباسق النخل ما جادت مراوحه
إلا بما أودعته الريح فى سعفه

يقول : استودع الشعر إحسانك ، أى : أحسن إلى قائليه فيكون إحسانك وديعة محفوظة لك فى شعرهم ، وذلك لأنهم يمدحونك ويخلدون لك الثناء الجميل فإذا روت الناس أشعارهم ظهر إحسانك ولم يضع ، ثم ضرب لهذا مثلا فى البيت الثانى فقال : ألا ترى المراوح المصنوعة من سعف النخل فإنك إذا تروّحت بها حركت لك الريح وجادت عليك بنسيمها ، وما ذلك إلا لأن الريح قد أودعت نسيمها من قبل فى ذلك السعف الذى صنعت منه هذه المراوح ، فهى إنما تجود عليك بذلك النسيم المودع فيها من قبل .

فالمراوح فى البيت الثانى مثل للشعر فى البيت الأول، وما تجود به فى النسيم عند التروح بها مثل للمدح والثناء الجميل الذى يفهم من الشعر عند رواية الناس إياه ، والريح المودعة فى سعف النخل الذى صنعت منه هذه المراوح مثل للإحسان الذى استودعه المحسنون أشعار الشعراء .

هذا هو المعنى الذى يقصده الشاعر من هذين البيتين ، وهو كما نراه فاسد من وجهين :

الوجه الأول : إنّ المرء إذا أودع إحسانه فى الشعر عاد إليه إحسانه بصورة مدح وثناء كلما روى الناس ذلك الشعر ، فتكون الوديعة حينئذ رجعت إلى صاحبها بخلاف النسيم الذى أودعته الريح فى المراوح فإنه يعود

إلى المتروح بها لا إلى الريح التى هى المودعة فى المراوح . فالريح هى التى أحسنت على سعف النخل والذى لقى جزاء هذا الإحسان غيرها ، فالوديعة هنا لم تعد إلى صاحبها الذى أودعها . وإذا كان الأمر كذلك فلا يصح أن يكون النسيم الذى تجود به المراوح مثلا لما ينشره الشعر من المدح والثناء للرجل الذى استودعه إحسانه إذ لا مطابقة بين المثل والممثل .

والوجه الثانى : أن تضمن الشعر للثناء الجميل على من أحسن إلى قائله حقيقة لا مرية فيها بخلاف تضمن المراوح للنسيم الذى أودعته الريح فى السعف المصنوعة منه تلك المراوح ، فإنه وهم محض لا ظل له من الحقيقة . وإلا فما قول الشاعر الأموى فى مروحة الخيش وهى مروحة مصنوعة من نسيج خشن من الكتان كشراع السفينة يعلقها أهل العراق فى سقف البيت ويعملون لها حبلا تجرّ به مبلولة بالماء فإذا أراد الرجل أن ينام جذب حبلها خادمه فيهب منها نسيم بارد يذهب أذى الحر ويستطاب معه النوم . فكيف تأتى هذه المروحة بالنسيم ولم تودع الريح فيها شيئاً من قبل ؟ بل ما قوله لو رأى المراوح التى تحركها الكهربائية فى زماننا وأكثرها مصنوع من الصفائح المعدنية فإنها تجود علينا بنسيم لم تودعه الريح فيها مع أن فى عبارة الشعر حصراً بـ « ما » و « إلاّ » حيث قال : « فباسق النخل » البيت ...

الشعر (*)

تعريفه :

الشعر كالحسن لا يوقف له عند حد ، وقصارى ما نقول إذا أردنا أن نعرفه : إنه مرآة من الشعور تنعكس فيها صور الطبيعة بواسطة الألفاظ انعكاسا يؤثر فى النفوس انقباضاً أو انبساطاً .

فقولنا «بواسطة الألفاظ» قيد احترازى يخرج به قسماء الشعر من الفنون الجميلة المسماة عند القوم بالآداب الرفيعة كالرسم والنحت والموسيقى فإنها تشارك الشعر فى كونها منعكساً لصور الطبيعة ، ولكن لا بواسطة الألفاظ بل بواسطة الخطوط والألوان فى الرسم ، والأشكال البارزة فى النحت ، والألحان والأنغام فى الموسيقى .

وقولنا : «صور الطبيعة» معناه صور ما فى الطبيعة فيشمل المعانى الخفية والخيالات الوهمية والموجودات الصناعية التى صنعتها يد البشر أيضا . وأطلقنا فى التعريف صور الطبيعة ولم نقيدها بالحسن ، لأن الشعر لا يصور الحسن فقط بل قد يصور القبيح أيضاً ، كما فى الأهاجى ، وربما يصور الشعر ليلة ذات ظلام دامس وبرد قارس ورياح روامس ، أو يصور مشهداً فظيعاً من مشاهد الظلم والعسف ، أو منظراً محزناً من مناظر الفقر والبؤس ، وكل ذلك ليس من محاسن الطبيعة كما لا يخفى .

ثم إن هذا التعريف يتناول المنظوم والمنثور من الشعر ، وهو كذلك فإن الشعر قد يكون فى المنثور كما يكون فى المنظوم ، ولكن الغالب فى المنظوم أن يكون واسطة لبيان المعانى الشعرية أى لبيان سانحات الحس والخيال بخلاف المنثور فإن الغالب فيه أن يكون واسطة

(*) نشر فى كتاب سحر الشعر لرفائيل بطى ص ٨٤ — ٩٦ ، ودروس فى تاريخ آداب اللغة العربية ص ٤٩ — ٥٦ ، والأدب العربى ص ٨٠ — ٩٤

لبيان ما هو من ثمار العقل ونتائجه ، ولذلك أكثرت العرب إطلاق اسم الشعر على المنظوم حتى قال المتقدمون من أهل الأدب فى تعريف الشعر : « إنه كلام ذو وزن وقافية » وهو تعريف للأعم الأغلب من الشعر أو للفرد الكامل منه وهو الشعر المنظوم لما قدمنا بيانه من المزايا التى امتاز بها المنظوم على المنثور ، وإلا فهم يعلمون أن الشعر لا يختص المنظوم وأنه قد يكون منثورا .

ومن الدليل على أن العرب لا يخصون الشعر بالمنظوم ماحكاه لنا كتاب الله عنهم من قولهم للنبي — صلى الله عليه وسلم — إنه شاعر ، إذ قالوا فى كلام الله تعالى : « إنه قول شاعر » مع أنهم يرونه غير موزون ولا مقفى ، ولم يردّ الله عليهم بأكثر من قوله : « وما هو بقول شاعر » . ولو كان الشعر عندهم خاصاً بذى الوزن والقافية للزم أن يقال لهم فى الرد عليهم : كيف يكون قول شاعر وهو كما ترون عديم الوزن والقافية .

ومما يروى عن الأصمعى أنه قال : « قلت لبشار بن برد : إنى رأيت رجال الرأى يتعجبون من أبياتك فى المشورة » . فقال : « أنا علمت أن المشاور بين إحدى الحسنيين ، بين ثواب يفوز بثمرته أو خطأ يشارك فى مكروهه » . فقلت له : « والله أنت فى كلامك هذا أشعر منك فى أبياتك » .

فقد جعل الأصمعى — وناهيك به من إمام فى الأدب — كلام بشار المنثور شعراً إذ قال له : « أنت فى هذا الكلام أشعر » ، واسم التفضيل يقتضى المشاركة والزيادة . فهذا أيضاً يدل على أنهم لا يخصون الشعر بالمنظوم وأن الشعر عندهم قد يكون منثورا .

والذى يتحصل مما تقدم هو أن المنظوم سمى شعراً لا لكونه ذا وزن وقافية بل لكونه فى الغالب يتضمن المعانى الشعرية ، وإن شئت فقل : لكون العرب فى الغالب لا تنظم الكلام إلا شعراً . وإذا تدبرت هذا جيداً هان عليك التوفيق بين تعريفنا للشعر وبين تعريف المتقدمين له .

مبدأ الشعر ونشأته :

نريد أن نتكلم بعد تعريف الشعر عن مبدئه ونشأته فنبين كيف بدأ الشعر ؟ ومن أين نشأ ؟ وفى أى حجر ربى ؟ وأية أم ثدى أرضعته لبانها فنما وترعرع حتى بلغ ماهو عليه اليوم من أشـــده ؟ ولـكننا نعنى بالشعر ههنا الشعر المنظوم جرياً على ما جرت عليه العرب من قديم الزمان للسبب الذى تقدم بيانه فنقول :

إن القمر يطلع علينا فى مرسح الجو فيمثل لنا بصفحاته المختلفة فى كل شهر رواية من روايات الطبيعة تتجلى بها لأعيننا سنة الله التى سنها فى خلقه من الارتقاء الطبيعى والتكامل التدريجى بتلك السنة التى قضى الله تعالى على كل شىء أن يتدرج بها من الصغر إلى الـكبر ومن البساطة إلى التركيب . فكل شىء منحط فى بدأته ثم يرتقى ، وناقص فى أول نشأته ثم يتكامل ، وبسيط فى مبتدأ وجوده ثم يتركب ، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا .

ولا ريب أن كلام البشر لم يخرج فى تـكونه عن حدود هذا الناموس الطبيعى ولم يحد فى نشأته عن هذا السنن الالهى ، فهو إذن قد تـكون فى أول الأمر بسيطاً ثم تركب ونشأ فى بدأته منحطاً ثم ارتقى إلى ماهو عليه اليوم .

لقد مر على كلام العرب ثلاثة أدوار انتقل فيها بمر الزمان من طور إلى طور وتدرج من حال إلى حال ، فأولها دور البساطة وهو الدور الذى كان الـكلام فيه بسيطاً ساذجاً خالياً من كل تفنن فى أسلوبه وتصنع فى ألفاظه بحيث لايكاد يعرب عما فى ضمير المتكلم تمام الاعراب .

ثم ارتقى مع الزمان بالتدريج حتى وجدت فيـه القافية فانتقل بها إلى دوره الثانى وهو دور السجع ، والسجع هو الـكلام المقفى أو موالاة الكلام على روى واحد .

ولا شك أن هذا السجع إنما وجد بادىء بدىء فى كلام بعض الأفراد، وربما كان وجوده بطريق المصادفة إذ قد يتفق للمتكلم أن يأتى فى كلامه بجملتين متواطئتين فى الآخر على حرف واحد من غير قصد . وسواء كان وجود أول سجعة فى كلام العرب ناتجاً عن قصد أو غير قصد فلا بد أنها قد أعجبت السامعين وكان لها وقع فى نفوسهم لكونها شيئاً جديداً فى الكلام لم تطرق أسماعهم من قبل . ولإعجابهم بها صاروا يقلدون قائلها ويبارونه فى النطق بما يماثلها حتى كثر السجع وفشا فى كلامهم وصار السجع شعرهم الذى به يتغنون ودعاءهم الذى به يتعبدون .

كان السجع فاشياً فى كلام العرب الأولين من أهل الجاهلية وكان أحدهم يسرد الكلام المسجع سرداً دون تكلف ولا تروٍ ، وكانوا يلتزمون السجع فى أكثر كلامهم لاسيما كلامهم فى خطبهم ومنافراتهم ومفاخراتهم سواء فى ذلك رجالهم ونساؤهم حتى ولدانهم وجواريهم الصغار . ولا حاجة أن نورد ههنا شيئاً من الشواهد على ذلك ، فإن كتب الأدب مشحونة بأساجيعهم ، فإذا رجعت إليها وتدبرتها علمت أن العرب مارسوا السجع وزاولوه فى أزمنة طويلة حتى طبعوا عليه فأصبح لهم طبيعة تنتقل فيهم بالإرث الطبيعى من الآباء إلى الأبناء .

ثم أن الكلام بعد أن دخل فى دور السجع أى القافية واستمر فيه قرونا عديدة ارتقى منه إلى دوره الثالث وهو دور الوزن . ومما لا يستراب فيه أن الوزن فى الكلام قد تولّد من السجع وله فى تولده منه نواتج وقوابل ودايات فمن نواتجه الاتفاق والمصادفة ، ومن قوابله الأغانى ، ومن داياته الرقص .

وتوضيحاً لذلك نقول : من الجائز المحتمل أن يأتى الكلام موزوناً من غير قصد كما نراه واقعاً فى كلام الناس ومحاوراتهم كل يوم . وقد وقع ذلك فى القرآن أيضاً ، وهذا الاحتمال يزداد فى الكلام المسجع ، لأن الكلام

بواسطة السجع ينقسم إلى جمل ذوات فواصل متواطئة على حرف واحد ، وبذلك تقصر مسافة البعد بين الكلام والوزن خصوصاً فى السجع الموازى ، وهو ماتطابقت قرائنه فى الطول والقصر ، وذلك هو السجع المقبول عندهم . فى مثل هذا السجع يكون الكلام قد أخذ القافية ولم يبق بينه وبين الوزن سوى مسافة قصيرة يسهل على التصادف أن يطويها فتأتى قرينتان من الكلام المسجع متطابقتين فى الحركات والسكنات ، وذلك هو الوزن .

ثم أن العرب فى الدور الثانى من أدوار كلامهم يتغنون بالسجع فكانت أغانيهم مسجعة لامحالة إذ لم يكن لهم شعر غير الكلام المسجع . على أنهم كانوا يتغنون قبل دور السجع أيضاً ، لأن الغناء وجد فى البشر مع الكلام فهما ـ أعنى الغناء والكلام ـ توأمان ولدا معاً وكلاهما من الضروريات الطبيعية للانسان ولكنهم قبلدور السجع كانوا يتغنونغناءاً بسيطاً ساذجاً ككلامهم ، حتى إذا ارتقى كلامهم إلى السجع ارتقى معه غناؤهم ، ومن هنا تعلم أن الكلام والغناء قد مشيا فى البشر جنباً لجنب فى جميع أدوار رقيهما .

قلنا آنفا : إن مسافة ما بينالكلام والوزن قد قصرت بالسجع ، ونقول الآن : إن تلك المسافة تزداد قصراً عندما يقترن السجع بالغناء . فاقتران السجع بالغناء يزيد احتمال وقوع الوزن فيه بطريق الاتفاق والمصادفة زيادة أكثر مما إذا كان غير مقترن به ، وذلك لأن الغناء يكسب الكلام المتغنى به لحناً خاصاً ويجريه على تقاطيع وتواقيع خاصة تجذب الشخص المتغنى إلى إخراج كلامه منطبقاً عليها من حيثلايشعر . ولهذا السبب يكون احتمال وقوع الوزن بالتصادف فى كلام المتغنى أكثر من احتمال وقوعه فى كلام غير المتغنى .

أما إذا اقترن الغناء بالرقص فقد انقضى العجب من وقوع الوزن فى

كلام الراقص المتغنى ، وربما يتعجب الإنسان حينئذ من خروج الكلام غير موزون ؛ لأن الرقص عبارة عن حركات متوازنة وأوضاع متناظرة تصدر عن وجـــد يندفع به الراقص إليها . فلابد للراقص المتغنى من أن يخرج كلامه منطبقاً على تلك الأوضاع والحركات شاء أو لم يشأ . وعليه فسافة ما بين الكلام والوزن تزيد بالرقص قصراً على قصر حتى لم يبق بينهما أكثر من قيد شبر وحينئذ ينقضى العجب من وقوع الوزن فى الكلام بطريق المصادفة .

ولقد علمنا مما تقدم كيف تولد الوزن من السجع ، وعرفنا العوامل التى ولدته ، ولكن أى وزن من أوزان الشعر المعلومة كان أول مولود فى الكلام .

هذا ما نريد أن نتكلم عنه فنقول : إن احتمال وقوع الوزن فى الكلام بطريق المصادفة يختلف قوة وضعفاً باختلاف الأوزان الشعرية بساطة وتركيباً ، فما كان من الأوزان أبسط كان ذلك الاحتمال فيه أكثر وأقوى والعكس بالعكس . ونعنى ببساطة الوزن هنا سهولته على القريحة وخفته على الطبع وقرب مأخذه من الكلام المنثور بحيث يكون انطلاق الانسان به سهلا وجرى الطبع عليه هينا .

وإذا نظرنا فى أوزان الشعر وجدنا أبسطها الرجز ، إذ هو أسهلها على القريحة وأخفها على الطبع وأقربها إلى النثر . وما الفرق بينه وبين الكلام المسجوع سوى وزن قريب المأخذ سهل التناول حتى يصح أن يقال إن كل شاعر تبدأ شاعريته بالرجز وما ذلك إلا لسهولته وقرب مأخذه . وعليه فيجب أن يكون الرجز هو أول مولود من الشعر لأن احتمال وقوعه فى الكلام أكثر وأقوى من احتمال وقوع غيره من الأوزان بكونه أبسطها .

ويؤيد كون الرجز أول مولود من الشعر ما ذكروه فى كتبهم من أن الرجز أقدم الشعر ، ومعنى ذلك انه كان ولم يكن معه شعر آخر .

لاريب أن أسماء الأبحر الشعرية كالطويل والمديد والخفيف وغيره ، كلها أسماء مصطلح عليها بعد ظهور الإسلام ، ولم يكن العرب الأولون يسمون الشعر بها وإنما كان للشعر كله عندهم اسمان : الرجز والقصيد ، فكل مالم يكن رجزاً سموه قصيداً من أى بحر كان . ويدل على ذلك قول الأغلب الراجز العجلى لما استنشده المغيرة بن شعبة وهو على الكوفة:

أرجزاً تريد أم قصيدا ‏ ‏ ‏ ‏ لقد سألت هيناً موجودا

فالشعر عندهم إما رجز وإما قصيد ولا ثالث لهما . والقصيد اسم جنس جمعي واحدته قصيدة . وإذا كان الرجز أقدم من القصيد لزم أن يكون هو أول وزن تولد من الكلام المسجع وذلك ماقلناه .

والنتيجة هى أن السجع حلقة اتصال بين النثر والنظم وأن الوزن متولد من السجع ، وأن أول مولود من أوزان الشعر هو الرجز ، وأن هذا الولد البكر أبوه المصادفة وأمه الغناء ودايته الرقص . أما القافية فهى واسطة التعارف بين أبيه وأمه .

هذا ، ومن قال إن الرجز مأخوذ من توقيع سير الجمال فى الصحراء بحجة أنه أول مااستعمله العرب لسوق الجمال فى الحداء فقد أخطأ المرمى . وكل من تأمل فى الرجز منهوكه ومشطوره وفى سير الإبل رأى بينهما بوناً بعيداً جداً لشدة تتابع أجزاء الرجز فى اللفظ وسرعة انحدارها وتسردها فى الفم عند الانشاد ، وذلك ينافى سير الإبل الوئيد بسبب جسامتها وكونها فسيحة الخطى . ولا يلزم من استعمال الرجز لسوق الجمال فى بعض الأحيان كونه مأخوذاً من توقيع سيرها .

ومن الغريب أن صاحب هذا الرأى قد ادعى ان تقطيع الرجز يوافق وقع خطى الجمال مع أن فى تقطيعه من سرعة الانحدار والتسرد وتدارك المقاطع

ما ينافى كل المنافاة وقع خطى الجمال لما فى تلك الخطى من التؤدة والرزانة بسبب انفساح مواقعها وطول القوائم المرتمية من تحت تلك الجثة العالية الضخمة. ولو سلمنا أن تقطيع الرجز يوافق وقع خطى الإبل لما سلمناه أنه يلزم من ذلك كون الرجز مأخوذاً من وقع تلك الخطى، إذ لو لزم منه ذلك للزم أن يكون وزن الكامل ولاسيما مجزوءه مأخوذاً أيضاً من وقع خطى الجمال بطريق الأولى؛ لأنه يوافق وقع تلك الخطى أكثر من الرجز ويطابقها تمام المطابقة حتى أنك لو امتطيت جملا وجعلت ـ وهو سائر بك سيراً وئيداً ـ تنشد عليه شعراً من الكامل أو مجزوئه لرأيت عند تمام كل جزء من تفاعيله وقع يد من يدى جملك كما هو ظاهر للمتأمل. ولو أردنا أن نناقش صاحب هذا الرأى الحساب لطال الكلام، ولكننا نترك ذلك لأولى الذوق السليم والنظر الصحيح.

الشعر والشعراء (*)

س — ما رأيك الخاص فى الشعر وعلاقته بالقومية ؟

ج — إن الحياة الإنسانية بكل مالها وعليها قائمة فيما أرى على دعامتين إحداهما مادية والأخرى أدبية . أما المادية فهى العلم والعمل لا غير ، وإذا رأينا حياة مادية قائمة على غير هذه الدعامة فلا بد من أن تكون هناك أسباب خفية نجهلها، ولجهلنا إياها قد نعلل مظاهرها بالجد أو بحسن الحظ أو بالمصادفة أو بنحو ذلك من الأوهام الشائعة .

وأما دعامة الحياة الأدبية فهى الشعر الذى نعنى به الشعور الراق والإحساس الرقيق المكتسبين ما يناسبهما من ألفاظ اللغة المنبعثين فى ساحتى الغناء أو الرقص خاصة وفى ساحة كل ذوق بديع عامة ، وكما يكون الشعر باعتبار مصدره دعامة الحياة الأدبية يكون أيضاً باعتبار مظهره غايتها القصوى وزهرتها الناضجة الغضة . فنصيب كل أمة من الحياة الأدبية ورقيها فيها إنما هو نصيبها من الشعر ورقيها فيه ، فالشعر هو المقياس الوحيد الذى تقاس به الحياة الأدبية فى كل أمة . ومن هنا تتجلى لك علاقة الشعر بالقومية حتى يصح لك أن تعده من مقوماتها ؛ لأن الأمم لا يمتاز بعضها عن بعض من الوجهة الأدبية إلا بالشعر دون سواه ، وما القومية لولا الشعر إلا وَهمٌ من الأوهام ، ولا الأمم لولاه إلا شرع سواسية .

لكل واحد من الناس وجه لا يمتاز عن سواه إلا بملامحه فلولا هذه الملامح المختلفة الكائنة فى وجوه الناس ما كنا لنميز زيداً من عمرو ولا لنفرق بين بكر وخالد . كذلك لكل قوم وجه أدبى لا يمتازون عن سواهم إلا بملامحه ، وما ملامحه إلا الشعر .

(*) حديث أجراه الأستاذ رفائيل بطى مع المرحوم الرصافى فى موضوع الشعر ، والشعراء ونشره فى مجلة الحرية (العدد ١ — ٢ (تموز ١٩٢٥ ، السنة الثانية) ص ٦ — ١٧ ، ونشره عبد الحميد الرشودى فى ذكرى الرصافى ص ٢٢١ـ٢٣٢ .

هذه هى علاقة الشعر بالقومية قد أوضحتها إيضاحاً مجملا ولو أردت أن أفيض فيها لجئت من الكلام بما يضيق عنه المقام .

س — كيف أحسست بالشعر ؟ وكيف تطورت شاعريتك وتدرجت فى النظم ؟

ج — كنت أدرس العربية على أستاذى المرحوم محمود شكرى الألوسى وأنا إذ ذاك دون العشرين حفظت ألفية ابن مالك وقرأت لها عدة شروح، وكنت مولعاً بحفظ الشواهد التى يوردها النحويون فى كتبهم وكنت إذا مرّ بى فى أثناء الدرس بيت من الشعر راجعت فيه الشروح والحواشى فعلمت من قائله وماذا بعده أو قبله من الأبيات فحفظتها وكنت قوى الحافظة حتى حفظت شيئاً كثيراً من هذا القبيل بحيث أن أستاذى كان يلقبنى بالشواهد وكنت أشعر بميل شديد فى نفسى إلى الشعر لشدة تأثيره فىّ .

وبينما أنا أدرس فى ألفية ابن مالك نظمت فى إحدى الليالى أكثر من عشرة أبيات وجهت الخطاب فيها إلى شيخى وضمنتها شيئاً من مدحه دون أن أذكر اسمه فيها وأتيت بها صباحاً اليه ولم أنشده إياها بل أعطيته الورقة التى كتبتها فيها وأنا خائف أن لا تكون مقبولة لديه فقرأها جهراً بعد أن سألنى عن ناظمها وعلم أنها من نظمى وكان يقرؤها باستحسان وينظر إلىّ فى أثناء قراءتها بتعجب ، ثم قال : ولكن عادة الشعراء أن يتخلصوا فيما ينظمونه من الشعر إلى ذكر اسم الممدوح ، وأنت قد أهملت ذلك فمن تعنى بهذا المدح ؟ فقلت وأنا فى قبضة الخجل : إننى قصدت مدحكم ، واعتذرت .

ثم مضى علىّ زمن وأنا أنظم البيت والبيتين والثلاثة ولم أطلع أحداً حتى جاءنى الحب فنظمت شيئاً كثيراً من الغراميات وكان الذى كنت أنظمه لا يزيد على خمسة أبيات أو ستة ، وقد جمعت ذلك فى كراسة مع بعض المقاطيع الهجائية التى دعت إلى نظمها إذ ذاك مماحكة بعض الأصحاب ،

غير أني لما تقدمت قليلا فى الإجادة فى نظم الشعر مزقت تلك الكراسة ولم أبق على شيء منها .

وبعد ذلك أخذت أنظم الشعر فيما أشاهده من الحادثات اليومية التى تحدث بين يدى وكانت مشاهد البؤس من أشد الدواعى عندى الى نظم الشعر ، وكان لنا جار فقير مبتلى بداء المفاصل وكانت له أخت تمرضه وكنا فى فصل الصيف الذى يكون فيه منام الناس فى لياليه فى بلادنا على سطوح الدور فكان هذا المريض إذا جن عليه الليل والى أنينه ، وكان أنينه يزعجنى طول الليل . فهذه الحادثة هى التى أوحت إلىّ قصيدة « الفقر والسقام » . واطلعت فى ليلة عيد الأضحى على حالة أرملة بائسة لها يتامى صغار ولاحاجة إلى ذكر قصتها ، فحالة هذه الأرملة هى التى أوحت إلىّ قصيدة « اليتيم فى العيد » وكان لى صاحب وكان أبوه صاحب الشرطة إذ ذاك فى بغداد فأخذنى يوماً إلى السجن الكائن فى بغداد فشهدت فيه مشهد البؤس والشقاء حتى أوحى الىّ قصيدة « السجن فى بغداد » . وهكذا بقيت أنسج على هذا المنوال حتى أعلن الدستور العثمانى فذهبت إلى الآستانة وهى مركز سياسة الدولة إذ ذاك فاجترفتنى أمواجها المتلاطمة وحالت فى الأكثر بينى وبين تلك المواضيع السابقة ، وياقاتل الله السياسة إنها ما دخلت فى أمر إلا أفسدته .

س — بمن أنت أشد ولوعاً من شعراء العرب الأقدمين ولماذا ؟

ج — بنابغة بنى ذبيان من أهل العصر الجاهلى ، لأنى أرى فى شعره أقصى ماوصل إليه الكلام من درجات البلاغة والفصاحة ، وبأبى الطيب المتنبى وأبى العلاء المعرى من أهل العصر العباسى . أما الأول فلأنى لم أر شاعرية تعلو على شاعريته ، وأما الثانى فلأنه كان أمة وحده بفلسفته العليا وحكمته الناصعة .

س — ما تقول فى الشعر الجاهلى والاسلامى فى عصوره المختلفة ؟

ج — يمتاز الشعر الجاهلى من جهة المعنى عما بعده بقلة الخيال فيه وبغلبة

الحقيقة على المجاز وببساطة المواضيع التى يطرقها . ويمتاز من جهة اللفظ بالجزالة وبرصانة التراكيب وفخامة الأسلوب .

ولم يتطور الشعر العربى فى صدر الاسلام تطوراً معنوياً بل بقى من جهة المعنى كما هو فى العصر الجاهلى ؛ لأنه لم تتوفر له أسباب التطور المعنوى بعد ولكنه تطور بعض التطور اللفظى فقل فيه الغريب من اللفظ والحوشى من الكلام مع محافظته على رصانة التركيب وفخامة الأسلوب . وسبب هذا التطور اللفظى هو القرآن لاغير .

أما تطوره المعنوى فقد تمخضت به الأيام فى أواخر العصر الأموى ، ولكنه لم ينضج ولم يبلغ أشده إلا فى العصر العباسى . ونعنى بتطوره المعنوى أنه خرج عما كان عليه فى العصر الجاهلى فاتسعت فيه مسارح الخيال وغلب فيه المجاز على الحقيقة كما اتسع نطاق المواضيع التى يطرقها .

أما أسباب هذا التطور المعنوى فهى :

أولا — اتساع المملكة الاسلامية واشتمالها على آثار عدة مدنيات سابقة كمدنية فارس والروم ومصر والهند وغير ذلك .

ثانياً — اتساع الثروة وتوفر أسباب الحضارة والترف .

ثالثاً — تلاحق الأفكار من أمم مختلفة فى المملكة الاسلامية واحتكاك القرائح بعضها ببعض واختلاط العرب بالعجم وتبادلهم فى الأخلاق والعادات والأزياء وغيرها من مرافق الحياة .

رابعاً — اتساع الآداب والعلوم بما نقل إلى العربية من اليونانية والفارسية وغيرهما .

ولهذه الأسباب نفسها حصل تطور فى اللفظ أيضاً فغلبت الرقة فى الشعر

العربى على الجزالة ، وبعد أن كانت رصانة التراكيب عامة أصبحت خاصة يمتاز بها شاعر عن شاعر .

واستمر هذا التطور المعنوى واللفظى آخذاً بالاتساع إلى أواخر العهد العباسى فى بغداد ثم طرأ التوقف ، وما بعد التوقف إلا الانحطاط .

س — ما رأيك فى الشعر العصرى ؟ ومن تؤثر من شعراء هذا الجيل ؟

ج — إن العصر الحاضر هو عصر مدنية راقية وعلم واسع وآثار باهرة وبدائع زاهرة ومخترعات عجيبة ومكتشفات غريبة ، كما أنه عصر نفوس محررة وأفكار مطلقة ومدارك عالية ومقاصد غالية . فالشعر العصرى يجب أن يكون منطبقاً من جميع الوجوه على ما تقتضيه روح هـــذا العصر وإلا فلا يستحق النسبة إليه .

أما الشعر العربى فمنذ نصف قرن أو أقل أخذ يجرى فى مجرى هذا العصر إلا أنه لم يبلغ بعد غايته المطلوبة ، لأن العرب أنفسهم لم يبلغوا بعد غايتهم المطلوبة لا فى العلم ولا فى غيره من مظاهر العصر الحاضر . ولا يتمكن العرب من بلوغ تلك الغاية على ما أرى إلا إذا ملكوا أمرهم فى السياسة ؛ لأن جميع الشؤون الحيوية من علمية واجتماعية واقتصادية لا تدور فى هذا العصر إلا على محور السياسة . فيستحيل على أمة أن تتقدم فى تلك الشؤون وهى غير مالكة أمرها فى السياسة .

ومن أسباب قصور الشعر العربى اليوم عن بلوغ غايته العصرية قصور لغته عن تلك الغاية ، ويستحيل على اللغة العربية أن تقوم لها قائمة فى هذا العصر ما لم تكن للعرب جامعة علمية عصرية بكل معنى الكلمة . فمتى كانت لهم هذه الجامعة تقدمت لغتهم ، ومتى تقدمت اللغة تقدم معها الشعر وجاز له حينئذ أن يبلغ غايته المطلوبة فى مجراه العصرى .

وأما شعراء هذا الجيل فليس لأحدهم عندى شخصية بارزة فى الشعر حتى أوثره على غيره مطلقاً ، وإنما أقول عند سماع دعاويهم : «فلا أنت من ذاك القبيل ولا أنا» على أن أكبرهم عندى أعرفهم بنفسه كما أن أصغرهم عندى أكبرهم دعوى فارغة .

ولا يفهم من هذا أن شعراء هذا الجيل كلهم عندى كأسنان المشط ، كلا لأنى ما نفيت عنهم إلا الشخصية البارزة بروزاً يمتاز به صاحبها عن غيره امتيازاً ظاهراً لا محل فيه للريب فيجوز لى إذن أن أفضل بعضهم على بعض من وجـــوه مختلفة كأن أقول مثلا : إنى أفضل حافظاً بنقاوة ألفاظه وصدق تراكيبه ووضوحها ، وأفضل شوقى ببعض معانيه أحياناً ، وهكذا . غير أنى لا أريد أن أتكلم هنا فى هذا الموضوع ؛ لأن بيان أسباب الترجيح يقتضى بحثاً طويلا لا يسعه المقام ، كما أن الجرح والتعديل فى هذا الباب يثير الضغائن والأحقاد ويستوجب القيل والقال .

س — ما تقول فى مستقبل الشعر العربى ؟

ج — إن للنشوء والارتقاء سنة تشمل كل شىء ، وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من أن يكون للشعر العربى مستقبل باهر إذا توفرت له أسباب التقدم والرقى . وقد علمت مما تقدم مجملا الأمور التى عليها يتوقف تقدم الشعر العربى وبلوغه الغاية المطلوبة فى مجراه العصرى .

س — ما تقول فى الشعر المنثور الذى ابتدعه الريحانى ، والشعر الذى سماه صاحبه بالشعر المرسل ؟

ج — لقد تكلمت فى إحدى محاضراتى عن منشأ الشعر وعن والديه وعن قوابله وعن حواضنه وأظآره . ومجمل القول هنا هو أن الغنـــاء والرقص غريزتان من غرائز الإنسان كما أن النطق غريزة فيه وما الشعر إلا وليد هاتين الغريزتين . فإن النطق وهو أسنى مظهر من مظاهر الشعور لما اقترن بالغناء

تولد الشعر . فالشعر لا يقال إلا لينشد وبعبارة أخرى ليتغنى به، فلا بدّ فيه من الوزن والقافية ، لأن الغناء نغم وإيقاع وهما لا يكونان إلاّ على تقاطيع متوازية من الكلام ، ولم نعهد أمة من الأمم الغابرة ولا الحاضرة تغنت بشعر لا وزن فيه.وغاية ما نراه من شعراء أوربة اليوم هو أنهم يبعدون فى القوافى ويتجوزون فيها لا أنهم يهملونها بتاتاً . وكما هم يتجوزون فى القوافى يتجوزون فى الوزن أيضاً فلا يلتزمون فى القصيدة الواحدة وزناً واحداً . وقصارى القول فى طريقتهم هذه أنها تشبه طريقة الموشحات عند العرب ، وأنا إن كنت لم أطلع على الشعر الأفرنجى لعدم معرفتى لغة أجنبية فقد اطلعت على المتفرنجين من شعراء الأتراك الذين قلدوا شعراء الأفرنج تقليداً مطلقاً ومشوا فى أشعارهم على آثارهم واتبعوهم فيها حذو القذة بالقذة فلم أر شعرهم خالياً من الوزن ولا من القافية وإنما هم — كما قلت آنفاً — يبعدون فيها ويتجوزون . وجلّ ما يتجلى لى من هذا الشعر الذى يسميه صاحبه بالمرسل إنما هو اقتران الرعونة بالشعور وخلط السخافة بالظرافة وإدغام التفاهة بالنباهة وطلب السمعة من وراء البدعة .

ومن الغريب أن بعض الناس عابوا على الشعر قوافيه بأنها تكرار ممل وذلك وَهم منهم فإن القافية لا تتكرر فى الشعر بل تكرارها عيب عند العرب يسمى بالإيطاء ، وإنما يتكرر منها حرف واحد وهو الحرف المسمى بالروى ، فالمعنى فى كل قافية غير المعنى فى سواها من أخواتها ، فمن أين جاء هذا التكرار الممل ؟ على أن تكرار بعض النغمات فى الموسيقى أمر لا محيد عنه وهو مسموع ومألوف ، وما تكرار حرف الروى فى الشعر إلا بمنزلة تكرار بعض النغمات فى الموسيقى .

هذا ، وأما الشعر المنثور العارى من الوزن والقافية فهو شعر بالمعنى الأعم، أى هو شعر بمعانيه التى تفعل فى النفس ما يفعله الإنشاد المقترن بالنظم والإيقاع إلا أنه لا يتغنى به فعلا ، فهو إذن تقليد للشعر المنظوم من جهة

الغاية المقصودة به ، وحبذا لو سمى الشعر المنثور بالشعر الصامت لعدم اقترانه بالغناء والرقص ، وسمى المنظوم بالناطق لاقترانه بذلك .

أما أنا فأستحسن الشعر المنثور وأقول به من حيث أنه خير واسطة لإنباط القرائح وإثارة العواطف لا غير ، إلا أنى لا أفضله على الشعر المنظوم ، لأن هذا شعر منثور وزيادة إذ هو لاقترانه بالغناء يبلغ غاية الشعر المنثور من طريق أقصر ويتناولها بيد أطول .

ولا يجوز أن يفضل المنثور بكون مجاله أفسح وأوسع من مجال الشعر المنظوم بسبب تقييد هذا بالوزن والقافية وإطلاق ذاك منهما ؛ لأن الشعر لا يكون مسرحاً للعقل والفكر حتى يعد اتساع مجاله مزية مستحسنة،وإنما الشعر مسرح للنفس ومثار للشعور والعاطفة ، وإذا كان الوزن والقافية هما الغناء نفسه فتقييده بهما اطلاق له فى مسرح العواطف والشعور . وهل ينكر منكر أن الغناء قنطرةالنفس إلى العواطف ومعبرها إلىالشعور والحس؟

س — من تقرأ من الشعراء الآن ؟

ج — ما أدرى ماذا تريد بقولك « الآن » أهو ظرف لغوى أم هو ظرف مستقر ؟ فان كان الأول فليس عندى من دواوين الشعراء شيء غير ثلاثة المتنبي والأموى والمعرى ، وإذا كان الثانى فلا أقرأ إلا ما أراه أحيانا فى الصحف السيارة من الجرائد اليومية والمجلات العلمية .

س — ما رأيك فيما اطلعت عليه مما ترجم من الشعر الأجنبي ؟

ج — إن فيما اطلعت عليه من الشعر الأجنبي المعرب شعراً تروقنى معانيه جداً غير أنى لا أثق بأمانة المترجمين فى تصويرهم تلك المعانى كما هى فى الأصل ، ولئن كان النقل من لغة إلى أخرى فى غير الشعر صعباً فهو فى الشعر أصعب ، لأن الشعر قد يشير إلى المعنى من طرف خفى إشارة يصعب نقلها إلا على الماهرين من التراجمة .

هذا من جهة المعنى ، وأما من جهة اللفظ فقلما رأيت شعراً مترجماً كساه ناقله ألفاظاً تناسب معانيه بل أكثر ما رأيته سخيف المبنى وإن كان شريف المعنى ، ولا ريب فى أن شراب المعانى ليس له غير الألفاظ من أوان . والشراب مهما كان مرموقاً فانه يمجه الذوق إذا كان فى إناء وسخ غير نظيف

ولم أرَ مترجماً للشعر الأجنبي نثراً أمهر من فيلكس فارس الخطيب المصقع الشهير فى بيروت ، فقد قرأت له كثيراً من الشعر المترجم عن الفرنسوية فكان حسناً . ولكنى لم أر قط شاعراً أجاد فى ترجمة الشعر الأجنبي نظماً ، على أنى لا أنكر أنَّ أكثر شعراء العصر ترجمة للشعر الأجنبي نظماً هو حليم دموس الشاعر الشهير فى سورية ، ففى ديوانه شيء كثير من هذا القبيل وقد أجاد بعض الاجادة فى الترجمة . فالمبرزون ممن عرفتهم من تراجمة الشعر الأجنبي اثنان هما : فيلكس فارس فى النثر ، وحليم دموس فى النظم.

طبقات الشعراء(*)

إن كان التقليد فى غير الأدب قبيحاً فهو فى الأدب أقبح . التقليد ممقوت فى كل شيء حتى الدين ، ولذا شك العلماء فى صحة إيمان المقلد . ولئن تسوهل فأجيز التقليد فى بعض الأحكام الدينية لمن لا يستطيع استنباطها بالنظر فى أدلتها الشرعية فلن يجوز ولن يجاز ذلك فى المسائل الأدبية التى لا يكلف المرء فيها بما فوق ذوقه وفهمه .

كل ما يجرى فى الكون من الأمور الطبيعية حسن ، وهو مع ذلك عدل لا جور فيه ؛ لأنه ناتج عن أسباب وعلل خلقها الله فى طبيعة الكائنات . فالنتائج الحاصلة منها ضرورية لا بدّ منها فكيف إذن تتصف بأنها جائرة ، وكونها كذلك ضرورى لا بدّ منه ؟ وهل يسوغ لعاقل أن يصف النار مثلا بأنها ظالمة لأنها محرقة وهو يعلم أن الإحراق أمر أودعه الله فى طبيعة النار . كلا بل إذا افتكر فيما جرى ويجرى من الأمور الطبيعية لم يجد بدأ من أن يقول ليس فى الإمكان أبدع مما كان .

خلق الله السباع بأنياب وبراثن لتتخذها فى حياتها آلة للافتراس ، بل غريزة الافتراس فيها هى التى كونت لها تلك الأنياب وأوجدت تلك البراثن ، فكونها كذلك ضرورى لا بد منه وتعطيلها عنه ظلم ؛ لأنه خروج عن القصد الذى أوجدها الله فيه . وإلى هذه الحقيقة أشار ذو الفكر الحر المطلق أبو العلاء المعرى بقوله :

ولو لم يرد جور البزاة على القطا مكوّنها ما صاغها بمناسر

(*) نشر فى جريدة الأمل الأعداد : ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، الصادرة بين ٣ كانون الأول سنة ١٩٢٣ والخامس منه . ونشر الرصافى هذا البحث فى كتابه « دروس فى تأريخ آداب اللغة العربية » ص ٥٧ — ٦٨ .

نحن لا نستحسن الصقور ولا نقتنيها إلا لافتراسها ، ولو لم تفترس لكان خلقها ببراثن ومناسر عبثا ، وكذلك الإنسان خلق عاقلا ليفتكر ولو لم يرد الله منه أن يفتكر ويعتبر فى كل مايقع تحت حسه لما خلقه مجهزاً بقوة عاقلة مفكرة . فتعطيله هذه القوة وخروجه بها عن وظيفتها لا يكون إلا ظلماً صريحاً وحوباً كبيرا .

قد يظن أن هذا الكلام خارج عما نحن بصدده ، ولكنى أريد أن أتوصل به إلى أن التقليد قبيح وهو فى المسائل الأدبية أقبح .

نرى المتقدمين من أهل الأدب قد قسموا ، لا بل حاولوا أن يقسموا الشعراء إلى طبقات متعددة ، فهل علينا أن نقبل ما قالوه فى هذا الباب وإن لم نحصل منه على طائل(١) ؟

أما أنا فلم أهتد إلى نتيجة معقولة مما كتبه القوم فى مسألة طبقات الشعراء ولذا أريد أن أبدى لكم رأيى فى هذه المسألة وأذكر لكم ما قاله القوم فيها ، وبعد ذلك فاحكموا أنتم بما شئتم :

إن الظاهر المتبادر إلى الذهن هو أن الغرض من تقسيم الشعراء إلى طبقات مختلفة ، تصنيفهم بحسب درجاتهم فى الإجادة وفيما جروا عليه من أساليب الفصاحة والبلاغة ليتعين بذلك ما لكل صنف منهم من المنزلة فى الأدب حتى إذا قيل إن امرء القيس مثلا من شعراء الطبقة الأولى علم بذلك أنه فى أعلى منزلة ، وإذا قيل إن النابغة مثلا من الطبقة الثانية علم أنه دون امرىء القيس منزلة ، وهكذا لأن الطبقة هنا معناها المنزلة . يقال : الناس

---

(١) لم ترد الفقرات السابقة فى جريدة الأمل ، وهى مذكورة فى كتاب « دروس فى تأريخ آداب اللغة العربية » للرصافى ص ٥٧ .

ويبدأ المقال فى جريدة الأمل بقول الرصافى : « من المسائل التى لم أهتد فيما كتبه القوم فيها إلى نتيجة معقولة مسألة طبقات الشعراء » .

طبقات ، أى : منازل ودرجات بعضها أرفع من بعض ، ومن هذا القبيل طبقات الشعراء .

وإذا كان الغرض من تقسيم الشعراء إلى طبقات هو هذا فمن الصعب جداً إيجاد طريقة للتقسيم موصلة إلى الغرض المطلوب ، لأن الشعر كالحسن لا يوقف له عند حد يحده ، بل كلاهما من الأمور التى تختلف فيها الأذواق اختلافاً كبيراً . فكما يصعب تصنيف الحسن إلى درجات بعضها أعلى من بعض لشدة اختلاف أذواق البشر فيه كذلك يصعب تصنيف الشعراء بتقسيمهم إلى طبقات متفاضلة إذ ليس لنا حدود معينة نفصل بها كل طبقة عن الأخرى فصلا حقيقيا .

وإذا تتبعنا ما كتبه القوم فى هذا الباب ونظرنا فى التقاسيم التى وضعوها لبيان طبقات الشعراء وجدناها مبهمة كل الإبهام ، فمنها ما هو ناقص غير وافٍ بالغرض المطلوب ، ومنها ما هو اعتبارى محض وهو مع ذلك غير واف بالغرض أيضا .

إن جميع الذين قسموا الشعراء إلى طبقات مختلفة قد جعلوا مورد القسمة فى تقسيمهم أحد ثلاثة أمور :

١ — الزمان .

٢ — الإجادة فى الشعر والبراعة فيه .

٣ — ما للشعراء من القصائد المشهورة .

تقسيم الشعراء بالنظر الى الزمان :

أما الذين نظروا إلى الزمان فاتخذوه مورد القسمة فى تقسيم الشعراء إلى طبقات مختلفة ، فقد جعلوهم خمس طبقات : الجاهليين ، والمخضرمين ، والإسلاميين ، والمولدين ، والمحدثين .

فالجاهليون : هم الذين عاشوا فى زمن الجاهلية قبل ظهور الإسلام كامرىء القيس وزهير ونابغة بنى ذبيان وغيرهم من شعراء ذلك العصر .

والمخضرمون : هم الذين عاشوا فى الجاهلية وأدركوا الإسلام سواء أسلموا أم لم يسلموا كلبيد والنابغة الجعدى والحطيئة والأعشى وغيرهم . وتسميتهم بالمخضرمين مأخوذة من قولهم : ناقة مخضرمة ، أى قطع طرف أذنها ، فكأن أحدهم لما مضى نصف عمره فى الجاهلية ونصفه فى الإسلام كان عمره الأخير مقطوعاً بالإسلام عما مضى من عمره فى الجاهلية . أو من قولهم : رجل مخضرم إذا كان أبوه أبيض وهو أسود ، فكأن حياتهم ذات لونين من الجاهلية والإسلام . أو من قولهم : طعام مخضرم ، أى ليس بحلو ولا مر ، فكأن عمر أحدهم لما لم يكن جاهلياً بحتاً ولا إسلامياً بحتاً كان كالطعام المخضرم الذى هو ليس بحلو محض وليس بمر محض .

والإسلاميون : هم الذين نشأوا فى صدر الإسلام ولم يدركوا الجاهلية سواء كانوا مسلمين أم غير مسلمين كالفرزدق وجرير والأخطل وغيرهم من شعراء ذلك العهد .

والمولدون : هم الذين نشأوا بعد الصدر الأول من الإسلام ، أى بعدما طرأت العجمة على لسان العرب لاختلاطهم بالعجم بسبب الفتوح ، وكان المولد فى ذلك العصر يطلق على من ولد عند العرب ونشأ مع أولادهم وتأدب بآدابهم . أو يطلق على كل عربى غير محض ، فسمى أهل هذه الطبقة من الشعراء بالمولدين لأن منهم من ولد عند العرب وهو أعجمى الأصل أو لأن عربيتهم غير محضة لطروء العجمة عليها بسبب الاختلاط ، ثم أطلق المولد على كل شاعر نشأ فى ذلك العصر أو بعده وإن كان عربياً محضاً توسعاً فى اللغة كبشار بن برد وأبى نواس وأبى تمام والمتنبى وغيرهم من الشعراء الذين نشأوا إلى أواخر القرن الثالث للهجرة .

والمحدثون : هم الذين نشأوا فى العصر الحاضر من الشعراء الذين جروا بالشعر بعد توقفه منـــذ أعصر عديدة فى مجرى جديد يلائم روح العصر الحاضر . ومنهم من جعل المولدين والمحدثين طبقة واحدة وسمى شعراء هذه الطبقة بالمولدين تارة وبالمحدثين تارة أخرى . وعلى هذا تكون الطبقات أربع .

وما أدرى أى فائدة فى هذا التقسيم فإن الغرض المطلوب من تقسيم الشعراء إلى طبقات غير حاصل به إذ بمجرد قولنا : إن فلاناً الشاعر هو من الجاهليين أو من المولدين لا تتعين منزلته فى الأدب ولا مكانته فى الشعر إذ من الجائز بل من الواقع أن يكون فى المولدين من هو أشعر من بعض شعراء الطبقة التى فوقه وكذلك القول فى الإسلاميين وكذلك فى المخضرمين ، حتى إن شعراء الطبقة الواحدة من طبقات الشعراء الخمس مختلفون أيضاً فى المنزلة فليسوا كلهم فى منزلة واحدة فى الشعر حتى يكونوا كلهم من طبقة واحدة .

تقسيم الشعراء بالنسبة الى الاجادة :

وأما الذين نظروا إلى جودة الشعر ودرجة إجادة الشاعر فيه فقد قسموا الشعراء إلى أربع طبقات فصلوا بعضها عن بعض بصفات اعتبارية مبهمة غير كافية لتمييز كل طبقة من اختها فضلا عن تمييز كل شاعر عن أخيه .

الطبقة الأولى : هى كل شاعر خنذيذ ، قالوا : وهو الشاعر الذى يجيد قول الشعر ويروى ما للعرب من جيد الشعر . وعليه فقد اشترطوا فى الشاعر من الطبقة الأولى أن يكون مجيداً مفلقاً ، وأن يكون مع ذلك راوية ، أى عالماً بأيام العرب وأشعارهم . وجمعوا هذين الشرطين فى صفة واحدة وهى قولهم : خنذيذ ، فهو يطلق فى اللغة على الشاعر المفلق وعلى العالم بأيام العرب وأشعارهم .

الطبقة الثانية : هى كل شاعر مفلق ، وهو الذى يجيد قول الشعر كالشاعر الخنذيذ إلا أنه لا يروى ما للعرب من جيد الشعر ، فلم يشترطوا فيه إلا شرطاً واحداً . ووصفوه بالمفلق تمييزاً له عن «الخنذيذ» ، وهو من قولهم : أفلق الشاعر ، إذا أتى بالفلق ، أى : بالأمر العجيب .

الطبقة الثالثة : هى الشاعر مطلقا ، أى من كان شاعراً فقط بلا صفة مميزة، فلا هو خنذيذ كالأول ولا مفلق كالثانى ، أى أنهم أطلقوه من كلا القيدين ولم يشترطوا فيه ذينك الشرطين ، فهو إذن من يقول الشعر دون الإجادة فيه ، فليس بمفلق ، ودون الرواية فليس بخنذيذ .

الطبقة الرابعة : الشعرور كعصفور ، قالوا : هو من يتشاعر وليس بشاعر ، فهو إذن دون الشويعر الذى يقول فيه المتنبي :

أفى كل يوم تحت ضبنى شويعر ضعيف يقاوينى قصير يطاول (١)

وفى الشعرور هذا جاء قول بعضهم :

وكم فى الناس شعرور ولكن تنبأ بين قوم كالبهائم

وقد نظم هذه الطبقات بعضهم بقوله :

الشعراء فاعلمن أربعه فشاعر يجرى ولا يجرى معه
وشاعر ينشد وسط المعمعه وشاعر لا تشتهى أن تسمعه
وشاعر لا تستحى أن تصفعه

والأخير هو الشعرور .

والذى يفهم من هــــذا التقسيم هو أن مدار الأمر فيه على الشرطين المذكورين ، أعنى الإجادة والرواية ، فإن وجدا معاً فى شاعر كان من الطبقة

(١) الضبن : ماتحت الابط إلى الخاصرة ، وهو الحضن .

الأولى وإن وجد فيه الأول دون الثانى كان من الطبقة الثانية، وإن فقد فيه كلا الشرطين وبقى المشروط له فقط وهو مطلق الشاعرية كان من الطبقة الثالثة، وإن فقد منه المشروط له أيضاً بأن لم يكن شاعراً بل شعروراً متشاعراً كان من الطبقة الرابعة .

إن هذا التقسيم يرى فى الظاهر وافياً بالغرض المطلوب من تعيين منازل الشعراء فى الأدب وتبيين مراتبهم فى الشعر إلا أنه فى الحقيقة ليس كذلك .

أولا : لأنه إنما يعين تلك المنازل تعيينا مبهماً ويحدها بحدود غير واضحة ولا متفق عليها عند الناس وهى جودة الشعر ورواية الجيد منه ، إذ لا ريب أن الناس مختلفو الأذواق فى جيد الشعر ومضطربو الرأى فيه ، فقد يستجيد أحدهم شعراً يسترذله الآخر، كما يستحسن أحدهم صورة لا يستحسنها الآخرون . وإذا كانت معرفة جيد الشعر من رديئه ذوقية صعب علينا تمييز الشاعر المجيد من غيره تمييزاً حقيقياً ، وإذا كان الأمر كذلك كان القول بأن فلانا يعد فى شعره من الطبقة الأولى أو من الطبقة الثانية قولا مجرداً غير مقطوع به ولا متفق عليه . هبنى قلت فى المتنبى مثلا بأنه من الطبقة الأولى فهل من المستبعد أن يقول غيرى بأنه من الطبقة الثانية أو الثالثة ؟ كلا بل هذا واقع فى حق المتنبى فإن من الناس من قال : إنه أكبر شاعر ، ومنهم من قال : إنه ليس بشاعر .

ثانياً : إن هذا التقسيم مبنى على أمور اعتبارية اعتبرها المقسم وبنى عليها تقسيمه ، فلم لا يجوز لغيره أن يعتبر أموراً غيرها فيقسم الشعراء إلى أكثر من أربع طبقات أو أقل ، فإنى رأيت من علماء الأدب من يرى أنه لا يجوز إطلاق كلمة شاعر إلا من كان مجيداً مفلقا من الشعراء وإن من لم يكن كذلك لم يستحق هذا الاسم بل يجب أن يسمى شعروراً ، وممن يرى هذا الرأى الشيخ سعيد الشرتونى صاحب كتاب « أقرب الموارد فى اللغة»

فقد اجتمعت به — رحمه الله — فى بيروت فأهدى إلىّ نسخة من كتاب له كان قد ألفه فى بعض المسائل الأدبية وقال لى: «قد استشهدت فى هذا الكتاب بأبيات لك فى وصف الساعة أنا معجب بها» . قال : وقد قلت فى أولها : «هى للشاعر فلان» ، ولم ألقبك بأكثر من شاعر ، لأن كلمة «شاعر» عندى لا يجوز أن تطلق إلا على من كان مجيداً مبرزاً فى الشعر ، ومن لم يكن كذلك فلا يجوز أن يسمى عندى إلا متشاعراً . قال : وهذا الرأى مشهور عنى فسل به من شئت من أهل هذا البلد .

فعلى رأى الشرتونى هذا يكون الشعراء اثنين لا ثالث لهما : شاعراً ومتشاعراً .

ثالثا : أن هذا التقسيم قد جعل الحد الفاصل بين الطبقتين الأولى والثانية رواية جيد الشعر ، أى اشترط فى الشاعر من الطبقة الأولى أن يكون راوية أيضا ، وهذا تحكم محض وتعسف بحت ، لأن رواية الشعر أمر خارج عن شاعرية الشاعر فجعلها شرطا يمتاز به شعراء الطبقة الأولى على شعراء الطبقة الثانية مع تساوى الطبقتين فى الإجادة تحكم على الشعر وتعسف لشعراء الطبقة الثانية ، إذ قد يجوز أن يكون الشاعر مجيداً كل الإجادة فى شعره وهو لا يروى من شعر غيره شيئاً . ونحن إذا فضلنا شاعراً مجيداً على شاعر مجيد مثله بسبب كون الأول راوية والثانى غير راوية كان تفضيلنا بعيداً عن الانصاف ، لأن الموازنة بين شاعرين يجب أن تنحصر فى شعرهما أنفسهما دون شعر غيرهم . فبهذا يتبين لكم أن الحدود الفاصلة بين طبقة وأخرى إنما هى حدود اعتبارية محضة لا ظل لها من الحقيقة .

رابعاً : إنّ هذا التقسيم قد اعتدى على الشعر وأسرف فى القسمة بادخاله الشعرور فى عداد الشعراء وجعله من الطبقة الرابعة وكيف يدخل فى عداد الشعراء من إذا قال الشعر لا تستحى أن تصفعه . فالطبقة الرابعة التى جاءت

فى هذا التقسيم لغو لا محل لها من الشعر والشعراء فكان ينبغى حذفها وجعل الطبقات ثلاثاً أو كان ينبغى على الأقل أن تحد بحدود تجعل لها بعض المكانة بين الشعراء ولو مرذولة كما جاء فى قولى الذى عارضت به الأبيات المتقدمة فى نظم هذه الطبقات الأربع إذ قلت :

الشعراء فى الزمان أربعه ... فشاعر أفكاره مبتدعه
وشاعر أشعاره متبعه ... وشاعر أقواله منتزعه
وشاعر فى الشعراء امعه

فالشاعر الذى يغلب على شعره أن يأتى بمعان مبتدعة وأفكار مبتكرة يكون من الطبقة الأولى ، والشاعر الذى لا يفتض أبكار المعانى ولكنه مع ذلك يجيد الشعر بحيث تكون أشعاره متبعة يتبعها الشعراء ويحتذون مثالها يكون فى الطبقة الثانية،والشاعر الذى يجيد الشعر ولكنه معذلك يأتىبأشعار منتزعة أى مأخوذة من شعر غيره يكون من الطبقة الثالثة ، والشاعر الذى يكون فى الشعر دون الاجادة وهو مع ذلك امعة لا رأى له فى شعره بل يأتى بأشعار يسلخها سلخاً من أقوال الشعراء يكون من الطبقة الرابعة .فبهذا يكون للطبقة الرابعة بعض المكانة بين الشعراء ولو مكانة مرذولة . وعلى هذا الرأى يكون مدار التقسيم على ثلاثة أمور : الابتكار ، والاجادة ، والأخذ .

فالابتكار مع الاجادة يكون من مميزات الطبقة الأولى ، والاجادة دون الابتكار ودون الأخذ من مميزات الطبقة الثانية ، والاجادة من مميزات الطبقة الثالثة ، وعدم الاجادة مع الأخذ من مميزات الطبقة الرابعة .

تقسيم الشعراء بالنظر الى قصائد مشهورة :

وأما الذين نظروا إلى جملة من القصائد المشهورة وبنوا عليها تقسيمهم الشعراء إلى طبقات مختلفة فقد جمعوا زهاء تسع وأربعين قصيدة من قصائد

بعض مشاهير الشعراء وجعلوا كل سبع قصائد منها على حدة فكانت سبعة أقسام سموا كل قسم منها باسم خاص، فانقسم بالضرورة أصحاب تلك القصائد إلى سبع طبقات جعلوها على هذا الترتيب:

١ ـ الطبقة الأولى أصحاب المعلقات .
٢ ـ الثانية أصحاب المجمهرات .
٣ ـ الثالثة أصحاب المنتقيات .
٤ ـ الرابعة أصحاب المذهبات .
٥ ـ الخامسة أصحاب المراثى .
٦ ـ السادسة أصحاب المشوبات .
٧ ـ السابعة أصحاب الملحمات .

وإليك أسماء أصحابها على الترتيب المذكور : (١)

أصحاب المعلقات :

١ ـ لامرىء القيس الكندى
٢ ـ لزهير بن أبى سلمى المازنى
٣ ـ للنابغة الذبيانى
٤ ـ للأعشى البكرى
٥ ـ للبيد بن ربيعة العامرى
٦ ـ لعمرو بن كلثوم التغلبى
٧ ـ لطرفة بن العبد
٨ ـ لعنترة بن شداد العبسى

---

(١) لم يذكر الرصافى فى جريدة الأمل أسماء الشعراء وإنما أضافها حينما نشرها فى كتابه « دروس فى تأريخ آداب اللغة العربية ص ٦٥ ـ ٦٦ .

أصحاب المجمهرات :

١ - لعبيد بن الأبرص الأسدى
٢ - لعدى بن زيد العبادى
٣ - لبشر بن أبى خازم الأسدى
٤ - لأمية بن أبى الصلت الثقفى
٥ - لخداش بن زهير العامرى
٦ - للنمر بن تولب العكاسى

أصحاب المنتقيات :

١ - للسيب بن علس البكرى
٢ - للمرقش الأصغر الضبعى
٣ - للمتلمس الضبعى
٤ - لعروة بن الورد العبسى
٥ - لمهلهل بن ربيعة التغلبى
٦ - لدريد بن الصمة الجشمى
٧ - للمتنخل الهذلى

أصحاب المذهبات :

١ - لحسان بن ثابت الأنصارى
٢ - لعبد الله بن رواحة الأنصارى
٣ - لمالك بن عجلان الأنصارى
٤ - لقيس بن الخطيم الأنصارى
٥ - لأحيحة بن الجلاح الأنصارى
٦ - لأبى قيس بن الأسلت الأنصارى
٧ - لعمرو بن امرىء القيس

أصحاب المراثى :

١ ـ لأبى ذؤيب الهذلى
٢ ـ لمحمد بن كعب الغنوى
٣ ـ لأعشى باهلة
٤ ـ لعلقمة الحميرى
٥ ـ لأبى زبيد الطائى
٦ ـ لمتمم بن نويرة اليربوعى
٧ ـ لمالك بن الريب التميمى

أصحاب المشوبات :

١ ـ للنابغة الجعدى
٢ ـ لكعب بن زهير المازنى
٣ ـ للقطامى التغلبى
٤ ـ للحطيئة العبسى
٥ ـ للشماخ بن ضرار الذبيانى
٦ ـ لعمرو بن أحمر الباهلى
٧ ـ لتميم بن مقبل

أصحاب الملحمات :

١ ـ للفرزدق التميمى
٢ ـ لجرير التميمى
٣ ـ للأخطل التغلبى
٤ ـ لعبيد الراعى الهوازنى
٥ ـ لذى الرمة العدوى

٦ — للكميت المضرى .
٧ — للطرماح بن حكيم الطائى .

وقد جمع هذه القصائد ورتبها على هـذا الترتيب أبو زيد القرشى فى كتاب له سماه « جمهرة أشعار العرب » .

هذا ولم نستفد من هذا التقسيم سوى مجموعة شعر تحتوى على تسع وأربعين قصيدة ولم نعرف به سوى منزلة تسعةوأربعين شاعراً انقسموا إلى سبع طبقات مترتبين فى علو المنزلة من الطبقة الأولى إلى الطبقة السابعة بحسب الترتيب المذكور . وليس كونهم كذلك بحقيق ثابت بل هو اعتبارى محض لأنهم لم يكونوا كذلك إلا عند من انتخب هذه القصائد ورتبها هذا الترتيب ومنحها هذه الألقاب وأنزل أصحابها هذه المنازل وجعلهم فى هذه الدرجات. وهل هذه الدعوى مسلمة له عند الناس ؟ كلا وكيف تكون مسلمة ولم يأتنا فى تقسيمه بفصول بيّنة نميز بها كل طبقة من التى تليها ؟ ولماذا جعل أصحاب المعلقات من الطبقة الأولى وأصحاب الجمهرات من الطبقة الثانية وأصحاب المنتقيات من الطبقة الثالثة وهؤلاء كلهم جاهليون ؟ فهل تسمية قصائدهم بهذه الأسماء وتلقيبها بهذه الألقاب هى التى اقتضت جعلهم على هذا الترتيب فإن كانت هى التى اقتضت ذلك فإن هى إلا أسماء هو سماها وهو وضعها وليس له فيما يدعيه من سلطان .

ثم ماذا نقول فيمن لم يذكرهم من الشعراء الذين عاشوا فى تلك العصور المتقدمة من جاهليين ومخضرمين وإسلاميين ؟ أننكر وجودهم بتاتاً أم ننسخ وجودهم من ديوان الشعر والأدب؟وماذا نقول فيمن جاء بعدهم من الشعراء إلى يومنا هذا ؟ فإن قيل : أفعل مثلما فعل هذا بأن تنظر فى شعر من بقى من الشعراء فتنتخب من شعر كل شاعر قصيدة ثم اجمع هذه القصائد واقسمها إلى أقسام واعط أصحاب كل قسم منها منازلهم من الطبقة الثامنة فصاعدا . قلت : وهل يكون ذلك منى إذا فعلته إلا تحكماً كما كان منه كذلك ، ومن الذى

يتابعنى على ما أقول ؟ وكيف أصنع إذا رأيت فى الشعراء الذين أغفلهم وأهملهم من يستحق أن يكون من الطبقة الأولى وهو قد اغتصبها واحتكرها لأصحاب المعلقات فقط ؟

وخلاصة القول (١) أن تقسيم الشعراء إلى طبقات متفاوتة فى رفعة الدرجة وعلو المنزلة تقسيما صحيحاً ينزل كل شاعر منزلته التى يستحقها صعب جداً يحتاج إلى ذوق سليم وأدب غزير ونظر بعيد وتأمل طويل، وإذن مع ذلك لا أرى فائدة فى تقسيم الشعراء إلى طبقات متفاوتة ؛ لأن الإجادة لا تنتهى إلى حد معلوم ، ولأننا نستطيع فى كل وقت أن نوازن بين شاعر وآخر ولكننا لا نستطيع أن نوجد حدوداً واضحة بحيث تشمل جميع الشعراء الأولين والآخرين وتقسيمهم إلى طبقات ينفصل بعضها عن بعض بفصول بينة . فلنضرب عن هذه المسألة وإن جنح إليها المتقدمون وتكلموا عنها بما لم يجدِ نفعاً . أما إذا كان الغرض من تقسيم الشعراء إلى طبقات هو ترتيبهم فى الزمان لا فى الإجادة فلا ريب أن المعول عليه هو التقسيم الأول من التقاسيم الثلاثة .



(١) قال الرصافى فى جريدة الأمل : «ان تقسيم الشعراء إلى طبقات متفاوتة فى رفعة الدرجة وعلو المنزلة تقسيماً صحيحاً ينزل كل شاعر منزلته التى يستحقها صعب جـداً محتاج إلى ذوق سليم وأدب غزير ونظر بعيد وتأمل طويل . وأن هذه التقاسيم الثلاثة التى ذكرناها أصحها وأقربها إلى الغرض المطلوب التقسيم الثـانى فهو على علاته هو المقبول عندى حتى أجد تقسيماً أصح منه » .

آثار الرصافى

الشعر :

١ — ديوان الرصافى .
٢ — الأناشيد المدرسية .
٣ — تمائم التعليم والتربية .
٤ — المنهل الصافى من شعر الرصافى .
٥ — مع الرصافى الثائر .
٦ — درر القوافى من شعر الرصافى .

اللغة :

٧ — دفع الهجنة فى ارتضاخ اللكنة .
٨ — دفع المراق فى كلام أهل العراق .
٩ — الآلة والأداة .
١٠ - محاضرة حول التدريسات العربية .

الأدب :

١١ — الأدب العربى .
١٢ — دروس فى تأريخ آداب اللغة العربية .
١٣ — نفح الطيب فى الخطابة والخطيب .
١٤ — آراء أبى العلاء المعرى .
١٥ — نظرة إجمالية فى حياة المتنبى .
١٦ — الأدب الرفيع فى ميزان الشعر وقوافيه .
١٧ — الرؤيا .

التأريخ والاجتماع والسياسة :

١٨ — الشخصية المحمدية أو حل اللغز المقدس .

١٩ — الرسالة العراقية .

٢٠ — خواطر ونوادر .

٢١ — آراء الرصافى فى السياسة والدين والاجتماع .

التعليقات :

٢٢ — رسائل التعليقات .

٢٣ — على باب سجن أبى العلاء .

٢٤ — عالم الذباب .

المقالات :

٢٥ — جمودنا فى اللغة .

٢٦ — اللغة العربية ـ رأى جديد فى الاشتقاق والتعريب .

٢٧ — الأمثال العامية .

٢٨ — نظرة انتقادية فى الأدب .

٢٩ — نظرة إجمالية فى حياة المتنبى .

٣٠ — طبقات الشعراء .

٣١ — الشعر .

٣٢ — الشعر والشعراء .

٣٣ — حديث فى الشعر .

٣٤ — افتتاحية جريدة الأمل .

٣٥ — إلى أبناء بلادى

٣٦ — معاهدة ١٩٣٠ م .

٣٧ — مقالات متفرقة .

٣٨ — رسائل .

المصادر والمراجع

الكتب :

١ — الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث - عمر الدقاق الطبعة الثانية (حلب) ١٩٦٣ .

٢ — إحياء النحو - ابراهيم مصطفى . القاهرة ١٩٥١ .

٣ — أخبار أبي تمام - أبو بكر الصولي . القاهرة ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٦ م .

٤ — أدب الرصافي - مصطفى علي . القاهرة ١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م .

٥ — الأدب الرفيع في ميزان الشعر وقوافيه - معروف الرصافي . بغداد الطبعة الأولى ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦ م . والطبعة الثانية ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م

٦ — الأدب العربي - معروف الرصافي . الطبعة الأولى بغداد ١٣٣٩هـ - ١٩٢١م .

٧ — الأدب العصري في العراق العربي - روفائيل بطي . القاهرة ١٩٢٣ م

٨ — آراء أبي العلاء المعري - معروف الرصافي . بغداد ١٩٥٥ م .

٩ — آراء الرصافي في السياسة والدين والاجتماع - جمعها ورتبها سعيد البدري . بغداد ١٩٥١ م .

١٠ — أراجيز العرب - توفيق البكري . القاهرة ١٣١٣ هـ .

١١ — أسرار ٢ مايس ١٩٤١ ، أو الحرب العراقية الانكليزية — يونس بحري . بغداد ١٣٨٨ هـ — ١٩٦٨ م .

١٢ — الأشباه والنظائر — جلال الدين السيوطي . القاهرة .

١٣ — الاشتقاق والتعريب — عبد القادر مصطفى المغربي . الطبعة الثانية (القاهرة) ١٣٦٦ هـ — ١٩٤٧ م .

١٤ — أغلاط الكتاب — كمال ابراهيم . بغداد ١٣٥٤هـ — ١٩٣٥م .

١٥ — الأمثال البغدادية — جلال الحنفى . بغداد ١٣٨٤هـ — ١٩٦٤م.
١٦ — الأمثال البغدادية المقارنة — العميد عبد الرحمن التكريتى . بغداد ١٣٨٦ — ١٣٨٩هـ = ١٩٦٦ — ١٩٦٩م .
١٧ — بحوث أدبية — عبد الصاحب شكر . بغداد ١٩٦٥ م .
١٨ — البغداديون — أخبارهم ومجالسهم — ابراهيم الدروبى . بغداد ١٩٥٨م.
١٩ — تأريخ آداب اللغـــة العربية — جرجى زيدان . القـاهرة ١٩١١ م .
٢٠ — تحرير المرأة العراقية بين شاعرين : الزهاوى والرصافى — خضر العباسى . بغداد .
٢١ — تطور الفكرة والأسلوب فى الأدب العراقى فى القرنين التاسع عشر والعشرين — الدكتور داود سلوم . بغداد ١٩٥٩م .
٢٢ — تمـــائم التعليم والتربية — معروف الرصافى . الطبعة الثانية (بغداد) ١٩٤٩ م .
٢٣ — التيارات الأدبية فى العراق — الدكتور يوسف عزالدين . بغداد ١٣٨١ هـ — ١٩٦٢ م .
٢٤ — التيارات المعاصرة فى النقد الأدبى — الدكتور بدوى طبانة . القاهرة ١٣٨٢ هـ — ١٩٦٣ م .
٢٥ — حركات التجديد فى موسيقى الشعر العربى الحديث — س . موريه ترجمة سعد مصلوح . القاهرة ١٣٨٩هـ — ١٩٦٩ م .
٢٦ — دفع الهجنـــة فى ارتضاخ اللكنة — معروف الرصافى . الآستانة ١٣٣١ .
٢٧ — ذكرى الرصافى — سعيد البدرى . بغداد ١٩٥٩ م .
٢٨ — ذكرى الرصافى — عبد الحميد الرشودى . بغداد ١٩٥٠م .

٢٩ — دراسات فى الشعر العربى المعاصر — الدكتور شوقى ضيف . الطبعة الثانية (القاهرة) ١٩٥٩ م .

٣٠ — درر القوافى من شعر الرصافى . بغداد ١٩٦٩ م .

٣١ — دروس فى البلاغة وتطورها — الدكتور جميل سعيد . بغداد ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م .

٣٢ — دروس فى تأريخ آداب اللغة العربية — معروف الرصافى . بغداد ١٩٢٨م .

٣٣ — دلائل الاعجاز - عبد القاهر الجرجانى . تحقيق محمد رشيد رضا . الطبعة الخامسة (القاهرة) ١٣٧٢ هـ .

٣٤ — الدليل العراقى الرسمى لسنة ١٩٣٦ . بغداد ١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦م .

٣٥ — ديوان الرصافى :

الطبعة الأولى - بيروت ١٣٢٨هـ - ١٩١٠م .

الطبعة الثانية - بيروت ١٩٣١م .

الطبعة الثالثة - القاهرة ١٣٦٨هـ - ١٩٤٩م .

الطبعة الرابعة - القاهرة ١٣٧٣هـ - ١٩٥٣م .

الطبعة الخامسة - القاهرة ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م .

الطبعة السادسة - القاهرة ١٩٥٩م .

الطبعة السابعة - القاهرة بلا تأريخ .

الطبعة الثامنة - بيروت ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩م (بالأوفسيت عن الطبعة الأخيرة) .

الطبعة التاسعة - بيروت ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م .

(قام بتحقيقها الأستاذ مصطفى علي وطبع منها عدة ملازم ثم توقف الطبع لكثرة الأغلاط) .

٣٦ - ديوان الزهاوى — جميل صدقى الزهاوى . القاهرة ١٣٤٣ هـ — ١٩٢٤ م .
٣٧ - ديوان الكرخى . الطبعة الثانية (بغداد) ١٩٥٦ .
٣٨ - رسائل التعليقات . معروف الرصافى . الطبعة الثانية (بيروت) ١٣٧٦ - ١٩٥٧ م .
٣٩ - الرسالة العراقية - معروف الرصافى . (مخطوطة) نسخة الأستاذ عبدالله الجبورى أمين مكتبة الأوقاف العامة فى بغداد .
٤٠ - الرصافى - الدكتور داود سلوم - (مستل من مجلة كلية الآداب فى جامعة بغداد . الجزء التاسع ١٩٦٦ م) .
٤١ - الرصافى - عبد اللطيف شرارة . بيروت ١٩٦٠ م .
٤٢ - الرصافى (صلتى به - وصيته - مؤلفاته) مصطفى على . القاهرة ١٩٤٨ م .
٤٣ - الرصافى فى أعوامه الأخيرة - نعمان ماهر الكنعانى وسعيد البدرى . بغداد ١٩٥٠ م .
٤٤ - الرصافى اللغوى - الدكتور أحمد مطلوب . (مستل من مجلة كلية الشريعة فى جامعة بغداد الجزء الخامس ١٩٦٩ م) .
٤٥ - الرصافى الناقد - الدكتور أحمد مطلوب . (مستل من مجلة كلية الآداب فى جامعة بغداد الجزء الثانى عشر ١٩٦٩ م) .
٤٦ - الرصافى (آراؤه فى اللغة والنقد) - الدكتور أحمد مطلوب . (مستل من مجلة معهد البحوث والدراسات العربية فى القاهرة . الجزء الأول ١٩٦٩ م) .
٤٧ - الرصافى فى أوجه وحضيضه - جلال الحنفى . بغداد ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢ م .
٤٨ - سحر الشعر - روفائيل بطى . القاهرة ١٣٤٠ هـ - ١٩٢٢ م .
٤٩ - الشخصية المحمدية أو حل اللغز المقدس - معروف الرصافى . مخطوطة - نسخة المجمع العلمى العراقى فى بغداد ، وهى بخط كامل الجادرجى .

٥٠ ـ الشعر العراقى (أهدافه وخصائصه فى القرن التاسع عشر) الدكتور يوسف عز الدين . بغداد ١٩٥٨ م .
٥١ ـ الشعر العراقى الحديث وأثر التيارات السياسية والاجتماعية فيه — الدكتور يوسف عز الدين . بغداد ١٢٧٩ هـ — ١٩٦٠ م .
٥٢ ـ شعراء العراق فى القرن العشرين . الدكتور يوسف عز الدين . بغداد ١٩٦٩ م .
٥٣ ـ الشعر العراقى وحرب طرابلس — ابراهيم الوائلى (مستل من مجلة كلية الآداب فى جامعة بغداد ـ الجزء الرابع ١٩٦٤ م) .
٥٤ ـ الشعر والشعراء فى العراق . أحمد أبو سعد . بيروت . ١٩٥٩ .
٥٥ ـ الصاحبى فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها — أحمد بن فارس . تحقيق الدكتور مصطفى الشويمى . بيروت ١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٤ م .
٥٦ ـ صفحات من حياة الرصافى وأدبه — هلال ناجى ـ القاهرة ١٩٦٢ م .
٥٧ ـ عبقرية الرصافى ـ عبد الصاحب شكر . بغداد ١٣٧٧ هـ ، ١٩٥٨م .
٥٨ ـ عالم الذباب — معروف الرصافى . بغداد ١٩٤٧ م .
٥٩ ـ على باب سجن أبى العلاء — معروف الرصافى . بغداد ١٩٤٦ م .
٦٠ ـ فقه اللغة — الدكتور على عبد الواحد وافى . الطبعة الرابعة (القاهرة) ١٣٧٥ هـ — ١٩٥٦ م .
٦١ ـ فقه اللغة المقارن — الدكتور ابراهيم السامرائى — بيروت ١٩٦٨م .
٦٢ ـ فى الأدب العربى الحديث — الدكتور يوسف عز الدين . بغداد ١٣٨٧ هـ — ١٩٦٧ م .
٦٣ ـ القافلة — محمود الحبطة . بغداد ١٩٦٨ م .
٦٤ ـ قلب العراق — أمين الريحانى . الطبعة الثانية (بيروت) ١٩٥٧ م .
٦٥ ـ القومية والاشتراكية فى شعر الرصافى — هلال ناجى . بيروت ١٩٥٩م .

٦٦ - كتاب سيبويه — القاهرة .

٦٧ - كلمات فى الرصافى — وحيد بهاء الدين . بغداد ١٣٨٥ هـ — ١٩٦٥م .

٦٨ - لب الألباب — محمد صالح السهر وردى . بغداد ١٣٥١ هـ — ١٩٣٣ م .

٦٩ - لغة الشعر بين جيلين — الدكتور ابراهيم السامرائى . بيروت ١٩٦٥م .

٧٠ - المباحث اللغوية فى العراق ومشكلة العربية العصرية الدكتور مصطفى جواد — الطبعة الثانية (بغداد) ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م .

٧١ - المباحث اللغوية فى مؤلفات العراقيين المحدثين - كوركيس عواد - بغداد ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ .

٧٢ - مجمع الأمثال - الميدانى - تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد - الطبعة الثانية القاهرة ١٣٧٩ هـ - ١٩٥٩ م .

٧٣ - المجمع العلمى العراقى (نشأته - أعضاؤه - أعماله) - عبد الله الجبورى . بغداد ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م .

٧٤ - محاضرة حول التدريسات العربية - معروف الرصافى - بغداد ١٩٢٦ .

٧٥ — محاضرات عن الشعر العراقى الحديث — عبد الكريم الدجيلى . القاهرة ١٩٥٩م .

٧٦ — محاضرات عن معروف الرصافى (حياته وشعره) — مصطفى على . القاهرة ١٩٥٤ م .

٧٧ — مع أبى العلاء فى سجنه — الدكتور طه حسين . القاهرة .

٧٨ — معجم المؤلفين العراقيين فى القرن التاسع عشر والعشرين - كوركيس عواد . بغداد ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م .

٧٩ — مع الرصافى الثائر — قدم له ابراهيم العلوى . بغداد ١٩٥٩ م .

٨٠ — معروف الرصافى (حياته وأدبه السياسى) - رؤوف الواعظ . القاهرة ١٩٦١ م .

٨١ — معروف الرصافى شاعر الحرية والعروبة — الدكتور الحسينى عبد المجيد هاشم . القاهرة ١٩٦٨م .

٨٢ — معروف الرصافى (حياته وبيئته وشعره) ـ الدكتور بدوى طبانه . الطبعة الثانية (القاهرة) ١٣٧٦هـ — ١٩٥٧م .

٨٣ — مقدمة ابن خلدون . بيروت (دار الكشاف) .

٨٤ — من أسرار اللغة — الدكتور ابراهيم أنيس . الطبعة الثانية (القاهرة).

٨٥ — من شعرائنا المنسيين — عبد الله الجبورى . بغداد ١٩٦٦م .

٨٦ — المنهل الصافى من شعر الرصافى . الطبعة الثالثة (بغداد)١٩٥٧م .

٨٧ — مهرجان الرصافى — اتحاد الأدباء العراقيين . بغداد ١٩٥٩م .

٨٨ — موسيقى الشعر — الدكتور ابراهيم أنيس . الطبعة الثانية (القاهرة) ١٩٥٢م .

٨٩ الموشح — المرزبانى . القاهرة ١٩٦٥ م .

٩٠ — النثر الفنى — الدكتور زكى مبارك . الطبعة الثانية (القاهرة) .

٩١ — نظرات فى التيارات الأدبية الحديثة فى العراق ـ الدكتور جميل سعيد. القاهرة ١٩٥٤ م .

٩٢ — نظرات فى المباحث اللغوية فى العراق ـ عبد الله الجبورى (مستل من مجلة الأقلام الجزء الثانى ـ السنة الثالثة ـ تشرين الأول ١٩٦٦) م .

٩٣ — نظرة إجمالية فى حياة المتنبى ـ معروف الرصافى . بغداد ١٩٥٩م .

٩٤ — النقد الأدبى الحديث فى العراق — الدكتور أحمد مطلوب . القاهرة ١٩٦٨ م .

المجلات :

٩٥ — الأديب . بيروت .
٩٦ — الثقافة الجديدة . بغداد .
٩٧ — الجزيرة - ضياء الدين الجادر . الموصل .
٩٨ — الحرية - رفائيل بطي . بغداد .
٩٩ — عالم الغد - رفيق السيد عيسى . بغداد .
١٠٠ — العربي . الكويت .
١٠١ — المجلة الجديدة - سلامة موسى . القاهرة .
١٠٢ — مجلة كلية الآداب فى جامعة بغداد .
١٠٣ — مجلة كلية الشريعة فى جامعة بغداد .
١٠٤ — لغة العرب - الأب أنستاس مارى الكرملى. بغداد .
١٠٥ — مجلة مجمع اللغة العربية فى القاهرة .
١٠٦ — مجلة معهد البحوث والدراسات العربية فى القاهرة .
١٠٧ — الوادى . بغداد .

الجرائد :

١٠٨ — أ . حبزبوز . بغداد .
١٠٩ — الأخبار - جبران ملكون : بغداد .
١١٠ — الاستقلال - عبد الغفور البدرى . بغداد .
١١١ — الأمل - معروف الرصافى . بغداد .
١١٢ — البلاد - رفائيل بطى . بغداد .
١١٣ — الحرية - قاسم حمودى . بغداد .

١١٤ — الزمان (البلاد) ـ رفائيل بطى . بغداد .

١١٥ — شط العرب . بغداد .

١١٦ — العالم العربى ـ سليم حسون . بغداد .

١١٧ — العراق ـ رزوق غنام . بغداد .

١١٨ — العراق المسائى ـ رزوق غنام . بغداد .

١١٩ — الفضيلة . بغداد .

١٢٠ — المفيد — ابراهيم حلمى العمر . بغداد .

١٢١ — الناشئة الجديدة — ابراهيم صالح شكر . بغداد .

١٢٢ — نداء الشعب — ياسين الهاشمى . بغداد .

الموضوعات

الباب الأول

حيــــاته

١٧ — ١٤٨

صفحة

الفصل الثاني : العزلة

الفصل الثالث : العقيدة

الفصل الرابع : السياسة

الباب الثانى
آثـــاره
١٤٩ — ٢١٧

صفحة

الفصل الرابع : التأريخ والاجتماع والسياسة

الفصل الخامس : التعليقات

الفصل السادس : المقالات

الباب الثالث

آراؤه اللغوية

الفصل الأول : النزعة اللغوية

الفصل الثانى : الفصحى والعامية

الباب الخامس

مقالاته اللغوية والأدبية

٤٠٧ — ٤٩٥

الأعلام

للمؤلف

أولا — الدراسات :

١ — البلاغة عند السكاكى . بغداد ١٩٦٤ .
٢ — القزوينى وشروح التلخيص . بغداد ١٩٦٧ .
٣ — النقد الأدبى الحديث فى العراق . القاهرة ١٩٦٨ .
٤ — الرصافى ـ آراؤه اللغوية والنقدية . القاهرة ١٩٧٠ .

ثانياً — البحوث :

٥ — اتجاهات البلاغة العربية .(مجلة كلية الآداب ـ بغداد ١٩٦٢).
٦ — منهج السكاكى فى البلاغة . (مجلة المجمع العلمى العراقى — بغداد ١٩٦٣) .
٧ — القزوينى والبلاغة الحديثة . (مجلة كلية الآداب ـ بغداد ١٩٦٤) .
٨ — الرصافى الناقد . (مجلة كلية الآداب ـ بغداد ١٩٦٩) .
٩ — الرصافى اللغوى . (مجلة كلية الشريعة ـ بغداد ١٩٦٩) .
١٠ — الرصافى — آراؤه فى اللغة والنقد . (مجلة معهد البحوث والدراسات العربية ـ القاهرة ١٩٦٩) .
١١ — التفسير الأدبى ـ (مجلة الرسالة الاسلامية ـ بغداد ١٩٦٩).
١٢ — عشرات المقالات الصحفية والإذاعية .

ثالثا — التحقيق :

١٣ — ديوان القطامى (بالمشاركة) ـ بيروت ١٩٦٠ .

١٤ — شعر عروة بن حزام (بالمشاركة) - بغداد ١٩٦١ .

١٥ — ديوان قيس بن الخطيم (بالمشاركة) بغداد ١٩٦٢ .

١٦ — التمام فى تفسير أشعار هذيل مما أغفله أبو سعيد السكرى لابن جنى (بالمشاركة) بغداد ١٩٦٢ .

١٧ — فوح الشذا بمسألة كذا لابن هشام — بغداد ١٩٦٣ .

١٨ — التبيان فى علم البيان المطلع على اعجاز القرآن لابن الزملكانى (بالمشاركة) بغداد ١٩٦٤ .

١٩ — البخلاء للخطيب البغدادى (بالمشاركة) - بغداد ١٩٦٤ .

٢٠ — دور الأدب فى معركة التحرر والبناء - وقائع مؤتمر الأدباء العرب الخامس وبحوثه - جزءان (جمع وتنسيق وتبويب وتقديم) - بالمشاركة - بغداد ١٩٦٥ م .

٢١ — ديوان ديك الجن (بالمشاركة) - بيروت ١٩٦٦ .

٢٢ — من شعر أبى حيان الأندلسى (بالمشاركة) بغداد ١٩٦٦ .

٢٣ — البرهان فى وجوه البيان لابن وهب (بالمشاركة) بغداد ١٩٦٧ .

٢٤ — الجمان فى تشبيهات القرآن لابن ناقيا البغدادى (بالمشاركة) بغداد ١٩٦٧ .

٢٥ — ديوان أبى حيان الأندلسى (بالمشاركة) - بغداد ١٩٦٩ .

رابعا — الكتب المدرسية :

٢٦ — النصوص الأدبية للصفوف الرابعة التجارية (بالمشاركة) بغداد ١٩٥٧ .

٢٧ — قواعد اللغة العربية للصفوف الرابعة التجارية (بالمشاركة) بغداد ١٩٥٧ .

٢٨ — قواعد اللغة العربية للصفوف الخامسة التجارية (بالمشاركة) بغداد ١٩٥٨ .

٢٩ — لغتي للصفوف الخامسة الابتدائية (بالمشاركة) بغداد ١٩٥٩ (طبع عدة مرات) .

٣٠ — لغتي للصفوف السادسة الابتدائية (بالمشاركة) بغداد ١٩٥٩ . (طبع عدة مرات) .

تصويبات

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
طوبلا	طويلا	٧	٣
عداون	عدوان	٩	٢٤
أجرَّ	أجرُّ	٢٣	١٤
أربعـُها	أربعَها	٤٩	١١
من تجنب	من شاعر تجنب	٥١	٢
تشرين الثانى	تشرين الأول	٧٥	٢٣
١٣	٣١	٧٨	١٨
بأحزن	بأحزان	٨٩	٩
سلطان	وسلطان	٨٩	٢٢
١٩٢٢	١٩٢٣	١٠٢	٢٤
مفسَد	مفسِد	١٠٧	٣
بأمرٍ	بأمرِ	١٠٨	٧
حملٌه	حملُه	١١٤	٣
الدحى	الدجى	١١٤	١١
اليها منهم	اليها الكثيرون، منهم:	١٤٨	١٢
١٢٢٨ هـ	١٣٢٨ هـ	١٥٤	١٢
الباطل	الباطن	٢٢٩	١
تصبح	نصبح	٢٣٦	٢
العرب	لغة العرب	٢٣٩	٢١
بن مالك	ابن مالك	٣٠٥	٩
وقبح وخير وشر	وقبح (فقط)	٣١٤	١٥
تجر	تجرور	٣١٩	١٥
١٩٦ ـ ٢٣٩	١٩٦	٣٢٣	٢٣
به عن تلك	به تلك	٣٣٨	٧
رأية	رأيه	٣٥٥	٩
أراجيز العرب	أراجيز العرب ص٣	٣٥٥	٢٣
الموزن	الموزون	٣٦٥	١٢
وتعـد	وتعددت	٣٦٩	٨
غيره آخر وفى	غيره وفى	٣٨٢	٦
صالح الشريفى	صالح الشريف	٣٩٨	١٠

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٧٠/٢٠٦٧

مطبعة الجبلاوى ٢٠٢ شارع الترعة البولاقية